

Dawriyyat Kān al-Tārīẖiyyat

أول دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م

Historical Kan Periodical

UIF
AIF
DOI
Ulrichs
EBSCO
ناشري

السنة الثانية عشرة
العدد الخامس والأربعون
سبتمبر ٢٠١٩ – محرم ١٤٤١





ISSN: 2090 - 0449
www.kanhistorique.org

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء



دورية كان التاريخية.- س١٢، ع٤٥ (سبتمبر ٢٠١٩/ محرم ١٤٤١)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīḫiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 12, no. 45 [Septemebr 2019]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: www.kanhistorique.org/Archive/2019/Issue45

تصنيف ديوي العشري – مقالات ودراسات ع٤٥ سبتمبر ٢٠١٩

٩٠٩,٠٧ الحروب الصليبية
٩٥٣ التاريخ العام للعرب والمسلمين
٩٥٣,١ المملكة العربية السعودية
٩٥٣,٠٧١ تاريخ الأندلس
٩٦٠,٠٤ تاريخ أفريقيا (العام والخاص)
٩٦٤,٠٩ تاريخ المغرب الحديث
٩٦٥ تاريخ الجزائر – الاحتلال والاستقلال

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠١٩.

دورية إلكترونية مُحَكّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار
٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2019.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر ٢٠٠٨م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

www.kanhistorique.org



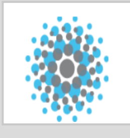
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org

كُتّاب الدورية	483
الدول العربية والأجنبية	28
الجامعات والمؤسسات الأكاديمية والعلمية	142
المقالات والدراسات المنشورة في الدورية	866

المشرف العام

أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة – المملكة المغربية

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

الهيئة الاستشارية

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

الهيئة العلمية

هيئة التحرير

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

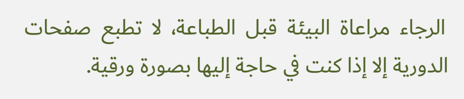
إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.







حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المّحَكّمة

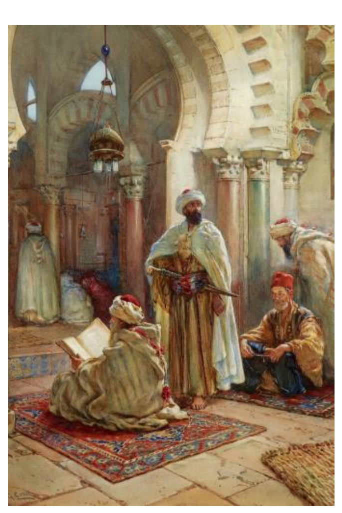
مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد

أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



Prayer at the mosque

Giuseppe Carosi
(Italian, 1883-1965)

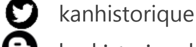
المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

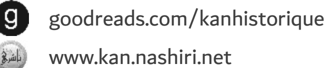
mr.ashraf.salih@gmail.com


historicalkan


groups/kanhistorique


kanhistorique


kanhistorique.blogspot.com


goodreads.com/kanhistorique

www.kan.nashiri.net



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشَر

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفة الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجها في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**

يراعى أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَشَر

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخِية أربع مرات في السنة:
- (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني:
  info@kanhistorique.org
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
  mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

النقد التاريخي
ودوره في إبراز الحقائق التاريخية

د. حياة تابتي
أستاذة محاضرة تاريخ حديث ومعاصر
قسم التاريخ -جامعة أبي بكر بلقايد
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

إن أولى القواعد المنهجية تفرض على الباحث في التاريخ خاصةً، أن يبحث على الوثائق ويجمعها، لأن الوقائع الماضية لا نعرفها إلا بما بقي لنا من آثار عنها. صحيح أن المؤرخ يلاحظ هذه الآثار مباشرة، وتسمى الوثائق، لكنه ليس لديه بعد ذلك ما يلاحظه، وعلى أساس جمع الوثائق الذي يدخل ضمن جمع المادة الخبرية، على هذا الأساس يتوقف النجاح أو الفشل في الموضوع المراد دراسته، بل ابتداءً من هذه النقطة يسلك مسلك الاستدلال، محاولاً أن يستنتج الوقائع من الآثار الباقية على أصح وجه ممكن، لأن الخطوة الثانية وهي الدراسة والنقد تتوقف على ما جمع من وثائق بوجه خاص، إذ يعتمد الدارس على المنهج النقدي القائم أساسًا على الاستدلال أي البرهان بواسطة الاستقراء. والتحليل المفضل للاستدلالات التي تقود من المشاهدة المادية للوثائق إلى معرفة الوقائع، هو جزء من الأجزاء الرئيسة في المنهج التاريخي، إنه ميدان النقد. والتقيد بهذا المنهج شرط أساسي للوصول قدر المكن إلى حقائق تقريبية وغير خاطئة، وللوصول إلى ذلك على المؤرخ أن يتأكد من صحة الوثيقة تاريخيًا وفهمها، وهوما يُسمى بالنقد، والقائم على عدة معايير تنحصر في نوعين من النقد، هما: النقد الخارجي والنقد الداخلي.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٥ يوليو ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ١٠ أكتوبر ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

الدراسة التاريخية، الوثيقة، المنهج، النقد الخارجي، النقد الداخلي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055839

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حياة تابتي. "النقد التاريخي ودوره في إبراز الحقائق التاريخية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة -العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص١٠ – ١٧.

مُقَدِّمَة

إن الوثائق التاريخية لا يمكن التسليم بها مطلقًا، ولا يمكن أن نستقي معلومات منها باعتبارها مصدر يقيني، ولا يمكن القول إنها تتكلم بموضوعية ودقة عن مجريات الزمن الماضي. وعملية نقد الوثيقة التاريخية هي عبارة عن بحث في نقد الأصول، وتحري الحقائق التاريخية وإيضاحها وعرضها. وتهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على أهمية استخدام منهج النقد في مختلف الدراسات التاريخية للتوصل إلى الحقيقة. أي أنه يوضح المعلومات، هل هي سليمة أم مزيفة؟ وهي صحيحة أم غير صحيحة؟ وإذا وجدت أخطاء، فهل هي متعمدة أم لا؟ وعلى الرغم من أهمية الموضوع فإنه لم يحظ باهتمام كبير من قبل المؤرخين، ما عدا البعض منهم، والذين عالجوا الموضوع بصورة عامة في سياق "منهجية البحث التاريخي". ومن هنا نجد أن النقد التاريخي يقوم على تحليل المعرفة التاريخية وتركيبها، أي أنه يقوم بمرحلتين التحليل ثم التركيب، والتحليل لا يتم إلا بعد القيام بمرحلتين نقديتين هما: النقد الخارجي والنقد الداخلي. وقد اقتصرنا في هذه الدراسة على إبراز

مرحلتي النقد، دون أن نتعرض للتحليل والتركيب. وقبل الحديث عن مراحل النقد، لابد من الإشارة إلى مفهوم النقد التاريخي.

أولاً: مفهوم النقد التاريخي

هو التحقيق مع النص الذي بين أيدينا، وفيه حساسية ودقة، والنقد عملية فكرية لتقويم وضبط النص، وتقرير أصالته ومصداقيته، وقبوله كحقيقة علمية. وهذا يتطلب التحقيق من الوضع السليم لحواس الكاتب عند رؤيته أو كتابته للحدث الموجود في النص قيد النقد، ثم ينتقل الباحث إلى تحليل الحدث، فيسأل: هل كان الكاتب فعليًا في مكان الحادث؟ هل رآه جزئيًا أو كليًا؟ فإذا لم يره فلابد من التحقيق من الرواية للحدث وطريقة الإسناد، فإذا كانت خطية أخضعت للنقد والتحقيق، وذلك بالبحث عن أدلة وشواهد جديدة، والتأكد من صحتها عن طريق المقارنة مع روايات أخرى حتى يصل الباحث إلى التثبت من أن الدراسة صحيحة وليست مزورة، أما إذا كانت الرواية للحدث التاريخي شفهية فهي مشكوك بها لأنها عرضة للتغيير[١].

إن النقد التاريخي ليس عملية هينة، فكل من يمارس النقد يدرك خطورة المهمة التي ينهض بها. فعليه أن يدعم أحكامه بالحجج السليمة سواء كانت هذه الأحكام مدحا أم قدحا. ولا يتأتى للناقد هذا إلا إذا كانت له ثقافة واسعة وفهم عميق للموضوع الذي هو بصدد نقده، وخبرة شاملة في المقارنة بين الأمثلة والنماذج بحيث يستطيع أن يستخلص منها ارتباطات لا يراها غيره. فالقضية إما أن تكون صادقة أو كاذبة شئنا ذلك أم لم نشأ، رغبنا أم لم نرغب فيه. فصدقها وكذبها أمر مستقل عن رغبتنا ومشيئتنا. ينضاف إلى هذا، أن الباحث يسعى إلى الحقيقة فلا بد له من أن يتحرر من التناقض، ويسعى إلى الوضوح والصدق[٢].

لقد كان أكثر المؤرخين المسلمين طيلة القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وحتى القرن الرابع وما بعده، يقتصرون في تاريخهم على مجرد الرواية فحسب دون النقد والتفسير والتعليل، وهذا لاتصال التاريخ الإسلامي في بداية نشأته بالدين. ويظهر هذا بوضوح عند "الطبري"، ولقد اعتذر في مقدمة تاريخه عنه وحدد وظيفة المؤرخ في عصره، وتتلخص في أنه ناقل أمين لا ناقد، فحسبه صدق النقل لا صحته، والصدق هنا يرجع إلى السند لا إلى المتن. وتعتبر معلوماته من أوثق المعلومات، فقد أدلى المؤرخ "المسعودي" برأيه في تاريخ "الطبري"، فقال: «إنه الزاهي على المؤلفات، والزائد على الكتب المصنفات، قد جمع أنواع الأخبار، وحوى فنون الآثار، واشتمل على ضروب العلم، وهو تكثر فائدته، وتنفع عائدته»[٣]. ولا بد من الإقرار بأن "الطبري" رغم كل الانتقادات التي وجهت إليه، فهو مؤرخ من الطراز الأول اعتمد عليه الكثير من المؤرخين، أمثال "ابن الأثير"، حيث أخذ عليه طريقة التعويل على الروايات، بقوله: «ذكر (أي الطبري) الحوادث روايات ذوات كل رواية مثل التي قبلها أو أقل منها، وربما زاد الشيء اليسير أو أنقصه»[٤].

ولكن بعد فترة زمنية ليست بالقصيرة جاء "ابن خلدون"[٥] في القرن الثامن الهجري ووضع نظرية في النقد التاريخي، يضمن أنه سبق بها كثيرا من فلاسفة التاريخ ونقاده في العصر الحديث. وهذه النظرية تقوم على الشك في المعرفة التاريخية القديمة، وفي منهج المؤرخين المسلمين، الذي يقوم على الرواية والنقل فحسب دون النقد والتفسير والتعليل، ولا يكفي في التاريخ مجرد الرواية بل لا بد من النقد، وبذلك يفطن "ابن خلدون" إلى المرحلة الثانية من النقد التاريخي، وهي التركيب، ويحاول الربط بين مهمة الناقد ومهمة المؤرخ كما هي عليه في العصر الحديث[٦]. ويجدر بنا الإشارة أيضًا إلى بداية النقد في أوربا ومدى تطورها.

إن التطور في المعرفة التاريخية كان إما تراكما للمعارف والوثائق، وإما جزءا من فلسفة وأخلاق وسياسة. ولم تشهد مراحل هذا التطور منهجا تاريخيا نقديا إلا عبر أعمال ثلاثة، يشير إليها مؤرخو تطور علم التاريخ في أوربا بوصفها بوادر النقد التاريخي الذي مهد لوضع ضوابط البحث العلمي في مجال التاريخ.

- مقدمة هوميروس للناقد الأدبي واللغوي الألماني "ف.أ.ولف" (١٧٥٩-١٨٢٤ م) الذي رأى بناءً على نظرة نقدية تاريخية، أن الإلياذة لم يكتبها هوميروس ولا رجل واحد آخر، ولكن تتابعت على نظمها جماعة من الشعراء، في فترات متعددة من الزمن.
- الاقتصاد السياسي، في أثينا لعالم اللغة الألماني "أوغست بوخ" (١٧٨٥-١٨٦٧م) الذي اتبع في كتابه منهج ولف النقدي.
- تاريخ الرومان للمؤرخ الألماني "نيبوهر" (١٧٧٦-١٨٣١م)، الذي اتبع منهج نقد النصوص في تجديد وإحياء التاريخ الروماني، وهو الذي مهد لنشوء

المدرسة التاريخية الألمانية النقدية التي تزعمها ليبولد فون رنكه.

- وفي فرنسا نشأت مدرسة الوثائق (١٨٢١م) التي ستؤذي دورا رئيسيا في انطلاق التأريخ الأوربي على قاعدة استخدام الوثائق استخداما نقديا، والتي سيبرز عبرها معظم كبار المؤرخين الفرنسيين على امتداد القرن التاسع عشر الميلادي، وكان أن امتد تأثير هذا المنهج النقدي في استخدام الوثائق التاريخية، إلى أمريكا وبريطانيا والبلدان الأوربية الأخرى[٧].

يظهر لنا مما سبق، أن النقد التاريخي ظهر عند المسلمين وكذلك عند الأوربيين على فترات مختلفة، وهذا يوضح لنا أهمية الاعتماد على منهج النقد في الدراسات التاريخية لدى المؤرخين من مختلف الدول في العالم، وضرورة التأكد من صحة الأحداث التاريخية بمختلف الوسائل، وعدم الاكتفاء بالرواية والنقل فقط، وهذا ما سنتطرق له في موضوعنا.

ثانيًا: نقد الأصول التاريخية

إن عملية النقد تتلو جميع الأصول والمصادر أو تصحبها، فالمؤرخ لا يأخذ هذه الأصول على علاتها، بل يعمد إلى أساليب من النقد والتحقيق والتمحيص، وفحص كل منها لتقدير قيمته ومدى الركون إليه في تسجيل أحداث الماضي، وإثبات صحة الأصل والتثبت من خلوه من كل دس أو تزوير أو تحريف. وهذه الأساليب النقدية متعددة ومتتابعة، تنقسم عادة إلى قسمين رئيسيين: النقد الخارجي والنقد الداخلي[٨].

١/٢-النقد الخارجي

يمر الباحث للوصول إلى الحقيقة بمراحل، ولكن لتحقيق ذلك عليه بإتباع منهج معين، وهو المنهج التاريخي فهو ذو أهمية خاصة للمؤرخ، ويمكن تعريف منهج البحث التاريخي بأنه عملية الفحص أو التحليل الدقيقين لسجلات الماضي ومخلفاته. والمنهج التاريخي هو مشاركة التاريخ لكثير من العلوم في السعي وراء استخراج القوانين والقواعد العامة التي وافقت مسيرة التاريخ، فإن المنهج هوما يتبعه المؤرخ في جمع مادته ونقدها وتحليلها وتفسيرها وصولاً إلى مرحلة التأليف التي هي المرحلة الأخيرة من المنهج، وهنا ينبغي على المؤرخ قبل كل شيء أن يعنى بجمع الأصول والوثائق المتصلة بموضوع دراسته. والمصادر بأنواعها تختلف قيمتها بحسب الفترة الزمنية المراد بحثها، أو الناحية المقصودة من نواحي الماضي[٩].

وأما إذا كانت للوثيقة أكثر من نسخة فيجب على الباحث أن يلتزم قدر الإمكان بالقواعد مع ضرورة العمل بتطبيق المنهج المقارن بين هذه النسخ[١٠]، لذلك إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها، هذه قاعدة عامة لا موضع للجدال فيها، وذلك أن التاريخ لا يقوم إلا على الآثار التي خلفها السلف وبفقدها يجهل تاريخ عصرها ورجالها، أما إذا بقيت وحفظت فقد حفظ التاريخ فيها. لهذا يرى المؤرخون لزاما في أعناقهم، قبل كل شيء، أن يتفرغوا للبحث والتفتيش عن شتى الآثار التي تخلفت عن السلف وجمعها، والتي اصطلح أن يسميها الباحثون المعاصرون أمثال "أسد رستم" وغيره أصولاً[١١].

إذا جمعنا عن موضوع معلوم، معظم الوثائق المفيدة، إن لم تكن كلها. فالأمر بين إحدى الحالتين: (أولاً: يجب أن نكون قادرين على التحقق مما إذا كان النقد قد تم على الوجه السليم، وثانيًا: يجب أن نقوم نحن بأنفسنا بالنقد)، وفي كلا الحالتين لا غنى عن بعض العلوم المساعدة، كما يقال لها من الأهمية ما لمادة التفكير المستقيم، إذ لو أخطانا أثناء العمليات النقدية بإساءة التفكير، فإنه من الممكن كذلك أن نخطئ بسبب الجهل، ولهذا يجب أن يتكون التعليم الفني للمؤرخ؟ فماذا نعني بهذا القول. لنفرض أن لدينا وثيقة مكتوبة، فكيف نستفيد منها إذا كُنا لا نستطيع قراءتها؟ ولنفرض أن الوثيقة أمكن قراءتها، فكيف نستفيد منها إذا كنا لا نستطيع فهمها؟، وما أكثر الأخطاء التاريخية التي ترجع إلى سوء الفهم أو التفسير التقريبي للنصوص الصريحة، من جانب باحثين لا يحسنون معرفة نحو اللغات القديمة وألفاظها أو معانيها الدقيقة[١٢].

ومن هذا المنطلق، بعد جمع الأصول لا بد للمؤرخ المدقق، كي يتمكن من الوصول إلى الحقيقة من دراسة العلوم الموصلة، وأهمها: علم التراجم وتعتبر جزءًا من المؤلفات التاريخية، وربما كانت أقدم نماذج التعبير التاريخي وأثبتها، وقد تتباين كتب التراجم من حيث موضوعاتها، بيد أن عنصرا مشتركا يجمعها، ألا وهو تواريخ وفيات الأشخاص المترجم لهم، والتي يمكن معرفتها أو التوصل إلى تحديدها[١٣]،اللغات فلابد من معرفة اللغة الأصلية الخاصة بالموضوع التاريخي المراد بحثه والكتابة عنه، فتاريخ اليونان يحتاج لغة

غير تاريخ فرنسا، وكلما تعددت اللغات القديمة أو الحديثة اتسع أفق البحث. الفيولوجيا أي فقه اللغة، لأن اللفظ اللغوي قد يدل على معنى معين، وقد تدل كلمة واحدة على معاني متفاوتة، وتبدو هذه الظاهرة شديدة الأهمية في دراسة التاريخ. وعلم قراءة الخطوط من العلوم الأساسية لدراسة نواح كثيرة من التاريخ منذ أقدم العصور، ودراستها تجنبه الوقوع في الخطأ، لاسيما في تاريخ الرومان، وتاريخ العصور الوسطي، وقد تنوعت الخطوط العربية منها الفارسي والمغربي، وهناك خطوط أوربية وغير أوربية تكون عبارة عن شفرة غير مفهومة. علم الوثائق فهي الكتابات الرسمية أو شبه الرسمية، مثل الأوامر والقرارات والمعاهدات والاتفاقيات والكتابات التي تتناول مسائل الاقتصاد والتجارة. دراسة الأختام منها الأختام المعدنية وأختام الشمع والذهب، فلابد من معرفة أنواعها وأشكالها فتفيدنا للتأكد من صحة الوثيقة. علم الرنوك هي وضع علامات خاصة لمختلف الموظفين كالوزراء والقضاة والرهبان وبعض المدن للتمييز بينهم، وصارت توضح هوية الأشخاص. علم النميات أي علم النقود والمسكوكات[١٤]، فالعملة مرتبطة بتطور الدولة وتدل على نهضتها [١٥]. الجغرافيا مرتبطة مع التاريخ، فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ ولها أثر كبير في توجيه مصائر النوع الإنساني، فالظواهر الجغرافية مؤثرة على الأحداث. الأدب له وثيق الصلة بالتاريخ، فهو تعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه. فن الرسم والتصوير والنحت والعمارة فهي تعكس صور دقيقة عن حضارات البلاد، وتبين حياة أهلها وتقاليدهم وأمانيهم[١٦].

وبالإضافة إلى ذلك هناك علوم أخرى لا تقل أهمية عنها لابد من الاعتماد عليها، وهي علم الاقتصاد فهو المحرك الأول لمسيرة التاريخ عبر الأزمان. فالجانب الاقتصادي هو الذي يتناول قوى الإنتاج وعلاقاته ووسائله وأهدافه، كما يضع أمام المؤرخ صورة متكاملة للظواهر الاجتماعية في أحد جوانبها الرئيسية[١٧].علم الاجتماع يُعَدّ من العلوم الهامة، وقد استفاد المؤرخ من هذا العلم لدراسة ظواهر بعض الأحداث (ثورات، حروب) بالواقع التركيبي والتوزيع المهني في البلد. علم النفس وهو دراسة العوامل النفسية والنوازع البشرية، فهناك العديد من النظريات النفسية والاجتماعية التي تساعد في تحليل الحدث والشخصيات[١٨]. الفلسفة يجب على المؤرخ التضلع منها للاستبصار بنورها، والتذرع بوسائلها واستنتاجاتها في فهم الماضي وإيضاحه[١٩]. علم السياسة والدراسات الحقوقية فالأول مرتبط بالتاريخ من ناحية إمداده بالوقائع السياسية، أما الثاني فيهتم بدراسة القوانين القديمة والتشريعات والدساتير الحديثة[٢٠].

يجب التمييز بين العلوم المساعدة التي ظهرت على مختلف العصور التاريخية، لأنه لا توجد معارف مساعدة للتاريخ بوجه عام، أي تفيد كل الباحثين على السواء أيا كان الجزء من التاريخ الذي يتناولونه بالدرس. وللإجابة عن هذا السؤال: مم يجب أن يتألف الإعداد الفني للمؤرخ؟ فهو يتوقف على الجزء من التاريخ الذي يرجع إلى دراسته، فلا فائدة مثلا من معرفة علم الخطوط القديمة لمن يريد أن يقوم بأبحاث تتعلق بتاريخ الثورة الفرنسية، ولا من معرفة اللغة اليونانية لدراسة نقطة في تاريخ فرنسا في العصر الوسيط [٢١]. وعلى هذا الأساس فإن كل علم يستخدم في مكانه المناسب.

وعند انتهاء المؤرخ من دراسة هذه العلوم عليه أن يتأكد أولا من أصالة الأصول، ويتثبت من خلوها من كل دس أو تزوير. أصلية إذا أم مزورة؟، فلنبدأ بالظاهر الملموس ولندقق بالورق أولا ثم ننتقل بعد ذلك إلى الحبر والقلم فالخاتم فعادات المراسلة في ذلك العهد فاللغة فالأسلوب. والدليل الباطني على صحة الوثيقة متنوع أيضا[٢٢].

تنطلق عملية النقد الخارجي من محاولة الإجابة على هذا السؤال: هل الوثيقة صحيحة؟، لأن في الإجابة على هذا السؤال يتم تحقيق الوثيقة، ومعرفة مواطن التحريف أو التزييف. وأيضا يتم التعرف على الوثيقة (المصدر) ما إذا كانت أصلية أو نسخة فرعية. وفي حالة ما إذا كانت نسخة فرعية تكون مهمة النقد أكثر صعوبة نظرًا لما تحتويه من أخطاء متنوعة. ولإجراء النقد الخارجي على الباحث المحقق أن يكون ملما بمجموعة من الضوابط والقواعد، كان يكون ملما بكل دقائق الفترة التاريخية التي عاشت فيها الوثيقة وتطور فنونها أي معرفة تطور الخط والتأليف[٢٣]. ومن الخطوات التي يمر بها المؤرخ[٢٤] أثناء عملية النقد التاريخي، هي:

أولاً: التعرف على المؤرخ المجهول وتعيين الزمان والمكان. إذا أثبتنا صحة الأصل وخلوه من كل دس أو تزوير، فهل ننقاد إلى نصه وننزل على حكمه؟ أم

نمتنع عن ذلك، إلى أن نثبت هوية المؤرخ ونتعرف إلى شخصيته، وندرس المكان الذي عاش فيه، والزمان الذي دون فيه أخباره؟ أوليس من فرق، في قبول الشهادة وردها، بين رواية رئيس حكومة، عن أعماله في أثناء قيامه بأعباء الوظيفة، ورواية لحام عن الأعمال نفسها؟ أوبين رواية دونت في أثناء وقوع الحوادث المروية، وغيرها دونت بعد وقوع الحوادث بربع قرن من الزمن؟ بلى فمن الضروري أن نتعرف إلى شخصية المؤلف[٢٥]، ولا بد أن نتساءل عن المؤلف، لأن قيمة الأصل تتبع مكانة واضعه. مَنْ هو؟ هل هو ذلك الذي تدعي الوثيقة أنها من تأليفه، أم شخص آخر؟ وبعبارة أخرى، هل الوثيقة صحيحة أم مزورة، وما هو مبلغ الدس، والتحريف فيها، وهل هي من وضع مؤلف واحد أو أكثر، وما هي الأقسام الخاصة بكل منهم؟ ففي العصر الحديث لا يثير هذا السؤال أي إشكال، لأن أسماء المؤلفين ظاهرة على كتبهم، ولكن وصلنا من العصور القديمة والوسطى عددا من الأصول والمخطوطات المجهولة المؤرخة أو المنتحلة، أو التي حاول بعضهم التلاعب بنصوصها تبديلاً وإضافة وحذفاً وتصحيحًا أو شرحًا وتعليقًا، وذلك لأغراض متباينة. فوجب على الباحثين التحقيق على هؤلاء المؤرخين والتثبت من شخصياتهم، ومن نزعاتهم ودرجة علمهم وذكائهم، ومدى اتصالهم بالحوادث التي يروون أخبارها وزمن كتابتها[٢٦].

ولا بد من الوقوف على الزمن الذي كتبت فيه هذه الأخبار والمكان الذي سطرت فيه. وفي هذه الحالة بإمكان المؤرخ المدقق إذا أن يستعين بمضمون أصل من الأصول للتعرف إلى شخصية مؤلفه، وإلى المكان الذي ألف فيه وزمن التأليف. وبإمكانه أيضًا أن يتذرع بأخبار غيره من المعاصرين للتأكد مما تقدم أو لزيادة التعيين والتحديد. وقد تخفق آمال المؤرخ في تعيين شخص المؤلف المجهول، وتحديد الزمن الذي كتب فيه والمكان الذي عاش فيه، وهنا يجب عليه أن يعين التاريخ الذي لا يمكن أن تكون الحوادث قد وقعت قبله، والتاريخ الذي لا يمكن أن تكون الحوادث نفسها قد وقعت بعده[٢٧].

ثانيًا: تحري النص والمجيء باللفظ، وقد حدد " ابن خلدون " قواعد البحث في التاريخ، فيقول: أما بعد: «فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشد إليه الركائب والرحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال (الرؤساء)، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال. إذ هو في ظاهره لا يزيد عن إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيه الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرق بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل، للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها»[٢٨]. لأن التاريخ علم في تحريه الحقيقة وكعلم يطلب الحقيقة كما هي، والأصول هي صلة المؤرخ الوحيدة بحوادث الماضي والأصول التاريخية، من حيث تحري النص والمجيء باللفظ، وتكون على وجوه ثلاثة:

١-إما أن يكون الأصل بذاته أمامنا بخط واضعه أو بتصديقه (وعليه أن يبقيه كما هو بحروفه وغلطاته، لأن ما يصحح اليوم ويحسب تقويمًا قد يمكن أن يكون اعوجاجًا وتضليلاً. وإذا بقيت الأصول التاريخية على حالها الأول، سهل على الباحث إدراك ما وصل إليه رواته من العلم والرقي).

٢- إما أن يكون الأصل مفقودا ولم يبقى منه سوى نسخة واحدة (وهنا على المؤرخ المدقق، الذي يود تحري النص الأصلي والمجيء بلفظ المؤلف، أن يبدأ بدرس هذه النسخة درسا وافيا من جميع نواحيها ثم ينتقل إلى ترجمة مؤلفها، فالمصادر التي أخذ عنها وتآليفه الأخرى. وعليه أن يتعرف إلى أشهر كتاب العصر الذي عاش فيه المؤلف ولا سيما زملائه في الموضوع).

٣- إما أن يكون الأصل قد فقد أيضا، وبقيت عنه نسخ متعددة (وفي مثل هذه الحال، يجتهد المؤرخ المدقق في نبذ بعض هذه النسخ، إذا ظهر له أن ذلك البعض يعتمد على سابقه، ثم يقيم النسخ الباقية إلى فصائل متخذًا الأغلاط المشتركة بينها قاعدة لهذا التقسيم. لأنه ليس من المرجح أن يجمع النساخ على غلطة ما. إلا ويكون أحدهم قد أخذ عن سابقه. ثم يحاول المؤرخ استعادة اللفظ الأصلي بالمقابلة بين النسخ الباقية، وما يكون قد نبع من روح المؤلف وذوق معاصريه).

يجدر بالمؤرخ المدقق بعد أن يكون قد جمع الأصول وتمكن من العلوم المساعدة إلى فهمها ونقدها، أن ينسق ما جمعه ويتبع خطة رشيدة في

استخلاص المعلومات منها. كما يترتب على المؤرخ أن يبتعد كل البعد عن الدفاتر والأوراق المجلدة، لأنه إذا دون ما يستخلصه من الأصول في دفتر أو تعديله قبل الانتهاء من مهمة التأريخ فهي تعيقه عن التوسع. أما إذا ابتعد عن كل ما يمت إلى المجلدين بصلة، واتخذ للتدوين أوراقاً منثورة، انطلقت يده في العمل، وأصبح حرا، يزيد متى يشاء، ويقدم ويؤخر ما يشاء. ويجب على المؤرخ أن يجعل من هذه الأوراق فهرسا عاما للأصول نرتبها ترتيبا أبجديًا، كما يجب ترتيب النصوص على أساس تواريخها ضروري في غالب الأحيان. ومن المستحسن أن يتفنن المؤرخ في الأسس التي يتخذها للتصنيف والتنسيق، سواء أكانت زمنية أم جغرافية أم غير ذلك.

٢/٢-النقد الداخلي

بانتهاء المؤرخ من نقد الأصول، ينتهي النقد الخارجي وينتقل المؤرخ من ظاهر النص ومجرد اللفظ إلى باطن الكلام، وفهم المعنى فيشرع في النقد الداخلي. والنقد الداخلي في مصطلح التاريخ على نوعين نقد داخلي إيجابي ونقد داخلي سلبي. فالإيجابي يفسر النص ويظهر معناه. والسلبي يكشف الستار عن مآرب المؤلف، ودرجة تدقيقه في الرواية[٢٩].

(٢/٢) ١-النقد الإيجابي:

يري أصحاب النقد التاريخي، أن تفسير النص [٣٠] يكون على وجهين، أولهما: تحديد المعنى الحرفي للنص، ولا يتم هذا إلا بشرح كل كلمة، أو لفظة غريبة، وردت في النص على حدة شرحًا لغويًا. وثانيهما: تحديد المعنى الحقيقي، أو الإجمال للنص، ولا يتم هذا أيضًا إلا بتحليل مضمون النص، لمعرفة الأفكار الأساسية، التي اشتمل عليها النص[٣١]. كما يجب على المؤرخ المدقق أيضًا، أن يلم أولا بلغة الأصل الذي يدرس. وعليه أن يجيد فهم هذه اللغة، كما عرفت واستعملت في العصر الذي عاش فيه راوي الرواية. فمعاني المفردات تتطور وتتغير أحيانًا مع الظروف وتغير الأحوال، وإذا شعر المؤرخ بشيء من الشك، ولم يجد التفسير في النص نفسه، ولا في مؤلفات المؤلف الأخرى، رجع في ذلك إلى أقوال الزملاء المعاصرين.

(٢/٢) ٢-النقد السلبي:

كان النقد الداخلي السلبي ضرورة عملية لتحقيق صحة الوقائع، واستبعاد الزائف منها، وهذا النوع من النقد يساعدنا على إدراك غرض المؤلف، ويظهر مقدار ما عنده من العدالة والضبط أو ما ينقصه منهما، كما ينحصر شك المؤرخ في سلسلتين أساسيتين من الأسئلة، فالسلسلة الأولى تتعلق برأي الراوي في حقيقة ما يروي لأنه يموه الباطل ويزين الخطأ. فيترتب على المؤرخ أن يتساءل عن أمور عدة منها ما يأتي:

- هل لراوي الرواية مصلحة فيما يروي؟
- هل خضع الراوي لظروف قاهرة أكرهته على النطق بالباطل؟
- هل عاش الراوي مع فئة معينة من الناس حتى اضطر عن قصد أوعن غير قصد، أن ينتمي إليها ويناصرها؟
- وهل اندفع بشيء من الغرور ليحيد عن الحق؟
- هل حاول الراوي أن يتودد إلى جمهور الناس؟
- إشارة إلى عين الأسلوب الأدبي في الرواية؟

وهناك سلسلة ثانية، وأهمها:

- هل كان الراوي يتمتع بحواس سليمة وعقل صحيح؟
- هل تمتع الراوي بجميع شروط المشاهدة العلمية؟
- هناك حقائق كان بإمكان الراوي أن يشاهدها ويفهمها لو كلف نفسه مؤونة البحث عنها؟
- هل روى الراوي ما لا تكتمل معرفته بمجرد المشاهدة الشخصية؟

إن ما تذرعنا به من وسائل النقد والغربلة لم يثبت لنا الحقائق التاريخية، ولكنها مكنتنا من المفاضلة بين الرواة، وتعيين درجاتهم على الشكل التالي: أولاً تقبل روايته، وآخر ضعيف الرواية مجهول المكانة، وثالث هو أولاهم في انتباهنا لسماع روايته، ولكنه على هذا يظل موضوعا للنظر والاختيار، لذلك لابد من متابعة البحث للوصول إلى سلامة الاستنتاج[٣٢]. وعليه أولاً أن يبتعد كل الابتعاد عن الروايات التي انفرد بها راو واحد. وقد تتعدد الروايات التاريخية في أمر واحد فتتوافق أو تتناقض، وحيث تتناقض يحسن بالمؤرخ أن يؤكد بادئ بدء وقوع التناقض[٣٣].

أما إذا ثبت التناقض فعلى المؤرخ ما يأتي:

- أن يترفع عن اتخاذ موقف وسط بين الطرفين.
- أن يعيد النظر في الطرفين لعله يكشف الستار عن عيب في إحدى الروايتين لم ينتبه إليه أولاً.

- أن يمتنع عن الحكم بين الطرفين إذا عم الشك وظهرت قلة الثقة.

وحين تتوافق الروايات التاريخية يجدر على المؤرخ أن يلتفت إلى أمور هي:

- عليه ألا يتسرع في الحكم فيظن أن جميع ما لديه من الروايات هومن النوع الذي يعول عليه.
- عليه أن يذكر أيضًا أن شدة الانطباق بين الروايات المختلفة هومن النوع الذي يعول عليه.
- هنالك تآلف بين الحقائق التاريخية لابد من الالتفات إليها.

بعد التأكد من صحة الروايات يشرع المؤرخ في التأليف وربط الروايات المختلفة. فينتقي البعض منها، ويصرف النظر عن البعض الآخر، ثم ينسق ما انتقى منها فينظمه ويجعله وحدة متجانسة متآلفة. ومما يجب ألا يغفل عنه المؤرخ، ما يلي:

- أنه لا يستغني في تنظيم الحقائق المفردة بموجب مضمونها عن إتباع التسلسل الزمني، وذلك لإظهار تطور الحقائق التي ندرس.
- إن إتباع الأسلوب القصصي في التاريخ يتطلب شيئًا أكثر من ترتيب الحقائق المفردة بموجب زمن وقوعها.
- إن للظروف أحكاما والمؤرخ مربوط بقرائه.
- على أنه لا بد من التصريح بأفضلية الأسلوب القصصي في غالب الأحيان.

يجدر أن ننتبه إلى أمور عديدة أثناء العرض منها ما يأتي:

- أن تكون رسالتنا وحدة تامة المعنى مرتبطة الأجزاء.
- أن نفرق ما أمكننا بين المتن والهامش.
- أن تتجلى أقوالنا بالأمانة بحيث تظهر بمظهر التعليل والإيضاح.
- أن نؤيد كل حقيقة من الحقائق المفردة التي نأتي على ذكرها في المتن بإشارة في الهامش إلى المرجع الذي أخذ عنه[٣٣]. (ينبغي أن تكون الهوامش جزءا هاما في أسفل الصفحات، لكي تضبط الوقائع الواردة في متن التاريخ، ومن المؤلفين من يضع للهوامش أرقاما يوردها في نهاية البحث)[٣٤].
- أن نعرض الحقائق في المتن بترتيبها التاريخي كي نتأكد من صحة الاستنتاج ولا سيما في أمر الأسباب والمسببات [٣٥].

يتبين لنا مما ورد، أنه لا بد للمؤرخ تطبيق العديد من المراحل لإتمام عملية النقد التاريخي بصورة سليمة، يمكن أن توضح لنا الحقائق التاريخية، ولكل مرحلة دور هام لا يقل عن الأخرى، ولكن الشرط الأساسي لنجاحها هو التقيد بالقواعد المذكورة.

خاتمة

إن الخطوات النقدية سواء أكانت نقدًا خارجيًا أو داخليًا، القصد منها التحليل، وهو المرحلة الأولى من النقد التاريخي، أي استخراج حقيقة الماضي بجزئياتها وكلياتها، وهي مراحل علمية في جوهرها، أما المرحلة الثانية، فهي التركيب، أي تركيب ما حلل وشرط قيام التركيب وحدوثه، المرور بخطوات تبتدئ بتجميع الوقائع ثم البرهان، وتشييد الصيغ، وأخيرًا العرض. ومن هنا لا بد على المؤرخ أولا وقبل كل شيء من القيام ببحث أثناء النقد لإثبات الحقيقة التاريخية، ويمكن القول أن النقد هو عملية تقصي عن الحقائق العلمية، وذلك بطرح السؤال وإعادة طرحه حتى يتمكن المرء من معرفة الحقائق، فليس هناك علم أو تقدم علمي إلا عن طريق البحث، كما أن استعمال المنهج النقدي زاد تطورًا في العصر الحديث والمعاصر عن سابقيه، لاسيما بعد تزايد الاعتماد على العلوم المساعدة في هذا المجال، ولهذا نلاحظ أن هذا المنهج ضروري في الدراسات التاريخية، ولابد من الاهتمام به وتطبيقه في ميدان البحث التاريخي.

الهَوامِشُ:

(١) فاطمة قدورة الشامي، **علم التاريخ. تطور مناهج الفكر وكتابة البحث العلمي من أقدم العصور إلى القرن العشرين**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠١، ص ٢٣٤.

(٢) محمد فتحي الشنيطي، **أسس المنطق والمنهج العلمي**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠، ص٢٤ – ٢٦.

(٣) محمد أحمد ترحيني، **المؤرخون والتأريخ عند العرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ص٨١، ٨٦.

(٤) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ١، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص ٣.

(٥) **ابن خلدون**: ولد عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون بتونس سنة ٧٣٢ ه/ ١٣٣٢م، وتوفي في القاهرة ٨٠٨ ه/ ١٤٠٦م، ولما استولى "الحسن المريني" على تونس درس "عبد الرحمان" على يد العلماء، وشغل مناصب رفيعة في البلاط المريني في فأس، انغمر في الحياة السياسية وقد تفردت المقدمة التي خصصها " ابن خلدون " لذكر طبائع العمران باحتلال مكانة فريدة في الدراسات التاريخية والاجتماعية، فأصبح بها علما يتنازعه علمان: التاريخ والاجتماع. يُنظر: عبد الرحمان الشيخ، **علم التاريخ عند المسلمين**، ط١، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٥١ – ٥٢.

(٦) عثمان موافي، **منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوربي**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص٩.

(٧) وجيه كوثراني، **تاريخ التأريخ (اتجاهات – مدارس – مناهج)**، ط ٢، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٣، ص ١٥٨.

(٨) نور الدين حاطوم. أحمد طربين. نبيه عاقل. صلاح مدني، **المدخل إلى التاريخ – في التاريخ والمؤرخين منذ القديم حتى اليوم**، مطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٦٤، ص ٤٧٨.

(٩) عبد الله طه عبد الله السلماني، **منهج البحث التاريخي**، ط١، دار الفكر، عمان، ٢٠١٠، ص ١٣ – ١٤.

(١٠) حميدة عميراوي، **في منهجية البحث العلمي**، ط١، دار البعث للطباعة والنشر، الجزائر، ١٩٨٥، ص٢١.

(١١) أسد رستم، **مصطلح التاريخ (وهو بحث في نقد الأصول وتحري الحقائق التاريخية وإيضاحها وعرضها وفيما يقابل ذلك في علم الحديث)**، ط ٣، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٥٥، ص ١.

(١٢) لانجلو وسينوبوس وبول ماس وإيمانويل كنت، **النقد التاريخي**، ترجمها عن الفرنسية والألمانية: عبد الرحمان بدوي، ط٤، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨١، ص٢٧-٣٤.

(١٣) محمد أحمد ترحيني، المرجع السابق، ص ١٦٥-١٦٨.

(١٤) **المسكوكات**: تشمل العملة الرسمية في الدولة الإسلامية، فهي تساعدنا على ضبط التواريخ والأسماء وتلقي ضوء على التطور السياسي والديني والاقتصادي. يُنظر: ماجد عبد المنعم، مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، ط ٤، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص ١٧ – ٣٠.

(١٥) عثمان حسن، **منهج البحث التاريخي**، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٥ – ٤٥.

(١٦) نفس المرجع، ص٤٥ – ٥٢.

(١٧) عادل حسن غنيم وجمال محمود حجر، **في منهج البحث التاريخي**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص ١٩٤.

(١٨) فاطمة قدورة الشامي، المرجع السابق، ص ١٩١.

(١٩) أسد رستم، المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٢٠) لانجلوا وآخرون، المرجع السابق، ص ٣٥-٣٧.

(٢١) أسد رستم، المرجع السابق، ص ١٣ – ١٧.

(٢٢) حميدة عميراوي، المرجع السابق، ص٢٠-٢١.

(٢٣) **المؤرخ**: يتميز المؤرخ باستقلال شخصيته، وعدم تسليمه الكامل بكل ما يقرأ ويطلع عليه من وثائق وأوراق، بل يخضع كل ذلك لميزان نقدي حساس. والمؤرخ يمتلك القدرة على التعبير الجيد والقدرة على استنتاج معلومات صحيحة من معلومات غير صحيحة أو مشوشة، وذلك من خلال تتبع مسارات عدم الاتساق والتعويض عن نقص المعلومات غير المكتملة. ويجب أن تكون للمؤرخ ملكة نقدية فلا يقبل كل كلام أو يصدق كل وثيقة أو مصدر بغير الدرس والفحص والاستقراء، فيأخذ الصدق أو أقرب ما يكون إليه ويطرح جانبا ما ليس كذلك. يُنظر: أنور محمود زناتي، **علم التاريخ واتجاهات تفسيره (اقتراب جديد)**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٤١ – ٤٤.

(٢٤) أسد رستم، المرجع السابق، ص ٢٤ – ٢٥.

(٢٥) نور الدين حاطوم وآخرون، المرجع السابق، ص ٤٨٣.

(٢٦) أسد رستم، المرجع السابق، ص٢٥ – ٣٢.

(٢٧) عبد الرحمان ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مقدمة، ج١، تحقيق: علي عبد الواحد الوافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦، ص ٢٨٢.

(٢٨) أسد رستم، المرجع السابق، ص ٣٤ – ٤٦.

(٢٩) فاطمة قدورة الشامي، المرجع السابق، ص ٢٣٥.

(٣٠) عثمان موافي، المرجع السابق، ص ١٤٤-١٤٥.

(٣١) أسد رستم، المرجع السابق، ص ٤٩ – ٨٢.

(٣٢) فاطمة قدورة الشامي، المرجع السابق، ص ٢٣٥.

(٣٣) أسد رستم، المرجع السابق، ص ٨٢ – ١٣٤.

(٣٤) نور الدين حاطوم وآخرون، المرجع السابق، ص ٤٩١.

(٣٥) أسد رستم، المرجع السابق، ص ١٣٤.

مقالات

المعالم الأثرية لموقع إيومنيوم تيقزيرت في الجزائر



الياسمين أقوني
أستاذة محاضرة "ب" آثار قديمة
جامعة مولود معمري بتيزي وزو
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

يعتبر الموقع الأثري لإيومنيوم القديم المتمثل حاليًا في تيقزيرت بولاية تيزي وزوب الشمال الشرقي للجزائر، من بين المواقع المحتفظة بميزات الحضارات القديمة لاسيما الرومانية منها، فموقعها الاستراتيجي الذي يمزج بين الجبال والبحر، جلب إليها الرومان فأقاموا بها معسكر قصد حماية ثرواتها المتعددة التي تمول بها روما عبر البحر، حيث استغل الرومان موقع تيقزيرت في المجال الاقتصادي لما توفره من المنتجات الزراعية وكذلك في الجانب العسكري والأمني حيث بفضلها يمكن مراقبة هذه المنطقة التي عرفت بالمقاومة المحلية العنيفة والثورات المتعددة الرافضة للوجود الروماني، فسنحاول هنا إعطاء ولو فكرة موجزة حول المعالم الأثرية المتواجدة بالموقع والتي مازالت صامدة وبارزة للعيان، رغم تعرضها لمختلف عوامل التلف المعروفة والمضرة بالمعالم والبقايا الأثرية. يُعَدّ الموقع الأثري بتيقزيرت من بين المواقع المصنفة من ضمن التراث الثقافي المادي للجزائر، نجد به المعالم الأساسية لمدينة رومانية، فهذه المباني والمعالم بنيت بيد محلية وبمواد تتوفر بالمنطقة أو أتي بها من المناطق المجاورة، إيمنيوم أو تيقزيرت حاليًا هي من بين العديد من المواقع التي كانت من ضمن نطاق موريطانيا القيصرية من جهتها الشمالية الشرقية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٥	يوليو	٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	أغسطس	٢٠١٩

كلمات مفتاحية:
التراث المادي، البازيليكا، الكنيسة الجنائزية، الحمامات الرومانية، الأسوار البيزنطية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055840

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
الياسمين أقوني. "المعالم الأثرية لموقع إيومنيوم - تيقزيرت في الجزائر".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص١٨ – ٢٥.

مُقَدِّمَة

يشكل التراث الحضاري المعماري بالمعنى الواسع الجانب الحي من التراث الثقافي المادي للجماعة والمجتمع، فهو يمثل ذاكرة الشعوب وهو الذي يدون فترات تعاقب الحضارات على هذه الأرض ومرآة عاكسة لأوجه ازدهارها وتطورها، ويعتبر الموقع الأثري لإيومنيوم القديم المتمثل حاليًا في تيقزيرت بولاية تيزي وزو، من بين المواقع المنتشرة بالجزائر والمحتفظة بميزات الحضارات القديمة لاسيما الرومانية منها، فموقعها الاستراتيجي حيث تمزج بين الجبال والبحر جلب إليها الرومان فأقاموا بها معسكر قصد حماية ثرواتها المتعددة التي تمول بها روما عبر البحر، حيث استغل الرومان موقع تيقزيرت في المجال الاقتصادي لما توفره من المنتجات الزراعية وكذلك في الجانب العسكري والأمني حيث بفضلها يمكن مراقبة هذه المنطقة التي عرفت بالمقاومة المحلية العنيفة والثورات المتعددة الرافضة للوجود الروماني، فسنحاول هنا إعطاء ولو فكرة موجزة حول المعالم الأثرية المتواجدة بالموقع والتي مازالت صامدة وبارزة للعيان، ومن خلال زيارتنا للموقع لامسنا الوضع

المزري الذي آلت إليه المعالم الأثرية، فإلى جانب الغطاء النباتي الكثيف الذي أت عليها تعذر علينا الوصول إلى تلك المعالم التي تحدث عنها باحثين من قبل أو حتى التي أشار إليها السكان المحليين الذين يطلقون تسمية "أورومي" لكل مبنى أو معلم يعود إلى الفترة القديمة، فنجد تدخلات عشوائية على المعالم قصد ترميمها والمحافظة عليها، أي رغم المبادرات الشخصية والخاصة للأشخاص والجمعيات المهتمة بالأثار وحماية التراث خاصة المادي منه، يقابله غياب مشاريع الصيانة والترميم التي يجب أن تكون من طرف مختصين.

١-الإطار الجغرافي

تقع مدينة تقزيرت على بعد حوالي مئة كيلومتر شرق العاصمة، على الشريط الساحلي الرابط بينها وبين بجاية، يشمل هذا الموقع عدة آثار كالأسوار، المعبد الصغير، أثار للحمامات والبازيليكا الكبرى التي تم ترميمها في القرن التاسع عشر[١]، تُعَدّ من المدن الواقعة على الشريط الساحلي تبعد بـ ١٣٠كلم عن العاصمة شرقاً، المدينة حديثة النشأة، تاريخ بناؤها يعود إلى القرن التاسع عشر الميلادي مع الاحتلال الفرنسي حيث مثلت ما يعرف بالقرية الفرنسية. (رقم ٣٤ في الورقة ٠٦ في الأطلس الأثري الجزائري) موقعها الجغرافي جد استراتيجي تنغمر في البحر بالمنحدرات العديدة وكذلك بشبه جزيرة والجزيرة الصغيرة التي تبعد بـ٤٠٠م فقط، هذا الموقع البحري الجد هام يتوسط رأسين يغمران البحر بانحدارهما الشديد، رأس تدلس من الشرق، يقع على بعد ٤كلم عن المدينة، هذا الموقع الهام سمح للمدينة والمنطقة باحتلال مكانة مرموقة في المجال السياحي[٢]. تضاريس المنطقة عبارة عن سهول ساحلية ضيقة، بينما الشريط الساحلي صعب المسلك بالنتوءات والصخور الكبيرة المنتشرة على طوله، أما تكويناتها الجيولوجية فتشكلت من الشيست والحجارة الكلسية وكذا الحجر الرملي.

٢-الإطار التاريخي لمدينة تيقزيرت

شهدت مدينة تيقزيرت كباقي المدن الأثرية عدة مراحل حضارية وتاريخية متفاوتة الأهمية وهذا وفق المخلفات الأثرية، فمن خلال التسمية الرومانية للمدينة 'إيومنيوم'، يلاحظ أن أصلها يعود إلى الفترة الفنيقية حيث إعتاد البحارة الفنيقيون على الملاحة على طول الشريط الساحلي لشمال إفريقيا على مراحل ومنه إرساء السفن وتكوين مراكز عبور، فالجدار الذي وجد بها يوحي بأن أول استيطان أجنبي في المنطقة يعود لهذه الفترة، ويبقى المعنى الكامل لتسمية المدينة غير معروف[٣]، هذا الجدار نجده في العديد من المدن الساحلية نذكر منها إجلجيلي (جيجل) وإيول (شرشال) ويعرف عند الفنيقيين بالرأس(Cap)، موانئ بحرية طبيعية تداول عليها النشاط التجاري والاقتصادي.

بحكم الموقع الطبيعي لتقزيرت شكلت المكان المناسب والملائم لإرساء السفن، بفضل شبه الجزيرة والجزيرة الصغيرة، وهذا بوضع شبه رصيف يربطهما مع اليابسة[٤] والذي قد يشكل شبه حاجز للرياح حسب الفصول (بهبوب الرياح الغربية تبقى الجهة الشرقية هادئة والعكس صحيح)، ونشير إلى الخلط الذي اكتنف الدراسات الأولية، بين المدينتين تيقزيرت (إيومنيوم) ودلس (روسوكورو) حيث أعدت قراءة لتاريخ تيقزيرت على أساس معطيات مدينة دلس[٥]، وكان هناك جدال في تحديد موقع إيومنيوم.[٦] ويبقى مشكل الاستيطان البوني أو الفنيقي في المنطقة مطروح إلى حد الساعة لانعدام الأدلة والمخلفات الأثرية.

٣-الأبحاث الأثرية التي شهدتها المدينة

شهدت مدينة تيقزيرت كباقي المواقع الجزائرية استيطان مبكر للمعمرين الفرنسيين حيث جلبت هذه المنطقة أنظار بعض المنقبين، أشهرهم "بورليي" و"دوفو" حيث شملت أعمالهم تحريات أولية للموقع مفادها تهيئة المنطقة عمرانيا لوضع النواة الأولى للمدينة الحالية التي تعرف بالقرية الفرنسية لجلب واستيطان المعمرين[٧]. أولى الأبحاث الأثرية في المدينة كانت مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي إلا أن المدينة تُعَدّ من المدن الجزائرية الفقيرة من حيث المصادر والمراجع التاريخية، كونها لم تحظى بالأبحاث التاريخية والأثرية كما هو الحال لبعض المدن القديمة، فالتنقيبات الأثرية التي شهدها موقع المدينة القديمة إيومنيوم[٨] جد قليلة في أماكن عديدة وفترات زمنية محدودة، ومن المعالم التي حظيت بعناية كبيرة نجد معلم المعبد الروماني والبازيليكا المسيحية[٩]. جل الاكتشافات والتنقيبات انحسرت ما بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٩٩٤ مع العلم أنها عرفت انقطاع في الأبحاث. ومعنى تسمية تيقزيرت باللغة المحلية

"جزيرة" سواء بفتح الحرف الأول تقزيرت أو بكسرها، فهي في كلتا الحالتين تعني جزيرة، حيث يظهر هذا الموقع على شكل جزيرة صغيرة.

٤-البقايا الأثرية بمدينة تيقزيرت

٤/١-الساحة العامة:

تظهر على شكل مستطيل وهي مبلطة، فهي فروم المدينة يتواجد شمال الطريق الرئيسي شمال-جنوب "الكاردو ماكسيموس" على ارتفاع حوالي ٠,٤٠م، أبعادها حوالي ١٩,٥٠م في الطول و١٧,٥٠م بالنسبة للعرض، حيث بلاطات هذه الساحة بأشكال ومقاسات مختلفة بين مستطيلة ومربعة. (الصورة رقم ٠١)

٤/٢-المعبد:

يتواجد بالجهة اليمنى للطريق الرئيسي الكاردو، يظهر بحوالي ١٤م في الطول وبحوالي ٧م في العرض وهذا من الواجهة الخارجية، أما من الداخل بطول يبلغ حوالي ١٣م وحوالي ٥م بالنسبة للعرض، بني وفق تقنية الحجارة المنحوتة، وهو موجه مثل جل المعابد الوثنية نحو الشرق رغم وجود استثناءات حسب الموقع، إلا أن هنا نلاحظ احترام التوجيه الأساسي.

تظهر الواجهة الأمامية للمعبد بها المدخل يبلغ ارتفاعه ٣,١٧م أما العرض فيبلغ ٢,٣٦م، على جانبيه عمودين غير كاملين يبلغ طولهما ما بين ٢,٤٣م و٢,٥٤م. نشاهد استخدام حجارة منحوتة مختلفة المقاييس والأشكال رغم تساوي العرض الذي يبلغ ٤٠سم، فهناك حجارة يبلغ طولها ١,٢٠م، ٧٨سم، ٤٦سم وأصغرهم بطول ٢٣سم، ويمكن ألا تكون هذه الحجارة الأصلية التي بني بها المعبد، عكس ما يبدو عليه في الواجهات المشكلة للمبنى سواء من الجهة الجنوبية، الشمالية وحتى الغربية.

نصل إلى مكان العبادة عن طريق سلم يتكون من ستة درجات تظهر أبعاد الحجارة المشكلة لها، على النحو التالي ١,٢٠م في الطول و٢٢سم في الارتفاع، كما نلاحظ عمودين كورنتيين، لتأتي فوقها العارضة الأفقية التي تحمل النقيشة الخاصة بالمعبد. هذا المبنى يؤرخ بفترة حكم الإمبراطور الروماني "سبتيموس سيفيروس"[١٠]، بداية القرن الثالث ميلادي[١١]. بالإضافة إلى نقيشات أخرى وأنصاب تتواجد بالمعبد مع بعض البقايا الأثرية الأخرى. (الصورة رقم ٠٢)

٤/٣-المعسكر:

مبنى مستطيل الشكل غير منتظم حسب الباحثين الذين اهتموا ودرسوا هذه المنطقة، أمثال "قزال"، "فنيرال"، "لابورت" وآخرين، بالإضافة إلى الأستاذ دوربان مصطفى الذي قام بدراسة المعسكر الروماني لمدينة تيقزيرت دراسة معمارية وأثرية حيث دعم هو الآخر هذه الفرضيات والاحتمالات، ويعتبر المعسكر أول معلم نراه عند دخولنا للموقع الأثري لمدينة تيقزيرت، موجه شرق -غرب، إلا أن الآثار الحالية لا تبرز كل ملامح هذا المبنى، يشغل الجهة الغربية من المعبد يفصلهما طريق الكارد وبعرض ٦,١٠ م. (الصورة رقم ٠٣)

٤/٤-البازيليكا الكبرى:

تقع شرق المدينة القديمة على بعد أمتار من السور الروماني[١٢]، أما الباحث "قافو" فتحدث عن هذه البازيليكا على أنها تقع في الجزء الجنوبي للمدينة وهي موجهة نحو الشرق مثل باقي الكنائس وأشار إلى أن آثارها كانت مازالت في حالة جيدة[١٣]، أما أثناء انتقالنا إلى الموقع وحديثنا مع المرشد يمكن أن نقول أن البازليكا تقع بين السور البزنطي والسور الروماني شرق المدينة، هي مستطيلة الشكل حوالي ٤٠م في الطول و٢٠م في العرض، بنيت بالحجارة المنحوتة بسمك ١م، صحنها يحتوي على سلسلة من الأعمدة المزدوجة يتراوح ارتفاعها ما بين ٣م و٣,٥٠م متعددة القواعد وترتكز على مكعب حجري والمسافة الفاصلة بين كل عمود تقدر بـ٢,٤٠م، على يسار البازليكا توجد حنية، لقد تحدث عنها بالتفصيل كل من "قزال"، "فنرال" و"قافو" فأثناء دراستهم ووصفهم للمعالم القديمة بتقزيرت كانت في حالة أفضل من الحالة الحالية. وتوجد حنية دائرية على يسار البازيليكا. (الصورة رقم ٠٤)

٤/٥-الكنيسة:

تقع هذه الكنيسة على بعد ٥٠م جنوب البازيليكا الكبيرة وهي موازية لها[١٤]، وهي عبارة عن كنيسة جنائزية موجهة نحو الشرق طولها حوالي ١٤م أما عرضها يصل حوالي ١١م، تتكون من ثلاثة صحون تصل بينها أقواس مقسمة بواسطة صفين من الأعمدة.

٤/٦-الكنيسة المسيحية:

تقع جنوب المدينة جانب السور الروماني، موجهة نحو الشرق مثل سابقاتها، تتكون من ثلاثة صحون مقسمة بصفين من الأعمدة المربعة، بحوالي سبعة أو ثمانية في كل سلسلة[١٥]، هذا ما تحدث عنه كل من

"قزال" و"قافو" حيث لم يتمكوا من إعطاء معلومات دقيقة حول شكل وأجزاء المبنى كونها هدمت وخربت من جراء الأشغال التي أقيمت بالموقع، وحاليًا لا نرى سوى بعض الحجارة المترامية هنا وهناك إضافة لمكان العمادة. (الصورة رقم ٠٥)

٧/٤-كنيسة المقبرة (الكنيسة الجنائزية):

مقبرة الشرق تتربع على تلة مقابلة للبازيليكا الكبيرة، فهذه الكنيسة قريبة من واد -تارقة رومزقا-[١٦]، وقد اعتبرها "فنيرال" معبد على بعد أمتار من الواد حيث لاحظ خمسة أو أربعة أعمدة ومبنى بشكل مستطيل أبعاده ٣٠م في الطول و١٥م في العرض. هي عبارة عن كنيسة جنائزية موجهة نحو الغرب، ما زالت آثارها قائمة إلى اليوم طولها حوالي ١٤م أما عرضها فيصل حوالي ١١م، تتكون من ثلاثة صحون مقسمة بصفين من الأعمدة بحنية موجهة نحو الشرق، بسلسلتين من الأعمدة تفصل بين الصحون مما يسمح بظهور الأقواس[١٧].

٨/٤-الحمامات الرومانية:

تظهر بقايا هذه الحمامات في الجهة الشرقية للمدينة، بالقرب من الكنيسة المسيحية أين نلاحظ جزء منها مبني على أنقاض هذه الحمامات، ونتعرف على هذه الحمامات من خلال سلسلة من الجدران المبنية بالحجارة الصغيرة، نلاحظ بعض الأسوار التي مازالت صامدة، من الجهة الشرقية تظهر غرفتين مستطيلتين، وجدت بإحداهما فسيفساء بزخارف نباتية، ومن الجهة الشمالية نرى عدة قاعات متتالية إحداهن تحتوي على حوض صغير وفسيفساء تكسو أرضية احدى القاعات من الجهة الجنوبية، نلاحظ أنها تتكون من طابقين السفلي يتمثل في دهليز كبير مقبب به خزانات المياه الموجهة لتموين الحمامات نلاحظ ثلاثة منها مع أننا لم نتمكن من دخولها، ويتراوح طول كل واحدة منها ما بين ٣,٣٥م، ٣,٥٠م و٣,١٧م، وعرض الحجارة الفاصلة ما بين كل خزان فهي تبلغ ٤٠سم، أما بالطابق العلوي نجد مصلى يعود إلى الفترة المسيحية، وجدت بهذه الحمامات فسيفساء تمثل أقنعة وآلات موسيقية. (الصورة رقم ٠٦)

الصهاريج: تقع الصهاريج في المستوى السفلي للمبنى المسمى "المصلى المسيحي" والذي توجد به ثلاث قنوات على شكل نصف أسطواني، حيث يبلغ طولها ٧,٢٠م، عرضها ٣,٣٠م، وهي متصلة فيما بينها بواسطة عقود يبلغ طول كل واحد منها ٢,٤٠م، وأما سمكها فيتعدى ١م، ولم نتمكن من قياس ارتفاع كل عقد نظرا لصعوبة النزول إلى هذه القنوات لامتلائها بالماء، فالقنوات لها شكل صهاريج رومانية إلا أننا لم نتمكن من إيجاد الطبقة التي تكسو الجدران والتي تكون من الملاط المائي. (الصورة رقم ٠٧)

الغرف الشرقية والغربية:

بالجهة الشرقي للمبنى نجد ثلاث غرف تمتد إلى غاية الجدار الجنوبي لـلمصلى المسيحي، الذي يمكننا اعتباره السور الذي يحد الحمامات ومعلم آخر مجهول الهوية يقع تحت البنايات الخاصة الحالية[١٨]. وهي تبدو حاليًا في حالة حفظ أحسن بعد عملية التنظيف والترميم التي أقيمت بها. (الصور رقم ٠٨ و٠٩)

٩/٤-الحصن أو السور الروماني:

يتربع هذا الحصن على مساحة تقدر بحوالي بـ ١٠ هكتار حسب "قافو"، سمك جدرانه حوالي ١,٣٠م امتداده من الجهة الشرقية ٤٠م، أما ارتفاعه يبلغ حوالي ٢م به أبراج دائرية أو مربعة، هذا الحصن يختصر جل مواصفات ومميزات التحصينات الإفريقية التي أنجزت خلال الهيمنة الرومانية من القرن الأول والثالث ميلادي[١٩]. تم إنجازه بالتقنية الإفريقية المتمثلة في وضع حجرتين كبيرتين منحوتة بطريقة عمودية متوازية وتوضع الحجارة الصغيرة فيما بينها إضافة إلى الملاط لتتماسك جيدًا.

١٠/٤-الأسوار البيزنطية:

ضرورة الدفاع والتحصن كانت وراء إقامة هذه الأسوار التي تعتبر الحد الفاصل بين المدينة البيزنطية وباقي المناطق الأخرى، إن الأسوار الخارجية الثانوية المحيطة بمدينة تيقزيرت ترجع إلى العهد البيزنطي ذات الطابع الهرمي أي يغلب عليها الأشكال الهندسية، وهذه الأسوار تمتد من جهتيها الشرقية الغربية حتى البحر، أما من الجهة الجنوبية لا نلاحظ أي أثر للأسوار بسبب التوسعات الرومانية، أنجزت أسوار الجهة الشرقية من الحجارة المصقولة مبلطة بشكل جيد، يصل سمكها حوالي ٣م. (الصور رقم ١٠ و١١) إذن هذا السور يعود إلى الفترة المتأخرة من المؤكد أنه يعود للفترة البيزنطية، يظهر بأربعة مداخل من بينها مدخل رئيس[٢٠]، تظهر البازيليكا الكبيرة خارج هذا السور، بناؤها يجمع بين الفن ودور الحماية، سمك السور يبلغ حوالي ٢,١٠م بني وفق النظام البيزنطي بجدران مزدوجة عكس نظيراتها التي كانت تبنى بجدار واحد، أطرافه تمتد نحو البحر، له أربعة أبواب جد ضيقة

والباب الرئيسي يظهر بحوالي ١,٥٦م في العرض وبارتفاع يبلغ حوالي٢,٢٥م[٢١]. جهته الشرقية نحو البحر مما يسمح بإظهار مميزاته وذلك من الواجهة البحرية سمكه حوالي ٢,١٠م، نفس الشيء بالنسبة للجهة الغربية فهي أيضا تنتهي بالبحر ويظهر بحوالي٣,٥٠م في العرض[٢٢].

إلى جانب المخلفات الرومانية الموجودة داخل الأسوار البيزنطية كالساحة المبلطة، المعبد للإله حامي المدينة، الكنيسة بحوضها للتعميد، معصرة الزيتون وبعض المرافق الأخرى من معالم كبيرة قد تم توظيفها في الفترة البيزنطية[٢٣]. إضافة إلى البقايا الأثرية المتواجدة بمتحف الموقع أو المحمية الأثرية بتيقزيرت، سواء الأنصاب النذرية، الكتابات الجنائزية، التيجان وقواعد الأعمدة، التي جلبت من الموقع الأثري لتيقزيرت أومن المناطق المجاورة، دون أن ننسى عدد لا بأس به من التوابيت الحجرية والصندوقيات، المتواجدة حاليًا في الموقع الأثري لتيقزيرت.

٥-حالة الحفظ وطرائق صيانة المعالم الأثرية

فواقع المعالم الأثرية المنتشرة بموقع تيقزيرت والتي تعود إلى الفترة الرومانية تعاني التهميش والنسيان، فرغم محاولة المسؤولين عن هذا الموقع في نفض الغبار عليه إلا أنهم لم يلقوا دعم سواء من الجهات المعنية أومن المجتمع المدني، حيث أصبح هذا الموقع وللأسف مكان تمارس فيه أشياء مخلة بالحياء وكثيرًا ما يقصده الشباب لتناول الكحول والمخدرات. كما لاحظنا نقل عدة حجارة إلى حواف الموقع قصد التمتع بمنظر البحر، وكذا رمي النفايات رغم مجهودات العمال لحماية الموقع الذي أصبح يستغل كأوكار أو مراحيض عمومية حيث زادتها الغابات الكثيفة سترة. حتى عمليات الترميم التي أجريت بهذا الموقع تفتقر إلى الدقة والاحترافية، حيث كثيرا ما نجد تاج أو قاعدة عمود أعيد إلى مكان آخر غير مكانه الأصلي وهذا يظهر خاصة مع العناصر التزيينية، وكثيرًا أيضًا ما وضعت في اتجاه خاطئ.

استغلال البقايا الأثرية لأغراض أخرى وإعادة استعمال مواد البناء في بناياتهم الحديثة، خاصة العناصر التزيينية في تزيين فيلاتهم. وإهمال المقتنيات الأثرية حيث تحفظ في أماكن تفتقر إلى أدنى شروط الحفظ والتخزين، كاللوحات الفسيفسائية، الأعمدة والأنصاب ومختلف المكتشفات التي تم التصريح عنها من طرف المواطنين، حيث تتواجد العديد من التوابيت والعملات الرومانية في مكاتب الجمعيات الثقافية، وفي بعض الأحيان يتم نقل اللقى الأثرية من مكان اكتشافها إلى مكان آخر قصد الحفظ أو العرض، إلا أن هذه التصرفات لا تخدم المختصين حيث لا يمكن الاعتماد على مقتنيات أثرية خارج المحتوى الأثري في تأريخ أو دراسة موقع ما.

خَاتِمَةٌ

يُعَدّ الموقع الأثري بتيقزيرت من بين المواقع المصنفة من ضمن التراث الثقافي المادي لبلادنا، نجد به المعالم الأساسية لمدينة رومانية حيث سعى من خلالها الرومان لترسيخ الرومنة بهذه المنطقة الجبلية الصعبة التضاريس، فهذه المباني والمعالم بنيت بيد محلية وبمواد تتوفر في المنطقة أو أتي بها من المناطق المجاورة، إيمنيوم أو تيقزيرت حاليًا هي من بين العديد من المواقع التي كانت من ضمن نطاق موريطانيا القيصرية من جهتها الشمالية الشرقية، فغياب بعض المباني العمومية التي عرفت بالمدن الرومانية راجع سواء للموقع الجغرافي أو الوضع الأمني بهذه المنطقة، وفي الأخير نتمنى أن يلقى هذا الموقع دراسات أثرية حديثة قصد كشف خبايا وخلفيات كل البقايا الأثرية حالها حال جل المواقع الأثرية في الجزائر.

الملاحق



الصورة رقم (١) الساحة العامة بتقزيرت



الصورة رقم (٢)
منظر عام لمعبد تيقزيرت



الصورة رقم (٥)
مكان العمادة للكنيسة من القرن السادس ميلادي



الصورة رقم (٣)
المعسكر الروماني مع الطريق المؤدي إلى المعبد



الصورة رقم (٦)
منظر عام لموقع لحمامات تيقزيرت



الصورة رقم (٤)
صورة جوية عامة للبازيليكا الكبرى بتيقزيرت



الصورة رقم (٧)
خزانات أو صهاريج المياه بحمامات تيقزيرت



الصور رقم (٨) (٩)
الغرف الشرقية بحمامات تيقزيرت



الصورة رقم (١١)
بقايا الحصن البيزنطي
من القرن الخامس ميلادي بتيقزيرت



الصورة رقم (١٠)
بقايا السور البيزنطي
من القرن الخامس ميلادي بتيقزيرت

الهَوامِشُ:

(1) EUZENNAT (M), histoire municipale de tigzirt RUSUCCURU COLONIA ET MUNICIPIUM, in mélange d'archéologie et d'histoire, 1955, vol :67, p 127-128.

(٢) دوريان مصطفى، **المعسكر الروماني لمدينة تيقزيرت (دراسة معمارية وأثرية)**، مذكرة ماجستير-تخصص قديم، ١٩٩٩,٢٠٠٠، ص.١٧.

(3) ALBERTINI (E), L'article «TIGZIRT», op-cit, p.534.

(4) Ibid.

(5) EUZENNAT (M), «L'histoire municipale de Tigzirt, Rusuccuru colonia et municipium», dans MEFR, T LXIX, Paris, 1955, p.127.

(6) FREZOULS (M) et HUS (A), «L'identification des villes de la Cote kabyle à l'Ouest de Bougie», dans MEFR, T LXVIII, Paris, 1954, pp.153-155.

(7) GAVAULT (p), Etude sur les ruines romaines de tigzirt, Ernest leroux, Paris, 1897, p.2.

(8) GSELL (ST), A.A.A, Alger 1911, f6, n87.

(9) GAVAULT (P), op-cit, p.02.

(10) GAVAULT (P), op-cit, p.1.

(11) GSELL (St), les monuments antiques de l'Algérie, T1, Paris, 1901, p.149.

(12) GSELL (ST), les monuments antiques de l'Algérie, T2, p.294.

(13) GAVAULT (P), op-cit, p.97.

(14) GAVAULT (P), Ibid, p.98; Gsell (ST), ibid, p.304.

(15) GAVAULT (P), Ibid, p.97; Gsell (ST), op-cit, p.304.

(16) GAVAULT (P), ibid, p.103.

(17) GAVAULT (P), ibid, p.103.

(18) GAVAULT (P), Ibid.

(19) GAVAULT (p), op-cit, p.106.

(20) GSELL (ST), A.A.A, F.6, p.5.

(21) GSELL (ST), op-cit, T2, p.392.

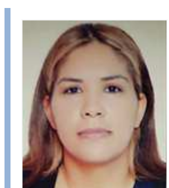
(22) GAVAULT (P), op-cit, p.109.

(٢٣) دريسي سليم، **البيزنطيون في شمال أفريقيا: الاحتلال والعمارة الدفاعية**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الأثار القديمة، ٢٠٠٨، ص٣٢٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

دراسات

دراسة لتاريخ الحرف المرتبطة باستنباط المياه
القنقن نموذجًا



فاطمة بوزاد
أستاذة التعليم الثانوي
باحثة دكتوراه – جامعة ابن طفيل
القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّص

يُعَدّ البحث في الإشكاليات التاريخية المرتبطة بالحرف والصنائع من المواضيع الجادة التي تتيح للباحث التعرف على أحوال المجتمع، باعتبارها إحدى مورد اقتصادي لعيش فئة عريضة من السكان سواء بالحواضر أو القرى، وهي في الوقت نفسه تعبر عن هويتها، ومن شأن دراسة هذه المواضيع أن يزيل الغموض على تاريخها سواء تعلق الأمر بتلك التي اندثرت أو مازالت حاضرة إلى يومنا هذا. وقد ارتبطت الحرف عبر تاريخها الطويل بمجالات متعددة وعناصر مشتقة من الطبيعة، وأحد أهم هذه العناصر نجد الماء الذي ارتبطت به عدة حرف وجعلت منه أساس اشتغالها ومحورها الذي تدور فيه. وخصوصًا تلك التي ارتبطت باستنباطه؛ فالشعوب الإسلامية جعلت من استنباطه حرفة امتاز بها أشخاص بعينهم امتلكوا القدرة على التعرف على أماكن الماء في أعماق الأرض باستعمال طرائق مختلفة باختلاف الأماكن والأمصار. بناءً على ما سبق تبرز أهمية دراسة موضوع حرفة القنقن بالنظر إلى الأدوار الكبيرة التي لعبها في المجتمعات البشرية، إضافة إلى أن وضعيته الحالية صارت مهددة بالزوال بعدما كان قطب الرحى في تحريك عجلة الاقتصاد عبر التاريخ، بل إن الدراسات التي أنجزت حول الموضوع قليلة جدًا، لدرجة أن إشكاليات عدة مازالت عالقة حول هذه الحرفة وما يرتبط بها من تقنيات.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٦ يوليو ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ٢١ أغسطس ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

القنقن؛ الحرف المائية؛ تقنيات استنباط الماء؛ العصر الوسيط

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055841

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فاطمة بوزاد. "دراسة لتاريخ الحرف المرتبطة باستنباط المياه: القنقن نموذجا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص ٢٦ – ٣٧.

مُقدِّمَة

ظل الماء على مر العصور العامل الأساسي في استقرار الشعوب وقيام الحضارات. لهذا حاول الإنسان منذ بداياته الأولى الاهتداء إلى طرائق استغلال المياه واستنباطها[1]، لسد حاجياته منه. والبحث عن المياه اتخذ عدة طرائق وتنوعت وسائل ذلك بتنوع الشعوب واختلاف مناخها وطبيعة مجالها. غير أن استنباط المياه الجوفية اتخذ بعدا إنسانيا تتفق حوله جميع الشعوب. تُعَدّ حرفة القنقن واحدة من أهم الحرف التي ظهرت منذ زمن طويل من أجل إنباط المياه الخفية، فكان بذلك المهندس العارف الذي لابد من حضوره عند أي تنقيب عن المياه، ويرجع ذلك لقدرته التي تمتع بها، وجعلت منه ذا مكانة مرموقة داخل المجتمعات البشرية، وإن اتهم بالسحر في فترات تاريخية معينة. واهتمام الشعوب الإسلامية بهذه الحرفة زكاه اهتمام النصوص التاريخية بها، والتي تطرقت لها من مختلف الجوانب. ألفت فيها مصنفات مازالت تحظى إلى اليوم بالعناية والدراسة العميقة من قبل الغربيين. وعليه، فإن هذه المقالة ستركز على تتبع حضور هذه الحرفة في المصادر التاريخية

الوسيطية، والجوانب التي غطتها هذه الحرفة. وكذا الأسماء المعجمية التي حملها أصحاب حرفة القنقن. والوسائل التي وظفوها في بحثهم واستنباطهم للمياه. بالإضافة إلى الخصوصيات التي امتازت بها هذه الحرفة في بلاد المغرب الأقصى- خلال العصر- الوسيط، وكيف انعكست على أحوال المجتمع، وما الوضعية التي تعيشها الحرفة اليوم في ظل تطور العلوم والتقنيات المهتمة بالبحث عن المياه.

أولاً: قراءة ببليوغرافية في علم استنباط المياه

١/١-قراءة في البيبليوغرافية الشرقية والأندلسية

بدأ اهتمام العلماء المسلمون بالتأليف في موضوع الماء مبكرًا -أواخر المائة الثانية للهجرة- وجعلوا منه علما قائما بذاته، وقد تناولوا بحثه من جوانب مختلفة، ويعتبر كتاب "علل المياه وكيفية استخراجها وإنباطها في الأرضين المجهولة" الذي ألفه أبو بكر أحمد بن علي المعروف بابن وحشية من أرقى وأبلغ المصنفات في استنباط المياه الخفية، غير أن الكتاب بقي يتردد اسمه في المصادر التاريخية، ولم يبلغنا عن وجوده في مضنه خبر. غير أن كتابه "الفلاحة النبطية"[٢] الذي أورد فيه بابا اسماه بـ "باب استنباط المياه وهندستها"[٣]. يُعَدّ الأول من نوعه في هذا العلم، يشتمل على ما نقله من عند الأراميين الذين ورثوا علوم الأمم كالبابليين وغيرهم. حيث يقول عنه ابن خلدون في مقدمته: "ترجم من كتب اليونانيين كتاب "الفلاحة النبطية" منسوبة لعلماء النبط مشتملة من ذلك على علم كبير"[٤]. ويتضمن الكتاب مادة علمية وفيرة تتصل بالفلاحة والنبات يقع في مجلدين.

ويعتبر كتاب "البئر"[٥]، من أقدم الكتب التي تناولت التفاصيل التطبيقية الهندسية في عمليات استخراج المياه الجوفية وإنشاء الآبار، وأنواع المياه الخارجة منها. كما وضع الفيلسوف أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي المتوفي حوالي ٢٦٠هـ، شرحًا على كتاب "قَوْد المياه"، أي جره وسحبه لـ "فيلمون البيزنطي" ذكره ابن حجاج الإشبيلي في كتاب " المقنع في الفلاحة"[٦]، ونقل إلى كتابه فصلا منه" فيما يعرف به قرب الماء من بعده وحلوه ومره"، وقد قال في صفته:" هو أحسن كتاب ألف في هذا الشأن، ولا بد لمن أراد قود ماء من موضع بعيد إلى مدينة أو قرية أو نحوها، من تصفح هذا الكتاب، لما فيه من المنافع وقرب المآخذ"[٧]. ونجد أيضًا في رسالة الكندي "في العلة الفاعلة للمد والجزر"[٨]، ذكره لعناصر الدورة الهيدرولوجية كما في وقتنا الحاضر تقريبا. مشيرا إلى مصير هذه المياه، وأشكال ظهورها، وأماكن استخراجها بأشكال مختلفة مثل؛ القنوات الجوفية أو الآبار أو ظهورها تلقائيًا، كالعيون. ويقدم البيروني هو الأخر في مؤلفه "الآثار الباقية عن القرون الخالية" عرضًا علميًا عن المياه الجوفية، محددًا مصدرها وآلية جريانها الجوفي وأشكال وجودها القائم على التحليل الفيزيائي.

غير أن الموضوع بقي مع ذلك قليل الحضور، فكان لابد من انتظار القرن الخامس الهجري، ليحظى بعناية أكبر في عدد من المصنفات في مقدمتها " أصول قسمة الأرضين"[٩] الذي يعتبر إلى جانب عمل أبي بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرجي " إنباط المياه الخفية" أعمالاً مؤسسة شكلت أرضية لمصنفات تناولت قضايا مختلفة لموضوع الماء. حيث ضمن الأول، أول قانون مكتوب في شأن المياه بإفريقية في زمنه، وتناول فيه موضوعات عدة تتعلق بالماء. أما الثاني، فيمكن القول إنه موسوعة فنية في دراسة المياه الجوفية واستثمارها، جمع فيه بين الهندسة العلمية والبرهان الرياضي. وبالنظر إلى أهميته البالغة فقد حضي- بعناية خاصة من طرف المستشرقين[١٠] الذين قاموا بترجمته إلى عدة لغات. أما سبب تأليفه فيذكر الكرجي أنه بعد أن "تصفح شيئا من كتب المتقدمين في الموضوع، ووجدها قاصرة على الكفاية واقعة دون الغاية "[١١]، بدأ في تأليف كتابه هذا. وهو ما جعل الدمنهوري القول في حقه[١٢] في كتابه "عين الحياة"، بأنه من أهم الكتب التي اهتمت بفن استنباط المياه "[١٣].

وبدوره الدمنهوري فإن مصنفه " عين الحياة في علم استنباط المياه" يعد من المؤلفات المتأخرة (القرن ١٢هـ) التي تحدثت بإسهاب عن حرفة استنباط المياه. رغم أنه لم يأت بجديد في كتابه إلا أنه امتاز ببراعته في تلخيص الأصول التي أشارت إلى مسألة استنباط المياه، مع ملاحظة أن أصولها باتت في حكم المفقودة في زماننا. لذلك لا يمنع تأخّره من القول إنه يملك أهمية خاصة بين المؤلّفات التي وضعها علماء الحضارة العربيّة -الإسلاميّة عن المياه والتعامل معها. وأحدث ما ألف في هذا الباب "علم المياه الجارية في مدينة دمشق " أو "رسالة في علم المياه"[١٤] لصاحبه الدمشقي. أوضح فيه أسس علم وتوزيع المياه، وهو مبني على علم الفرائض والحساب، والعلوم الأخرى المساعدة. إلى جانبه ألف الزمخشري كتابا سماه كتاب "الامكنة والمياه والجبال"[١٥] استقى الكثير من

معلوماته مما وجد في أشعار القدماء والمحدثين، ضم قرابة ثلاثة آلاف ترجمة، مستفيدًا من كل المصادر التي تكلمت في ذات الموضوع، وقد وضع الكتاب على الحروف الهجائية، عرف فيه بشكل مختصر بأشهر الآبار والعيون.

وإذا كانت الكتب السابقة قد أسهبت الحديث عن المياه، فإن مخطوطات التراث الإسلامي حفلت أيضا بنصوص وموضوعات هامة تتعلق بالمياه واستنباطها؛ ويتعلق الأمر بكتب الفلاحة والجغرافيا والفقه. فمن بين كتب الفلاحة التي اهتمت بطرائق استنباط الماء وإخراجه إلى سطح الأرض، نذكر" كتاب الفلاحة"[١٦] لابن العوام الإشبيلي، وكتاب "الفلاحة"[١٧] لابن بصال، وكتاب "المقنع في الفلاحة"[١٨] لابن الحاج الإشبيلي، وغيرها من المصنفات التي اهتمت بموضوع الفلاحة على اعتبار الماء عنصر أساس في النشاط الفلاحي وجب تدبيره وكشف منابعه. كما حاز موضوع استنباط المياه كذلك على بعض الاهتمام من كتب الجغرافيا، حيث نجد على سبيل المثال لا الحصر كتاب القزويني "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"[١٩] الذي قدم وصفا للمياه الجوفية بقوله:" ذهبوا إلى أن جوف الأرض فيه منافذ ومسام، وفيها إما هواء أو ماء، فإن كان أصابه مدد من جهة أخرى لا يسع ذلك الموضع تنشق الأرض إن كانت رخوة، ويظهر وجهها إن لم يكن لها قوة الخروج، فيحتاج إلى أن ينحى عنه التراب حتى يظهر كما في القنوات والآبار"[٢٠].

وفي كتب الفقه، تعرض القاضي أبو يوسف في "كتاب الخراج"[٢١]، للعديد من القواعد التي تتعلق بالمياه والتي يمكن أن نعدها قوانين شرعية تحدد العلاقة بين الماء والأرض والإنسان، ومنها؛ أن تنفيذ أي منشأة مائية في ملكية خاصة يجب أن يكون بإذن من صاحب الأرض[٢٢]. أما في صنف علم الريافة، نجد كتاب "علم الريافة"[٢٣] لمؤلفه صالحية محمد عيسى، ومعلوم بأن علم هذا العلم هو أكثر المصنفات التي اهتمت باستنباط الماء بمختلف طرائقه. ومن خلال ما تقدم، يمكن القول بأن المصنفات العربية قد بلغت مبلغًا مهمًا من المعرفة والدراية بخبايا الماء واستنباطه وخصصت لذلك مصنفات خاصة. كما أن الاهتمام بالماء باعتباره حاجة ضرورية في الحياة وعنصرًا جماليًا في العمارة كما تشهد على ذلك المآثر العربية الإسلامية والأندلسية على وجه التحديد، وأساس قيام نشاط فلاحي قوي، دليل على الخروج من أسر النظرة الضيقة التي تحصر فقه المياه في حدود حوض الوضوء وتغسيل الموتى. لكن ماذا عن النصوص المغربية؟

٢/١-قراءة في البيبليوغرافية المغربية

قليلة جدًا تلك النصوص الخاصة بتاريخ المغرب التي تطرقت لاستنباط الماء، وما استطعنا الحصول عليه هو بعض الإشارات القليلة والمعدودة على رؤوس الأصابع متناثرة في النصوص الإخبارية والجغرافية بشكل خاص، يمكن من خلالها إلقاء نظرة على بعض القضايا الخاصة بهذه الحرفة. لذلك فحتى محاولة التأصيل لهذه الحرفة يعد مجازفة لا يمكن المخاطرة بها في ظل شح الإشارات المصدرية.

لا يعرف بدقة متى بدأ الإنسان بممارسة الكشف عن مخابئ المياه عبر التاريخ ولكن يعتقد أنها تعود إلى ٨٠٠٠ سنة مضت، حيث عثر على نقوش مرسومة على جدران كهوف تيسيلي المكتشفة في شمال أفريقيا تصور رجالاً من القبيلة يحيطون برجل يحمل عصا بشكل شوكة. ويفترض أنها استخدمت للكشف عن مخابئ المياه، وتم العثور كذلك على أعمال فنية قديمة في الصين ومصر تصور أناساً يستخدمون أدوات على شكل (y) [٢٤]. ومن المحتمل أن يكون المغاربة القدامى قد استعملوا عدة تقنيات حسية ومادية للوصول إلى مواطن المياه الجوفية خصوصا إذا علمنا أن حانون وسترابون وغيرهم أشاروا إلى جفاف مناطق تواجد الجيتوليين والفيروزيين، فكانت تتزود مداشرها السهلية بماء الآبار[٢٥]. وتبقى هذه الإشارات الخاصة بالفترة القديمة مجرد استنتاجات افتراضية مادامت لا تؤكدها دلائل مادية وثائقية دقيقة وواضحة.

أما أقدم الإشارات الصريحة الموجودة في مصادر تاريخ المغرب الوسيط المتعلقة بحرفة القنقن، نجد نص البكري الذي يعود للقرن الخامس الهجري، والتي أوردها في إطار حديثه عن أعاجيب منطقة غمارة بشمال المغرب، بقوله: " وأخبرني غير واحد أنه رأى بمرسى بادس رجلاً قصير القامة مصفر اللون يكرمه أهل ذلك الموضع ويقدمونه ويذكرون أنه ينبط المياه في المواضع التي لم يعهد فيها ماء عيونًا وآبارًا وأنه يخبر بقرب الماء وبعده وأنه يستدل على ذلك باستنشاق هواء ذلك الموضع لا غير[٢٦] . تبدو إشارة البكري إلى قدرة هذا الرجل على استنباط المياه على درجة عالية من الصحة، كونه توصل بالمعلومة من عدة مصادر. ذلك أن القنقن استدل على أماكن وجود المياه بطريقة -شم -استنشاق الهواء، وهي طريقة فريدة لم تشر إليها كتب استنباط الماء أو كتب الفلاحة

وغيرها، فطريقة الشم التي أوردها ابن وحشية[٢٧]، تتعلق بشم التراب وليس باستنشاق الهواء، وهو ما يطابق الطريقة التي أوردها صاحب نزهة المشتاق[٢٨].

يشير الإدريسي في معرض حديثه عن بغامة، إلى معرفة أهل الصحراء بأماكن وجود الماء وهم عنده برابرة السودان، نقلاً عن أحد التجار كان قد تجول ببلادهم نحوا من عشرين سنة، وأخبره أنه "عاين فيها رجلاً منهم كان يمشي معه في أرض خالية رملية ليس بها أثر للماء ولا لغيره، فأخذ البربري غرفة من ترابها وقربه من أنفه ثم اشتمه وتبسم، وقال لأهل القافلة: انزلوا فإن الماء معكم... وقال احفروا هاهنا فحفر الناس هناك أقل من نصف قامة فخرج إليهم الماء الكثير العذب، فعجب من ذلك أهل القافلة. وهذا مشهور ومعلوم يعلمه أهل تلك البلاد ويحكونه عنهم"[٢٩]. من خلال النص المقدم، يتأكد ما ذكرناه سابقًا بخصوص طريقة شم التراب، التي من خلالها يتعرف القنقن على وجود الماء. ويبدو كذلك أن حرفة استنباط الماء مشهورة في هذه الأقاليم، ويعرف بخصوصها التجار الواصلين إليها، كما يبدو أنها من اختصاص عناصر أمازيغية كما سبق الإشارة إلى ذلك إلى كون الرجل مستنبط الماء بأنه بربري.

وحسب ما توصلنا إليه، أن هذين النصين هما أقدم النصوص التي أشارت إلى مزاولة حرفة القنقن في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط. أما بخصوص الحقبة السابقة للعصر الوسيط، فيؤكد لنا أحد الباحثين بأن المغاربة مارسوا هذه الحرفة منذ فترات قديمة نظرا لقلة المياه في بعض المناطق، خاصة الفلاحين الذين كان همهم منذ القديم استنباط المياه الجوفية، خاصة في المناطق التي تنعدم فيها المياه السطحية، ويصعب استغلالها. ومعلوم أن حفر بئر أو خطارة يكلف الكثير، ولم يكن الفلاح الصغير المتوسط مستعدا للمغامرة والحفر في أي مكان، فكان يلجأ إلى أشخاص يدعون معرفة المياه الباطنية والكشف عنها فيشيرون عليه بالحفر في مكان يعينونه له[٣٠]. والجدير بالذكر؛ أن جل الإشارات التاريخية التي تطرقنا إليها لا تشير إلى اسم الحرفة بل تكتفي بذكر الإشارات الدالة على استنباط المياه في صحراء شمال أفريقيا والتي لا تختلف عما ذكرته مختلف المصنفات التاريخية من كتب استنباط المياه والفلاحة وعلم الريافة.

أما عن الحقبة الموالية للعصر الوسيط، نجد إشارة لهذه الحرفة عند رحالة أوربي زار منطقة الصحراء الساحلية ما بين سنتي ١٥٠٦-١٥٠٧، حيث أسهب في الحديث عن خبرة ودراية سكان المنطقة الواسعة في استنباط المياه من تحت الرمال[٣١]. كما عثرنا على نص آخر يتحدث فيه Emile laoust عن حرفة القنقن، وكذا الشعائر المرافقة للبحث عن الماء من أجل حفر أبار الخطارات، ويعتبرها من فنون السحر[٣٢]. وأورد المختار السوسي نصًا أخر بشأن هذه الحرفة، بقوله: "يقف أحدهم عند مطلع الشمس ويقول في محل بعينه هنا ماء كثير أو قليل قريب أو بعيد ويقولون إنهم يروم في ذلك الوقت وحدهم من بين الناس رؤية بصير عمودًا من البخار ينبعث من الأرض إلى السماء وبقدره يعرفون قلة الماء وكثرته وقربه وبعده والكثيرون منهم يصدقون وكل من جربه الناس منهم لا يكاد يبقى في داره لتطلب الناس إياه من كل جهة لأن العادة أن لا تحفر بئر ولا تستنبط عين إلا بواسطتهم وبإرشاداتهم... ثم إن كل واحد في سوس مومن بعمل هؤلاء فلا يقدم على استنباط ماء إلا تحت نظرهم"[٣٣].

ونشير هنا إلى أن النصوص المغربية غاصت بالإشارات المتعلقة باستنباط الماء لكن في إطار الأعمال الخارقة والكرامات التي اتصف بها بعض الناس، كإشارة البكري إلى كرامات عقبة بن نافع الفهري[٣٤]. وما أورده كذلك الناصري بخصوص زعيم الدعوة المرابطية عبد الله بن ياسين[٣٥]. وإشارة المختار السوسي إلى أحد الصالحين الذي وفد عليه ما يزيد عن الألف من الناس في سنة جذب طالبين منه أن يعين لهم مكان الماء[٣٦]. وغيرهم كثير مما أوردته النصوص التاريخية وكتب المناقب بالخصوص[٣٧]. تبقى الإشارات التاريخية بشأن هذه الحرفة ضعيفة ومتناثرة بالمصادر المغربية، فجاءت هذه المساهمة كمحاولة لإماطة اللثام عن حرفة القنقن المهمشة في البحث التاريخي رغم دورها البارز في حياة المجتمع.

ثانيًا: المعجم اللغوي والطبونيمي

١/٢-المعجم اللغوي

يحمل الباحث عن المياه الجوفية أسماء متعددة تختلف باختلاف المناطق والوسائل التي يعتمدها. وحتى نزيل اللبس عنها كان لابد أن نبحث عن معانيها في معاجم اللغة للتأكد من مدى مطابقة هذه الأسماء لمستنبط المياه الجوفية. ففي معاجم اللغة العربية نجد القنقن هو ذلك الشخص الذي يعرف مقدار الماء في باطن الأرض فيحفر عنه. وقال الأصمعي هو لفظ فارسي معرب. وقال أبو حاتم هو مشتق من الحفر، من قولهم بالفارسية "كن" "كن" أي:

احفر احفر[٣٨]. والقنقن، بالضم هو البصير بالماء تحت الأرض، وهو الدليل الهادي والبصير بالماء في حفر القني، والجمع القناقن، بالفتح. وقال ابن الأعرابي: القناقن؛ البصير بجر المياه واستخراجها وجمعها قناقن، وسئل ابن عباس: لم تفقد سليمان الهدهد من بين الطير؟ قال: لأنه كان قناقنا، يعرف مواضع الماء تحت الأرض، وقيل: القنقن الذي يسمع فيعرف مقدار الماء في البئر قريبًا أو بعيدًا[٣٩]. وهو الذي يعرف الماء في باطن الأرض[٤٠]، وهو كذلك الرجل الماهر المهندس الذي يعرف الماء تحت الأرض[٤١]. والقنقنة حسب المعاجم المعاصرة، هي حس أو فن تقبل الإشعاعات الكهربائية وكشف الينابيع[٤٢].

أما لفظ "النصات " فلم نعثر في المعاجم التي اطلعنا عليها على مطابقته مع حرفة القنقن ولعله صيغة المبالغة لفعل نصت وأنصت وانتصت والإنصات بمعنى السكوت مع الاستماع، ويسمى من له هذه المعرفة اليوم- القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين-، النصات[٤٣]. وفي هذا الصدد يقول الطرماح[٤٤] واصفا الوحش:

يُخَافتنَ بعض المضغ من خشية الردى
وينُصتنَ للسمع انتصات القَنَاقن[٤٥]

يمكن القول انطلاقًا من هذا البيت الشعري أن اسم النصات أطلق على القنقن لقدرته الخارقة على سمع دوي المياه تحت الأرض وهو ما جعل الشاعر يضرب به المثل. وتأسيسًا على ما سبق، فالريافة تطلق على المعرفة النظرية لمواطن المياه الجوفية والممارسة، في حين أن لفظي القنقن والنصات يشيران إلى ممارس الحرفة والذي يعتمد عدة أساليب وطرائق في مهمته.

أما في المجال المغربي، اتخذ اسم الباحث عن المياه الجوفية باللغة الأمازيغية تسميات متعددة؛ أشهرها مافامان: وهي كلمة مركبة من اسمين، جمعها "إد ماف أمان" [٤٦] وتعني "ماف" الباحث أو الذي يجد ما يبحث عنه، و"أمان" يقصد به الماء[٤٧]. أما "ماكامان " فهو الخبير بالمياه وتشمل خبرته الإلمام بعلم الأنواء[٤٨] ومواقع المياه الباطنية وأثر الجفاف والخصب في كميتها الجوفية والتنقيب عنها، وهي معلومات تدخل في مكوناته المهنية. وأطلقت كذلك على الممارس لهذه المهنة اسم "ياف أمان" أي الخبير والعريف بمختلف جوانبها[٤٩]. واتخذ كذلك اسم "أمنير" جمع "أئمنار" وهو الدليل الهادي وكشاف المياه الجوفية[٥٠]. ويطلق عليه كذلك عند أهل أيت عطا بالجنوب الشرقي المغربي ب «بو تغروشت" أي صاحب العصا[٥١]، وذلك نسبة إلى العصا التي يستعملونها عند البحث عن المياه الجوفية. بناءً على ما سبق، تنطوي معاني "مافامان" وماكامان" و"أمنير" و"ياف أمان" و "بوتغروشت" على دلالات ترتبط إما بالبحث والتنقيب والكشف عن المياه الجوفية، أو بالعصا المستعملة في مهمته[٥٢].

٢/٢-المعجم الطبونيمي

رسم الماء المجال المغربي ليس فقط من الناحية الطبيعية عن طريق توزيع الأودية والعيون وغيرها وإنما من الناحية الاجتماعية كذلك حيث حملت أسماء الأماكن والأعلام تاريخا صامتا يبين بجلاء خبايا ما طمسه التاريخ الإخباري[٥٣]. ولعل ما يدل على ذلك هو تردد اسم "مافامان" في مناطق متعددة من المغرب، في حين تحجم المصادر التقليدية عن ذكره إلى حدود أواسط القرن العشرين. ارتبطت حرفة القنقن المعروفة في اللغة الامازيغية بـ "مافامان" بأسر بعينها ذاع صيتها وسط القبائل، وأصبحت القنقنة حرفة يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلا بعد جيل، حيث يحصي المختار السوسي عدة أفراد سملالية بمنطقة سوس مشهود لها بالعلم والتدريس، توارث أبنائها هذه الحرفة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر[٥٤]. وأسرة أخرى حملت لقب ماكامان من قبيلة سكتانة بسوس، كلف أسلافها بمشيخة الماء لفترة طويلة[٥٥]. كما ارتبط اسم ماكامان بأسماء بعض القصور في واحة إقليم الراشيدية الذي يبعد عن كلميمة ببضعة كيلومترات ويقع بمشيخة الحرث بجماعة غريس العلوي[٥٦].

ثالثًا: أساليب وطرائق بحث القنقن عن المياه الجوفية من خلال النصوص

أشاد مجموعة من الباحثين بحذق سكان المناطق الجافة وشبه الجافة في اكتشاف المنابع المائية، فاختيار مكان حفر البئر كثيرًا ما كان يشغل بال ساكنتها لذلك كانوا يتجنبون أحيانًا ركوب مغامرة الحفر أينما شاءوا فيلجؤون إلى بعض الأشخاص المتخصصين في البحث عن الفرشة الباطنية والذين يسمون "بالقنقن" ليشيروا عليهم بالحفر في مكان يعينونه لهم، وذلك باعتماد عدة أساليب منها؛ الطرائق الحسية، أو بالاستعانة ببعض النباتات والحيوانات، أو بالاعتماد على بعض التجارب التي أكدت فعاليتها في تحديد مكامن المياه الجوفية.

٣/١-بعض العلامات الحسية

يستعمل القنقن في التنقيب عن الماء الباطنية على حواسه الخمس؛ البصر، الذوق، الشم، اللمس، والسمع. فبخصوص السمع، يعمد النصاتة خلال بحثهم عن الماء إلى وضع آذانهم على الأرض لسماع صوت المياه، فيخبر بما يتبين له من وجود الماء وعدمه، وقربه وبعده، فإذا حفروا وجدوا الأمر كما وصف[٥٧]، ويستدل على وجود الماء بما يسمع من دوي في الأرض[٥٨]، وما يظهر من ندى على السطح، لأن ذلك الدوي دوي ماء، وإن لم يظهر ندى علم أنه صوت ريح، فإن لم يختلف الصوت ولا انتقل عن حده، فإنه صوت ماء[٥٩].

كما يستعمل حاسة اللمس في تحسس نداوة التربة أو من خلال الوقوف على معطيات محلية كوجود تربة ندية ذات لون أسود أو رمادي، لزجة الملمس، صمغية عند الدلك[٦٠]، كل ذلك يؤكد وجود الماء بشكل وفير. أما إذا كان العكس حيث تبدو التربة خشنة عند الملمس، متشققة، مجردة من أي تشكيل نباتي، لونها أصفر ويميل إلى البياض وتبدو بمظهر طين الفخار حين ذاك يدرك ذوي الخبرة غياب المياه الباطنية [٦١]. وفيما يتعلق بالذوق والشم، يعمل على حفر ثقب بعمق ذراع، وأخذ عينة تربة من العمق ثم وضعها بآنية نظيفة ومملوءة بماء عذب بعدها يتم تذوق هذا المحلول، فإن كان مرا مالحا أو يلسع اللسان فهذا دليل على عدم وجود الماء، أما إذا كانت الملوحة ضعيفة فذلك دلالة وجوده بكمية قليلة ويفيد غياب المذاق قرب الفرشة المائية من السطح. هذا فيما يخص الذوق، أما فيما يخص الرائحة فنص الإدريسي المقدم دليل شافي على استدلال أهل الصحراء عن أماكن وجود الماء عن طريق شم التراب والتي هي من اختصاص عناصر أمازيغية [٦٢].

أما في المغرب فقد أشار الباحث أندري أدام (André Adam) أن مافامان له مكانة بارزة في منطقة تاسريرت[٦٣] وأنه لا يستعمل عود بندق أو نواس وإنما عينيه لرؤية الندى، فكلما كان الندى كثيفا ومستمرا إلا ودل ذلك على قرب الفرشة المائية الشيء الذي يساعده على تحديد تقريبي لعمق تواجدها. في الواقع، يعطي بعضهم أحيانا إشارات دقيقة ومذهلة[٦٤].

٣/٢-النباتات

استعان الإنسان كذلك للاستدلال على وجود المياه الجوفية وانعدامها وكثرتها من قلتها اعتمادا على نمو نباتات معينة على سطح الأرض[٦٥]، حيث إن بعض أنواع النباتات يساعد في الكشف على المياه الباطنية مثال ذلك نبات؛ السّرو وهو من الفصيلة الصنوبرية le cyprès، البطم Le térébinthe[٦٦] ، العوسج La ronce، فقع الذئب Le lycoperdon، الدفلى Le laurier-rose، فوجود جل هذه النباتات يدل على قرب المياه من السطح، ويبقى نبات فقع الذئب الأكثر دلالة على وجود الماء من الأصناف الأخرى. نضيف إلى لائحة النباتات السابقة نبات: الطرفاء أو الأثل Le tamaris، القصب Le roseau، السمّاق Le sumac، العوسج Les ronces، أذن الجدي Le plantain، وكل هذه الأصناف تتكاثر في الأوساط المائية كالبرك والمستنقعات. وهناك أخرى تكثر في الأوساط الشبه رطبة كلسان الثور Le bourrache، النعناع Les menthes، البابونج Les camomilles، الخطمية La ketmie، قزبرة البئر La capillaire des puits، الأسل Le jonc، أبو ملعقة Le souchet، الخبيزة La mauve، النفل الوحشي sauvage Le trèfle. هذا وعندما تتصف هاته الأصناف النباتية ببعض الخصائص من قبيل الكثافة، كثرة الأوراق، واخضرارها الدائم، فذلك خير دليل على وفرة الماء وقربه من السطح بأماكن تواجدها. يشار هنا أن تواجد نباتي القصب Le roseau والعكرش Le chiendent، بالخصوص يؤشر لوفرة وقرب الماء العذب من السطح بشكل مهم[٦٧].

ومن الأعشاب والنباتات التي استعان بها المافامان للكشف عن المياه، نجد؛ الكرويا والقطف أو إكليل الملك الذي يعرف محليا ب ودينة النعجة »أي أذن الشاة. وكل هذه النباتات تعني وجود المياه الجوفية بكثرة في أماكن ظهورها، وهذا يطابق ما ذكره ابن العوام حول حفر الآبار أنه: "يستدل على ذلك بأنواع من النبات، وبلون وجه الأرض، وبطعمه وبريحته، وغير ذلك مما يذكر بعد"[٦٨].

٣/٣-الحيوانات: (النمل، طائر القطا، الفيل)

تسمح مراقبة النمل بأخذ فكرة عن وجود المياه الجوفية. فالنمل الكبير الحجم والمتثاقل المشية يفيد بأن الماء سيكون عذبًا وليس ببعيد، أمّا وإن كان هذا الأخير سريع الحركة فهذا دليل على أن الماء عميق وأجاج[٦٩]. وهناك مَنْ يضيف أيضًا لون وكثافة النمل كمعيارين لوجود وعذوبة الماء[٧٠]. كما كان العرب قديما إذا استبد بهم العطش ولم يعثروا على ماء، اجتهدوا كذلك في استنباط وسيلة أخرى يطفئون بها ظمأهم، وهي أن يلاحقوا طير القطا الذي كان يعيش

معهم في البيئة نفسها ويعاني مثلهم الظمأ وذلك للاستدلال به على منابع الماء، فكانوا إذا وقعت عليه أعينهم يقتفون أثره بأقصى سرعة لئلا يغيب عن أبصارهم حتى إذا بدأ ذلك الطائر يرخي أجنحته أثناء الطيران قصد تحديد الهدف، علموا أنه عثر على ماء وعندئذ يضاعفون من سرعتهم ويحاولون سبقه إلى منبع الماء، فيشربون قبله ويتركون له إلا ما زاد على حاجتهم[٧١].

أما الفيل فيتميز رغم ضخامته، بحساسية خاصة تجعله قادرًا على تحديد الموقع الذي تقترب فيه المياه الجوفية من سطح الأرض. ففي أوقات الجفاف تحافظ الفيلة على حياة وبقاء جنسها بالبحث عن مصادر الماء القريب من السطح باستخدام خراطيمها التي تلعب دور قرون الاستشعار، وعندما تحدد الموضع المناسب تدك الأرض بأقدامها الثقيلة حتى تصل إلى الماء ويفسر البعض هذه الظاهرة أن للفيلة القدرة على شم الماء المتدفق تحت الأرض[٧٢]. والحال يبدو أن الطبيعة تحمل في ذاتها بصمات قوية، مفادها أن الإنسان يتحتم عليه كشف الأسرار حتى يلج عوالم الطبيعة ويستلم مفاتيحها.

٤/٣-بعض تجارب للتأكد من وجود الماء

لم يقتصر البحث عن الموارد المائية الجوفية على الدلائل الحسية والحيوانية والنباتية فقط، إذ غالبًا ما يتم الاسترشاد بعدة تجارب قبل أخذ مغامرة حفر البئر، وتراعي هذه التجارب مكونات سطح القشرة الأرضية والطقس وتفاوت الحرارة والرطوبة بين الليل والنهار، وتأثير ذلك على الماء. ومن التجارب التي أكدت النصوص جدواها في الاستدلال على وجود المياه؛ أخذ سحيق غبار ويغبر به وجه حجارة في الموضع الذي شك فيه، حتى يستر وجه الصخرة، ثم ينظر غدوة فإن رأى الغبار قد تندى، علم أن في الموضع ماء كامنا، وبقدر نداوة ذلك التراب يستدل على قلة الماء وكثرته وقربه[٧٣]. ومن حفر حفرة مدورة صحيحة الاستدارة قدر أربعة أذرع، ورمى فيها من القصب الفارسي خمسين قصبة، وحرقها بالنار ثم كب فيها الوعاء الذي تقدم ذكره إلى أخر العمل المتقدم ظهر له الحال[٧٤] .

وتواترت في كتب الفلاحة الأندلسية تجربة للتأكد من وجود الماء بموضع ما مفادها[٧٥]، حفر حفرة على عمق ثلاثة أذرع واتخاذ كرة معدنية مجوفة تسع بعشرة أرطال من الماء، وتطلى من الداخل بالشمع المذاب أو الزفت، ويلصق بقاعها صوف مغسول يربط بخيط، ثم يقلب الإناء في أسفل الحفرة على ألا يلامس الصوف الأرض، وتغطى الكرة بورق غض على ارتفاع لا يتجاوز الذراع الواحد، ويرد التراب على الحفرة وتقام العملية عند الغروب، وقبل شروق اليوم الموالي يزال التراب والعشب، ويقلب الإناء فإن كان الصوف قد ابتل بالماء والإناء كذلك، علم أن في ذلك الموضع الماء الكثير ثم يستطعم الماء الذي في الصوفة، فإن وجد عذبا فماء ذلك الموضع عذب وإن كان مرا أو مالحا، فماء ذلك الموضع كذلك، وإن لم تجد في الصوفة ماء وما رأيت في ذلك الموضع من العلامة شيء فاعلم بأن ذلك الموضع لا ماء فيه البتة[٧٦]. أما التمييز بين تفاوت المياه في الخفة فكان يتم بأخذ خرقتين من ثوب واحد وتغسلان في ماءان، فاليابسة قبل الأخرى ماؤها أخف[٧٧].

ومن طرائق الاستدلال كذلك على وجود الماء في باطن الأرض ما ذكره ابن وحشية في الفلاحة النبطية أن يؤخذ إناء على صفة الدست[٧٨] من الخزف، يسع أحد وعشرين رطلا[٧٩] من الماء، ويجعل في أسفله من داخل قطعة زفت، ويحكم لصقها، ويلصق في الزفت قطعة صوف بيضاء منفوشة، ويمسح داخل الإناء بالزيت الشامي، ثم يحفر حفرة في الأرض، ويكب الوعاء على رأسه في تلك الحفرة ثم يوضع عليه التراب، ويدك دكًا جيدًا ويترك يوما وليلة، ويخرج ثاني يوم قبل طلوع الشمس، فإذا وجدت الصوفة مبتلة داخل الإناء كذلك، فإن الماء كثير قريب، وإن كان الأمر بخلاف ذلك، فإن الماء يكون بخلاف ذلك[٨٠]. وذكر هذه الطريقة أيضا ابن بصال مع اختلاف في طبيعة المادة التي يكون منها الإناء حين قال إن الإناء يكون من نحاس أو من رصاص[٨١].

٥/٣-طريقة الأغصان

يستعمل القنقن في بحثه عن المياه الجوفية عدة أنواع من أغصان الأشجار المختلفة، مثل أغصان شجرة الزيتون والبلوط والإجاص والخوخ والتفاح وكل الأشجار ذات الأغصان الرخوة، ويعتبر غصن شجر البندق والبلوط والتفاح الأكثر فعالية ثم يأتي بعدهما البرقوق والقسطل[٨٢]. ويكون هذا الغصن على شكل حرف(y) يحمله الشخص أمام جسمه موازيا لسطح الأرض وتقبض كل يد على فرع من فروع الغصن، ويمتد الفرع أمام الجسم ويجعل عضلاته على نوع من التوتر بحيث تكون أكثر استجابة للتأثيرات الخارجية ... إن درجة دوران الغصن حول نفسه تكشف عن مدى عمق خزان الماء[٨٣]. أما بخصوص الطرائق المستعملة بالمغرب للتنقيب عن المياه فغالبًا ما تعتمد كما أكد ذلك محمد

حجاج الطويل، وخاصة بالجنوب المغربي على سعف النخل أو أغصان الزيتون والتين الطرية وأحيانا على حفنة شعير، أو ليقة صوف وفي أحيان أخرى الاكتفاء بملاحظة المكان وفحصه عند شروق الشمس وغروبها[٨٤].

٣/٦-طريقة النواس

أفضت مسألة التنقيب عن المياه الجوفية إلى استخدام طرائق حديثة لإيجاد مصادر جديدة للمياه، باستخدام أدلة جيولوجية جنبا إلى جنب مع القياسات الجيوفيزيائية في تحديد مناطق واسعة للثروة المائية. ويعد النواس أو الرقاص Le pendule من الأدوات الفيزيائية التي استعملت منذ القديم في أغراض التنجيم، لكن ومنذ القرن ١٩م صار يستخدم في البحث عن الماء بل وحتى الكشف عن بعض الأمراض. لقد قام الدكتور (Ledke) وهو عضو بمعهد الطب التجريبي بمدينة القديس بطرس (Saint-Petersbourg) بروسيا، سنة ١٨٩٦م بتجربة فريدة في رغبة منه للتأكد هل سرعة الحركة التي تحدث للنواس (Le pendule) عند حمله باليد مردها إلى الموجات المغناطيسية التي تنبعث من الجسم البشري، إيمانا منه أن خاصية التنقيب سواء عن الماء أو المعادن هبة لا يختص بها فرد دون الآخر، هكذا خلص بعد أخذه لصور سينية (cliché photographiques) لأيادي مجموعة من الأشخاص داخل غرفة مظلمة نسبيًا، أن الأشخاص المصابين بالوهن والعياء تظهر صفائح الذبذبات (les plaques des ondes odiques) وجود موجات ضعيفة، بينما تظهر صور أيادي الأشخاص المتسمين بالحيوية والنشاط وجود موجات قوية مما يجعل النواس المحمول يلتف بسرعة[٨٥].

رابعًا: المكانة الاجتماعية للقنقن

لا يختلف اثنان في القول إن الحرف بشكل عام شكلت عنصرا أساسيا في الحياة الاقتصادية للمجتمعات البشرية، ذلك أنها تلبي جل حاجاته المعيشية. وقد حظيت الحرف المتعلقة بالماء أهمية كبيرة ومكانة متميزة بالمناطق الجافة وشبه الجافة التي تقل فيها المياه، ونخص بالذكر هنا، حرفة "القنقن".

ويؤكد أحد الباحثين على أن هؤلاء المنقبين يحظون بمكانة مهمة خاصة من طرف الفلاحين، بقوله: "ويسمي الفلاحون اليوم هؤلاء المدعين مهندسين ويحظون بمكانة اجتماعية وتكريم واحترام، وقد كانوا كذلك منذ العصر الوسيط الأعلى، فإكراهات ذلك الزمان هي نفسها اليوم في هذا المجال وكأن هذه الفئة من الفلاحين ما تزال تعيش في العصر الوسيط.[٨٦] وهو الأمر الذي ورد عند البكري، بقوله: "...وأخبرني غير واحد أنه رأى بمرسى بادس رجلاً قصير القامة مصفر اللون يكرمه أهل ذلك المواضع التي لم يعهد فيها ماء عيونا وأبارًا. وأنه يخبر بقرب الماء وبعده وأنه إنما يستدل على ذلك باستنشاق هواء ذلك الموضع لا غير..."[٨٧]. نفس الأمر أكده باحث آخر، قائلا: "يبدو أن تقنيات البحث عن المياه الجوفية واستنباطها على شكل عيون أو أبار كانت معروفة ببلاد المغرب إذ تحدثت المصادر عن وجود هؤلاء المنقبين بكل من الريف في مرسى باديس وبالصحراء خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، مما يعني تواجدهم على مستوى مجموع المغرب وكانت لهم بسبب خبرتهم مكانة اجتماعية هامة."[٨٨]

ومن العادات التي كانت ترافق عملية بحث القنقن عن المياه الجوفية بالمغرب، ذبح كبش عند وصوله طالبين منه الحصول على عيون المياه، وعند وصوله إلى مكان الماء يضرب بعصا الأرض ويدعوهم للإتيان ببعض الأحجار التي يضعها في مكان الضرب ويقول هنا موضع الذبح ويقوم بنفسه بعملية الذبح، وطيلة مدة الحفر يتناوب السكان في تغذيته وكل من لم يلتزم بذلك يؤدي ذعيرة لفائدة الجماعة[٨٩]. ولتسهيل مهمته تقدم له وجبة تاكلا[٩٠] التي تؤكل مع الزيت أو الزبدة التي توضع في حفرة صغيرة، وبعد قول بسم الله يضع القنقن يده وسط الحفرة وتحمل هذه الممارسة دلالة تنبؤية كبيرة[٩١] فالحفرة، وسط الوجبة، تحمل دلالة الفرشة المائية المبحوث عنها[٩٢].

وغالبًا ما يتم تكريم المنقب عن المياه الباطنية بإعطائه مقدارا من الأرض، أو نوبة من السقي. وقد جاء في هذا السياق عند المختار السوسي في كتابه "خلال جزولة" ما تم ذكره وخاصة فيما يتعلق المقدار من الأرض الذي يتم إعطاءه للنصات، ما يلي: "في عهد الشيخ محمد بن إبراهيم، و قد اشتهر عند الناس أنها ما سميت (تيملت) إلا نسبة لقبيلة (أملن) وذلك أن الشيخ يحيا بن عبد الله الدويملالني كان أناس من قرية (تانصيلت) هناك اقترحوا عليه أن يريهم عينا فيعطونه مقدرا من الأرض وما يكفيه من الماء ثم خفروا العهد بعد خروج العين، فقال الشيخ للعين إنني و هبتك لسيدي محمد بن إبراهيم التامانارتي فإذا بها نبعث من (تمانارت)".[٩٣] وعليه، يمكن القول إن حرفة القنقن حظيت على مر المراحل التاريخية بمكانة هامة داخل

المجتمع المغربي وفي الأوساط الطبيعية الجافة على الخصوص. خاصة وأنها حرفة يصعب للأشخاص العاديين القيام بها. ذلك أن هناك من يقول إنها موهبة من الله، لا يتدخل فيها كما يقال الجانب الخرافي والشعوذة. إلا أن طقوس مافامان تبين جانب مركب من الأسطورة والدين والتجربة.

خامسًا: القنقن في الزمن الراهن

واليوم مازالت حرفة القنقن قائمة ليومنا هذا نظرًا لما يكتسيه الشخص العارف بخبايا المياه الجوفية من احترام وتقدير من طرف المجتمع رغم تطور الأساليب والتقنيات الحديثة للكشف عن المياه الجوفية، وهذا راجع بالأساس لاعتقادات مجتمعية يجتمع فيها ما هو واقعي بالخرافة. فالمجتمع المغربي يؤمن ببركة "القنقن" وقدرته الخارقة وهي التي يمكن تفسيرها علميا بدورة الدم في جسم الإنسان وعلاقتها بالأيونات الخاصة بالماء، إذ أن مافامان شخص يحس ويشعر بقرب وبعد ووجود المياه الجوفية. حيث يزداد الطلب على مافامان بالمناطق الجافة وشبه الجافة، لدى نرى هذا الاسم وارد في ذهنيات المجتمع بالجنوب المغربي والتي وهبت لهم دون غيرهم تشريفا لهم ولأسرهم.

خَاتِمَةٌ

تعتبر حرفة القنقن من أهم الحرف التي عرفها التاريخ الاجتماعي الإسلامي بشكل عام والتاريخ المغربي بشكل خاص، نظرًا لارتباطها الكبير بالماء. إلا أنها اليوم تستلزم بشكل دقيق دراسة سوسيولوجية محضة خصوصًا وأنها مهددة بالاندثار في الفترة الراهنة أمام انتشار تقنيات التنقيب الحديثة بالبلدان المتقدمة، ومع ذلك فهذه الحرفة ستظل حاضرة ببلدان المناطق الجافة والشبه جافة ويفسر ذلك بقلة الإمكانات من جهة، وباستمرار ربطها بتفسيرات ميتافيزيقية من جهة أخرى. ومن بين ما خلصنا إليه كذلك أن حرفة القنقنة، قد شكلت أهم الحرف المرتبطة بالماء، واهتمت بها النصوص العربية، وألف فيها مصنفات مازالت تحظى إلى اليوم بالعناية والدراسة العميقة من قبل الغربيين. حيث شكل موضوع أبحاث علمية مهمة أماطت اللثام عن كثير من الخبايا التي ارتبطت بها. في حين اعتبرها البعض ضربًا من ضروب السحر والعرافة. والتاريخ المغربي وإن كان لا يوفر النصوص اللازمة والكافية من أجل سبر أغوار المجتمع بكل حيثياته وطبقاته، فمن شأن توسيع مجال الوثيقة التاريخية نحو مضان جديدة وحديثة الاستعمال أن يسهم في تكوين صورة على أوضاع مختلف الفئات المجتمعية في كل العصور.

الهَوامِشُ:

(١) **الاستنباط**، لغة هو الاستخراج، وانبط الحفار: أي بلغ الماء ومعناه (الاستنباط): علم تعرف منه كيفية استخراج المياه الكامنة في الأرض، ومنفعته إحياء الأرض والنبات والحيوان. ولهذا أطلق على استخراج المياه من باطن الأرض بالإنباط أو الاستنباط، وكل شيء أظهرته بعد إخفائه فقد أنبطته واستنبطته، والنبط أول ما يظهر من ماء البئر إذا حفرتها. أحمد بن عبد النعيم الدمنهوري، **كتاب عين الحياة في استنباط المياه**، حققه وشرحه محمد بهجة الأثري، مطابع عكاظ، ١٩٨٩، ص. ٣٠-٨. علي بن إسماعيل أبو الحسن ابن سيده، **المخصص**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج ١٠، ص. ٤٠-٤١.

(٢) أبو بكر أحمد ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، تحقيق توفيق فهد، جزءان، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، د ـ ت.

(٣) نفس المصدر، ص. ٥٤ -٦٥.

(٤) عبد الرحمان ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق عبد السلام الشدادي، نشر بدعم من وزارة التربية الوطنية والبحث العلمي، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠٠٥، ص. ١٠٣.

(٥) أبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي، **البئر**، تحقيق رمضان عبد التواب، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.

(٦) ابن حجاج الاشبيلي، **المقنع في الفلاحة**، تحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية، منشورات مجمع اللغة العربية، الأردن، عمان، ١٩٨٢، ص. ٥٥١.

(٧) المصدر نفسه، ص. ٨.

(٨) أبو يعقوب الكندي، **رسالة في العلة الفاعلة للمد والجزر**، حققت الرسالة ضمن مجموعة رسائل الكندي الفلسفية، بعناية محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة: دار الفكر العربي، عام ١٣٠٨ هـ / ١٨٩١ م-١٣١١هـ / ١٨٩٤ م- ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م-١٣٧٢هـ / ١٩٥٣ م .

(٩) أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي، **أصول قسمة الأرضين**، تحقيق الشيخ بيكر بن محمد بلحاج وصالح ناصر، جمعية التراث، المطبعة الغربية، الجزائر، ١٩٩٧.

(١٠) ورد ذكر الكتاب لدى مجموعة من المستشرقين. بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة السيد يعقوب بكرو ورمضان عبد التواب، دار المعارف، د. ت، ج ٤، ص. ١٩١. **وتاريخ التراث العربي** لسيزيكن Segni, **des arabischen shrifttums**, band v mathematik, jeiden e. j, brill,514, p.328. ويشيران هذان الكتابان إلى وجود ثلاث نسخ للكتاب في الهند. حيث نشر أول مرة في حيدر آباد عام ١٣٠٩هـ كما ورد ذكره في dictionary yofi scientific biography. ترجم إلى عدة لغات؛ منها الفرنسية، (Al Kragi-Mohammad), **la civilisation des eaux cachées traite de L'EXBLOITATION des eaux**. Souterraines, texte établl, tradult et gomment par Aly mazaheri. وترجم إلى الألمانية-Weidman bietrage Zur geschichte des natur wissens chaftan v. 1905 bd 37, xiv 1908 bd كما ترجم قسماً من الكتاب إلى الإنجليزية FR. BRUIN. surveying and surveying instruments BEING chapters 26;27;28 and 30 of the BOOK ON fining hidden by Abu Bakr Muhammad al- garage English edition, Beirut 1970.

(١١) أبي بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرجي، **إنباط المياه الخفية**، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ط ١، حيدر آباد، ١٣٥٩هـ، ص. ٢.

(١٢) أبو العباس أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري، نسبة إلى دمنهور بمصر، ولد فيها سنة ١١٠١هـ، ونشأ يتيما ولا وزر له وكان ذكيا فهما، وفي نفسه طموح وعزمن ووجد في اكتساب العلم والتحلي بحيلته ما يخرجه من واقع حاله إلى ما يطمح إليه من الرفعة والمجد والعلم. فنزح إلى الأزهر صغيرا ولم يكفله أحد. اجتهد في تحصيل العلم، واشتد ولعله بالفقه، واجتهد في التعرف على المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة، وعني بعلوم الهندسة والمساحة والهيئة (الفلك) والميقات، وصنع المزاول والحساب...إلخ. ترجمة محقق الكتاب، محمد بهجة الأثري، ص. ١٤.

(١٣) أحمد عبد المنعم الدمنهوري، **عين الحياة في علم استنباط المياه**، تحقيق محمد بهجة الأثري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مطابع عكاظ، الرباط ١٩٨٩، ص. ٩-١٠.

(١٤) محمد حسين العطار الدمشقي، **علم المياه الجارية في مدينة دمشق أو رسالة في علم المياه**، دار قتيبة للطباعة والنشر، ١٩٨٤.

(١٥) محمود بن عمر الزمخشري، **كتاب الأمكنة والمياه والجبال، تحقيق إبراهيم السامرائي**، مكتبة سعدون، بغداد، د ت.

(١٦) ابن العوام الإشبيلي، **كتاب الفلاحة**، باعتناء بانكوري، ١٨٠٢.

(١٧) الحاج أبو عبد الله إبراهيم ابن بصال، **كتاب الفلاحة**، مخطوط خ.ع. الرباط، رقم ١٤١٠ د، و٣. نشر وترجمة وتعليق، خوسيه بيكروسا ومحمد عزيمان، مطبعة مولاي الحسن، تطوان، ١٩٩٩.

(١٨) ابن حجاج الإشبيلي، **المقنع في الفلاحة**، تحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية، منشورات مجمع اللغة العربية، الأردن، عمان، ١٩٨٢.

(١٩) زكريا بن محمد القزويني، **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

(٢٠) المصدر نفسه، ص. ١١٨.

(٢١) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، **كتاب الخراج**، ط ٢، القاهرة، ١٣٥٢.

(٢٢) المصدر نفسه، ص. ٩٧.

(٢٣) محمد عيسى صالحية، **علم الرياقة عند العرب**، الكويت، ١٩٨٢.

(٢٤) عبد العزيز بن عبد الله محمد، **الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي**، ج ٣، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المحمدية، ١٩٩٦، ص١٩٨.

(25) Stephan Gsell, **histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, librairie Hachette.5,Paris,1927,p.242.

(٢٦) عبيد الله البكري، المسالك والممالك، دراسة وتحقيق زينب الهكاري، الرباط نت، ٢٠١٢، ص. ٢٠٣.

(٢٧) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، مص. س، ص. ٥٨.

(٢٨) الإدريسي الشريف، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، م ١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص. ٢٧.

(٢٩) محمد بن محمد الشريف الإدريسي، **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**، مأخوذ من كتاب نزهة الآفاق في اختراق الآفاق، بريل، ليدن، ١٨٦٦، ص ١١.

(٣٠) محمد حجاج الطويل، الري والزراعة المسقية في الجنوب المغربي، **مجلة أمل**، العدد ٢٣، ص.٨.

(31) Valentin Fernandes, **Description de la cote d'Afrique de Ceuta au Sénégal (1506-1507)**, Larose; Paris, 193, p. 73 et 75.

أورده حسن حافظي علوي، **طرق الاستدلال على وجود الماء وتدبير قلته ودفع مضاره بصحراء بلاد المغرب في العصر الوسيط**، ندوة الماء والتعمير ببلاد المغرب في العهدين القديم والوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ٢٠٠٩، ص. ١٨١-١٩١.

(32) Emile Laoust, **contribution à une étude de la toponymie de haut atlas, Adrar n Derain d'après les cartes de jean Driesch**, librairie orientaliste, Paul Geuthner, 1942, p.257.

(٣٣) محمد المختار السوسي، **المعسول**، ج ١٥، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٩٦١، ص. ١٨٧.

(٣٤) أبو عبيد الله البكري، **المغرب في بلاد إفريقية والمغرب**، ص ١٤.

(٣٥) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج ٢، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص ١٩.

(٣٦) محمد المختار السوسي، **المعسول**، م س، ج ١٦، ص. ٦٣.

(٣٧) على سبيل المثال ما أورده، ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد توفيق، ط٢، ١٩٩٧. ص. ٣٦٠-٣٦١. كذلك **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، للبادسي، تحقيق سعيد اعراب، ط ٢، المطبعة الملكية الرباط، ص. ٨٤. ١٤١

(٣٨) أبي منصور الجواليقي، **المعرب من كلام الأعجمي على حروف المعجم**، ط.٢، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب، ١٩٦٩، ص.٣٠٩. أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، **جمهرة اللغة**، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٨٧، ص. ٢٢٠.

(٣٩) محمد ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥، ج١٣، ص.٣٥٠.

(٤٠) شهاب الدين أحمد الخفاجي، **شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل**، مطبعة الوهبية، مصر، ١٣٨٣ ه.

(٤١) أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، **الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي**، دراسة وتحقيق عبد المنعم طوعي بشناتي، دار البشائر الإسلامية بيروت، ١٩٨٨، ص.١٩٢-١٩٣. المعجم الوسيط، ص. ٧٢.

(٤٢) إدريس سهيل، **المنهل قاموس فرنسي-عربي**، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٧، ص.١٠١٠.

(٤٣) عبد المنعم الدمنهوري، **كتاب عين الحياة في علم استنباط المياه**، تحقيق وشرح محمد بهجة الاثري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث، مطابع عكاظ، ١٩٨٩، ص.٨.

(٤٤) هو الطرماح بن حكيم بن الحكم، ويكنى أبا نفر، شاعر إسلامي كان معلما في الكوفة، وكان يرى رأي الخوارج، وكان هجاء، معاصرًا للكميت صديقًا له، لا يكاد يفتر، توفي سنة ١٢٥هـ. الأزهري أبي منصور محمد بن أحمد، مرجع سابق، ص. ١٩٢.

(٤٥) محمد ابن منظور، المصدر السابق، ص. ٣٥٠.

(٤٦) أصل الكلمة من حرف الدال التي تفيد الإضافة والانتماء لشيء أو جماعة، أو من الدال التي تفيد الجمع في بعض الأسماء التي تجمع على غير القياس العادي، مثل إيد بو إيقريض (أصحاب المال)، إيد علي...وفي هذه الحالة تفيد الانتماء إلى جماعة والارتباط بها بقرابة ليست دائما دموية، قد تكون تحالفية أو جغرافية أو أي نوع أخر من العلاقات. الحسين أسكان، "إيد"، في: **المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته**، إشراف محمد حمام، ج.١، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ٢٠٠٤، ص. ٨٥-٨٦.

(47) Brahim Hamek, **introduction à la réalisation d'un dictionnaire amazigh-amazigh à base Kabyle**, thèse Doctorat sous-direction de M. Kahlouche Rabah, université Mouloud Maammri Tizi Ouzou, soutenue le 23 février 2012, p. 212.

(٤٨) جمع النوء، ومعناه سقوط نجم من النجوم في المغرب مع الفجر، وطلوع نجم آخر منها يقابله من ساعته في المشرق. وسقوط كل نجم منها يكون في ثلاثة عشر يوما ولابد لكل نجم من مطر أو ريح أو برد أو حر. فينسب إليه. الدينوري بن قتيبة، **الأنواء في مواسم العرب**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988، ص.6-7.

(٤٩) محمد ماكامان" ماكامان"، **معلمة المغرب**، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، الجزء العشرين، ٢٠٠٤، ص. ٦٩٠١.

(٥٠) محمد شفيق، **المعجم العربي الأمازيغي**، منشورات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة معاجم، مطبعة الهلال العربية، ج.٢، ١٩٩٦، ص.١٨٤.

(٥١) امحمد امهدان، **المصطلحات الخاصة بتوزيع المياه عند قبائل أيت عطا بالجنوب المغربي**، في: **المصطلحات الجغرافية الأمازيغية**، تنسيق حسن رامو، منشورات المعهد المالكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، ٢٠١١، ص. ١٣٣-١٤٢.

(٥٢) محمد مسكيت، "مافامان" في تاريخ الجنوب المغربي، **أنظمة السقي التقليدي بالجنوب المغربي**، ضمن أشغال الندوة التي نظمها مركز أكلو للبحث والتوثيق بتاريخ ١٩ مارس ٢٠١٦، صص.٢٩-٤٧.

(٥٣) محمد مسكيت، م. س، ص. ٣٢.

(٥٤) محمد المختار السوسي، **المعسول**، ج ٥، ص. ٢٥٢-٢٥٤.

(٥٥) المصدر نفسه.

(٥٦) محمد ماكامان، مادة ماكامان، **معلمة المغرب**، مطابع سلا، ج ٢٠، ص. ٦٩٠١.

(٥٧) عبد المنعم الدمنهوري، مص. س، صص.٧-٨.

(٥٨) ابن وحشية، **الفلاحة النبطية**، ص. ٥٧.

(٥٩) المصدر نفسه، ص.٥٧.

(٦٠) المصدر نفسه، ص. ٥٨.

(61) Robert Ambroggi, **L'apport arabe à la civilisation de l'eau et à la renaissance européenne (622 J-c,2000)**, Publication de l'académie du royaume du Maroc, Rabat, 2006, P.96.

(٦٢) الإدريسي، مص. س، ص. ١١.

(٦٣) منطقة نواحي تيمكشيت بأحواز مدينة تافراوت.

(64) Adam André, **la maison et le village dans quelques tribus de l'Anti Atlas, collection Hespéries publications Institut des hautes études marocaines**, n.13, Paris,1951, p. 37.

(٦٥) عبد الهادي البياض، **تقنيات استخراج المياه وترشيد استغلالها في ضوء الأدبيات الفلاحية الأندلسية**، هسبيريس تامودا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، العدد ٤٤، ٢٠٠٩، ص.ص.٧١-٨١.

(٦٦) تم الاعتماد في ترجمة أسماء النباتات على إدريس سهيل، المنهل قاموس فرنسي-عربي، دار الآداب، بيروت،٢٠٠٧.

(٦٧) ابن العوام، مص. س، ص. ٥٣١ Ambroggi, L'apport arabe Robert à la civilisation, Op Cit., pp. 96-97.

(٦٨) ابن العوام الإشبيلي، مص. س، ص. ٥٢٥.

(٦٩) الطغرني، المصدر السابق، ص. ٧٨.

(٧٠) الإشبيلي أبو الخير، **كتاب في الفلاحة**، المطبعة الجديدة الطالعة، فاس، ١٩٧٢م، ص.٥-٦.

(٧١) سلامة عبد الحميد، **قضايا الماء عند العرب قديما**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص. ٦٩.

(٧٢) عبد العزيز بن عبد الله محمد، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٠٩.

(٧٣) ابن العوام الإشبيلي، مص. س، ص.٥٢٥.

(٧٤) الدمنهوري، مص. س، ص.٣٨.

(٧٥) سعيد بنحمادة، **الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين ١٣و١٤م، إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات**، دار الطليعة، بيروت،٢٠٠٧، ص. ٢٠٦.

(٧٦) الطغرني، المصدر السابق، ص. ٧٦-٧٧. ابن ليون، **إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة**، مخ خ ح الرباط، رقم.١١٨٧٢. ص.٢٨٩.

(٧٧) ابن ليون التجيبي، **إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة** «المختصر تحت اسم»: **كتاب في علم الفلاحة لابن ليون**، تحقيق سعد بن أحمد، مطبعة النجاح، الجديدة، ٢٠٠١، ص.٢٨٩.

(٧٨) الدست والطست وتشت وطشت: لفظ فارسي يعني اليد حسن حلاق وعباس الصباغ، **المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية**، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٩، ص. ٩١. والدست عند الخفاجي في شفاء الغليل يعني في الفارسية اليد وفي العربية له معان أربع اللباس والراسة والحيلة ودست القمار وهو "القدر" وتستعمله العامة لقدر النحاس. الخفاجي شهاب الدين أحمد، مصدر سابق، ص.ص.٩٧-٩٨.

(٧٩) رطل: هو الذي يوزن به ويكال وهو الوعاء الذي يشرب فيه الخمر. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، ج ٥، الدار المصرية القاهرة. بتصرف.

(٨٠) الدمنهوري، استنباط المياه، ص ٣٨، وابن حجاج، المقنع في الفلاحة، ص ٩٣أ-٩٣ب.

(٨١) ابن بصال، الفلاحة، ص ١٧٥-١٧٦.

(82) Jean Yves Durand, **la baguette de sourcier, du coudrier aux matériaux composites, et retour et retour**, dans ; actes du séminaire d'ethnobotanique de Salagon, 2002: L'arbre dans l'usage et l'imaginaire du monde, V. 2. Edition, Les Alpes de lumière, F rance, 2004, pp. 199-202.

(83) Jean Yves Durand, op. cit., p. 208-209.

(٨٤) محمد حجاج الطويل، الري والزراعة المسقية بالجنوب المغربي، **مجلة أمل**، العدد ٢٤،٢٠٠١، ص.٨.

(85) Jean Doisy, **Sourciers ou Sorciers**, Edition Dupuis. Fils et Cie, CHARLEROI, Paris,2004, pp.14- 15.

(٨٦) محمد حجاج الطويل، المرجع السابق، ص.٨.

(٨٧) عبيد الله البكري، مص. س، ٢١٢.

(٨٨) الحسين أسكان، **تكنولوجيا التحكم في الماء**، مجلة امل، العدد ٢٣، ٢٠٠١، ص.١٩.

(89) Emile Laoust, **mot et choses Berbère**, Notes de linguistique et d'ethnographie dialectes du Maroc, Augustin CHALLAMEL, Editeur librairie maritime et coloniale, 1920, pp. 425-426.

(٩٠) تاكلا؛ أكلة محلية يقابلها بالدارجة العصيدة التي غالبًا ما تهيأ انطلاقًا من الحبوب.

(91) Emile Laoust, **contribution à une étude...**, op cit., p. 257.

(٩٢) محمد مسكيت، م س، ص. ٣٦.

(٩٣) محمد المختار السوسي، **خلال جزولة**، ج٣، دون طبعة، دون تاريخ، ص.١٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

الدراسة الوصفية والدلالة الرمزية لبعض المصابيح الزيتية القديمة المحفوظة بمتحف (مينارف) تبسة

عماج بلقاسم
أستاذ الآثار - قسم العلوم الاجتماعية والإنسانية
جامعة إسطنبولي مصطفى
ولاية معسكر – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تختلف المصابيح المعروضة بمتحف تبسة (الجزائر) باختلاف أنواعها، حيث تعكس جوانب الحياة اليومية لصانعها ومستخدمها عبر مر العصور، فهي تعتبر بوابة الزمن الذي يساعدنا على كشف أسرار حياتهم ومعتقداتهم التي آمنوا بها. من حيث دراسة الدلالة الرمزية التي يحملها كل مصباح، فإنها تعطي نظرة شاملة حول المعبودات التي كانت سائدة خلال الفترة الرومانية، حيث يعتبر تشبيه الرومانيين لألهتهم بالبشر في الواقع تقديرا كبيرا لقيمة معبودهم من جهة، وتأليه لصفات البشر بالصورة الإنسانية من جهة ثانية. فمعبوداتهم جسدوها على سمات بشرية اعتقدوا أنها تتمتع بقوة بدنية لا تضاهى. كانت فكرة الرومان البدائيين عن معبوداتهم فكرة غامضة إلى حد أنهم كانوا يعجزون عن أن يتصوروا أشكالها. وهذا يفسر لماذا استمر الرومان مدة طويلة يعبدون آلهتهم دون أن يقيموا لها تماثيل أو معابد، حيث استطاعوا تجسيد بعضها على بعض الأواني المختلفة والمصابيح الزيتية التي نحن بصدد دراستها. ومن خلال هذه الدراسة الخاصة بموضوع رمزية لبعض المصابيح الزيتية المحفوظة في متحف مينارف بتبسة استطعنا ولو بالقدر القليل إيجاد بعض الأجوبة للتساؤلات التي طرحت في المقدمة، والتي نستخلص أهمها في: إبراز دور المصباح الزيتية عبر الأزمنة واستعمالاتها لدى بعض الشعوب القديمة، وإظهار ما تخفيه هذه المصابيح من زخارف وأشكال ورموز مختلفة وتفسيرها وفق دلالات ومعاني أسطورية راجعة للفترة الرومانية والإغريقية، كما اتضح أن تأريخ المصابيح المدروسة تعود إلى بداية القرن الأول إلى نهاية القرن السادس قبل الميلاد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٧ يناير ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ٢٥ مايو ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

المعروضات المتحفية؛ المصابيح القديمة؛ المصابيح الزيتية؛ الإغريق

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055842

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عماج بلقاسم، "الدراسة الوصفية والدلالة الرمزية لبعض المصابيح الزيتية القديمة المحفوظة بمتحف (مينارف) تبسة".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص ٣٨ – ٥٥.

مُقَدِّمَة

لقـد لعبـت المتـاحف في بلادنـا دورًا أساسـيًا في جمـع وحفـظ مجموعـة المعروضـات والأشـياء الثمينـة المكتشفة من طرف أثريين عـن طريـق الحفريـات التـي قاموا بها في مواقع أثرية تزخر بها بلادنا وعلى مدى فترات زمنيـة مختلفـة أو عـن طريـق هـواة ولعـوا في جمع التحف الأثرية ووضعوها في المتحـف قبـل وبعـد الاستقلال هذه المعروضات المتحفية بـاختلاف أنواعهـا تعكس جوانـب الحيـاة اليوميـة لصـانعها ومستخدمها عبر مر العصور فهي تعتبر نافذة وبوابـة الـزمن الـذي يساعدنا على كشف أسرار حيـاتهم والمعتقـدات التـي آمنوا بها.

يندرج بحثي المتواضـع علـى المقتنيـات للفخاريـات خاصة المتخصصة في دراسة نمـاذج وأنمـاط المصـابيح الزيتية قصد تجديد المعلومات التـي قـدمت مـن خـلال مواضيع سابقة ومـن جهـة أخـرى وضـع كالتـالوج عـام وشـامل في شـكل بطاقـات تقنيـة لكـل نـوع مـن أنـواع

المصابيح الموجودة بمتحف (معبد مينارف) ولاية تبسة.

- **أولاً:** الوثائق التي تطرقت إلى هذا الموضوع هي مصادر أجنبية (إنجليزية وألمانية) وقد يتعذر الحصول عليها لأنها قليلة، بينما المصادر العربية تكاد تنعدم. ولدراسة هذا الموضوع خصصناه لرمزية الزخارف الموجودة في ببعض المصابيح المذكورة آنفا.

- **ثانيًا:** عدم وجود معلومات كافية عن مكان وتاريخ اكتشاف هذه المصابيح عن طريق تقارير الحفريات وعن تاريخ حفظها في المتحف، إضافة إلى عدم تسجيلها وجردها بطرق علمية.

أما عن التساؤلات التي يمكن طرحها من خلال هذا الموضوع: عن الدور الذي لعبه المصباح الزيتي خلال الفترة القديمة؟ ومدلول رمزية الزخارف الموجودة به؟

- **الجانب النظري:** اعتمدنا على جمع المعلومات المتوفرة حول المصابيح الزيتية بصفة عامة في المصادر والمراجع والمقالات الدورية. أما المراجع العامة تساعدنا في معرفة بعض المصابيح المحفوظة في المتاحف البلدان بمتاحف إضافة إلى ذلك القواميس التي تعرفنا بمدلول المصابيح، ورمزية الزخارف الموجودة عليها بالإضافة إلى ببعض المجلات التي لها علاقة بالموضوع.

- **الجانب التطبيقي:** يعتبر الركيزة الأساسية لهذا البحث، إذ يستلزم التنقل للمتحف وأخذ المقاسات بدقة للمجموعة، والأشكال والأنماط ومقارنتها بتلك الموجودة في المراجع، بعد ذلك قمنا برسم دقيق لبعض الزخارف الموجودة على القطعة لكي تظهر بشكل أوضح. كما حاولنا إبراز استعمالات المصباح خلال الفترة القديمة، كما قمنا بوضع نموذج تخطيطي يوضح مختلف أجزائه.

مدخل

١-تاريخ متحف تبسة

خصص معبد مينارف كمتحف موقع لولاية تبسة حيث يعود تسمية (مينارف) إلى الديانة الرومانية ومعناه إله الحكمة؛ شيد هذا المعبد في عهد الإمبراطور سيبتيم سيفار (Septime Sévère)، وابنه كركلا سنة (١٩٣-٢١٧) ميلادي، يحتوي على قاعة واحدة مساحتها (٦,٧٨ متر×٨ متر). يتقدمه بهو مفتوح مساحته الإجمالية (٧ متر×٤ متر)، ويحيط بها سور لا يعرف تاريخ بنائه تعرض المتحف لعدة استعمالات، منها إلى متحف أثري سنة ١٨٨٩، كما يحتوي على مجموعات أثرية متنوعة وهامة تعود إلى عصور مختلفة من الزمن جمعها أثريون وباحثون خلال حملات التنقيب.[1]

إن من أهم المعروضات الموجودة في متحف مينارف أسلحة حجرية تعود لفترة ما قبل التاريخ وقشور بيض النعام، الرماح للصيد، والزجاجيات، المسكوكات، شواهد القبور، وبعض التماثيل والفخاريات، التي صنعها ذلك الإنسان للتعبير عن مختلف أغراضه واحتياجاته في الحياة من طهي وشرب وأكل وتخزين وزينة وإنارة.





الصورتان توضح المدخل الرئيس وواجهة متحف تبسة

أما بالنسبة لطريقة حفظ المعروضات المتحفية، لا يتناسب مع حجم المكان مما استلزم تخزين مجموعات أخرى في كنيسة تيفاست التي تبعد عن المعبد بـ (٥٠) متر.[2]



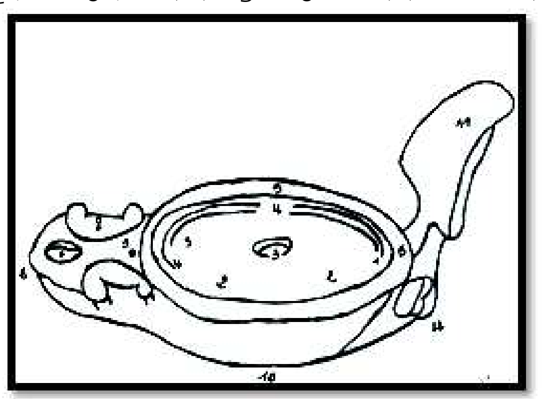
الصورة توضح كنسية (تيفاست)، خصصت كمخزن للتحف الأثرية

٢-لمحة تاريخية وجيزة حول المصابيح القديمة واستعمالاتها

إن الفائدة من دراستنا لموضوع الفخاريات عامة، هو معرفة أسرار الشعوب القديمة من الناحية الثقافية والدينية والاقتصادية، فكانت هذه المصابيح قديما، عند الإغريق والفنيقين والبونيين والرومان والمسيحيين. تستعمل بكثرة في حياتهم اليومية أو في المناسبات، وحسب الباحث كرتو (Carton)، فإن المصابيح تعتبر من الأدوات الصغيرة التي خلفتها الحضارات القديمة. وجدت بأعداد هائلة صنعت من الطين المحروق، وهي توجد بكثرة في المقابر القديمة نتيجة اعتقادهم بوجود حياة ثانية بعد الموت[٣]، استعمل لفظ (Lamp) في اللغتين الفرنسية والألمانية، بينما أستعمل في اللغة الإنجليزية بلفظ (Lamp)، وفي الإيطالية ب (Lampo). حسب الباحث ساقليو Sgglio (Edmond)، فالكلمة اللاتينية تطابق تماماً الكلمة الإغريقية التي تعني الأداة التي ينبع منها الضوء وذلك باحتراق المشعل المبلل بالزيت، وللدلالة على المصباح فقد استعمل اللاتينيون كلمة "ليكنوس" قبل استعمالهم لكلمة "لوكرينا" وفي كلتا الحالتين فهي تدل على المصباح.[٤]

٣-العناصر المكونة للمصباح: ينظر الشكل (٠١)

- الأرقام: - (١): خزان - (٢):الصحن -(٣): ثقب التموين-(٤):ناتئة- (٥): الشريط - (٦): الفوهة- (٧) : ثقب المشعل- (٨) : شكل حلزوني- (٩): ثقب التهوية-(١٠):القاعدة- (١١): عاكس الضوء- (١٢): مقبض المصباح.



.........[5]..

الشكل: (٠١)

حسب الباحث فرنون دوكردياك (Cardaillac)، فإن المصريين هم الذين استعملوا المصباح[5]، وهو أيضًا ما ذكره هيرودوت (Hérodote)، أنهم كانوا يقيمون حفلا للمصابيح[6]، ويذكر برنار(Bernard)، بأن الرومان مثل الشعوب الأخرى كانوا يستخدمون المصابيح في معابدهم و يضعون جزءا منها عند الأبواب و على النوافذ، وحتى فوق الأشجار[٧]. أما كلمتا(ليكونس) و(لوكرينا) في اللغة اللاتينية تعني الوعاء الذي يصدر منه النور أو الضوء عن طريق فتيلة مبللة بالزيت[٨]. أما الباحثين شابوا(Chapot)، وكانيا(Cagnat) ففي اعتقادهما أن كلمة (Lychnus) هي التي كانت شائعة الاستعمال، لكن فيما بعد استعملوا كلمة أخرى(Lucerna)، أداة نفعية تستعمل للإضاءة المعالم العمومية مثل الحمامات. كما تُستعمل أيضًا في المناسبات، كالحفلات مثلاً، وأغلب هذه المصابيح وجدت في المقابر إما بقرب الهيكل العظمي حيث وضعت للإضاءة، وإما ضمن الأثاث الجنائزي.[٩]

٤-تسميات بعض المصابيح الزيتية واستعمالاتها

- لوكارنا بانسيليس (Lucernae Pensilis): المصباح الذي يعلق في السقف.
- لوكارنا كوبيكيلاوي (Lucernae Cubiculares): مصابيح منزلية.
- لوكارنا ميريتريكياي (Lucernae Meretriciae): مصابيح الخليلات.
- لوكارنا سيبولكراي (Lucernae Sepulchrales): مصابيح جنائزية.
- لوكارنا كونفيفياليس (Lucernae Conviviales): مصابيح توضع على الطاولات.[١٠]

٥- الدلالة الرمزية لعينات المصابيح المدروسة بمتحف تبسة

ترتكز دراستنا أساسًا في هذا العنصر، على نوعية الزخارف التي زين بها صحن المصباح أو الشريط، كالتزيينات التي تحمل أشكال نباتية، أو حيوانية، أو هندسية، أو كونية (النجم والهلال)، بعدها نحاول دراسة رمزية هذه الزخارف بالنسبة لبعض المصابيح المسيحية وبعض المصابيح الوثنية التي يمكن تصنيفها إلى هذه الأنواع:

أولاً: زخارف الفترة الوثنية

١/١-مصابيح خالية من الزخارف

سواء على الشريط أو الصحن، فهي مختلفة الأشكال والألوان والأنماط وهي مرقمة كما توضحه الصور (٨٠g٢٨٧g٠٣)، المصباح المرقم بالرقم (٨٠) لا يحتوي على غطاء كباقي المصابيح وهذا النوع من المصابيح متميز جدًا. المصابيح الخالية من الزخارف عادة ما تتميز بفوهة صغيرة، بها خطين متوازيين إما على نفس مستوى سطح الفوهة أو مرتفع قليلاً

عنها، وقد تظهر نقطتين على طرفيه في بعض النماذج، أما القرص يحتوي على فتحتين إحداهما للملء وأخرى للتهوية أصغر من الأولى، بالإضافة لاحتواء هذا النوع على مقبض.(١١)



الصورة: ٠٣



الصورة: ٢٨٧



الصورة: ٨٠

٢/١-مصابيح تحمل زخارف آدمية

يظهر هذا النوع في المصباح المرقم ب: (١٨١)، هذا النوع بيضاوي الشكل يتميز بقناته الانسيابية نحو الأسفل، القرص مقعر به فتحتين للتهوية، الحافة مسطحة تحدها من الجانبين حزتين بارزتين الفوهة متصلة بقناة أفقية واسعة تصل الصحن ولا يحتوي على مقبض. زخارف هذا النوع من المصابيح إما تكون حيوانية أو ونباتية أو هندسية، وإما نجده يحمل شكل آدمي فردي أو ثنائي، كأن يظهر الفارس يمتطي جوداه.(١٢)

٢/١-مصابيح تحمل زخارف آدمية

يظهر هذا النوع في المصباح المرقم ب: (١٨١)، هذا النوع بيضاوي الشكل يتميز بقناته الانسيابية نحو الأسفل، القرص مقعر به فتحتين للتهوية، الحافة مسطحة تحدها من الجانبين حزتين بارزتين الفوهة متصلة بقناة أفقية واسعة تصل الصحن ولا يحتوي على مقبض. زخارف هذا النوع من المصابيح إما تكون حيوانية أو ونباتية أو هندسية، وإما نجده يحمل شكل آدمي فردي أو ثنائي، كأن يظهر الفارس يمتطي جوداه.(١٣)



الصورة رقم:١٨١

٣/١-مصابيح تحمل زخارف لبعض الآلهة الدينية المعبودة في الفترة الوثنية

أ-الإلهة فينوس (Venus):

المصباح الزيتي رقم (١٧٣) يحمل زخرفة مطابقة لمواصفات هذه الشخصية وهي تعادل الإلهة الإغريقية أفروديت، أصبحت بذلك إلهة الحب والجمال بالدرجة الأولى بدون التخلي عن الخاصية الفلاحية وتظهر أحيانا كإلهة بحرية انتشرت عبادة إلهة فينوس بكثرة يعود الفضل في ذلك إلى بعض الحكام وكانت بعض العائلات فخورة بنسبها كونها من سلالة (ايني) ابن فينوس، خاصةً يوليوس قيصر ـ حيث نقشت في عملته صورة الإلهة(١٤). أما ملامح الجسمانية، فغالبًا ما تكون رشيقة، عارية، ملامح وجهها رقيقة تظهر تسريحة شعرها إلى الأعلى في شكل عقدة فراشة.



الصورة :١٧٣

ب-الإلهة ديانا (Diana):

المصباح الرقم ب(١٦٠)، تحمل نفس المواصفات التي تنطبق على هذه الشخصية، الإلهة ديانا تعادل الإله الإغريقي ارتميس صفتها اله الصيد، وهي أخت الإله ابولوا؛ انتشرت بكثرة عبادة هذه الإلهة في معظم المقاطعات الرومانية وتعبد أحياناً كإله القمر كون أخيها اله الشمس ومن طبيعتها أنها تظهر واقفة وأحيانا في وضعية أو ركض وتضع حزامين الأول في أسفل الصدر والثاني في مستوى الورك، تحمل وراء ظهرها رماح للصيد وبيدها قوسا.[١٥]



الصورة رقم:160

ج -الإله اسكلابيوس(Aesclepius):

المصباح المرقم ب: (73) عند الإغريق إله الصحة والطب حسب معتقداتهم هو ابن الإله أبولوا وأمه أرتميس حسب بعض الرواية تروي انه ولد في مدينة (تريك) قام بتعليمه السيناتور شيرون (فن الطب)، فأصبح ماهرًا في العلاج ،ملامحه في البداية كان يمثل بدون لحية ثم أصبح يمثل بصفة كهل ذو لحية كثيفة وشعر طويل يرتدي شملتا عادة ما تترك الصدر عاري يتكئ على عصا يلتوي عليها ثعبانا الذي له القدرة على العلاج أحيانا مرفقا بكلب حراسة وصلت عبادة إسكلابيوس إلى آسيا ما بين (٤٢٠ و٤١٩) قبل الميلاد، [١٦] أما روما فقد وصلت خلال القرن الثالث قبل الميلاد، لأن في سنة ٢٩١ق.م ظهر بروما مرض الطاعون فقام مجموعة من المواطنين بنقل أحد ثعابين الإله من معبده إلى روما.[١٧]



الصورة رقم :٧٣

د-باخوس (Bacchus):

يعادل الإله الإغريقي ديونيسوس عند الرومان إله الخمر وإله المنتجات الفلاحية والكروم. يوصف في البداية على إنه مسن كثيف اللحية بعدها أصبح يمثل في صفة شاب عادة ما يكون عاريًا يرتدي جلد صغير الظبية يحمل عادة بإحدى يديه كأس ذو عروتين أو عنقود عنب وبالذراع يتكئ على مزراق الذي ينتهي بحبة صنوبر يلتوي عليه نبات متسلق (اللبلاب) غالبًا ما يكون رأسه متوجًا بتاج من ورق العنب وبالذراع الآخر يتكئ على عصا أعلاها توجد حبة صنوبر يلتوي عليه نبات متسلق (اللبلاب)، غالبًا ما يكون رأسه متوجا بتاج من عناقيد وأوراق العنب.[١٨]



الصورة رقم :٢١٦

هـ- أبولو (Apollo):

المصباح رقم (٦٢) يحمل مواصفات هذه الشخصية؛ عند الإغريق هو إله الشمس وإله الموسيقى وإله الرماية، وإله النبوءة واله الوباء والشفاء، بالإضافة إلى أنه إله العناية بالحيوان وإله الحرث وهو ابن الإله زيوس والإلهة ليتو وهو والأخّ التوأم لأرتيميس. وكان مقر عبادته بجزيرة دلفي باليونان.[١٩] ومن الخصائص التي تميزه فهو يملك القوس والسهام، وعلى رأسه تاج، وعادة ما يمسك قيثارة ومضرب. لكن ما يمزه أكثر ويكسبه شهرة هو الحامل الثلاثي (الصولجان) رمز للسلطة.[٢٠] أبولو كان يعبد في كافة أنحاء العالم اليوناني، في دلفي كلّ أربع سنوات كانت تعقد ألعاب على شرفه وكان له العديد من الألقاب منها أبوتروبايوس (Apotropaeus) أبولو الذي يتفادى الشرّ.[٢١]



الصورة رقم : ٦٢

ثانيًا: زخارف الفترة المسيحية

٢/١-مصابيح تحمل زخارف حيوانية

أخذت فيها بعض الحيوانات قيمة رمزية مسيحية كالخروف والأيل والدلفين واليمامة والطاووس.[٢٢] بالإضافة إلى حيوانات مفترسة كالأسد والنمر وحيوانات برية أخرى، كالخنزير البري والأرنب والحصان والكلب. حسب الدراسة وجدنا هذا النوع ينطبق على هذه النماذج:



الصورة رقم : ١٧٤



الصورة رقم: ٣٠

أ-مصابيح تحمل زخرفة الحصان والكلب:

تتميز مصابيح هذا النوع بالفوهة التي تظهر بدايتها على شكل قلب كما يظهر في المصباح رقم ١٧٤، عادة ما تكون الحافة دائرية واسعة؛ لكي تظهر فيها الزخارف بشكل واضح. يرمز عند المسيحية إلى السرعة التي يجب أن يتبعها التقي للوصول إلى الحقيقة إذ ظهر هذان الحيوان كثيرا في الفن الوثني وفي الفن الروماني دون أي رمزية معينة.[٢٣]

ب-مصابيح تحمل زخرفة الحمل:

هذا النموذج يظهر على المصباحان المرقمان ب: (٢٨ و٢٣)، من حيث الوصف فان المصبحان لهما نفس الشكل باستثناء الزخارف فوهتهما صغيرة نوعًا ما المقبض مزين بشريط كباقي المصابيح الأخرى. يتخلل الصحن ثلاث دوائر للتزيين أما عن زخرفة حيوان الحمل فيعتبر من بين الرموز الطقسية التي ترمز إلى المسيح كما يقول القصيص دولاتر.[٢٤]



الصورة رقم :٢٨



الصورة رقم:٢٣

ج – مصابيح تحمل زخرفة حيوان الأسد:

يظهر هذا النموذج في المصباحان المرقمان ب:(٤٥ و٢٢٥)، يأخذ هذا النوع من المصابيح الشكل الدائري كما تختلف التزيينات الموجودة على الحافة إما تكون خطوط مستقيمة أو فواصل بين هذه الخطوط، أما لون مصابيح هذا النوع فيكون ذات لون أحمر أجوري. بالنسبة لرمزية صور الأسد يقول أوغستين: أن الحمل والأسد يرمزان كلاهما إلى المسيح ويضيف إذا كان الحمل يرمز إلى البراءة والانتصار الإلهي فإن الأسد يرمز إلى القوة، كما أخذ اسم ملك الحيوانات فإنه استحق أن يرمز للمسيح المنتصر.[٢٥]



الصورة رقم:٤٥

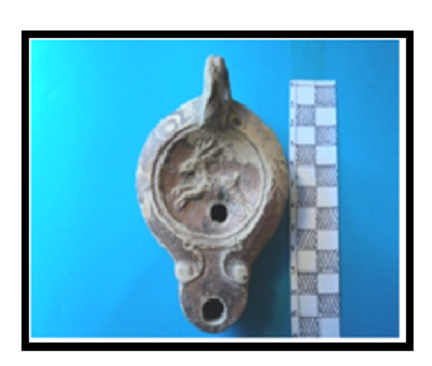


الصورة رقم:٢٢٥

د – مصابيح تحمل زخارف الأيل:

يظهر هذا النوع في المصباح المرقم ب: (٢٦٧)؛ يتميز هذا النوع من المصابيح عن الأنواع السابقة بوجود زخرفة حلزونية على حافتي الفوهة. (24)، أما عن رمزية الأيل منذ القدم يرمز إلى الخلود

كما يرمز إلى الخشوع الذي كان ينتاب التقي أثناء التعبد كما يرمز للسرعة لصد المخاطر. عثر على مصباح بتونس به زخرفة لحيوان الأيل محاط بكتابة هذا نصها (....هذا هو الخبز الذي نزل من السماء ...).[٢٦]



الصورة رقم:٢٦٧

هـ-مصابيح تحمل زخرفة حيوان الخنزير البري:

يظهر هذا النوع من الزخرفة في المصباحان المرقمان ب:(٢١٨و٣٢١)، من أوصاف هذا النوع من المصابيح دائري الشكل ذات فوهة متوسطة كما يحمل زخارف عادة على حافتي الفوهة تكون حلزونية الشكل اللون يميل إلى اللون الوردي الفاتح، أما عن رمزية هذا الحيوان فهو يظهر بكثرة في المواضيع المختلفة خاصة في مشاهد الصيد، يظهر خاصة على التوابيت، أو الأواني الفخارية.[٢٧]



الصورة رقم:٢١٨



الصورة رقم:٣٢١

و-مصابيح تحمل زخرفة الدجاجة:

يظهر هذا النوع في المصبحان المرقمان ب:(١١٨ - ١٤٠)، من حيث الوصف نفس الشكل السابق للمصابيح السابقة؛ فهو ذات شكل دائري الفوهة دائرية الشكل تختلف الزخارف الموجودة على الحافة بحسب المساحة المخصصة لها، أما عن رمزية هذا الحيوان المتمثل في الدجاجة، فنجد أنه لم تتكلم النصوص كثيراً عليه، لكن وجوده بكثرة على المصابيح المسيحية، أثار تساؤلاً عن رمزيته ومعناه الديني، فالباحث لوكليرك (Leclercq) لم يرى فيه أي رمزية مسيحية بل أنه مجرد تصوير فني.[٢٨]



الصورة رقم: ١١٨



الصورة رقم: ١٤٠

ز – مصابيح تحمل زخرفة اليمامة:

المصباح رقم (٣٢و١٥٣) ظهرت صور اليمامة على عدد كبير من الرسومات القديمة، لاسيما في الفن المسيحي القديم كان هذا النوع من الطيور يستعمل عادة للتزيين وإعطاء نوع من البهجة لصور الطبيعة، فأخذت اليمامة مكانة جد هامة، فظهرت في اللوحات الخاصة بالمواضيع الإنجيلية، كما أنها تظهر في السراديب اليهودية والفسيفساء[٢٩]، ففي الفن المسيحي ظهرت اليمامة بصفة دائمة منذ القرون الأولى.[٣٠]



الصورة رقم:١٥٣



الصورة رقم: ٣٤٥

يرى فيها البعض صورة الروح الطاهرة وبياضها النقي للمسيح وكذلك الروح النقية للتقي التي تساعده للوصول إلى بر الأمان[٣١]، ورمزية اليمامة ما يستشهد به الباحث دولاقريز بقول المسيح: كونوا بسطاء كاليمامة.[٣٢] أي أن اليمامة تتصف بالبساطة واللطف والنعومة فهو طائر مسالم، ومنذ القرن الثاني ميلادي أصبحت اليمامة ترمز إلى السلام، الذي تحملها للموتى من طرف الأتقياء.[٣٣]



الصورة رقم: ٢٨٥

ر-مصابيح تحمل زخرفة حيوان الأرنب:

يظهر هذا النوع في المصبحان المرقمان ب: (٢٠ و ٢٩٨): من حيث الوصف يختلف أحجام هذا النوع كباقي المصابيح المدروسة سابقًا، فهو دائري الشكل، الفوهة تأخذ عدة أشكال أما طويلة أو قصيرة وهذا حسب التزيين الموجود بها أما عن رمزية هذا الحيوان الذي زخرف به هذا المصباح.[٣٤] فنجد معظم الآثار المسيحية توجد فيها صور الأرنب مجسد في حالة سكون أو حركة، ويظهر بكثرة على الفخار؛ إذ يرمز إلى السرعة، وهناك آراء بعض الباحثين مَنْ يؤول ركض الأرنب نحو المسيح والدليل على ذلك الشاهد الذي نحت عليه أرنب مرفق برمز المسيح، أما البعض الآخر فيرى أنه رمز يستعمل لتحذير الأتقياء من الطاغية.[٣٥]



الصورة رقم: ٢٩٨


الصورة رقم: ١٦٦

ذ-مصابيح تحمل زخرفة السمك:

يظهر هذا النوع في المصباحان المرقمان ب: (١٩٧و٢٢٣)، من حيث الوصف يحمل المصباح المرقم ب(١٩٧)، الفوهة ذات شكل مثلثي المقبض غير كامل، شكل المصباح دائري، وهذا عكس المصباح رقم (٢٢٣)، الذي يحتوي على فوهة متصلة بقناة طويلة متصلة بالصحن، الحافة مزخرفة بخطوط مائلة، أما المقبض فهو غير كامل، أما عن رمزية زخرفة السمك؛ فهو يعتبر غذاء الأتقياء عند المسحيين، وهناك يوم عندهم يسمى يوم الصوم يحرم فيه أكل اللحم ما عدى السمك، حيث عثر على أقدم مصباح يحمل رمز السمك بفلسطين والمؤرخ بالقرن الأول ميلادي.[٣٦] بالإضافة إلى الحفريات التي كشفت على بعض الأنصاب في مدينة قرطاجة بها نقش عليها سمك ورمز المسيح، التي أرخت لنهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث ميلاديين، ومجموعة من المصابيح عليها صور مختلفة منها ،السمك واليمامة وأوراق الكروم وعناقيد العنب.[٣٧]


الصورة رقم: ١٩٧


الصورة رقم:٢٢٣

٢/٢-مصابيح تحمل زخارف نباتية:

شكل النخيل: يظهر هذا النوع من المصابيح الذي يحمل زخارف سعف النخيل في المصابيح المرقمة ب(١٥٦و٢٣٣و١٤٣)، من حيث الوصف يختلف كل مصباح عن الآخر من حيث الشكل فهناك الدائري مثل المصباح رقم (١٥٦)، والانسيابي نحو الأسفل مثل المصباح رقم (٢٣٣)، وذات قناة طويلة مثل المصباح رقم (١٤٣). أما عن رمزية الزخارف الموجودة بهذه المصابيح تعود ابتداء من القرن الرابع ميلادي، حيث تظهر على المباني المسيحية بشكل متنوع؛ كأغصان الكروم، سعف النخيل، كما أصبح هذا النوع من الزخارف من بين المواضيع الأساسية في الفن المسيحي[٣٨].يروي القديس دولاتر (Delattre) نقلاً عن الباحث دوم لكريك (Dom leclerc)، أنه في عهد الاضطهادات كان المسيحيون يجسدون الصليب بشكل رمزي، في صورة أشجار مختلفة ونخيل، أما لدى شعوب المشرق كانت النخلة هي الشجرة المفضلة عندهم؛ إذ يقام في مدينة بابل حفل لهذه الشجرة ثم نقلت هذه العادة ودخلت إلى إفريقيا عن طريق الفنيقين وكانت تسمى فووينكس (Phoenix) أي شجرة فينيقيا.[٣٩]


الصورة رقم: ١٥٦


الصورة رقم:٢٣٣


الصورة رقم:١٤٣

٣/٢ -مصباح تحمل زخارف على شكل حرف (S) باللاتينية:

يظهر هذا النوع في المصباح المرقم (٣٠٥) يتميز هذا النوع بفوهة ممدودة إلى الأسفل، اللون يميل إلى البني الفاتح وعادة ما يكون ذات لون احمر أجوري.(٤٠) أما عن رمزية الزخرفة المتمثلة في حرف(S) على الشريط؛ يعتبر من أهم الأشكال الزخرفية على شكل قرون، والذي يرمز للقوة، حيث تطور بعدها وأعطى الأشكال حلزونية (volutes)، والتي استعملت في الهندسة المعمارية الخاصة بالشعوب القديمة: كالرومان والإغريق ،كما يرمز هذا الشكل للمكانة التي أعطيت للمسيح من طرف الإله على الأرض.(٤١)


الصورة رقم: ٣٠٥

٤/٢-مصابيح تحمل زخارف هندسية:

أ-مصابيح تحمل زخارف نجميه وهلالية في وسط صحن المصباح:

تظهر في المصباح المرقم ب(٧٥) يحمل زخرفة هلال في وسط الصحن، خالي من التزين على حافته، شكله دائري يميل إلى اللون البني الفاتح به مقبض مزين بشريط، أما المصباحان المرقمان بالرقم (٣٠٧ و ٢٨٦) يحملان زخرفة هلال تعلوه نجمة يختلف تزيين الحافة حسب كل مصباح، كما نجد عدة أشكال أخرى تزين هذا النوع من المصابيح من: دوائر مربعات ومعينات ومثلثات وأشكال على شكل قلب، بالإضافة إلى الأشكال الزهرية.(٤٢) أما عن رمزية هذه الزخرفة؛ لها معنى رمزي هام في علم الفلك، كالنجم والهلال عند المسيحية وأن للدوائر رمز سحري عادة ما تكون محيطة بالنجمة كما نلاحظ في هذه النماذج، فالمعنى يختلف باختلاف الرؤوس، فمثلث الكواكب على شكل نجمة، أما الدائرة فهي شكل الشمس.(٤٣)


الصورة رقم:٧٥


الصورة رقم: ٢٨٦


الصورة رقم: ٣٠٧



ب-مصابيح تحمل زخارف على شكل قلب على الحافة:

يظهر في المصابيح المرقمة:(١٢٩و١٣٦و١٣١و١٣٦)، من حيث الوصف يتميز هذا النوع من المصابيح بشكلها الانسيابي، القرص مقعر به فتحة أو فتحتين، الحافة واسعة الفوهة متصلة بقناة أفقية واسعة تتصل بالصحن زخارف التي تزين القرص عبارة عن زخارف حيوانية ونباتية أو هندسية إضافة إلى الصليب، أما الحافة فنجدها مزخرفة بأشكال هندسية عديدة منها: المثلثات، المعينات، أوراق أشجار. يرى القصيص دولاتر أن الزخارف التي تحمل شكل القلب لها رمزية مسيحية، ففي بعض الأمثلة نرى الأسد محاط بأسود صغيرة والسمك محاط بأسماك صغيرة.[٤٤] كما نجد على بعض المصابيح بقرطاجة زخرفة صليب محاط بشكل قلوب صغيرة على الصحن وكذلك على الشريط.[٤٥]، كما يذكر الباحث شاربونو (Charbonneau) أن رمز الصليب كان يعبر عنه كمركز للقلب الإلهي في القرون الوسطى[٤٦].



الصورة رقم : ١٢٩



الصورة رقم: ١٣٦



الصورة رقم: ١٣١



الصورة رقم: ١٤٣

ج-مصابيح تحمل زخارف ذات أشكال مثلثية على حافة الشريط:

تظهر في المصابيح المرقمة ب(١٣٤و١١٠و٢٠١)، رمزية هذه الأشكال وحسب المعتقدات المسيحية، كانوا يرون أن الكون مؤلف من نصفي كرة، ويرجع شكل المثلث إلى شكل نصف الكرة، النصف العلوي يمثل السماء، والنصف السفلي يمثل الأرض، مع تطور نصف الكرة أعطى شكل المثلث وهو رمز الانسجام والتوازن.[٤٧]



الصورة رقم: ١٣٤


الصورة رقم: ١١٠


الصورة رقم: ٢٠١


الصورة رقم:١٤٧


الصورة رقم:١٤٨

د-مصابيح تحمل زخرفة على شكل زهرة على الحافة:

-شكل الزهرة الثمانية:

تظهر في المصابيح المرقمة ب: (١٣٣و١٤٧و١٤٨و٢٣٧و٢٤٠و٣٤٠)، الجانب الوصفي لهذا النوع من المصابيح مختلف عن بعضها البعض فمنها الدائرية والانسيابية نحو الأسفل، ومنها من يحتوي على مقبض مثل المصباح رقم (١٤)، وهذا عكس المصابيح الأخرى التي لا تحتوي على مقابض. أما عن الجانب الرمزي لزخرفة الزهرة الثمانية هي مكونة من تداخل مربعين، لها رمزية كبيرة عند المسحيين، فكل ضلع من أضلاع هذه النجمة لها رمزية معينة مثلاً المربع الأول يقسم إلى: الضلع الأعلى يمثل الهواء، والضلع الأسفل يمثل التراب، أما الضلع الأيمن يمثل الماء، والأيسر يمثل النار، أما المربع الثاني يرمز إلى الجهات الأربعة الشرق والغرب، الشمال والجنوب.[٤٨]


الصورة رقم:١٣٣

ه-مصابيح تحمل تزيينات شعاعية:

هذا النوع من المصابيح مرقمة ب:(١٤و١٦و١٢٥)، وحسب المعتقدات القديمة ترمز إلى الشمس إلى الحياة، فأستعمل شكل الدوائر والأشعة كرمز للشمس.[٤٩]


الصورة رقم:١٤


صورة رقم: ١٦


الصورة رقم:١٢٥


الصورة رقم: ٢١٠

٢/٥-مصابيح بها زخارف لمشاهد الحياة اليومية:
يظهر هذا النوع من الزخارف في المصابيح المرقمة بالأرقام: (١٩٤و٢٦٦و٢١٠)؛ يظهر على هذه المصابيح عدة أشخاص في مشاهد مختلفة؛ فالمصباح رقم (٢٦٦) يصور مشهد صيد، أما المصباح رقم (١٩٤)، يُجسد حاكم يستقبل ضيفه والمصباح المرقم ب(٢١٠)، يصور لنا ألعاب السيرك أي ما يسمى بالفيناتيوس (Venationes)، وهي ألعاب منتشرة في الفترة البيزنطية، كما تأخذ فوهة هذا النوع من المصابيح الشكل المثلثي، وتتميز عجينتها بالصلابة، أما المصابيح حيث توضع لها مقابض لكي يسهل حملها.[٥٠]


الصورة رقم: ١٩٤


الصورة رقم: ٢٦٦

٢/٦-مصابيح تحمل زخرفة الصليب:
ظهر الصليب المونوغرام أساسًا على المصابيح الإفريقية، المصرية والإغريقية في القرن الرابع والخامس ميلادي تحمل هذا النوع الذي يسمى منوغرام المسيح وهو عبارة عن تقاطع الحرفين (Pg X)، أي الحروف الأولى المكونة لاسم المسيح باللغة الإغريقية وأحيانًا يكون الحرف اللاتيني (I) استبدالا للحرف (P)، بعمود أفقي مشكلاً صليب ذو ستة أذرع.[٥١] المصابيح المرقمة بالأرقام (١٣٥و٣٤٤و١٣٨) تحمل هذا النوع من الزخارف، يتميز هذا النوع من المصابيح بشكلها الانسيابي، وحافة دائرية الشكل، الفوهة متصلة بقناة طويلة تتصل الصحن، زخارف التي تزين القرص عبارة عن زخارف حيوانية ونباتية أو هندسية، إضافة إلى الصليب كما وجدناه في النماذج المدروسة، أما الحافة فنجدها مزخرفة بأشكال هندسية عديدة منها: مثلثات ودوائر ومعينات، أوراق الأشجار الزهور.[٥٢]


الصورة رقم: ١٣٥



الصورة رقم:١٣٨



الصورة رقم: ٣٤٣



الصورة رقم: ٢٨١



الصورة رقم: 202

٧/٢-مصابيح تحمل زخارف متنوعة:

أ-مصباح يحمل زخرفة معمارية:

يحمل خصائص هذه الزخرفة المصباح المرقم ب: (٦٠)؛ الذي يحمل شكل التاج الدوري.



الصورة رقم:٦٠

ب-مصابيح تحمل زخارف على شكل شعاعي:

هذا النوع المصبحان المرقمان ب:(٢٠٢و٢٨١)، يتميز هذا النوع من المصابيح بخطوط شعاعية إما في وسط الصحن أو الحافة؛ لهذا سميت بهذا الاسم. أحياناً تظهر بعض الثغور على الفوهة حافة المصباح كبيرة، مزينة بخطوط شاقوليه كما يظهر في المصباح رقم (٢٠٢)، قاعدته مسطحة محاطة بخط بارز يرتكز عليه جسم المصباح، الخزان ذو شكل مقبب، أما المقبض مزين بشريط.[٥٣]

ج-مصابيح تحمل زخارف ذات تزيين حُبيبي:

هذا النوع من الزخارف نجده إما على الحافة مثل المصبحان المرقمان ب:(٢١١و٩٧)، أو على الصحن مثل المصباح المرقم بالرقم (٢١٥). يتميز هذا النوع من المصابيح بفوهة قصيرة[٥٤]. المقبض مزين بشريط، القاعدة صغيرة محاطة بحزة بارزة يستند عليها المصباح غالبًا ما تظهر عليها أشكال هندسية كالدوائر والخطوط، أما الطلاء المستعمل غالبًا ما يكون باللون الأحمر اللامع، لكن توجد نماذج أخرى طليت باللون الأسود.[٥٥]



الصورة رقم:٢١٥



الصورة رقم:٢١١



الصورة رقم:٩٧

د-مصابيح تحمل زخرفة لمشهد بحري:
يتمثل هذا النوع في المصباح رقم: (١٧٨)، فهو ذات شكل دائري، مزخرف بزخارف هندسية على حافته مقبضه متلف، أما عن لونه فهو يميل إلى اللون البني الفاتح يحمل هذا النوع من الزخرفة شراع بحري، مصمم على شكل بطة يحمل ٠٨ مجاديف[51].



الصورة رقم:١٧٨

خَاتِمَةٌ

من خلال هذه الدراسة الخاصة بموضوع رمزية لبعض المصابيح الزيتية المحفوظة في متحف مينارف بتبسة استطعنا ولو بالقدر القليل إيجاد بعض الأجوبة للتساؤلات التي طرحت في المقدمة، والتي نستخلصها فيما يلي:

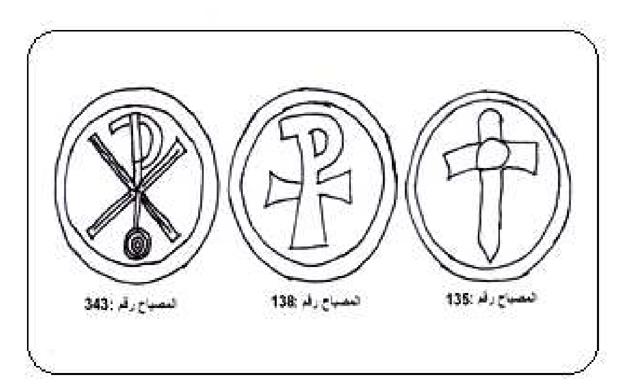
- إبراز دور المصباح الزيتية عبر الأزمنة واستعمالاتها لدى بعض الشعوب القديمة.
- إظهار ما تخفيه هذه المصابيح من زخارف وأشكال ورموز مختلفة وتفسيرها وفق دلالات ومعاني أسطورية راجعة للفترة الرومانية والإغريقية.
- تأريخ المصابيح المدروسة تعود إلى بداية القرن الأول إلى نهاية القرن السادس قبل الميلاد.
- إبراز بعض خصائص المجموعة المدروسة؛ إذ وجدنها متنوع في الأنماط ابتداءً من المصابيح الابتدائية وصولاً إلى المصابيح المتأخرة إلا أنها تشترك في عناصر المصباح الأساسية المتمثلة في المقبض والحوض والفوهة وفتحة الملء.
- من حيث طريقة صنع المصابيح الزيتية تختلف من منطقة إلى أخرى، وكذا الاختلافات التي وجدت في العجينة وأيضًا من حيث لونها ودرجة صلابتها، كما استنبطنا من خلال بعض المراجع التي اعتمدنا عليها في هذا المقال، أن المصابيح الخفيفة لا توضع لها في بعض الأحيان مقابض وهذا عكس المصابيح الثقيلة.
- حالة حفظ المصابيح بالمتحف؛ فهي سيئة للغاية نظرًا لعدم حفظها بما يتماشى ونظام المتاحف المتعلقة من حيث العرض والتسجيل وطريق الجرد كتابة رقم الجرد على وجه المصباح بقلم اللباد مباشرة بأرقام كبير مثال على ذلك المصباح رقم (٢٠٢،٢١١)، وفي بعض الأحيان تستعمل ملصقات مثبتة بالغراء على المصابيح مما يشوهه مستقبلاً وعادةً هذه الملصقة الورقية تخفي اسم الورشة وعلاماتها واسم صانعها وهي معلومات مهمة بالنسبة لمتخصص في الفخار.

بالإضافة لوجود الرطوبة داخل المتحف والتي تأثر مستقبلاً على المعروضات المتحفية وعدم توفر الإنارة الكافية خاصةً عند فترة المساء.

الملاحق

١- مصابيح تحمل شكل الصليب:

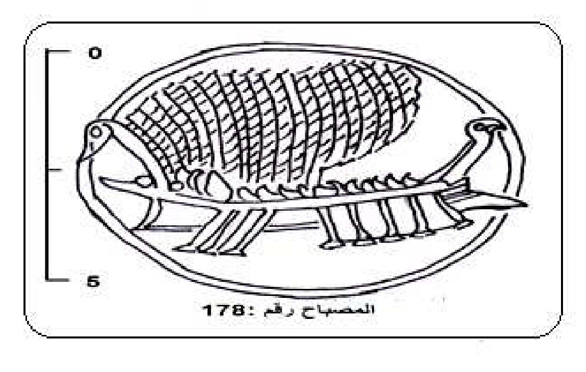
- تظهر في الصور رقم: (١٣٥ - ١٣٨ - ٣٤٣)



١- مصابيح تحمل زخرفة الصليب المونوغرام

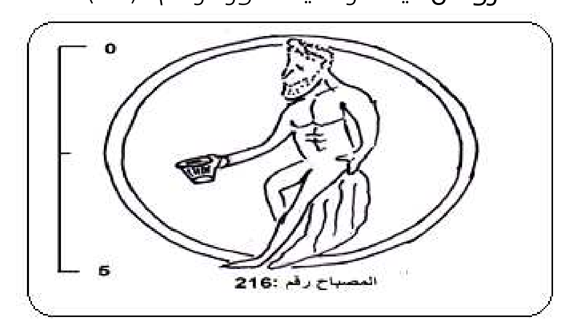
٢- مصباح يحمل شكل شراع بحري:

- يظهر في الصورة رقم: (١٧٨)



٢- رسم يوضح زخرفة لمشهد بحري (شراع) على المصباح رقم : ١٧٨

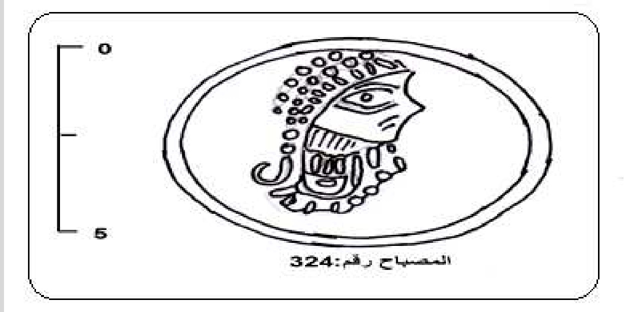
٣- مصابيح يحمل زخرفة تمثل إله الخمر باخوس عند الرومان : يظهر في الصورة رقم: (٢١٦)



٣- شكل يوضح زخرفة ميتولوجية للإله باكوس.

٤- مصابيح يحمل زخرفة آدمية:

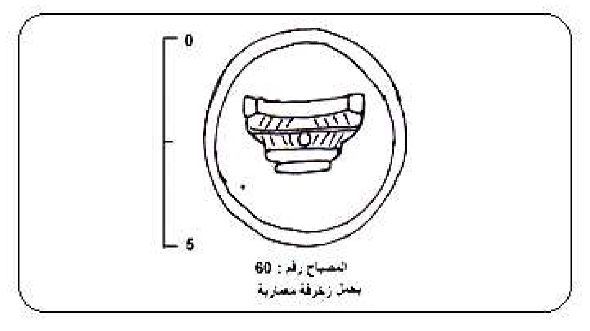
- يظهر في الصورة رقم: (٣٢٤)



٤- رسم يحمل زخرفة آدمية (وجه إنسان) على المصباح رقم ٣٢٤.

٥- مصباح يحمل زخرفة معمارية متمثلة في تاج :

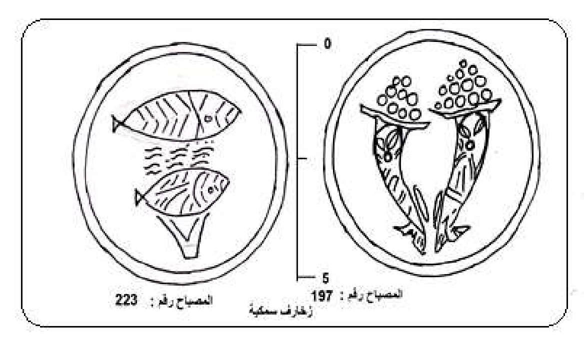
- يظهر في الصورة رقم:(٦٠)



٥- رسم يوضح زخرفة معمارية المتمثل في التاج الدوري.

٦- مصباح يحمل زخرفة معمارية متمثلة في تاج :

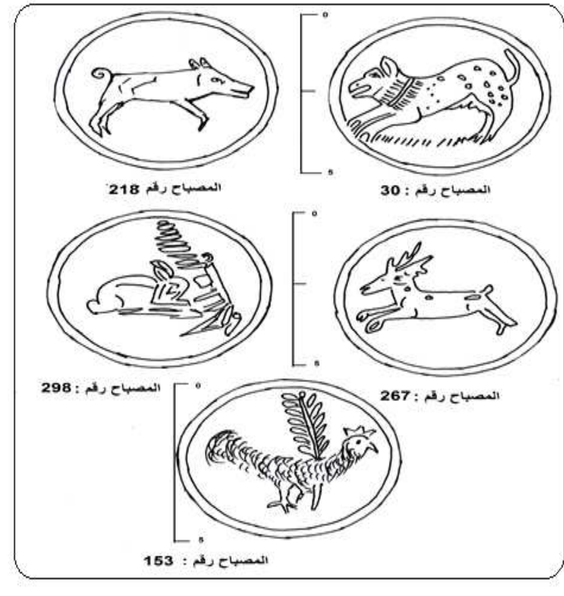
- يظهر في الصور رقم: (١٩٧- ٢٢٣)



٦- رسومات تحمل زخرفة حيوانية (السمك) على المصباح رقم ٢٢٣

٧- مصباح تحمل زخارف حيوانية مختلفة:

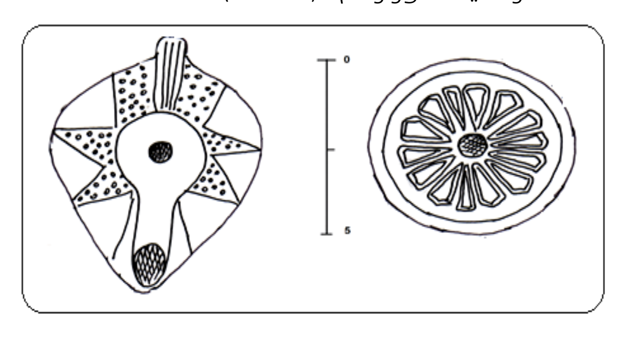
- يظهر في الصور رقم: (٣٠) - كلب.
- يظهر في الصور رقم: (٢١٨) - خنزير.
- يظهر في الصور رقم: (٢٦٧) - غزال.
- يظهر في الصور رقم: (٢٩٨) - أرنب.
- يظهر في الصور رقم: (١٥٣) - دجاجة



٧- رسومات تحمل زخارف الحيوانية.

٨- مصابيح تحمل زخارف هندسية:

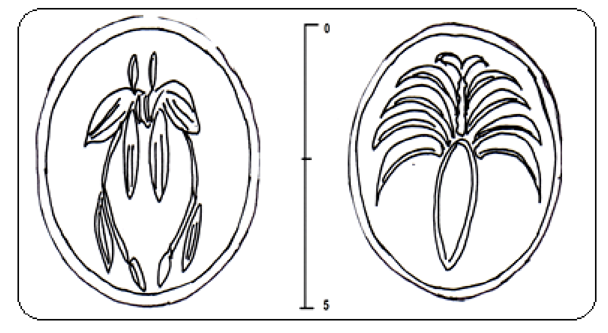
- تظهر في الصور رقم: (٢٨١- ١١٠)



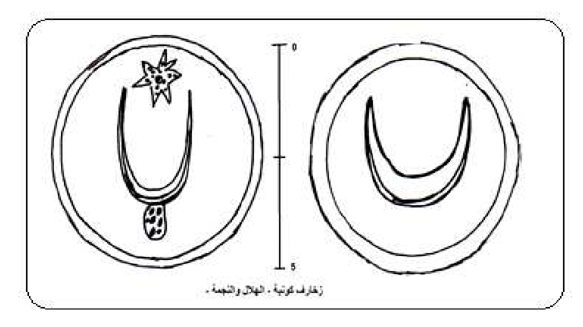
المصباح رقم ٢٨١ المصباح رقم ١١٠

٩- مصابيح تحمل زخارف نباتية:

- تظهر في الصور رقم: (١٥٦-١٤٣ - ٢٣٣)



رسومات تحمل زخارف النباتية



رسومات تحمل زخرفة النجمة والهلال.



الهَوامِش:

(1) علي سلطاني: **دليل المتحف والمعالم الأثرية معبد مينارف،** الوكالة الوطنية للآثار والنصب التاريخية، تبسة، ١٩٩٤، ص: ١٥٧.
(٢) نفس الرجع، ص: ١٧٨.
(3) Carton, (L),Les fabriques des lampes dans l'ancienne Afrique,B.S.G.A.O.1916,p,63.
(4) Saglio (M. E), dictionnaires des antiquités grecques et romaines, libraires, Hachette, p 1320.
(5) Gainière. (S) et Brun. (P), les lampes du musée cahvet d'Avignon, 1937, p. 20.
(6) Hérodote ,Histoire, Livre II (2-62) (LXII).
(7) Bernard. D de Mon faucon, «l'antiquité est représentée en Afrique», Paris T II 2((eme)) partie, sans date, p .204.
(8) Collection de M.N.A, art céramique, 1995, p26.
(9) Dorbane (.M)," Une approche sur les lampes antiques Exposées au, M.N.A nº04, 1994,
p .17.
(10) Cardaillac. (F): Op.cit. .p.90.
(11) Ennobli (A), Lampes chrétiennes de Tunisie, Paris, C.N.R.S, 1976, p 101.
(12) Champeaux(J), Le Culte de la fortune le monde romaine, T .2, paris1987, 2T, p.46.
(13) Champeaux(J), Le Culte de la fortune le monde romaine, T .2, paris1987, 2T, p.46.
(14) Daremberg (ch.) et saglio(v), dictionnaire des antiquités grecques et romaines, T.1, paris, 1926, p .724.
(15) Grimal. (p), Dictionnaire de la mythologie, grecque et romaine, paris, 1951, p .123.
(16) Lavedan (P.), dictionnaire illustré de la mythologie antiquités grecques et romaines, paris, 1931, p .115.
(17) Lavedan. (P.) : Op.cit. .p .115.
(18) Richepin. (J).nouvelle mythologie illustrée, T. 1, paris, 1923, p. 68.
(19) Grimal(p) : Op.cit. .p .125.
(20) Grimal(p) : Op.cit. .p .125.
(21) Grimal(p): Op.cit. .p .125.
(22) Charbonneau Lassay (M), L'ésotérisme de quelques symboles géométriques traditionnels, édit traditionnelles, Paris ١٩١٠, p. 282.
(23) Delagréze(G.B). Pompei, les catacombes d'Alhambra, Edit Didot 1872, p .288.
(24) Delattre. (R.P), Symboles eucharistiques Carthage, 1930, p .76.
(25) Delattre.(R.P) :Op.cit :p .76.
(26) Ibid, pp.(59-60).
(27) Leclercq. (H), livre in D.A.C.L, T.9 1ére Partie, p .1445.
(28) Ibid., p.1445.
(29) Leclercq. (H) : Op.cit., Colombe, T, 3, p.2198.
(30) Trost Catherine, marie Christine Hellman, Lampes antiques du département des monnaies, médailles et antiques, III, Fond général, Lampes chrétiennes, Paris, Bibliothèque nationale de France, 1996, p .94.
(31) Delattre.(R.P): Op.cit : p .70.
(32) Delagréze (G.B).
(33) Ibid : p .298.
(34) Leclercq. (H): Op.cit. : p.p. (1008-1009).
(35) Leclercq. (H): Op.cit. : p.p. (1008-1009).
(36) Leclercq (H), Poisson: Op.cit. : p.1090.
(37) Delattre (R.P): Op.cit : p .46.
(38) Delattre (R.P): Op.cit : p .46.
(39) Ibid, pp.(83-84).
(٤٠) عماج بلقاسم: **جرد مجموعة المصابيح المحفوظة في معبد مينارف بتبسة (دراسة وصفية وتنميطي وزخرفية)،** مذكرة ماجستير في علم الآثار القديمة، تحت إشراف البروفيسور دريسي سليم، معهد الآثار، جامعة الجزائر ٢٠١٢-٢٠٢، ص:٢٦٣.
(41) Arseven. (C.E), les arts decorative Turks, Istanbul, SD, p.16.
(٤٢) عماج بلقاسم: نفس المرجع، ص:٢٦٤.
(43) Arseven (C.E): Op.cit : p.16.
(44) Delattre. (R .P). Op.cit .p .78.
(45) Delattre. (R .P): Op.cit : p .78.
(46) Charbonneau Lassay (M): Op.cit : p. 282.
(47) Arseven(C.E) : Op.cit : p.17.
(٤٨) بهنسي عفيف، **معاني النجوم في الرقش العربي،** في أعمال الندوة العالمية المنعقدة في إسطنبول، افريل ١٨٨٣، دار الفكر، دمشق١٩٨٩، ص:٥٨.
(49) Arseven(C.E) : Op.cit : p.16.
(50) Hoff Viviane, catalogue des lampes en terre cuite grecques et chrétiennes, paris, 1968, p.81.
(51) Hoff (V) : Op.cit : p.80.
(٥٢) عماج بلقاسم: المرجع السابق، ص: ٢٦٨.
(٥٣) عماج بلقاسم: المرجع السابق، ص: ٢٦٦.
(٥٤) عماج بلقاسم: المرجع السابق، ص: ٢٦٦.
(٥٥) نفسه، ص: ٢٦٩.
(56) Trost (C), Hellmann (MC): Op.cit: p.71.

مقالات

مسألة تأهيل المبنى التاريخي في الحياة المعاصرة
التوظيف المتحفي وما يعترضه من مشاكل ميدانية



د. نادية بلقندوز
أستاذة محاضرة تخصص علم الآثار الوقائي
جامعة المدية
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

لم يعدّ هناك مجال للشك في أهمية المتاحف في وقتنا الراهن، بل وتُعد ضرورة ملحة خاصةً أمام تطور مهامها ووظائفها، حيث أصبح كغيره من المؤسسات التعليمية والتربوية والثقافية التي تعمل على حفظ التراث الإنساني والتاريخي والطبيعي. وحتى يقوم المتحف بمهامه على أكمل وجه، فإنه يحتاج إلى هيكل بنائي متكامل، لأنّ نجاح المتحف مرهون بقدرة البناية على أن تتناسب مع وظائف المتحف الحديث. حيث أصبح الاهتمام بها يأخذ حيزًا كبيرًا. ووجد فيه الإنشائيون فرصتهم لإبراز رؤيتهم الفنية ودراساتهم الأكاديمية، لأنه قبل ذلك كان اختيار مباني المتاحف في أغلب الأحيان من مباني تاريخية قديمة، لم تكن مُصممة أصلاً لتكون متاحف، ولا شك في أنّ عملية اختيار هذا النوع من المتاحف يعود أساسًا لسببين أولهما: سبب اقتصادي يتمثل في قلة الاعتمادات المالية. والسبب الثاني هو الرغبة في إدماج هذا النوع من المباني في الحياة المعاصرة من خلال توظيفها في وظائف مناسبة. وعلى الرغم من أنّ إعادة توظيف المباني التاريخية القديمة هي الطريقة الأنسب لإنقاذها، إلاّ أنّه من الصعب جدًا، وفي القليل من الأحيان أن تتطابق هياكلها المعمارية مع الوظائف المعاصرة الموكلة إليها. وبالتالي تبقى عمليات إعادة التوظيف مرهونة بمجموعة من المعايير العلمية والتقنية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٦ يوليو ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ أغسطس ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

المتحف؛ المبنى التاريخي؛ إعادة التوظيف؛ التأهيل؛ التراث المادي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055843

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

نادية بلقندوز. "مسألة تأهيل المبنى التاريخي في الحياة المعاصرة: التوظيف المتحفي وما يعترضه من مشاكل ميدانية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص ٥٦ – ٦١.

مُقَدِّمَة

يُعتبر الحفاظ على المباني التاريخية، حفاظ على أغلى ثروة تمتلكها البلدان، فمن خلالها يمكن تمييز الأسلوب المعماري، وهندسة البناء، وطرق إقامتها وأسس فلسفتها[١]. وإذا كان أمر ترميمها وصيانتها أمر لا مفر منه، فإن مسألة تأهيلها ودمجها في الحياة المعاصرة، مسألة عويصة، وقلّ ما نجد وظيفة حديثة تتماشى مع شكل وطبيعة البناية التاريخية، وأمر البحث لها عن وظيفة ملائمة قد يستغرق حيزًا أكبر من عملية الترميم في حد ذاتها بالنسبة للقائمين على مثل هذه المشاريع لعدة اعتبارات سنأتي على تفصيلها.

١-دوافع وأسباب اتخاذ المباني التاريخية متاحف

لعل من أهم الأسباب التي تدفع بنا إلى اتخاذ المباني التاريخية متاحف هو:

- قلة الاعتمادات المالية المرصدة لمشروع بناء متحف جديد، خاصة وأن المباني التاريخية لا تحتاج في كثير من الأحيان إلى تكاليف كبيرة ساعة تهيئتها بقدر ما تحتاجه المباني المستحدثة من جديد.

- وجود معالم تاريخية غير مشغولة ومن ثم يكون شغلها كمتحف يعني دمجها في الحياة المعاصرة، وإعادة إحيائها من جديد، وذلك من باب المحافظة عليها، خاصةً إذا كانت من طراز فريد، ويصبح من خلال الوظيفة الموكلة إليه ذات عائد اجتماعي أو ثقافي أو اقتصادي مربح وعنصرًا منتجًا لا مستهلكًا للموارد المالية[٢].

وهكذا نجد على وجه الإجمال والاختصار ظروف اقتصادية وأخرى تراثية[٣] تُملي علينا مثل هذه الإجراءات.

٢-الشروط الأساسية الواجب توفيرها في المباني المرشحة لاحتضان المتاحف

٢/١-معايير اختيار الموقع المناسب:

يعتبر الموقع الجغرافي للمتحف من ضمن الاعتبارات المهمة، التي يجب أخذها بعين الاعتبار عند تصميم المتاحف، حيث تتم دراسة الموقع من خلال طبوغرافيته والبيئة المحيطة به، وطرق الوصول إليه[٤] فاستعمال بناء قديم يقع داخل المدينة خير من استعمال آخر، أو بناء متحف جديد خارج نطاق المدينة، لأن وجود المبنى داخل المدينة فيه توفير للمواصلات بالنسبة لسكان المدينة الذين يتمكنون من الوصول إلى المتحف حتى مشيًا على الأقدام، كما أن ذلك يُعتبر مناسبًا للسيّاح العابرين فلا يجدون مشقة في الوصول إليه[٥]. إلا أن هناك اتجاه فكري يدعو إلى اختيار موقع المتحف في محيط المدينة بدلاً من مركزها، مثلما هو عليه الحال في اختيار مواقع الأحياء الجامعية، بحيث يكون المتحف والمجموعات التي يضمها بمعزل عن الجوّ الملوث، والفوضى التي تعام وسط المدينة[٦]، وعموما من جملة الشروط الواجب توفرها في اختيار موقع المتحف ما يلي[٧]:

- سهولة الوصول إليه من خلال توفير شبكة من الطرق، وكذا وسائل النقل والمواصلات.
- إقامة اللافتات التي تسمح بالتعرف إلى موقعه.
- بُعد موقع المتحف عن مراكز الأخطار الطبيعية كالانجرافات، الفيضانات، وغيرها.
- تسييج المتحف بحزام من الأشجار للفصل بينه وبين حركة المرور السريعة، إذا ما كان المتحف يقع على طريق سيّار.
- إزالة جميع الأشجار القريبة من مبنى المتحف لمنع تسلل اللصوص إليه.
- أن يكون قريبًا من مراكز الأمن والحماية المدنية لتسهيل عمليات التدخل في حال حدوث أي طارئ.
- إنارة المناطق المحيطة بالمتحف لتسهيل عملية الحراسة ليلاً.
- إحاطة المبنى بسياج وأسلاك شائكة.
- ترك فضاء خارجي حول المتحف من غير استغلال، يسمح بتوسيع المبنى الأصلي من خلال إنشاء مباني أخرى ملحقة ومتصلة به متى استدعت الضرورة ذلك.
- وضع مساحات خضراء تسمح للجمهور بالراحة والاستجمام.
- اختيار موقع المدخل الرئيس بعيدًا عن حركة المرور مع توفير مرآب للسيارات.

٢/٢-تناسق توسعه الفضائي مع وظائف المتحف الحديث

إن الرغبة في تحويل المباني التاريخية إلى متاحف يجب أن يكون قائمًا على عنصرين أساسيين أولهما: إدراك قيمة ذلك المبنى من الناحية التاريخية، وثانيهما: ضرورة أن تستوفي تلك المباني ما تحتاجه من مرافق معمارية تساير وظائفه المتعددة في أيامنا هذه[٨].

دوره التربوي:

يُعرف المتحف بأنه مؤسسة في خدمة المجتمع، وتطوير مستويات الفكر والإدراك لديه[٩] لأنه أحد وسائل الاتصال التربوي. وهو عبارة عن مركز تعليمي وترويجي يقدم المعلومات والخدمات التي تكمل التعليم لجميع الفئات العمرية ولا يتقيد بسن معينة. ومن أهم الوسائل التي يتبعها المتحف لأداء دوره التربوي:

- المطبوعات والمنشورات التي تُعرِّف به وبما يحتويه من مجموعات كما تُعد وسيلة اتصال بين المتحف وزواره ومركز توثيق.
- المحاضرات والمعارض بنوعيها الدائمة والمؤقتة التي تعمل على توسيع عملية الاتصال مع مختلف شرائح المجتمع من خلال تشجيعها على التردد المتواصل على المتحف.
- والإعلام من خلال الوسائل السمعية والبصرية[١٠]، والوسائط الإلكترونية.

ويكون دور المتحف فعالاً عند ربطه بالمناهج التربوية الدراسية، فهو يمتلك القدرة على توصيل ثقافة

الماضي بدرجة تعجز الكتب عن التعبير عنها، أو رسمها في ذهن القارئ، وكل ذلك لبناء ثقافة الوعي المتحفي بين كل فئات المجتمع انطلاقًا من فترة الطفولة من خلال التعاون بين المدرسة والمتحف وصولا إلى الثانوية والجامعة التي تفتح آفاقًا للتخصص في هذا المجال[١١].

دوره العلمي[١٢]:

ويمكن أن نحصر دوره العلمي فيما يلي:

- حفظ المقتنيات المتحفية وتأمين علاجها وصيانتها للتأكد من وُصولها إلى الأجيال القادمة في أحسن حالة ممكنة من خلال توفير الشروط المناخية الملائمة.
- تبنِّي سياسة الجمع والاقتناء من خلال القيام بالحفريات، والتبادل، والشراء وغيرها من وسائل الاقتناء وكذا ترميم وتقيِّيد المجموعات لتسهيل دراستها والتعرف عليها حتى تؤدي دورها كونها جزءا من ذاكرة الأمة.
- دراسة فئات الجمهور المتوافدة على المتحف من خلال مستواها التعليمي وتطلعاتها مثل فئات الأطفال التي تستدعي تنظيم برامج خاصة، واختيار مواضيع مناسبة لسنهم وتبسيط الشروح بدون أن ننسى الفئات العمرية الأخرى كالطلبة والباحثين. وهكذا يصنف المتحف ضمن سجل المعاهد والمراكز التي تقوم بالدراسة والبحث.

دوره الثقافي:

تحتل المتاحف في عصرنا هذا أرفع مكانة من خلال خصائصها التثقيفية التي تساهم في التّعبير عن هويّة الأمم والشعوب وبث الوعي الفكري والوجداني من خلال تعريف الشعوب بثقافات بعضها البعض[١٣]، وهو بذلك يُثير في زواره غريزة الانتماء فيدفعهم بشكل غير مباشر إلى حماية هذا التراث والمساهمة في إنمائه وإبراز قيمته لغيرهم من الدول والأمم المجاورة. ومن الطبيعي أن يؤدي الدور الثقافي للمتحف بشكل تلقائي إلى إبراز وظيفته الاجتماعية حيث تلعب المؤسسة المتحفية دورًا مهماً في تربية الذوق وحب الاطلاع، وتأسيس ما يسمى بالتربية المتحفية لجميع الفئات التي يتشكل منها المجتمع[١٤]، وهكذا يصبح المتحف مكانا للالتقاء وتبادل الأفكار والاشتراك في الأذواق.

والمتحف بمختلف أنواعه وتخصصاته يلعب دورًا فعالاً في تنمية اقتصاد البلد من خلال مجال السياحة بمختلف أنواعها الثقافية والدينية والترفيهية والعلاجية، وهكذا يُساهم بطريقة غير مباشرة في تنمية البلاد اقتصاديًا، خصوصًا وأن للسياحة دورًا كبيرًا في حياة الشعوب الحديثة. وفي خضم هذا التطور الذي عرفته وظائف المتحف، شهدت عمارته هي الأخرى توجها جديدا حيث تركز الاهتمام على كيفية إنشاء عمائر متحفية خاصة. يمُكن للمتحف من خلالها أن يؤدي رسالته على أكمل وجه حيث يمكن تقسيم العمارة المتحفية الحديثة ضمنيًا إلى[١٥]:

- الجناح الإداري:

تُعتبر الإدارة الكفء هي النواة الرئيسية لنجاح أي عمل، لذلك فإن العمارة المتحفية يجي أن تكون كغيرها من الإدارات العمومية التي تعمل ضمن مخطط محدد يقوم على تسيِيرّ الشؤون الداخلية من تنظيم، وتجهيز وتهيئة، ولكي يتم ذلك يجب أن تجهز بعدد من المكاتب يتراوح عددها ما بين الثلاث والأربعة مكاتب على الأقل، بحيث يخصّص واحد لمدير المتحف، وباقي المكاتب للأمانة والمحاسب المالي وغيرهم من الإداريين[١٦].

- جناح الحفظ والتثمين:

هو جناح تقني خاص ويتضمن:

- **ورشة الصيانة والترميم:**

وهو مكان مخصص لصيانة التحف وترميمها من خلال توفير أدوات ووسائل الترميم، إضافة إلى قاعة لتغيير الملابس، وحمام خاص، وخزان ماء احتياطي.

- **مخبر الفحص:**

وهو مخبر مجهز بكل ما تحتاجه الفحوص التقنية للتحف المتحفية كمعاينة الأضرار اللاحقة بها أو تأريخها، أو معرفة مكوّناتها أو نسبة التلوث فيها.

- **غرفة الغاز[١٧]:**

هي قاعة صغيرة مزودة بنظام تهوية اصطناعي، ولوحَة تحكم عن بعد بدرجات الحرارة ونسبة الرطوبة. وهي متصلة بخزان ممتلئ بإحدى الغازات المبيدة للحشرات والقوارض المجهرية، حيث تعمل على تخليص المقتنيات المتحفية الجديدة من القوارض والكائنات المجهرية التي من المحتمل وجودها بها، من خلال وضعها في تلك القاعة بعد غلقها، توضع تحت درجة حرارة مقدارها خمس وعشرون (٢٥°) درجة مئوية، ونسبة رطوبة تقدر بثمانين (٨٠°) في المئة. وهو

الوسط المناخي الملائم لنشاط الكائنات الحية وعندما تخرج إلى السطح يُصبّ عليها المبيد بقدر كافٍ، وتُترك لمدة أربع وعشرون (٢٤) ساعة، ثم تفتح منافذ التهوية فيخرج الغاز بعدما يكون قد قضى على جميع الكائنات الحية.

- مخبر التصوير:

وهو كغيره من مخابر التصوير مزوّد بوسائل تحميض الأفلام، ونسخ الصور، ومكان لالتقاط الصور وآخر لحفظ أرشيف الصور. يَقوم عليه مصوّر له خبرة بقواعد التصوير، خاصة وأن الصورة وثيقة هامة للتعريف بالتحفة.

- المخازن والمستودعات[١٨]:

وهي أقسام مهمة جدا من مكونات البناية المتحفية مخصصة لحفظ التحف التي تحتاج لدراسة أو ترميم أو تلك التي تشكل الفائض من التحف. وهي أقسام شبيهة تقريبا بأجنحة العرض لأن التحف تصنّف فيها حسب طبيعتها، وأوزانها ومقاساتها. وبالتّالي كل نوع على حدا، يحتاج إلى طريقة حفظ معينة وشروط خاصة، فمنها ما هو محفوظ في واجهات، وما هو في رفوف أو في خزائن خاصة.

- جناح العرض:

هو القسم الذي يُسمح للجمهور بالدخول إليه. ويشتمل على قاعات العرض، وهنا يجب العمل جيدا على التصميم الداخلي باعتباره يعمل على معالجة ودراسة الفراغات، والأحياز مع وضع الحلول المناسبة للعناصر المكوّنة لها، وتهيئتها لتأدية وظيفتها بكفاءة باستخدام مواد مختلفة[١٩]. دون أن ننسى قاعة الاستقبال التي تعتبر بحق النقطة التي من خلالها يتم التحكم في حركة الجمهور، حيث تزود هذه القاعة بالإضاءة والتهوية، ويُفضل أن تكون واسعة وجذابة ومفروشة. كم تستعمل أيضا لبيع التذاكر، وعرض المنتجات الثقافية للمتحف كالبطاقات البريدية، والكتيبات، والدوريات، ونتائج الأبحاث.

- ملحقات المتحف[٢٠]:

- قاعات العروض المؤقتة:

وهي خاصة بالعروض المتعلقة بالمناسبات والنشاطات الدورية.

- قاعة المحاضرات:

مجهزة بأحدث وسائل السمعي البصري.

- مكتبة متخصصة:

بالنسبة للمكتبة يمُكن أن تُخصص أكثر من قاعة، ويُفضل أن تكون قريبة من مكاتب الإدارة، إضافة إلى تسهيل دخول الطلبة والباحثين إليها.

- مرآب السيارات:

لحفظ سيارات أصحابها من الزوار والجمهور الوافد إليها.

٣/٢-قلة كلفة تهيئته مع كلفة مشروع جديد:

يجب أن يُؤخذ الغلاف المالي المخصص لإعادة التهيئة بعين الاعتبار، حيث يتم التأكد من أن كلفة التهيئة أقل من الكلفة المالية المخصصة لإنشاء بناية جديدة. وذلك من خلال إجراء حساب دقيق يشمل تكاليف إعداد العروض ومخازن العينات والتغير المتوقع في مساحة القاعات. بعد معرفة جميع التكاليف يجب أن تُجرى مقارنة بينها وبين ما يتكلفه تغييرها واستمرار صيانتها أكثر من تكاليف إنشاء متحف جديد.

٤/٢-حالة حفظه الصحية:

إن إعادة توظيف المباني الأثرية في وظائف جديدة يكون مناسبًا وحتى ضرورة يفرضها مفهوم الصيانة. إلاّ أنّه وفي كثير من الأحوال تقف الحالة الصحية للأثر حائلاً دون ذلك، لأن مثل هذا النوع من المباني والمعالم عُرضة لعوامل الهدم والاندثار إما لسبب أو لآخر. لذلك فإن من الشروط الأساسية لإعادة الإدماج أن يكون المبنى التاريخي صالحا من الناحية الهندسية، والمعمارية حتى يتمكن من أداء وظيفته على أكمل وجه.

٣-الصعوبات الميدانية التي تطرحها عملية التهيئة

تُعَدّ ضرورة الموازنة بين الواجب في احترام العمارة، وما تقتضيه من تهيئة عصرية في إطار الأصلي من خلال إعادة الإنشاء التاريخي لإعادة توظيفها. من أهم المشاكل والمصاعب الميدانية التي يمكن أن تواجه الفريق المسؤول عن إعادة التهيئة، حيث تقف الحالة القانونية للبناية التاريخية حائلا دون إجراء تعديلات على هيكل البناية، فالمواثيق الدولية والمؤتمرات العلمية قد وضعت بعض المعايير والقواعد التي تنظم وتخدم عملية إعادة استخدام المباني التاريخي، حيث نجدها تنصّ جميعًا على ما يلي: "يجب ألا يترتب على الوظيفة الجديدة أي

تعديلات على مخطط المبنى سواء هدم أو تحويل أو إعادة بناء جديدة من شأنها أن تغير الشكل الأصلي"[٢١].

وبناءً على هذا لا يمكن للبناية المصنّفة أن تخضع لعمليات التهيئة العميقة، وقد يكون هذا حاجزًا دون إعادة استعمالها وتوظيفها. أضف إلى ذلك مشكل آخر أكثر أهمية وهو بدوره يمكن أن يكون يُعيق عملية التهيئة ويتمثل في طبيعة مواد بناء المعلم لأن هذا النوع من المباني غالبًا ما تكون مبنية بطرق وتقنيات ومواد تقليدية[٢٢]، فالمباني الحجرية القديمة مثلا تقف حجر عثرة بينها وبين مد أسلاك الكهرباء، وأنابيب التهوية الاصطناعية، بسبب شدة تماسكها وصعوبة إجراء ثقوب واسعة فيها.

٤-مستلزمات تهيئة البناية القديمة

بعد أن يقع الاختيار على البناية القديمة المرشحة لإعادة التهيئة، ومن ثمة إعادة التوظيف، وبعد أن تكون قد استوفت جميع الشروط السابقة الذكر مع الشروط الأساسية لإعادة تأهيل المباني التاريخية. يتم إتباع مجموعة من الخطوات للبدء في عملية التهيئة. وأولى هذه الخطوات توفير الغلاف المالي المناسب ويجب ألا تتجاوز كلفة تهيئة البناية القديمة كُلفة إقامة متحف جديد[٢٣]، فبعد إجراء الحسابات اللازمة لكل ما تحتاجه البناية يتم رصد المبلغ وتحديده. وليتحقق ذلك علينا الاستعانة باليد البشرية الكفؤة، وهي ثاني خطوة يتم إتباعها، حيث يتم الاستعانة بالمحاسب الذي يعمل على حساب التكاليف وتوزيعها على ما تَتَطلبه البناية مثل أسعار مواد البناء وغير ذلك، إضافة إلى المهندس الذي يقوم بإنشاء المخططات وتحديد جميع الأبعاد والتفاصيل، وما تستلزمه من مصاريف لنصل إلى الخطوة الأكثر أهمية وهي توفير الوسائل اللازمة، من اختيار مواد البناء وتقنياته وحتى أثاث العرض وتجهيزاتها وكذا تجهيزات المخازن والمخابر وورشات الترميم والمكتبة وما تحتاجه من وسائل لذلك.

خَاتمِةٌ

من خلال ما سبق نستخلص أنه، على الرغم من أنّ إعادة توظيف المباني التاريخية القديمة هي الطريقة الأنسب لإنقاذها، إلاّ أنّه من الصعب جدًا، وفي القليل من الأحيان أن تتطابق هياكلها المعمارية مع الوظائف المعاصرة الموكلة إليها. وبالتالي تبقى عمليات إعادة التوظيف مرهونة بمجموعة من المعايير العلمية والتقنية التي يمكن أن نلخصها فيما يلي: المنفعة فلا تُوظّف المباني التاريخية إلاّ لتؤدي وظيفة نفعية، ومن شروط توظيفها أن تتمتع بالقوة والمتانة. ويُراعا فيها أيضًا الشكل العام الذي يبعث على الراحة في نظر المتأمل. أضف إلى كلفتها الاقتصادية التي لا يمكن أن تتجاوز كلفة إقامة عمارة جديدة، ومرونة وقابلية موادها لإلحاق بها بعض التعديلات المعمارية، وإدخال عليها بعض التجهيزات الجديدة كوسائل الرقابة والتهوية والإنارة الاصطناعية.

الهَوامِش:

(١) فاروق شعبان ومي هاي زادور: **ترميم الآثار المعمارية الشعبية الطينية**، الثقافة العربية، العدد ٠٦، ١٩٨٤، ص١٣٦.

(٢) أحمد إبراهيم عطية وعبد الحميد الكفافي: **حماية وصيانة التراث الأثري**، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، الط١، ٢٠٠٣، ص٦٠.

(٣) وتتمثل في حماية المعلم الأثري ودمجه في الحياة المعاصرة.

(4) Maria Antonietta (scarpa), **la pensée, le dessin, les projets**, tra: Xavier Maiverti, Ed: Pierre Mardage, Bruxelles, 1984, P120.

(٥) عياد موسى العوامي: **مقدمة في علم المتاحف**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، طرابلس، ١٩٨٤، ص٧٥-٧٨.

(6) Benoist (luc): **musée et muséologie,** 2(eme) Ed, presse universitaire de France, 1971, P39.

(٧) حملاوي علي: علم المتاحف، **سلسلة محاضرات علم المتاحف**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ت)، ص١٦-١٧. انظر أيضًا: رفعت موسى محمد: **مدخل إلى فن المتاحف**، الدار المصرية اللبنانية للطبع، القاهرة، الط١، ٢٠٠٢، ص٦٩-٧٠.

(٨) عياد موسى العوامي: المرجع السابق، ص٧٥-٧٨.

(٩) المجلس الدولي للمتاحف ICOM: **نظام الآداب المهنية**، ص٦.

(١٠) أحمد رفاعي: **"الدور التربوي للمتحف"**، حوليات المتحف الوطني، العدد الأول، ١٩٩١، ص١٨ - ١٩.

(١١) نوار ساحلي: **"الدور التربوي الاجتماعي للمتحف"**، الملتقى الوطني "المتحف...أبعاد متعددة"، سطيف ٢٤،٢٥،٢٦ أكتوبر١٩٩٤، ص٤٥-٤٩.

(١٢) شرقي الرزقي: **"العرض المتحفي المتنقل بين المدارس ودوره في تنمية الملكة المعرفية لدى الطفل المتمدرس"** محاضرة منشورة في كراسة أشغال يوم دراسي حول: "المتحف والمدرسة " من تنظيم وطبع المتحف الوطني للآثار بسطيف، ١٩٩٧، ص٣٥.

(١٣) أحمد إبراهيم عطية وعبد الحميد الكفافي: **المرجع نفسه**، ص٨٢.

(١٤) نوار ساحلي: **المرجع نفسه**، ص٤٩.

(١٥) شرقي الرزقي: **المرجع نفسه**، ص٣٥.

(١٦) شرقي الرزقي: **فصول في علم المتاحف**، دار الألمعية للنشر والتوزيع، الط١، ٢٠١٤، ص١٢٣.

(١٧) نفسه، ص١٢٥.

(18) Verne (E) et Horgan (j-c): **la mise en réserve des collections de musée**, UNESCO, paris, 1980, PP37-40.

(١٩) آرنست نوفر: **عناصر التصميم والإنشاء المعماري**، تر: ربيح محمد النذير، دار قابس، الط١، بيروت، ص١١٥.

(٢٠) شرقي الرزقي: **فصول في علم المتاحف**، ص١٢٨-١٢٩.

(٢١) أحمد إبراهيم عطية وعبد الحميد الكفافي: **المرجع السابق**، ص٦٤-٧٠.

(٢٢) فاروق شعبان ومي هاي زادور: **المرجع السابق**، ص١٣٦.

(٢٣) حملاوي علي: علم المتاحف، **المرجع السابق**، ص١٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مقالات

محمد خيضر
ودوره الدبلوماسي المغاربي

د. أكرم بوجمعة
أستاذ مساعد جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
باحث في فلسفة التاريخ -جامعة دوكوز أيلول
إزمير – الجمهورية التركية

مُلَخّص

راهنت الحركة الثورية المغاربية على وجه العموم، والثورة الجزائرية منذ انطلاقها سنة ١٩٥٤م على وجه الخصوص، على عامل أساسي ورئيسي في نجاح ثورتها، وثق ذلك مثلاً في بيان أول نوفمبر، وهو ما يمكن أن نسميه بفلسفة الكفاح خلال السنوات الأولى من انطلاق الثورة، الذي اعتمد فيه وغلب عليه بالدرجة الأولى على الجانب العسكري والكفاح المسلح، لكن سرعان ما تغيرت فلسفة الكفاح لدى المجاهدين الجزائريين والمغاربة عمومًا من معنى أضيق وأوحد إلى معاني أوسع وأشمل لعدت وسائل وأساليب، وذلك بإدخال العديد من الوسائل والطرق كفاحية جديدة، التي من شأنها أن تساهم في حركة الاستقلال والحرية لشمال إفريقيا. ومن أهم هذه الوسائل التي وظفت في الكفاح المغاربي، وهو العمل الدبلوماسي الموزي للعمل المسلح، ولهذا لعبت الدبلوماسية المغاربية أثناء الثورات دورًا كبيرًا وبارزا أهمها، التعريف بالقضية المغاربية في المحافل الدولية، كما أنها أعطت نقلة نوعية لمسار الكفاح والنضال المغاربي ضد المستعمر. ومن أهم الشخصيات البارزة في الكفاح والنضال الجزائري قبل وأثناء الثورة، المجاهد محمد خيضر رحمه الله، لهذا رأينا من الإنصاف أن نشارك ببعض أعماله البطولية عمومًا، والدبلوماسية خصوصًا، وإبراز عمله النضالي المغاربي قبل وأثناء الثورة، ودوره الدبلوماسي كحلقة منيرة في سلسلة الأعمال الدبلوماسية الجزائرية والمغاربية، بهدف نجاح المشروع الاستقلالي الذي تعاهدوا عليه.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٨	أبريل	٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر:	٢٧	يوليو	٢٠١٩

كلمات مفتاحية:
مكتب المغرب العربي؛ الكفاح المغاربي؛ الكفاح المسلح؛ الجامعة العربية؛ لسياسية والدبلوماسية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055844

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
أكرم بوجمعة. "محمد خيضر ودوره الدبلوماسي المغاربي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص ٦٢ – ٧٠.

مُقَدِّمَة

عانت البلدان المغاربية الثلاثة كلا من تونس، الجزائر، المغرب الأقصى ويلات الاستعمار الإمبريالي الأوروبي مع بداية القرن التاسع عشر، لكن هدا لم يثني من عزيمة خيرت شبابها وقوة أبطالها من الوقوف في وجه العدو المستعمر، بل عبر عن أشكال رفضه بالعديد من الوسائل، منها المقاومة الشعبية المسلحة، ثم المقاومة السياسية، ونتيجة التطورات العالمية الحاصلة مع مطلع القرن العشرين، ثم التغيرات العالمية الناتجة بعد الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص أدت إلى ظهور أشكال جديدة من أشكال المقاومة السياسية، وهو العمل الدبلوماسي، ولهذا ظهرت العديد من الهياكل والجمعيات والمكاتب السياسية، استطاع فيها رجالات السياسة داخل شمال إفريقيا أن يكونوا فيها العديد من الهيئات السياسية والدبلوماسية بهدف مجابهة العدو بوسائله السياسية الحديثة، مثل تأسيس الجامعة العربية، مكتب المغرب العربي، للجنة تحرير المغرب العربي.

ونتيجة لتلك التطورات الحاصلة ظهرت العديد من الشخصيات السياسية والدبلوماسية داخل شمال أفريقيا، أثبتت وجودها المغاربي وكذلك العالمي ومن بين هذه الشخصيات السياسية المراد دراستها في هده المداخلة شخصية المجاهد محمد خيضر ودوره الدبلوماسي المغاربي، ومدى مساهمته في تفعيل العمل الدبلوماسي بشمال أفريقيا من اجل تحررها واستقلالها.

١-التعريف بمحمد خيضر

الاسم الكامل لمحمد خيضر هو محمد بن يوسف خيضر، ولد فسي ١٣ مارس ١٩١٢ بالجزائر العاصمة، من عائلة محافظة ومتواضعة تنحدر أصولها ببلدية طولقة ولاية بسكرة[١]، نشأ وتربى في كنف عائلة فقيرة، مما أجبره على ترك مقاعد الدراسة، التحاقه بالحياة العملية مند صغره، فاشتغل عدت وظائف منها عامل في أحد مصانع التبغ، كما اشتغل أيضًا قابضًا بحافلات النقل التي تعمل على خط الرابط بين بسكرة والولايات الأخرى[٢]. أما فيما يخص التحاقه بالعمل السياسي، فقد انخرط في صفوف حزب الشعب سنة ١٩٣٨، ثم انتخب نائبًا في حركة انتصار للحريات الديموقراطية سنة ١٩٤٦، وعين في نفس السنة كعضو رئيس في اللجنة المركزية للحزب، وفي جوان ١٩٥١ قرر الذهاب إلى القاهرة على إثر اعتقاله من طرف السلطات الفرنسية بسبب قضية الهجوم على بريد وهران ١٩٥٠.

وبعد التحاق محمد خيضر بالقاهرة، تم تعيينه كعضو فعال داخل المكتب المغرب العربي، وشكل فيما بعد رفقة زملائه المناضلين بالوفد الخارجي باسم جبهة التحرير الوطني، بهدف الدفاع على القضية الجزائرية خصوصًا، والحركات التحررية المغاربية والعالمية عمومًا، إلى أن تم إلقاء القبض عليه من طرف السلطات الفرنسية رفقة زملائه ، نتيجة حادثه اختطاف الطائرة في ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦، عين عضوا بالمجلس الوطني للثورة، وعضوًا شرفيًا للجنة التنسيق والتنفيذ، ظهر اسمه بصفة وزير دولة للحكومة المؤقتة الجزائرية 1958م إلى 1962م، وبعد الاستقلال بخمسة سنوات واغتيل المناضل محمد خيضر في ظروف غامضة بالعاصمة الإسبانية" مدريد "وذلك يوم 04جانفي 1967م.[٣]

٢-تأسيس مكتب المغرب العربي

نتيجة الأحداث التي شهدتها بلاد المغرب العربي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، جعلت بعض زعماء الحركات الوطنية المغاربة وقادة حركة الاستقلالية يدركون عدم جدوى مسايرة الاستعمار بالطرق السلمية القديمة كلا على حِدَة دون تكثيف من العمل الوحدوي والنضال المغاربي المشترك والدعوة على ضرورة توحيد الجهود وتنسيق فيما بينهم[٤]. ولهذا الغرض انقسمت الأحزاب المغاربية الثلاثة حزب الاستقلال المغربي وحزب الشعب الجزائري وحزب الدستوري الحر الجديد التونسي على عقد مؤتمر عام لدراسة شؤون المغرب العربي والبحث على أنجع الطرق والوسائل لتنسيق الأعمال وتوحيد الصف وإظهار التضامن المغاربي بهدف خدمت القضية المغاربية وتحقيق الأهداف المنشودة كالاستقلال والحرية.[٥]

وعلى أثر هذا تم عقد مؤتمر المغرب العربي بين ١٥ و٢٤ فيفري ١٩٤٧ بالقاهرة وحضره ممثلو الحركات الوطنية بالمغرب العربي[٦]، وقد نجح الوطنيون في توحيد جهودهم وتمكنوا من إقناع شخصيات قومية وعربية وإسلامية[٧] بارزة بضرورة المشاركة في هذا النشاط السياسي ومحاولة حملها على اتخاذ موقف مشترك وجريء لتأييد القضية المغاربية وكان في طليعتهم عبد الرحمان عزام الأمين العام للجامعة العربية.

من أهم أعمال الوطنيين المغاربة هو إعادة بعثهم لمشروع مكتب المغرب العربي الذي انشأ في برلين في اليوم الثاني من انعقاد مؤتمر، عالج المؤتمرون خلاله العديد من الموضوعات أهمها:

١-الاستعمار الفرنسي والإسباني.

٢- تنسيق الحركات الوطنية في بلاد المغرب.

٣- مكتب المغرب العربي والجامعة العربية.

٤- عرض قضية المغرب العربي على الهيئات الدولية.

٥- توحيد جهود المكاتب المغاربية في مصر[٨].

وخرج المؤتمرون بقرارات تؤكد على العمل المغاربي المشترك ضد الوجود الاستعماري فأقروا من خلال الموضوع الأول بطلان معاهدتي الحماية على تونس والمغرب الأقصى وعدم الاعتراف بأي حق لفرنسا في الجزائر وذلك بإعلان الاستقلال التام لبلدان

المغرب العربي وبجلاء جميع القوات الأجنبية عنها، واعتبروا أيام احتلال الأقطار المغاربية الثلاثة أيام حداد في جميع أقطار المغاربة (٥ جويلية، ١٢ ماي، ٣٠ مارس)، أما الموضوع الثاني فأقروا على ضرورة الاتفاق بين الأحزاب الوطنية المغاربية الثلاثة وذوبانها في جبهة واحدة، والعمل على إحكام الروابط بين الحركات الوطنية في المغرب العربي بالاتفاق على غاية واحدة وهي الاستقلال والجلاء، وهذا بتكوين لجنة دائمة من رجال الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق العمل الكفاح المغاربي المشترك إلى جانب توحيد المنظمات العمالية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وتوجيهها توجيها قوميا، وعلى مستوى الموضوع الثالث أقر المؤتمرون مطالبة الجامعة العربية بإعلان عن بطلان الحماية على تونس والمغرب وعدم شرعية الاحتلال على الجزائر، وتأكيدًا لهم على ضرورة عرض القضية المغاربية على الهيئات الدولية لتحقيق الاستقلال التام وضرورة تعيين ممثلين للمغرب العربي بالجامعة العربية وكذا مطالبة الجامعة على نشر الثقافة العربية في كامل بلدان المغرب العربي والعمل على حل مشكلة الطلاب المغاربة بالمشرق العربي بهدف إكمال لدراستهم.

وأقر الموضوع الرابع عرض قضية المغرب العربي على هيئة الأمم المتحدة والهيئات الدولية للمطالبة باستقلال أقطار المغرب العربي، ونجد أن الموضوع الخامس قد أقر فيه المؤتمرون ما يلي: "تكون رابطة الدفاع عن مراكش والوفد المراكشي في لجان الجامعة العربية ومكتب حزب الشعب الجزائري ومكتب الحزب الدستوري الحر الجديد يُسمى: "مكتب المغرب العربي".[٩] كما اتفق المؤتمرون في عرض القضايا المغاربية على هيئات الدولية وتم المصادقة في هذا الشأن على أهم قراراته:

- أن ترفع الهيئات السياسية المغاربية مذكرة إلى الأمم المتحدة تشرح فيها اعتداء فرنسا وإسبانيا على حقوق الشعب المغاربي وحرياته.
- إرسال مذكرات من الهيئات السياسية إلى المجلس الاقتصادي والاجتماعي وحقوق الإنسان تشرح فيها اعتداء فرنسا وإسبانيا على كيان المغرب العربي اقتصاديا واجتماعيا.[١٠]
- شكر الجامعة العربية على كل ما بذلته في سبيل المغرب العربي.

ومنه نلاحظ أن ممثلي الأحزاب المذكورة في الموضوع الخامس والمتعلق بوجود كيان يجمعهم ويوحد صفوفهم في نضال مغاربي مشترك رأوا بضرورة إعادة بعث تجربة مكتب المغرب العربي في برلين كما ذكرنا سابقا وكذلك أن جميع قرارات المؤتمر كانت متبوعة بتحاليل تاريخية وموضوعية لتبرير اتخاذ ذلك القرار لكنها لم تعطي لنا تصورًا واضحًا لوحدة المغرب العربي بعد الاستقلال.[١١] في الأخير نخلص إلى أن أهم القرارات التي خرج بها المؤتمر هو ميلاد مكتب المغرب العربي، الذي تأسس عقب هذا المؤتمر في ١٥ فيفري ١٩٤٧ منذ هذا التاريخ حل مكتب المغرب العربي محل الأحزاب الوطنية المغاربية الموجودة في القاهرة وهو ما سنتناوله في المطلب الموالي[١٢].

٣-محمد خيضر عضوًا داخل مكتب المغرب العربي

إن الأحداث التي شهدتها بلدان المغرب العربي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية جعلت قادة الحركة الاستقلالية على يقين بعدم جدوى مسايرة الاستعمار بالطرق التقليدية القديمة خاصة بعد أحداث ٨ ماي ١٩٤٥ بالجزائر، والقمع الوحشي على قريتي زمردين وبني حسان بتونس في ٣٠ جوان ١٩٤٦، والأحداث القمعية التي شهدتها مدينة مكناس سنة ١٩٤٥ جعلتهم يفكرون بجدية في ضرورة تنسيق العمل بين الحركات الاستقلالية المغاربية لتحقيق مشروع استقلال أقطار المغرب العربي، وجسد هذا في مكتب المغرب العربي[١٣]، وهكذا نجد أن ممثلي الحركات الوطنية المغاربية بعد انتهائهم من أشغال المؤتمر شرعوا في تنفيذ قراراته المتعلقة بإنشاء مكتب المغرب العربي بحيث افتتح المكتب لتوحيد مكاتب الحركات المغاربية المتواجدة بالقاهرة وضع نظام المكتب على ثلاثة أقسام:

- القسم المراكشي: ضم كل من حزب الاستقلال والإصلاح المغربي.
- القسم التونسي: ضم الحزب الحر الدستوري الجديد.
- القسم الجزائري: ضم حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

ويشير أحد مؤسسي هذا المكتب وهو عبد السلام الهاشمي الطود[١٤] بأن عملية تأسيس مكتب المغرب العربي تمت من قبل عبد المجيد بن جلون وعبد الكريم

غلاب من المغرب الأقصى، الرشيد إدريس وعز الدين عزوز من تونس ومحمد خيضر وأحمد بن بلة من الجزائر[١٥]. كان الهدف الأساسي من إنشاء مكتب المغرب العربي هو العمل على التنسيق بين الحركات الوطنية المغاربية على أرض الواقع، وتوحيد الخطط لتنسيق عملية الكفاح المغاربي المشترك في ظل نشاط سياسي أو العمل المسلح، لتحقيق المكتب للأهداف المرجوة على أسلوب الدعائي، ولهذا الغرض أنشأ العديد من الفروع بهدف التعريف بالقضية المغاربية وفضح الممارسات الاستعمارية داخل أقطار المغرب العربي.[١٦] فقد لخص الكاتب الفرنسي الاتجاه السياسي لمكتب المغرب العربي سنة نشأته التالية أنه مكتب:

١_ لا يقبل غير حل واحد: الاستقلال الكامل لدول المغرب العربي الثلاثة التي تختار نظمها السياسية بحرية.

٢- رفض الاتحاد الفرنسي رفضا تاما في أي شكل كان.

٣- عدم المفاوضة على أي اتحاد إلا بعد حصول على الاستقلال .

٤- ليس مكتب المغرب العربي شيوعيا ولا فاشستيا ولا اشتراكيًا إنه ديمقراطيًا.

٥- درس مكتب المغرب العربي الإصلاح الاجتماعي الذي يجب اتخاذه في المغرب العربي لكنه ترك تنفيذ هذا المشروع حتى الحصول على الاستقلال التام[١٧].

ونجد محمد خيضر قد شدد داخل المكتب المغرب العربي على قضايا أساسية وجوهرية التي من شأنها تؤكد التوجه الجديد دخل للحركات الوطنية المغاربية وهو مبدأ الاستقلال التام والدعوة إلى التحرر واسترداد الدولة الوطنية، وشكل هذا التوجه بعدا استراتيجيا في توجهات مكتب المغرب العربي وسعي على تطبيق هذه التوجهات على ارض الواقع، لهذا نجد أن المكتب قد رفع إلى الجامعة العربية بضرورة قبول ورفع المطالبة التي نص عليها في المؤتمر كما ذكرنا سابقا و أهمها في:

- إعلان بطلان الحماية على تونس والمغرب الأقصى.
- إعلان على هدم شرعية الاحتلال الفرنسي على الجزائر.
- تقرير استقلال الأقطار المغاربة الثلاثة.
- تعيين ممثلين عنها _ أي مكتب المغرب العربي_ في مجلس الجامعة.
- عرض القضية المغاربية على كل الهيئات الدولية.
- استعمال وسائل وقوة الجامعة العربية لمساعدة الأقطار المغاربية لتحقيق استقلالها.
- إرسال لجان تحقيق ّإلى أقطار المغرب العربي[١٨].

كما ساهم محمد خيضر في دعم الأمير عبد الكريم الخطابي في تأسيس للجنة تحرير المغرب العربي فيما بعد[١٩]، مما أتاح للمكتب ثم للجنة تحرير المغرب العربي فرصة لتداول فكرة الوحدة التي تحتم على ضرورة العمل والتنسيق المشترك بين الأقطار المغاربية الثلاث وبذلك أصبح يشكل الإطار المستقبلي والاستراتيجي لشعوب المنطقة[٢٠]. ومنه قد ساهم محمد خيضر في تفعيل المكتب المغرب العربي بالقاهرة كما استقطابه للعديد من القادة السياسيين والإعلاميين سواء المتواجدين بمصر أو الوافدين إليها من مختلف أنحاء العالم، وبهذا أصبح مكتب المغرب العربي محطة هامة لتمثيل بلدان المغرب العربي وقضاياه في القاهرة التي كانت مركز الإشعاع الفكري والسياسي والإعلامي خاصة بعد أن أصبحت مركز للنشاطات السياسية للبلدان المغاربية.

٤-محمد خيضر وتفعيل الكفاح المغاربي المشترك

كان الكفاح المغاربي مع بداية الخمسينيات من القرن العشرين في تباين كبير في استراتيجيات الكفاح والنضال ألمغاربي المعتمد، هناك زعماء وطنيين يؤمنون بالتفاوض كوسيلة لتحقيق الاستقلال وهم جماعة بورقيبة وطرف آخر يؤمن بالكفاح المسلح كسبيل لتحقيق الهدف المنشود وهو حرية واستقلال الأقطار المغاربية وأمام هذا التباين في استراتيجية هذا النضال المغاربي المشترك داخل لجنة تحرير المغرب العربي بين مؤيد للعمل المسلح المباشر من جهة وبين مؤيد للعمل السياسي التفاوضي من جهة أخرى وفق مبدأ أو سياسة خذ وطالب سبيلاً للكفاح [٢١].

أمام هذا التباين والجدال العقيم أكد الأمير عبد الكريم الخطابي رفضه للحلول السلمية السياسية وكذا المرحلية مع المستعمر بقوله: "آن الأوان لتعرف الحقيقة أننا أقوياء علينا أن ننهي هذه المأساة بنهضة شعارها الاتحاد"[٢٢]، ونتيجة هذه الاضطرابات والتباين داخل أحزاب الوطنية المغاربية أدى إلى ظهور طبقة شبانية تؤمن بالكفاح المسلح وأدركت فشل المساعي السياسية مع قوى الاستعمار، وكان

من بين الشباب الداعين لفكرة الكفاح المغاربي المشترك محمد خيضر، بحيث عمد على دعم الأمير عبد الكريم الخطابي في تفعيل الكفاح المسلح ميدانيا بين الأقطار المغاربية الثلاثة: تونس، المغرب والجزائر باعتباره هو الأسلوب الأنجع لتحقيق آمال المغاربة في الحرية والاستقلال من الهيمنة الاستعمارية لذلك باشرت لجنة تحرير المغرب العربي في عملها لتجسيد مشروعها الثوري الوحدوي عن طريق الاتصالات التمهيدية والتنسيق على العمل داخل الأقطار المغاربية الثلاثة.

في هذا السياق كلفت اللجنة مع بداية ١٩٥١ كل من الضباط الهاشمي الطود وحمادي العزيز وعبد الحميد وجدي بضرورة التوجه إلى بنغازي بليبيا من أجل إنجاز مهمتين: الأولى البحث عن إمكانية تأسيس قاعدة خلفية لبلاد المغرب العربي أثناء تحريرها، والمهمة الثانية أن تكون منطقة اتصال وعبور لكل من التونسيين والجزائريين والمغاربة وكذا كنقطة اتصال بينهم و بين الزعماء الوطنيين المتواجدين في المشرق العربي [٢٣]، وفي هذا الصدد يذكر عبد السلام الهاشمي الطود وصية للأمير عبد الكريم الخطابي التي يحذر فيها بقوله" حذاري أن تقول لحزب أنكم اتصلتم بحزب آخر لأنهم كلهم يكرهون بعضهم البعض [٢٤]" كما نجد أيضًا أن عبد الكريم الخطابي أثناء تبنيه لخطة حربية لتحرير أقطار المغرب العربي منذ ١٩٤٩[٢٥] قد قطع أشواطا في تجسيد مخططه فقد أرسل مبعوثيه إلى كل من تونس والجزائر والمغرب للاستعلام وبعدة سبل وإعداد الثورة وتنظيم جيوش تحرير المغرب العربي ووجد في المناضلين الجزائريين تغيير معين في قضيته خاصة بعد فشل مشروع الضابط عزالدين عزوز في إعداد الثورة بتونس وإعلان القطيعة مع الحبيب بورقيبة[٢٦]، فقد ازدادت هوة الخلاف مع قادة القوى المغاربية[٢٧]، وقد استبشر خيرًا من بعث حمادي العزيز إلى الجزائر إذ نقل إليه استعداد الحركة الثورية الجزائرية للإعلان عن الثورة والتنسيق معه من أجل وحدة المعركة المغاربية[٢٨]، فقد وافاه الهاشمي الطود ومحمد حمادي العزيز بتقارير مشجعة عن الوضعية في الجزائر[٢٩].

نستنتج من هذا كله إدراك الأمير عبد الكريم الخطابي بالوضع السياسي العام على مستوى أقطار المغرب العربي والاختلافات بين الأحزاب، ومدى الحساسيات السياسية بينهم من جهة، ومن جهة ثانية للعمل على تجسيد مخططاته على أرض الواقع كمرحلة تمهيدية لتجذير فكرة الكفاح المسلح داخل أقطار المغرب العربي على حساب العمل السياسي السلمي التفاوضي، وقد أوضح عبد الكريم الخطابي في أكثر من مناسبة أنه لا أمل في المفاوضات السياسية والحلول السلمية ولا حتى في الهيئات الدولية بقوله: "إن ما رأيناه أمامنا في ومجلس الأمن من قضايا مصر و فلسطين و الهند الصينية لا يلهمني أي ثقة أو بالأحرى يجعلني محترزا في ما يخص الأمل الذي يمكن أن نعلقه على لجوء إلى المنظمات التحكيم الدولي، إن مشاكلنا لن تحل إلا بأيدينا سوءا بواسطة السلم أو الحرب". وأمام إدراك الأمير بحتمية فشل الخيار الدبلوماسي وفقدان الأمل من مختلف المنظمات الدولية لتحقيق الاستقلال للأقطار المغاربية، وضع بذلك حدا أمام الخيار السياسي والزعامات التي تأييد هذا الطرح والعمل على تفعيل الكفاح المغاربي المشترك.[٣٠]

أرسل عبد الكريم الخطابي الهاشمي طود والحمادي العزيز إلى الجزائر بهدف إجراء اتصالات سرية بقيادات الحركة الوطنية في مدة لا تتعدى ٣ أشهر قام فيها الضابطان من إجراء الاتصالات الضرورية مكنتهم من الاطلاع على مواقف الأحزاب السياسية، وتوطيد الصلة النضالية والجهادية ببعض العناصر الوطنية في الجزائر وتزويد اللجنة بتقارير سياسية وعسكرية ترفع إلى عبد الكريم الخطابي مباشرة[٣١].

وقابل في الجزائر عبد الحميد مهري بناءً على توصيات الطاهر قيقة [٣٢]، يؤكد عبد الحميد مهري بقوله: "جاء ذات يوم شابان وطلبا رؤيتي ... إنهما الضابطان عبد السلام الطود والحمادي العزيز جاءا من طرف الطاهر قيقة، مناضل مؤمن بقضية وحدة المغرب العربي ...، فاتحاني الإخوان بأنهما يحملان رسالة هامة من عبد الكريم الخطابي تحث على الشروع في الكفاح المسلح في كامل أقطار المغرب العربي والاتصال بالعناصر القادرة على الاضطلاع بهذه المهمة [٣٣]، ويضيف عبد الحميد مهري قائلاً: "أنهم طلبوا منه الاتصال بالأخ أحمد مزغنة فقال لهم عبد الحميد مهري " إذ كانت رغبتكم هي الاتصال بأحمد مزغنة أو غيره فأنا مستعد لأوصلكم إليه وأما إذا أردتم البحث في التحضير للكفاح المسلح فعندي اقتراح أخر فوافقا... وعندما ذهبت إلى الأخ بوضياف وأطلعته على القضية وافق على الاتصال بالأخوين...

وابلغنا الإخوة إننا مستعدون وسنكون في الموعد في حالة تحرك تونس والمغرب" [٣٤].

بعد مشاورات طويلة قدم أعضاء مكتب لحركة انتصار من أجل الحريات شروط تمثلت في ثلاث نقاط وهي:

١ – مشاركتنا في القيادة السياسية.

٢- مشاركتنا في القيادة العسكرية.

٣- يمثلنا في القاهرة محمد خيضر وحسين ايت احمد وفرحي السعيد.[٣٥]

يذكر محمد بوضياف في أحد حواراته مع جريدة الشعب يقول: "نظم اتصالات بين محمد بوضياف وبين الضابطين المغربيين وبذلك قمنا باستدعاء ديدوش مراد ليحضر اللقاء مع الضابطين القادمين من المغرب، وبحث عملية التنسيق للكفاح المسلح على مستوى المغرب العربي"[٣٦]. ويؤكد عبد الحميد المهري ومحمد بوضياف أنه كان من المفروض حسب خطة هذه المجموعة أن يبدأ الكفاح المسلح في خريف ١٩٥٣ ابتداء من تونس والمغرب ثم تلتحق بهم غير أن انفجار مستودع صنع الذخيرة في الأوراس أجل الثورة إلى غاية نوفمبر ١٩٥٤,[٣٧] ويؤكد الضابطان المغربيان أنهما وجدا مساندة كبيرة ودعما كبيرا من طرف الثوار الجزائريين العربي بن مهيدي، ديدوش مراد، محمد بوضياف، عبد الحميد مهري وأحمد بن بلة في مغربة الحرب داخل المغرب العربي" [٣٨].

كما كانت هناك العديد من الاتصالات بين محمد خيضر ممثل الوفد الجزائري بالقاهرة ولجنة تحرير المغرب العربي في بداية ١٩٥٣ وكانت تهدف إلى توحيد جهود الأحزاب المغاربية وتنسيق المواقف لبلورة العمل المشترك يستجيب لتطورات المرحلة الحاسمة [٣٩]، كما التقى أيضا محمد خيضر بالأمير محمد عبد الكريم الخطابي وشقيقه امحمد واتفقوا على دراسة خطة موحدة لمباشرة الثورة في كامل المغرب العربي وفي شهر ماي ١٩٥٤ ووضعت خطة عمل مفصلة مطابقة لتصور الثوار الجزائريين والضباط المغاربة المساعدين للخطابي وأساسها مباشرة العمل الثوري في إطاره المحدد بهدف تحقيق استقلال بلدان المغرب العربي[٤٠].

٥-محمد خيضر ودوره في أحداث أكتوبر ١٩٥٥

نتيجة مجهودات قادة للثورة الجزائرية ودعوات الخطابي وحماس المناضلين المغاربة لإيديولوجيات الخطابي أسر المغرب على ضرورة المضي في الكفاح المسلح والتنسيق العمل الثوري مع الثوار الجزائريين، وتكليف كلا من محمد خيضر وابن بلة أن ينهض بهذه المهمة محمد حمادي بالإشراف العام على جيش تحرير الجزائري وتوحيد الجهود مع جيش التحرير المغربي[٤١]، لكن تأخر ظهور هذا الجيش إلى النصف الثاني من سنة ١٩٥٥ تحت أنظار الأمير وتوجيهاته، فاغلب الذين شاركوا فيه هم من فصائل حرب الريف خلال العشرينيات من قرن العشرين[٤٢]، وفي هذا السياق ونتيجة لحوادث أكتوبر ١٩٥٥ علقت " نيوز ويك" الأمريكية: "هاجم أبناء وأحفاد الأمير عبد الكريم المحاربون... وهؤلاء المحاربون أحسن تسليحا من المقاتلين السابقين الذين حاربوا فرنسا والإسبان بين ١٩٢٠-١٩٢٦" [٤٣].

وقد كان محمد خيضر يهدف إلى الاستفادة من البعد المغاربي لكفاح الخطابي ولم ترمي إلى استغلال شخصه بقدر ما هدفت إلى خدمة استراتيجية توحيد المعركة في المغرب العربي، وساندها الخطابي في بذلك بكل قوة مادية ومعنوية، كما اجتهد زعماء الثورة الجزائرية أمثال بن بلة، بوضياف في كسب تأييد ودعم الأحزاب الوطنية المغاربية، وفرت المقاومة المسلحة لتدخل في معركة موحدة تخدم أهداف جزائرية وتعمل على تحقيق الدعم السياسي والعسكري لمشروع الكفاح المغاربي المشترك [٤٤]، ونجد أن الخطابي قد حمل اغلب الأحزاب السياسية التي تجاوزت مشروع وحد الكفاح ومغربة الحرب حملة عدائية شديدة ضدهم، ودعى عناصر المقاومة إلى مواصلة الكفاح وتوحيدها مع القوات الجزائرية، ونجد أن محمد خيضر قد عبر عن هذا عندما وصف علاقة الخطابي بالثورة الجزائرية قائلا للقيادة في الداخل: "إن الخطابي كما تعلوا اتخذ موقفا عدائيا علنيا من جميع الأحزاب السياسية وعلى الخصوص حزب الاستقلال ... وفيما يخص الجزائر كان يطبع موقفه التعاطفي دائماً، لذلك كان لنا معه في كل وقت علاقات جيدة جدًا ما عدى خلال الأزمة التي اجتازها هنا (بالقاهرة)، وتسببت فيها مناورات مزغنة والشاذلي"[٤٥].

هكذا نلمس مدى دعم الخطابي ومساندته للثورة الجزائرية ومباركتها، وهذا راجع للتوافق رغبات ومبادئ الخطابي مع مطامح القيادة الثورية في الجزائر وذلك بتوحيد الكفاح المغاربي المشترك والحقيقة لم يكن الأمير عبد الكريم الخطابي على علم واسع بخبايا الثورة التحريرية الجزائرية من خلافات وتباين الحاصل بين جبهة التحرير الوطني وجمعية علماء المسلمين من جهة، وبين الفصائل المصالية أو الحركة المصالية المناوئة من جهة الثانية وعلاقته الحميمة مع الشيخ البشير الإبراهيمي، والفضيل الورتلاني، واستغلال العناصر المصالية أمثال شاذلي مكي ومزغنة صداقتهما معه لضرب جبهة التحرير الوطني في الصميم، وهذا جعل من ممثل الوفد الخارجي والجبهة وبعض التشكيلات السياسية على تشكيل جبهة جزائرية موحدة بدعم من الحكومة المصرية والأمير عبد الكريم الخطابي بشرط اعتراف أولا بجبهة تحرير الوطني هي الممثل الوحيد، ثانيا إيمان بالعمل المسلح كوسيلة للقضاء على المستعمر ووحدة الكفاح المغاربي المشترك، وها كذا تم تجاوز الخلافات مع الشيخ البشير الإبراهيمي وممثلي الحركة المصالية، وصادق الجميع على ميثاق الجبهة التحرير الجزائرية يوم ١٨ فيفري ١٩٥٥ [٤٦]، ونشر الشيخ فضيل الورتلاني وثيقة الاتفاق عام ١٩٥٦، ويوضح فيها أول من وقعها هو الأمير عبد الكريم الخطابي وشقيقه امحمد، والشيخ البشير الإبراهيمي، وأبو فضيل الورتلاني، وأحمد بيوض، والشاذلي مكي، وذكر أن الوثيقة تبقى مفتوحة ليوقعها بقية المسؤولين الجزائريين [٤٧].

ونتيجة التحالف الحاصل في أكتوبر ١٩٥٥ بين جبهة التحرير الوطني وحركة المقاومة المغربية، جعلت من الأمير الخطابي يشك ويقلل قيمتها ويدخل في صراع مع قيادة الثورة الجزائرية، وعلى ضوء مواقف الخطابي تساءل عبان رمضان مستغرباً: "كيف يجوز للأمير عبد الكريم أن يكون ضدنا؟" [٤٨]، وأجاب محمد خيضر المتابع لملف العلاقة مع الخطابي عن استغرابه موضحا الكثير من النقاط المسببة لهذا الفتور لمدة ثلاثة أشهر، مرجعاً ذلك بأن لانخداع الخطابي بمبعوثي مصالي، وحساسية العلاقة معه في ظل تحالف الجبهة تحرير الوطني مع علال الفاسي، وأوضح خيضر حقيقتين هما: أن الخطابي لا يرضى بدور متواضع ويريد منافسة حزب الاستقلال، وان أعوانه المحيطين به لا يوثق بهم، وأكد خيضر أن الخطابي يقف إلى جانب الثورة الجزائرية لكن بحسن نيته وتعامله مع الجميع انخدع بدسائس أحمد مزغنة وشاذلي مكي اللذان صورا له أن مصالي الحاج هو زعيم الثورة وهو الذي أعلن هذه الثورة و يراقبها، وأكدا له بأن مصالي الحاج كلفهما بالسهر شخصيًا على مصالح الجزائر، ولم اتضحت للخطابي انخداعه بهما أفصح بكل صراحة عن خطئه ودعمه لجبهة التحرير الوطنية " [٤٩].

وخلص محمد خيضر إلى أن الخطابي يمثل طرفاً مهماً في العلاقات المغاربية وورقة رابحة يجب استعمالها بشكل جيد في الوقت المناسب ومن خلال هذه التقارير نلخص، أن القيادة الخارجية كانت تعمل على توحيد وتنسيق العمل والكفاح المغاربي المشترك بمهنية واحتراف ورزانة بين علاقتهما مع الخطابي ومع الأطراف المغاربية الأخرى بهدف دعم قضيتها، وانتبهت إلى حقيقة الأطراف المدسوسة في المحيطة بالخطابي، لهذا عملت الثورة الجزائرية من الحفاظ على أسرارها ومخططاتها مع الأمير عبد الكريم الخطابي [٥٠].

خَاتِمَةٌ

وهكذا يمكن القول أن، محمد خيضر قد كان له الدور الريادي في الدبلوماسية الجزائرية على وجه الخصوص، وبلدان المغرب العربي على وجه العموم، وذلك بتفعيله ودعمه للقضايا المغاربية داخل المكتب المغرب العربي ولجنة تحرير المغرب العربي، كونه عضوًا رئيس وفعّال بهما في إطار ممثل الوفد الخارجي الجزائري، كما ساهم محمد خيضر بفضل حنكته الدبلوماسية في تفعيل الكفاح المغاربي المشترك، وذلك بدعمه للخيار المسلح داخل جيش التحرير المغرب العربي.

الهَوامِشْ:

(١) لزهر بديدة: **رجال من ذاكرة**، ج٣، وزارة الثقافة، الجزائر، ص ٢٢.

(٢) محمد الشريف ولد الحسين: **من المقاومة إلى الحرب من أجل الاستقلال ١٨٣٠- ١٩٦٢**، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠١٠، ص ٥٨ .

(٣) محمد عباس :**رواد الوطنية، شهادات شخصية وطنية**، دار هومة للنشر والتوزيع، العاصمة، الجزائر، 2009 م، ص353 ، للاطلاع أكثر يُنظر: خيشان محمد: **مهام الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني بالقاهرة ١٩٤٧ -١٩٥٧**، رسالة ماجستير تخصص حديث ومعاصر، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، ٢٠٠٢، ص ٣٩. - عبد الله مقلاتي: **العلاقات الجزائرية المغاربية إبان الثورة التحريرية الجزائرية ١٩٥٤- ١٩٦٢**، رسالة دكتوراه تاريخ الحديث والمعاصر، جامعة منتوري قسنطينة، قسم التاريخ وعلم الآثار، ٢٠٠٨، ص ٦٠.

Benjamin store :Dictionnaire Biographique de Militants Nationalistes Algériens 1926-1954, Ed l'harmattan ,Paris , 1985 , p287,288 .

(٤) معمر العايب: **مؤتمر طنجة المغاربي، دراسة تحليلية تقييميه**، ط١، دار الحكمة للنشر، الجزائر، ٢٠١٠، ص ٤٨.

(٥) فضيل الورتلاني: **الجزائر الثائرة**، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٥٦، ص ٢٨٦.

(٦) حضره ممثلون عن رابطة الدفاع عن مراكش، وعن حزب الشعب الجزائري والحزب الحر الدستوري الجديد وهم: عبد الكريم ثابت، عبد الكريم غلاب، إدريس السنوسي، عبد المجيد جلون، محمد بن عبد الله، المهدي بن صابر، احمد الوزاني، احمد المليح، محمد الفاسي، أمحمد بن عبود، الطيب سليم، الهادي السعيدي، يوسف الرويسي، حسن التركي، الحبيب ثامر، علاله العويني، خليفة حواس، الشاذلي مكي، الرشيد إدريس، الطاهر بن الصالح، احمد المدني، الأمين المدني، الطيب بن احمد، وقد كان كلا من أمحمد بن عبود ومحمد الفاسي الحفناوي عضوين رسميين بالجامعة العربية يمثلان المنطقة الشمالية بالمغرب الأقصى، ينظر: الرشيد إدريس: **ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة**، دار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨١ ، ص ٧١.

(٧) محمد بلقاسم: **اتجاه الوحدوي في المغرب العربي (١٩١٠ - ١٩٥٤)**، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ١٩٩٤، ص ٣٦٨.

(٨) يوسف الرويسي: **نشاط مكتب المغرب العربي بدمشق**، الحلقة الرابعة، دور مكتب المغرب العربي في دمشق في انعقاد مؤتمر المغرب العربي بالقاهرة، **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد ١٥ / ١٦، جويلية ١٩٧٩، تونس، ص ١٠٦.

(٩) الرشيد إدريس: **ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة**، **المصدر السابق**، ص١٨.

(١٠) علال الفاسي: **الحركات الإستقلالية في المغرب العربي**، ط١، عبد السلام جسوس، طنجة، المغرب، ص ٣٧٨.

(١١) محمد بلقاسم: **وحدة مغرب العربي**، **المرجع السابق**، ص٦٤.

(١٢) معمر العايب: **المرجع السابق**، ص ٥٠.

(١٣) معمر العايب: **المرجع نفسه**، ص ٤٨، ٤٩.

(١٤) عبد السلام الهاشمي الطود من مواليد الثلاثينات بالقصر الكبير بالمغرب، درس بالقاهرة عام ١٩٤٥، وتطوع في الحرب الفلسطينية ١٩٤٨، وكان ضمن أول بعثة أرسلها الأمير عبد الكريم الخطابي إلى بغداد، تولى تدريب الدفعة الأولى لجنود جيش تحرير المغرب العربي بالقاهرة، وأرسل رفقة حمادي العزيز إلى بلدان المغرب العربي بهدف تنسيق الكفاح المغاربي المشترك عام ١٩٥٢.

(١٥) عبد السلام الهاشمي الطود: **جذور التنسيق، شهادة مؤسس**، أعمال ملتقى مؤسسة محمد بوضياف، مؤسسة محمد بوضياف، الجزائر، ١١ / ١٢ ماي ٢٠٠٧، ص٥٥.

(١٦) معمر العايب: **المرجع السابق**، ص ٥٠.

(١٧) جاك جاني: **" مؤتمر المغرب العربي سنة ١٩٤٧ وبداية مكتب المغرب العربي في القاهرة: عملية ابن عبد الكريم "**، تعريب احمد بن عبود، المجلة التاريخية المغاربية، عدد ٢٥ / ٢٦، جوان ١٩٨٢، تونس، ص١١.

(١٨) الرشيد إدريس: **ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة**، المصدر السابق، ص ٦٣ – ١٠٧.

(١٩) معمر العايب: **المرجع السابق**، ص ٥٠.

(٢٠) علال الفاسي: **الحركات الاستقلالية**، **المصدر السابق**، ص ٤٠٧.

(٢١) محمد حربي: **الوطنيون الجزائريون والمغرب العربي ١٩٢٨ – ١٩٥٤**، وحدة المغرب العربي، ط١، مركز الدراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧، ص ٧٦.

(٢٢) إدريس الرشيد: **ذكريات من المكتب المغرب العربي بالقاهرة**، **المصدر السابق**، ص ١٦٠.

(٢٣) زكي مبارك: **محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي وإشكالية استقلال المغرب**، ط١، منشورات فيديرانت، الرباط، المغرب، ٢٠٠٣، ص ٧٠.

(٢٤) عبد السلام الهاشمي الطود: **المصدر السابق**، ص ١٨ -٢٠.

(٢٥) محمد أمزيان: **محمد عبد الكريم الخطابي أراء ومواقف ١٩٢٦ -١٩٦٣**، ط١، منشورات "اختلاف" مطبعة كوثر، الرباط، المغرب، ٢٠٠٢، ص٢٢٥ – ٢٣٦.

(26) AZZEDINE AZOUZ:**L'HISTOIRE NE PRADONNE PAS ,TUNISIE , 1932 – 1969** . L'HARMATTAN , PARIS , 1981 .P 123 .

(٢٧) عبد الجليل التميمي: **"تحرير المغرب العربي: تقاطع قناعات ومبادئ كل من الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي والزعيم الحبيب بورقيبة"**، مداخلة في أعمال المؤتمر الدولي الخامس حول: نهاية حكم بورقيبة والقيادات السياسية العربية بين الصمود والانحدار، منشورات مؤسسة التميمي، ٢٠٠٥ ، ص ١١٨ _ ١٢١ .

(٢٨) عبد الحميد مهري: **"أحداث مهدت لفاتح نوفمبر"، مجلة الأصالة**، السنة ٣، ع ٢٢، أكتوبر – ديسمبر ١٩٧٤، الجزائر، ص ١٦، ١٧.

(٢٩) محمد حمادي العزيز: **جيوش تحرير المغرب العربي**، هكذا كانت قصة في البداية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٤، ص ١٢٥.

(٣٠) زكي مبارك: **محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي**، المرجع السابق، ص ٧٧، ٧٨.

(٣١) زكي مبارك: **محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي**، **المرجع السابق**، ص ٧٨.

(٣٢) الطاهر قيقة هو كاتب ومثقف ومناضل تونسي، عضو في حزب الشعب والحزب الدستوري، من دعاة وحدة المغرب العربي.

(٣٣) عبد الحميد مهري: **مسألة الانتقال إلى الكفاح المسلح**، جيوش تحرير المغاربي ١٩٤٨ – ١٩٥٦، مؤسسة محمد بوضياف، جزائر، ٢٠٠١، ص٦٢.

(٣٤) محمد حمادي العزيز: **المصدر السابق**، ص٣١.

(٣٥) محمد حمادي العزيز: **المصدر نفسه**، ص ٥٧.

(٣٦) معمر العايب: **المرجع السابق**، ص ٥٨، ٥٩.

(٣٧) معمر العايب: **المرجع السابق**، ص ٥٩.

(٣٨) الهاشمي الطود عبد السلام: **المصدر السابق**، ص ٢٠.

(٣٩) فتحي الديب: **جمال عبد الناصر والثورة الجزائر**، ط٣، دار المستقبل العربي، القاهرة، مصر، ١٩٨٤، ص ٢٤ – ٢٨.

(٤٠) عبد الله مقلاتي: **" عبد الكريم الخطابي والثورة الجزائرية، تجسيد مبادئ الكفاح المشترك لتحرير المغرب العربي "، المجلة التاريخية المغاربية العهد الحديث والمعاصر**، سنوية، مؤسسة التميمي، عدد ١٣٢، تونس، جويلية ٢٠٠٨، ص ٣٤.

(٤١) محمد الحمادي العزيز: **المصدر السابق**، ص ١٩٩ – ٢١٧.

(٤٢) محمد بن عمر العزوزي: **حقائق تاريخية عن تأسيس جيش التحرير بقبيلة أجزناية مع نبذة تاريخية من تاريخ القبيلة**، ط١، مطبعة ناداكوم، الرباط، المغرب، ٢٠٠٢، ص ٣٧ – ٤٠.

(٤٣) محمد أمزيان: **محمد عبد الكريم الخطابي آراء ومواقف، المرجع السابق**، ص ١٧٨.

(٤٤) بشير القاضي: **"المسيرون المغاربة، الاتفاق والاختلاف"**، ملتقى حول: **جيش التحرير المغاربي ١٩٤٨ – ١٩٥٥**، نظمته مؤسسة محمد بوضياف، تحت إشراف دحو، جربال الجزائر، ١١ – ١٢ ماي ٢٠٠١، منشورات مؤسسة محمد بوضياف، الجزائر، ٢٠٠٤، ص١٧٠.

(٤٥) رسالة محمد خيضر إلى عبان رمضان بتاريخ ١٥ ماي ١٩٥٦، يُنظر:

BELHOCINE MABROK: **Courier – Alger –le Caire 1954 – 1956 et le congrès de la soumam dans la révolution** , Casbah , Alger , 2000 . P 135 .

(٤٦) فتحي الديب: **المصدر السابق**، ص ٧٦ – ٧٨.

(٤٧) الفضيل الورتلاني: الجزائر الثائرة، **المصدر السابق**، ص ٢١٩.

(٤٨) انظر رسالة عبان رمضان للوفد الخارجي للجبهة، بتاريخ ٠٨ بتاريخ ١٩٥٥، يُنظر:

BELHOCINE MABROK:**op , cit** ; p 96 .

(٤٩) انظر رسالة خيضر إلى عبان رمضان، يُنظر:

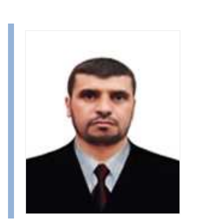
BELHOCINE MABROK:**ibid** , p 96 .

(٥٠) للاطلاع أكثر عن حادثة اختراق الشيخ العيادي لمحيط الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، يُنظر: عبد الجليل التميمي: **المرجع السابق**، ص ١٢١ – ١٢٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

دراسات

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
أصول دعوتها ومنهجها في التغيير



عبد العزيز موهوبي
أستاذ التعليم المتوسط
باحث دكتوراه تاريخ حديث ومعاصر
جامعة الجزائر (٢) – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

تناولت في مقال الذي كان تحت عنوان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الاعتقاد والمنهج في العمل مسيرة جمعية العلماء المسلمين في الفترة الممتدة من (١٩٣١م– ١٩٥٤م) وهي فترة نشاطها، فتطرقت إلى عقيدة رجال الجمعية والتي تبنت العقيدة السلفية، والمتمثلة في الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله وسلوك طريقة السلف الصالح، والدعوة إلى الاجتهاد ورفض التقليد. أما منهجها في العمل والذي اشتمل جميع المجالات، فلقد اعتمدت على تطهير العقائد من الشرك والخرافات، وإصلاح الأخلاق والعقليات، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والتربية على أسس علمية صحيحة، بنشر العلم وإعداد العلماء والسعي إلى تحقيق الكمال الإنساني، والتأكيد على الوطنية الإسلامية والدعوة إلى الحداثة وفق الشريعة الإسلامية، والسعي إلى تغيير الأنفس والرقي بها، وممارسة التقية إزاء الإدارة الاستعمارية لتتجنب التصادم معها. للوصول إلى تحديد موضوع عملي، أصبح ضروريًا الإجابة على عدة إشكاليات أساسية وهي: ماهي علاقة جمعية العلماء المسلمين بالسلفية المشرقية؟ هل تعتبر جمعية العلماء المسلمين نسخة مطابقة للسلفية الحجازية؟ ماهي أولويات جمعية العلماء المسلمين في التغيير؟ ما موقف جمعية العلماء المسلمين من الإدارة الاستعمارية؟ وللإجابة على كل هذه التساؤلات، تم إتباع مناهج العلمية موضوعية التالية استنادًا إلى الوثائق الموجودة، فكان الاعتماد على المنهج التاريخي الوصفي لسرد الأحداث، والمنهج التحليلي النقدي لتحليل بعض الحقائق أو نقد بعض ما قيل فيها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٠ يوليو ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ٢٢ نوفمبر ٢٠١٧

كلمات مفتاحية:

الكتاب والسنة؛ السلف؛ العصبية المذهبية؛ المجتمع الجزائري؛ رجال الإصلاح

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055845

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد العزيز موهوبي. "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: أصول دعوتها ومنهجها في التغيير".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص ٧١ – ٨٢.

مُقَدِّمَة

إن مفهوم الإصلاح ليس بغريب على السنة في الإسلام، فالقران الكريم نزل لإصلاح ما افتده المعتقدات الوثنية فكان شعار المصلحين الآية الكريمة إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ". (الآية ٨٨ من سورة هود)

لقد قلب ظهور الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، أثناء الحرب العالمية الأولى المعطيات الدينية التقليدية في هذا البلاد والتي كان تحت سيطرت الطرقية، فأثر ذلك تأثيرًا على الحياة الأخلاقية والسلوك الاجتماعي لجزء كبير من الشعب الجزائري. هذا التغيير الذي بدأ في شكل مبادرات فردية ما لبث أن تطورت في شكل منظمات وهيئات وحركات كانت لها برامج وأهداف وخطط، تمكنت من التغلغل في أوساط الجماهير، وفرضت نفسها على العدو. إن هذه الحركة اتسمت بالشمول والتنظيم، بدأت نشاطها في الخفاء أحيانًا، وفي العلن أحيان أخرى، بأسلوب جاد وجريء تارة، وبأسلوب هادئ حذر تارة أخرى،

استطاعت أن تحدث نهضة فكرية وثقافية وتعليمية شاملة، ونشرت وعيًا سياسيًا ووطنيًا عامًا كان له الأثر الكبير في تعبئة الجهد الوطني الذي تغذت منه قوافل الكفاح المسلح لذا ارتأيت الحديث عن هذه الحركة عن أصول دعوتها ومنهجها في التغيير.

أولاً: أصول دعوتها

١/١-العودة إلى الكتاب والسنة

من الأصول الأساسية والقطعية في الدعوة الإصلاحية التي جاءت بها جمعية العلماء اعتبار الكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان لتلقى العقيدة في شقيها العلمي والعملي. فالقرآن الكريم من منظور رجال الإصلاح، هو المصدر الأكثر غنى من حيث التعاليم الإيمانية والأخلاقية والأجدر بالعناية بسبب طابعه المقدس، ولارتباطه بعقيدة التوحيد والذي هو هدف الرسالة الإصلاحية،[١] فلقد كان ابن باديس حريصًا على نشر هذا الأصل والدعوة إليه، ويرى أن "أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير، فحق على أهل العلم آن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية، وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم.... ولن يجد العامي الأدلة لعقائده سهلة وقريبة، إلا في كتاب الله... أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين.... فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريقة العلم على العباد وهم في أشد الحاجة إليه، وقد كان من نتيجته ما نراه اليوم في عامة المسلمين من جهل بعقائد الإسلام وحقائقه".[٢]

فالاستشهاد حرفيًا بالآيات القرآنية حرفيا يغني عن كل تفسير أو كلام المتكلمين، فيمكن استحضار أية أو عدة آيات قرآنية تبلغ مدارك الناس أقل تثقيفًا بلوغًا تامًا، فهناك عدد من الآيات كانت دعائم للعمل وسند للحياة الأخلاقية[٣]، وهذا لكثرة تلقينها من قبل الدعاة واستظهارها من قبل العامة ومن أمثلة على ذلك: قوله تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)[٤]. وقوله أيضًا: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ).[٥] فضلاً عن هذه الوصايا، يتضمن القرآن الكريم قصصًا تنويرية يستغلها الدعاة والمصلحين وفق حاجات العامة، لهذا سعى رجال الجمعية إلى التمسك القرآن في دعوتهم حيث يقول الإمام بشير الإبراهيمي: (وليسلك الدعاة سبيلهم إلى نفوس الناس بهذه الأوصاف عدد أوصافا قبل هذا الكلام الرائع من هذه الآيات الجامعة فإن ذلك أدعى للتأثير والتأثر وأبلغ في باب التشويق من كل تبويب في الكلام وتحبير وتزويق.[٦]

وكثيرًا ما تحدث الشيخ الإبراهيمي عن سبب انحسار وانهيار حضارة المسلمين لما ابتعدت عن القرآن، وابتغت المناهج البعيدة عن نهجه فحصل ما حصل من تكالب الأمم عليها، ثم بين لماذا حقق أسلافنا الخلافة على وجه البسيطة حينما عاشوا بالقرآن وللقرآن، فقال: " ... إن أسلافنا قاموا بما شرط عليهم القرآن في قوله: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).[٧] فتحقق معهم وعد الله في القرآن: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[٨]، فكانوا خلفاء الأرض يقيمون فيها الحق والعدل وينشرون فيها الخير والرحمة، ويُطهرونها من الشرك والوثنية ويحققون حكمة الله بإقامة سننه الكونية والشرعية، لا يراهم الله إلا حيث يرضيه أن يراهم، لأن مما أفادهم القرآن استجلاء العبر من قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ).[٩]، وقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ).[١٠]

وكان هؤلاء السلف يعلمون لماذا أنزل القرآن؟ ويعلمون أنّه كتاب الدهر ودستور الحياة وحجة الله الباقية إلى قيام الساعة، وأنّه واف كل الوفاء بإسعاد البشر في الحياتين وإن عدم فهمه وعدم العمل به وعدم تحكيمه، كل ذلك تعطيل له ففهموه أولا، وحكموه في أهوائهم ونزعاتهم فاستأصل باطلها ولطف من نزواتها، ورجعوا إليه في فهم الحقائق الغامضة في الحياة والدقائق المشكلة في الكون والأخلاق التي يجب أن يتعايش بها الناس، فرجعوا إلى معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه"[١١]. ويضيف في موضع آخر: "تدبُر القرآن وإتباعُه هما فرق ما بين أول الأمة وآخرها، وإنه لفرق هائل. فعدم التدبر أفقدنا العلم، وعدم الإتباع أفقدنا العمل، وإنّنا لا ننتعش من هذه الكبوة إلا بالرجوع إلى فهم القرآن وإتباعه. ولا نفلح حتى نؤمن ونعمل **الصالحات**: (فَالَّذِينَ

آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).[١٣]

والقرآن هو الدستور السماوي الذي لا نقص فيه ولا خلل، فالعقائد فيه صافية، والعبادات خالصة، والأحكام عادلة، والآداب قويمة، والأخلاق مستقيمة، والروح لا يهضم لها فيه حق، والجسم لا يضيع له مطلب هذا هو القرآن الذي صلح عليه أول هذه الأمة وهو الذي لا يصلح آخرها إلا عليه... فإذا كانت الأمة شاعرة بسوء حالها، جادة في إصلاحه، فما عليها إلا أن تعود إلى كتاب ربها فتحكمه في نفسها، وتحكم به، وتسير على ضوئه وتعمل بمبادئه وأحكامه، والله يؤيدها ويأخذ بناصرها وهو على كل شيء قدير".[١٤] فهذه دعوة الشيخ البشير الإبراهيمي إلى القرآن، وإلى التمسك به، وفهمه كما فهمه السلف، والعمل به كما عملوا، وتحكيمه في النفوس كما حكموا، وجعل المشارب والأهواء إليه تابعة، كما فعلوا، فلو فعلنا ذلك لكنا به أعزة في أنفسنا وأئمة لغيرنا وتتعالى نظرة البشير إلى القرآن وتسمو، وتهفوا به نفسه وترنو، لأنه"... إصلاح شامل لنقائص البشرية الموروثة، بل اجتثاث لتلك النقائص من أصولها وبناء للحياة السعيدة التي لا يظلم فيها البشر ولا يهضم له حق على أساس من الحب والعدل والإحسان. وهذا ما يؤكده الإمام عبد الحميد بن باديس بقوله "لا نجاة للناس من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى القرآن ....".[١٥]

أما فيما يخص السنة، فإن استلهام رجال الإصلاحيين للحديث كان مبعثه المقاصد الشرعية والأخلاقية، وكان الجهد الأكثر اللافت للانتباه من حيث الرجوع إلى السنة واستلهام معانيها جهد الإمام ابن باديس والبشير الإبراهيمي وللشيخين كلام كثير يبين منزلة السنة والاعتماد عليها في بيان أصول العقيدة الإصلاحية. حيث قال ابن باديس رحمه الله: (فأخذنا على أنفسنا دعوة الناس إلى السنة النبوية المحمدية وتخصصيها بالتقدم والأحجية[١٦]، فكانت دعوتنا من أول يوم إليها، والحث على التمسك والرجوع إليها .... ومن فضل الله آن أسسنا هذه الصحيفة الزكية، وأسميناها السنة النبوية المحمدية[١٧] لتنشر على الناس ما كان عليه النبي (ﷺ)، في سيرته العظمى وسلوكه القويم وهديه العظيم، الذي كان مثالا ناطق لهدى القرآن، وتطبيقا لكل ما دعا القرآن إليه بالأقوال والأفعال والأحوال.

ويضيف رحمه الله عليه: (... أن جميع هذا الدين وحي من الله منزل على نبيه (ﷺ) وهذا لأن مرجع الإسلام في أصوله وفروعه إلى القرآن وهو وحي من الله والسنة النبوية وهي وحي أيضًا لقوله تعالى (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)[١٨]، ويرى الشيخ البشير الإبراهيمي أن التمسك بسنة محمد (ﷺ) عمل بالقرآن، لأن محمدًا كان قرآنًا يمشي بين الناس، فمن شدَّ على سنّة المصطفى ودعا إليها إنمّا هو داع للقرآن، عامل بما جاء فيه، فكان يقول:" إنّ نبيّنا منا لقريب لو جعلنا الصلة بيننا وبينه حبل الله القرآن، فقد تركه فينا ليكون النور الممتد بيننا وبينه، وقد كان خُلقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه، ويقف عند حدوده ويصنع أفعاله وتركه من أوامره ونواهيه، وينحت من معدنه تلك الآداب التي ربى بها نفسه وراض عليها أصحابه، ثم تركها كلمة باقية فينا وحجة بالغة لنا أو علينا، وقد شرفنا تشريفا يبقى على الدهر، وشهد لنا شهادة نتيه بها على الغابرين ونفوز بها على أعداء الدين ما آن تمسك بسنته واتبعنا هديه المبين إذ قال لأصحابه: "أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون من بعدي".[١٩] ففي كلامه دعوة للتأسي به والاقتداء بسنته والعمل بها، والدعوة إليها، لأنها المرجع الإلهي المعصوم، التي بها تحيى النفوس من سباتها، والذلة التي ضربت عليها من شدة جهلها، بدستورها في هذه الحياة.

كما أن الاقتداء به لا يعني المغالاة في وصفه، ولئن كان هذا من حبه، لكن دون إغفال ما تصفو به النفس من كريم خلقه، وصفاء سريرته، وفي هذا يقول: "... ألستم ترون أن أكثر المؤلفين في السير يصرفون اهتمامهم إلى الجهات التي لا محل فيها للاقتداء الذي يزكي النفس، أكثر مما يصرفونه إلى الجهات التي تزكي النفس وتطبعها على الخلال النبوية، يهتمون بالمواطن السطحية البشرية مثل كيفية لبسه وأكله وشربه ونومه وملابسة أهله، ويغفلون المكامن الروحية الملكية مثل تعلقه بالله ومراقبته له وتأديته الأمانة الشاقة وصبره وشجاعته وتربيته لأصحابه، وتدريبهم على جهاد أنفسهم حتى تكمل، وعلى السمع والطاعة للحق وفي الحق، وعلى التعاون والتناصح والتحابب والتآخي والاتحاد...". فإذا حققت الأمة التمسك والتأسي بسيرته وسنته، فهي قد خطت الخطوة الثانية بعد الحض على القرآن نحو تحقيق الشهود الحضاري لها بين سائر الأمم.

٢/١-الاستلهام من تجارب السلف

لقد وضع الشيخ ابن باديس رحمه الله تعالى في دستور الجمعية أربعة مواد ينصر فيها مذهب السلف في كل ميدان ويؤكد على التزام هديهم وفهمهم، فقال في المادة الخامسة: "سُلُوك السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين هو تطبيق صحيح لهدي الإسلام"، وفي المادة السادسة: "فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب السنة". وفي المادة العاشرة: "أفضل أمته بعده (ﷺ) هم السلف الصالح لكمال إتباعهم له. وقال في السابعة عشر: "ندعو إلى ما دعا إليه الإسلام، وما بيناه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدى السلف الصالح من الأئمة مع الرحمة والإحسان دون عداوة أو عدوان"[٢٠]. ومن هذه النصوص يتضح أن الدعوة إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ليست دعوة مطلقة تفتح الباب على مصراعيه لأهل العصور المتأخرة أن يفهموا منها ما شاءوا، بل هذا الرجوع مقيد بفهم السلف الصالح والأئمة المتقدمين فما أجمعوا عليه فهو حجة قاطعة، وما اختلفوا فيه لم يجز للمتأخرين أن يخرجوا عن أقوالهم فيه لأن الحق موجود في واحد من أقوالهم.[٢١]

وقال الشيخ رحمه الله تعالى في وصية نافعة وكلمة جامعة: "اعلموا جعلكم الله من وعاة العلم، ورزقكم حلاوة الإدراك والفهم، وجملكم بعزة الإتباع وجنبكم ذلة الابتداع، أن الواجب على كل مسلم في كل مكان وزمان أن يعتقد عقدًا يتشربه قلبه وتسكن له نفسه وينشرح له صدره، ويلهج به لسانه، وتنبني عليه أعماله، أن دين الله تعالى من عقائد الإيمان وقواعد الإسلام وطرائق الإحسان إنما هو في القرآن والسنة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين. وأن كل ما خرج عن هذه الأصول ولم يحض لديها بالقبول قولاً كان أو عقدًا أو احتمالاً فإنه باطل من أصله مردود على صاحبه كائنا من كان في كل زمان ومكان، فاحفظوها واعملوا بها تهتدوا وترشدوا إن شاء الله تعالى".[22]

ومن المواضع التي بين فيها أصل الرجوع إلى الكتاب والسنة مقرونا بضابطه وهو التقيد بفهم العلماء السابقين قوله رحمه الله: "لا نجاة للناس من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى القرآن، إلى علمه وهديه في بناء العقائد والأحكام والآداب عليه والتفقه فيه، والسنة النبوية شرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحة الفهم والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين".[23]

وإذا كان هذا هو موقفه من مذهب السلف، فقد صرح من جهة أخرى بتضليل كل ما أحدث على خلاف ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال في مجال العبادات وشدد في العبارة، فقال رحمه الله: "فكل قول يراد به إثبات معنى ديني لم نجده في كلام أهل ذلك العصر، نكون في سعة من رده وطرحه وإماتته وإعدامه، كما وسعهم عدمه ولا وسع الله على من لم يسعه ما وسعهم. وكذلك كل فعل ديني لم نجده عندهم وكذلك كل عقيدة، فلا نقول في ديننا إلا ما قالوا، ولا نعتقد فيه إلا ما اعتقدوا ولا نعمل فيه إلا ما عملوا، ونسكت عما سكتوا ...ونرى كل فتنة بين الفرق الإسلامية ناشئة عن مخالفة هذا الأصل".[24] وللشيخ نصوص أخرى في هذا المعني منها ما يأتي ذكره في المطلب التالي.

وقد انتقد الشيخ الوضع التعليمي بصورة عامة في زمانه لانحرافه عما كان عليه السلف الصالح شكلا ومضمونا، وقد حاول الإصلاح حسب ما قدر عليه، واقترح على غيره في عدة مناسبات تغيير هذه المناهج ولكن الأمر لم يكن بالهين ولا بالسهل، فإن ما أفسد خلال قرون لا يمكن إصلاحه في أشهر أو بضع سنوات[25]، وكان الإمام البشير الإبراهيمي يرى أنه ليس أفضل بعد إتباع الرسول الأمين من إتباع منهاج السلف الصالح و العلماء الصالحين الربانيين، الذين عاشوا بهذا الدّين وله، فكانوا النور الذي يسطع في ظلام الجهل، والبعد عن الهدي الإلهي، فكانوا بحق يجددون أمر هذه الأمة، كلما بدت بوادر خُفوت نورها الذي جعله الله عز وجل النبراس لغيرها من الأمم، تهتدي بهدي القرآن، وبهدي نبيها الأعظم[26]. فأيقن ذلك فدعا الأمة المسلمة عمومًا، والأمة الجزائرية خصوصًا، للاقتداء بسير السلف الصالح والعلماء، للخروج مما تعانيه من استعباد وضياع بلاد، وهلاك مال، وتشرد ولدان، فخطب قائلاً: "... إنّ من البر لأنفسنا أن نذكر...... عظماءنا ومصلحينا الذّين كان لهم أثر في تاريخنا، وأن نحيي ذكرياتهم لنحيا بها، ونأخذ العبر منها، ونجعلها دليلنا إذا أظلمت علينا السبل، وقدوتنا إذا أوعزنا الإمام القائد....". لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، في دنياهم، وعملوا لأخراهم بتعمير أولاهم، فقال فيهم البشير: "... لقد صدق أولئك العلماء ما عاهدوا الله عليه، وفهموا الجهاد الواسع فجاهدوا في جميع

ميادينه، فوضع الله القبول في كلامهم عند الخاصة والعامة، وإن القبول جزاء من الله على الإخلاص يعجّله لعباده المخلصين، وهو السرّ الإلهي في نفع العالم والانتفاع به، وهو السائق الذي يدعّ النفوس المدبرة عن الحق إلى الإقبال عليه، ونفوذ الرأي وقبول الكلام من العالم الديني الذي لا يملك إلا السلاح الروحي..".[27]

فوضع بهذا أساسًا آخر ينضاف إلى الأسس السابقة في طريق الإصلاح الذي انتهجه الشيخ البشير الإبراهيمي ليعبر عن عمق وأصالة الانتماء إلى هذه الأمة. وهذا ما يؤكده أبو يعلى زواوي حيث قال رحمه الله في كتابه الإسلام الصحيح: «أعلم أيها السائل أن خير طريقة في العقيدة التوحيدية طريقة السلف التي هي إتباع ما ثبت عن الله وعن رسوله من غير كثرة التأويل والدخول في الأخذ والرد من الجدل في المتشابه وإيراد الشبه والرد عليها[28]. ويضيف: أما أنا ومَنْ على شاكلتي من إخواني الكثيرين فلا شريعة لنا ولا دين لا ديوان إلا الكتاب والسنة وما عليه محمد (ﷺ) وأصحابه وعقيدة السلف الصالح...[29]

٣/١-تجاوز العصبية المذهبية وطريقة المتكلمين

كان رجال الجمعية يوصفون بالسلفية، وان الوفاء للأساتذة الروحيين الأوائل للإسلام والسلف الصالح يشكل إحدى أهم الركائز التي أعربوا فيها عن قناعتهم الإصلاحية وهذا ما يؤكده الإمام عبد الحميد ابن باديس في إحدى مقالاته التي حيث كتب ركن طويل ولكنه ذا دلالة (كل خير في الوفاء للسلف وكل شر في بدع الخلف)[30]. والملاحظ حسب الأستاذ على مراد أن رجال الإصلاح كانوا يكنون نفس التبجيل والاعتراف والحجة المعنوية والفكرية لجل كبار مؤلفي المذاهب الإسلامية دون تمييز للانتماء الجغرافي ودون تمييز بين المدارس الأربع[31]. لكن وبحكم أن المذهب المالك كان السائد في الجزائر، كان رجال الجمعية يستشهدون كثيرًا بالإمام، وكان دراسة المذهب المالكي، والمتمثل في مصنفه الموطأ أحد تخصصات ابن باديس المفضلة، وقد أفضى ختمه لتفسير الموطأ بالجامع الأخضر[٣٢] بقسنطينة إلى احتفالات كبيرة[٣٣].

كما اعتمد رجال الإصلاح على كتاب المذهب المالكي كابن أبي زيد القيرواني[٣٤]، وخليل بن إسحاق[٣٥]، ولكن ورغم هذا رأينا ابن باديس ينتقد الإحكام المسبقة التي تقر بان كل ما هو مالكي مطابق للسنة، في حين أن المذهب المالكي ينطوي على عناصر لا يرضاها الله.[٣٦] ويؤكد هذا الكلام في مكان أخر من الشهاب حيث قال "إن الذي يسع المسلمين ليس مذهبًا بعينه وإنما هو الإسلام بجميع مذاهبه"[٣٧] ونفس الكلام قاله الشيخ أبو يعلى رحمه الله: «أعلم أيها السائل أن خير طريقة في العقيدة التوحيدية طريقة السلف التي هي إتباع ما ثبت عن الله وعن رسوله من غير كثرة التأويل والدخول في الأخذ والرد من الجدل في المتشابه وإيراد الشبه والرد عليها، وأذكر الآن بهذه المناسبة جملة من أقوال الأئمة العظام من السلف الصالح لتعتبر أيها السائل وتعلم أن الخوض غالبا خصوصا في قضايا الانتصار لمذهب دون مذهب وتجد أن مذهب الحق في ذلك هو مذهب القرآن العظيم: (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ).[٣٨]

أما فيما يخص علم الكلام فان رجال الإصلاح ذموا وضللوا طريقة المتكلمين حيث اعتبر ابن باديس هذا المنهج من مظاهر الهجر لكتاب الله تعالى واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير فقال " نحن معشر المسلمين قد كان منا للقرآن الكريم هجر كثير في الزمن الطويل، وإن كنا به مؤمنين. بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة، فهجرناها وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، فأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة، مما يصعب أمرها على الطلبة فضلاً عن العامة "[٣٩]. ويستحق هذا الوصف من ابتغى الهدى فيه وأحسن الظن فيه، أما من صرح بتقديم القواعد العقلية وآراء الرجال على نصوص الكتاب والسنة فذلك وصفه بوصف شر من ذلك فقال "شر الهاجرين للقرآن هم الذين يضعون من عند أنفسهم ما يعارضونه به، ويصرفون وجوه الناس إليهم وإلى ما وضعوه عنه، لأنهم جمعوا بين صدهم وهجرهم في أنفسهم وصد غيرهم فكان شرهم متعديا وبلاؤهم متجاوزا، وشرُّ الشرِّ وأعظم البلاء ما كان كذلك"[٤٠]. ثم أرجع ابن باديس رحمه الله ضلال الأمة وجهلها بحقائق العقيدة الإسلامية بالدرجة الأولى إلى علم الكلام، والإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية، فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عباده، وهم في أشد الحاجة إليه، وقد كان من نتيجته ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه".[٤١]

ولابن باديس رحمه الله كلام جميل جدا، فيه تبديد لهذه الشبهة الرائجة، حيث قرر أن في القرآن جوابا عن

كل شبهة يوردها الضالون، وهذا يعنى أنه أغنى عن علم الكلام من كل وجه، وأنه لم يُخِل بهذا الجانب الذي تذرعوا به، فقال" إذا تتبعت آيات القرآن وجدتها قد أتت بالعدد الوافر من شبه الضالين واعتراضاتهم ونقضتها بالحق الواضح والبيان الكاشف في أوجز لفظ وأقربه وأبلغه، وهذا قسم عظيم جليل من علوم القرآن يتحتم على رجال الدعوة والإرشاد أن يكون لهم به فضل عناية ومزيد دراية وخبرة، ولا نحسب شبهة ترِد على الإسلام إلا في القرآن العظيم ردها بهذا الوعد الصادق من هذه الآية الكريمة فعلينا عند ورود كل شبهة من كل ذي ضلالة أن نفزع إلى القرآن، ولا خالنا إذا أخلصنا القصد وأحسنا النظر إلا وجدنها وكيف لا نجدها في آيات ربنا التي هي الحق وأحسن تفسيرًا"[٤٢].

ويضيف لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي"[٤٣]. وصرح وحكم على تأويلات الأشعرية بأنها من الخطأ الضار، ولاسيما عقيدة الجبر والصوفية والغلو في الزهد وبعض العبادات المبتدعة". والشخص لا يصف بالضرر شيئا يعتقده وينصره، والأمر نفسه يقال عن عقيدة الجبر لأنها عقيدة أشعرية أيضًا[٤٤]. ونضيف هنا قول أبو يعلى الزواوي في كتابه: «أما أنا ومن على شاكلتي من إخواني الكثيرين فلا شريعة لنا ولا دين لا ديوان إلا الكتاب والسنة وما عليه محمد وأصحابه وعقيدة السلف الصالح فلا اعتزال ولا ما تريدي ولا أشعري، وذلك أن الأشاعرة تفرقوا واختلفوا أي المتقدمون منهم والمتأخرون ووقعوا في ارتباك من التأويل والحيرة في مسائل يطول شرحها[٤٥].

٤/١-الدعوة إلى الاجتهاد ورفض التقليد

من أصول الدعوة الإصلاحية فتح والعودة إلى الاجتهاد بجميع أنواعه وأقسامه، وقد اعتبروا تعطيل الاجتهاد من الأسباب التي أعطت الحجة وسهلت الأمر على الحكام أن يرفضوا إحكام الشريعة الإسلامية، حيث ظهر عجز المنتسبين إلى العلم من إيجاد الأجوبة للنوازل الحادثة والحوادث المتجددة لارتباط معظمهم بالفروع المدونة في المختصرات وتركهم الكتاب والسنة اللذين فيهما الجواب الشافي عن كل سؤال والبيان لكل جديد يطرأ، وفي الحقيقة أن من يسمى من المتأخرين قد أساءوا كثيرا إلى هذه الشريعة الغراء بما صرحوا به من غلق باب الاجتهاد، بل أساءوا إلى أنفسهم حيث حرموا أنفسهم من أن يكون علماء بحق، وحتى وان وصفوا بالعلماء وشيوخ الإسلام[٤٦].

إلا أن حقيقة العلم هي مأخذ من كتاب والسنة وليس هو مجرد حفظ مختصر فقهي واستحضار ما جرد فيه من فروع ويرى ابن باديس رحمه الله أن من يؤخذ فقهًا مجردًا عن الدليل لا يعتبر دليلاً، وأن الجاهل البسيط خير من المقلد ويضيف: إذا كان التفكير لازمًا للإنسان في جميع شؤونه وكل ما يتصل به إدراكه فهو لطلاب العلم ألزم من كل إنسان. ورغم أن دراسة الشيخ لم تكن سوى عند علماء المالكية، إلا أنه ظهر في فتاويه متحرر من التقليد المحض وناظرا في الأدلة الشرعية، ولم يكن دائما ملتزما بالمشهور[٤٧]. أما أبو يعلى الزواوي فيرى أن أصحاب المذاهب لم يلزموا الإتباع بإتباع نهجهم إلا بعد التحقق حيث قال أن كل واحد من هؤلاء الأئمة كان يقول إن وافق مذهبي الكتاب والسنة فيه ونعمت وإلا فاضربوا به عرض الحائط، لأنهم غير معصومين ولا ألزموا الناس بما استنبطوا وما دونوا وإنما العامة والخاصة ارتضتهم». وقال ردًا على المتعصبين الذين ينتصر كل واحد منهم لمذهب إمامه[٤٨]، فيرى أنها كلها فاضلة وكلها صحيحة إذ لا يمكن بحال أن يقال هذا المذهب صحيح وهذا غير صحيح، لأنهم أئمة مجتهدون غير معصومين لا محالة، فهم سواء في الاجتهاد وسواء أيضا في عدم العصمة، وكان الإمام مالك يقول كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا صاحبَ هذا القبر يعني النبي[٤٩].

ثانيًا: منهج الجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الإصلاح

٢/١-الاهتمام بتطهير العقائد

أخذت جمعية العلماء على عاتقها منذ نشأتها الدعوة إلى التوحيد وغرس العقيدة الصحيحة في النفوس، مقتفية في ذلك طريقة الأنبياء والمرسلين، الذين قال الله تعالى عنهم: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ)،[٥٠] وقال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ)[٥١]. والدَّعوة إلى التَّوحيد هو الغرض الذي أنشئت الجمعيّة من أجله[٥٢]، ووجَّهت معظم نشاطها إليه، ومنتهى غايتها إذا وصلت إليه؛ فيرى الإبراهيمي" :إنّ الحدَّ الأخير الذي يحدِّده التاريخ لهذه الجمعيّة هو اليوم الذي يصبح فيه المسلمون كلُّهم بهذا الوطن ولا مرجع لهم في التماس الهداية إلا كتاب الله وسنّة رسوله، ولا سلطان على أرواحهم إلا

الله الحيُّ القيُّوم، ولا مصرِّف لجوارحهم وإرادتهم إلا الإيمان الصحيح تنشأ عنه الأعمال الصحيحة فتُثمر آثارًا صحيحة... يوم يصبح المسلمون متساوين في العبوديّة لله، لا يعبدون غيره ولا يدعون سواه ولا يُسلمون وجوههم إلا إليه، ولا يتَّخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله[٥٣]. وهذا ما يؤكده الشيخ الطيِّب العقبي بأن الدعوة الإصلاحيّة قبل كلِّ شيء وبعده هي دعوة دينيّة محضة... وهي تتلخَّص في كلمتين: أن لا نعبد إلا الله وحده، وأن لا تكون عبادتنا له إلا بما شرعه وجاء من عنده).[٥٤]

ونشر العقيدة الصحيحة لا يتحقَّق إلا بتطهيرها وتخليصها مما علِق بها من شوائب الشِّرك والبدع، ممّا أحدثه في دين الله المحدِثون، وأشرك به مع الله غيرَه المشركون. ولقد أدركت الجمعية هذا المبدأ فاهتمت به وجعلته نصب عينيها؛ فقد جاء في قانونها الداخليّ ما نصه: والعقيدة الحقَّة لها ميزان دقيق وهو الكتاب والسنَّة. فإذا عرضنا أكثر عقائد النَّاس على ذلك الميزان وجدناها طائشة، فأيُّ سبيل نسلكه لتقويمها؟ إن اقتصرنا على بيان العقيدة الصحيحة واجتهدنا في إقامة الأدلّة، فإنّ التَّأثير يكون قليلاً، لأنّ النُّفوسَ قد اصطبغت بعوائد وتقاليد مستحكمة، والفِطَرَ قد فسدت بما لابسها من خرافات وأوهام. فالواجب إذن أن نبدأ بمحاربة تلك البدع والخرافات بطُرق حكيمة تقرُب من أذواق النَّاس، فإذا ماتت البدع والخرافات، وصَفَت الفطرُ من ذلك الشَّوب سَهُل تلقين العقيدة الصَّحيحة وتلقَّتها الأمَّة بالقبول[٥٥]. وليس الإرشاد إلى الخير النَّافع بأولى من التَّنبيه على الباطل الضارّ، بل كلاهما غرض حسن، وسَنن لا يعدل عنه السَّاعون في خير سنن[٥٦]، ولا تثبت تحلية إلا عن سبق تخلية.[٥٧]

لقد تأسَّست الجمعيّة في وقت اشتدَّت فيه وطأة الاستعمار الفرنسي على الشَّعب الجزائري، وكان قد مرَّ على احتلاله للجزائر قرنٌ كاملٌ، ذاق فيه الجزائريّون ألوانًا من العذاب، ومع هذا كلّه كان من حكمة الجمعيّة الإعراضُ عن هذا الاستعمار الماديّ في أوَّل الأمر الذي يعتمد على الحديد والنَّار، وتوجيه ضرباتها إلى الاستعمار الرُّوحيّ الذي يمثِّله مشايخ الطُّرق المؤثِّرون في الشَّعب، المتغلغلون في جميع أوساطه، المتاجرون باسم الدِّين، المتعاونون مع الاستعمار الماديّ عن رضي وطواعية، من أجل تجهيل الأمَّة لئلاَّ تفيق بالعلم، وتفقيرها لئلاَّ تستعين بالمال على التَّحرر، فكان من سداد الرأي وإحكام التدبير البدءُ بمحاربة الاستعمار الثَّاني لأنّه أضرُّ خطرًا وأهون دفاعًا،

يقول ابن باديس: وبعدُ، فإنَّنا اخترنا الخطَّة الدِّينيّة على غيرها عن علم وبصيرة وتمسُّكا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا من النُّصح والإرشاد وبثِّ الخير، والثَّبات على وجهٍ واحدٍ، والسير في خط مستقيم[٥٨]... ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسيّ لَدخلناه جهرًا، ولَضربنا فيه المثل بما عُرف عنَّا من ثباتنا وتضحيتنا، ولَقُدْنا الأمَّة كلّها للمطالبة بحقوقها، ولكان أسهلَ شيء علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها، وأن نبلُغ من نفوسها إلى أقصى غايات التَّأثير عليها؛ فإنّ ممَّا نعلمه ولا يخفى على غيرنا أنّ القائد الذي يقول للأمَّة: إنَّك مظلومة في حقوقك وإنَّني أريد إيصالك إليها؛ يجد منها ما لا يجده من يقول لها: إنَّك ضالَّة عن أصول دِينك وإنَّني أريد هدايتك، فذلك تلبِّيه كلُّها، وهذا يقاومه معظمُها أو شطرُها، وهذا كلُّه نعلمه، ولكنَّنا اخترنا ما اخترنا لِما ذكرنا وبيَّنَّا، وإنَّنا – فيما اخترناه – بإذن الله لماضون وعليه متوكلون[٥٩].

وفي تقديم التَّصفية على التَّربية، والتَّخلية على التَّحلية يقول الإبراهيمي: كان معقولاً جدًّا أنّ الإصلاح الدِّينيّ لا يطمئنُّ به المضجع في هذه الدِّيار، ولا ترسخ جذوره إلا إذا مُهِّدت له الأرض ونُقِّيت. ولابدّ بعد وجود المقتضيات من إزالة الموانع. وموانع الإصلاح بهذه الدِّيار وعوائقُه هي طائفة أو طوائف، تختلف اسمًا وصفةً، وتتَّحد رسمًا وغايةً).[٦٠] ويذكر الإبراهيميّ أنّ الأوساط الإصلاحيّة تردَّدت في طريقة عملها بين عدة أراء فاخترنا الرأي الأول والمتمثل في توجيه الجهود إلى التَّعليم المثمر، وتكوين طائفة من المتعلِّمين مطبوعة بالطَّابع الإصلاحيّ علمًا وعملاً، مسلَّحةٍ بالأدلّة، حتى إذا كثُرَ سوادها استُخدمت في الحرب على البدع وأهلها.

٢/٢-الهجوم على أهل الباطل والبدع

لقد سعت الجمعية إلى إسماعُ العامَّة المغرورة بهم صوت الحقّ؛ لأنَّ البدع والمنكرات قد تغلغلت في الأمَّة وطال عليها الأمد، وشاب عليها الوالد وشبَّ الولد، فلا بدَّ من صيحة مُخيفة ورجَّة عنيفة تصدِّع بنيانها وتُزَلْزِل أركانَها، وتُضعف في النُّفوس هيبة أهل الباطل[٦١]. ولقد عاب بعض الكُتَّاب على الجمعيّة اشتغالَها بالردِّ على المنحرفين في العقيدة وصرفَ الجهود والأوقات في ذلك، على حساب غيره من مباحث العلم والتَّعليم والأخلاق والصَّنائع، مقلِّلا من أهميّة عملها هذا؛ ولأمثال هؤلاء يقول الإبراهيمي: "وقد يظنُّ الظانون وتنطق ألسنتهم بهذا الظنّ، أنّ هذه المنكرات التي نحاربها ونشتدُّ في حربها هي

قليلة الخطر، ضعيفة الأثر، وأنّنا غلونا في إنكارها، وأنفقنا من الأوقات والجهود في حربها، ما كان حقيقًا أن يصرف في ناحية أخرى أهمّ، كالإصلاح العلميّ؛ وفات هؤلاء أنَّ اللوازم القريبة لتلك المنكرات التي تشتدُّ الجمعيّة في محاربتها التزهيدُ في العلم وإفساد الفطر وفشل العزائم، وقتل الفضائل النفسيّة، وإزالة الثّقة بالنَّفس من النَّفس، وتضعيفُ المدارك وتخدير المشاعر، وهي رذائل لا تجتمع واحدة منها مع ملَكة علميّة صحيحة، فكيف بها إذا اجتمعت. فكان من الحكمة أن تبتدئ الجمعيّة بتطهير النُّفوس من الرذائل، وأن تجعل مِن صرخاتها عليها نذيرًا للنّاشئة أن تتلطّخ نفوسهم بشيء من أضرارها إذ كيف يُخلص في عبادة ربِّه من يعتقد أنّه لا يصلح هو لمناجاته، وأنّه لابدّ له من واسطة تقرّبه زلفى إليه، وأنّ تلك الواسطة تضرُّه وتنفعه، وتُشقيه وتُسعده، وتُعطيه وتمنعه... أم كيف تتهذَّب أخلاق من يعتقد أنّ كلّ ما هو عليه من عوائد فاسدة هو من الدِّين ومن سنّة المتقدِّمين، وأنّ من يريد إصلاح تلك العوائد من الملحدين، أم كيف تستقيم أعمال من يعتقد أنّ شيخه يُنجيه من النِّيران، أو أنّ الذِّكر الفلاني أو الصلاة الفلانيّة إذا قاله مُحيَت عنه جميع الأوزار، وزُجّ في زمرة الأخيار، أو أنّ زيارة قبر شيخه تعدِل عبادة سبعين سنة، أو أنّ الطَّواف بقبره كالطَّواف بالبيت الحرام... أم كيف يعمل لِعزّ أو ينتصر من بغي من يعتقد أنّ ذلّه واستعباده ومهانته أمرٌ مقدَّر عليه لا يسَعه إلا الصَّبرُ عليه حتى يتمَّ أجلُه، أو يأتيَ المهديّ فيخلِّصه... ويعتقد أنّ الأموات تتصرَّف له، وأنّها تدفع عنه كيد الظالمين وقوَّة الجبّارين، بل إنّها هي التي غضِبت عليه فجاءته بالبلايا وقادت إليه جيوش المحن، يتقدَّمها سيدي فلان ويسوقها سيدي فلان[١٢] هذا ما حمل المصلحين المجدِّدين على الاهتمام بدعوة المسلمين إلى إقامة التَّوحيد وتخليصه من خيالات الشِّرك[١٣]، فكتبوا الكتابات ونشروا المقالات في جرائد الجمعيّة كالشِّهاب والبصائر[١٤] وغيرها، الأمر الذي زعزع عقائد كانت تحسب من صميم الإيمان، ونسف صروحًا مشيَّدة من الخرافات والأوهام، ووضع الأساس للإصلاح الدينيّ في هذه الدِّيار، وزرع البذرة الأولى لتطهير العقائد والأفكار[١٥].

٣/٢-إتباع الكتاب والسُّنّة ومنهج السَّلف

من المعلوم أنّ مصدر التلقّي عند أهل السُّنّة والجماعة هما الأصلان الأصيلان والموردان الصّافيان، كتاب الله عزَّ وجلّ وسنّة رسول الله (ﷺ)، اللذين أُمرنا بردِّ الأمور إليهما عند التنازع والاختلاف، قال تعالى: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا).[١٦] يُضاف إلى هذين الأصلين أصلٌ ثالث، به تُفارق الفرقة الناجية فِرق الضَّلال وتتميَّز عنهم، وهو إتباع منهج السَّلف الصَّالح من الصَّحابة والتَّابعين وأئمَّة الدِّين، قال تعالى: (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا).

وعلى هذه الأصول الثلاثة بنى العلماءُ المصلحون الجزائريّون دعوتهَم، حتى قبل إنشاء جمعيّتهم؛ بل اتّفاقُهم عليها هو الذي مهَّد لإنشاء الجمعيّة. يقول ابن باديس - رحمه الله:[١٧]. (قد رأينا ونحن نخدم أمّة مسلمة أن نسعى لتهذيبها من طريق الإسلام، ولم نشكّ قطُّ أنّ الإسلام ليس هو ما تمثّله بسيرة مجموعها وأفرادها، وأنَّ الإسلام إنمّا هو في كتاب الله وسنّة رسول الله (ﷺ) وما كان عليه سلفُها من أهل القرون الثّلاثة المشهود لهم بالخيريَّة على لسان الصَّادق المصدوق، فصمدنا ندعو الأمّة إلى الرجوع إلى هذه الأصول وطرح كلِّ ما يخالفها من قول وعمل واعتقاد[١٨]. وكان من أهمّ أعمال ابن باديس قبل تشكيل الجمعيّة، إنشاؤه لجريدة «المنتقد» التي عُطِّلت بعد فترة وجيزة، فأتبعها بجريدة «الشهاب» التي هي بحقّ «شهابٌ رصد على الدِّين الصَّحيح من أن تلمَسه أيدي دجاجلة السُّوء وأنصار البدعة بأذى، وشهابٌ ثاقب يُقذف به كلُّ شيطان رجيم وأفّاك أثيم[١٩].

وقد جاء في هذه الجريدة التَّصريح الصَّريح بالدَّعوة إلى هذه الأصول العظيمة. إنّ من أهمّ ما أُسّست له هذه الصَّحيفة: الإصلاحَ الدِّيني وتطهيرَ العقائد من نزعات الشِّرك وباطل الخرافات ودحضَ أنواع البدع القوليَّة والفعليَّة، والإشادةَ بلزوم الاهتداء بالكتاب والسنَّة وعمل السَّلف الصالحين، والأخذَ بكلِّ ما وافق هذه الأصول، والطّرحَ لكلِّ ما خالفها. ولمَّا أُنشئت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين كانت الدَّعوة إلى هذه الأصول هي السِّمة البارزة في منهجها؛ فقد جاء في قانونها الدَّاخلي: فالجمعيّة تريد أنْ ترجع بهذه الأمّة - من طريق الإرشاد - إلى هداية الكتاب والسُّنّة وسيرة السَّلف الصَّالح، لتكون ماشية في رقيِّها الرُّوحيّ على شعاع تلك الهداية[٢٠] ولقد أوضح ابن باديس دعوة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين وأصولَها في عدّة نقاط؛ من بينها: الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده، وأرسل به جميع رسله،

وكمّله على يد نبيّه محمد(ﷺ) الذي لا نبيَّ بعده . القرآن هو كتاب الإسلام. السنّة القوليّة والفعليّة - الصَّحيحة، تفسيرٌ وبيان للقرآن.

سلوك السَّلف الصَّالح - الصَّحابة والتَّابعين وأتباع التَّابعين - تطبيقٌ صحيح لهدي الإسلام. فهوم أئمَّة السَّلف الصَّالح، أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسُّنَّة)[71]، فكان ابن باديس يُذكِّر بالسّير على هذه الأصول والدَّعوة إليها في فاتحة كلِّ سَنَةٍ جديدة من عُمر جريدته «الشِّهاب»؛ ومن ذلك ما جاء في فاتحة السَّنة الثَّالثة عشرة : وسنخطو هذه الخطوة - إن شاء الله تعالى - على ما عرفه النَّاس من مبدئنا في الإصلاح الدِّينيّ من ناحية العقائد والأخلاق والأفكار والأعمال، تصحيحًا وتهذيبًا وتنويرًا وتقويمًا، كلُّ ذلك في دائرة الإسلام كما نزل به القرآن، وبيَّنته السُّنَّة، ومضى عليه –علمًا وعملاً- السَّلف الصَّالح من هذه الأمَّة)[72]. ويرى الشيخ مبارك الميلي رحمه الله أن الدَّاعي إلى الكتاب والسُّنَّة وتفهُّمِهما إنمَّا هو داعٍ لتحقيق كلمتَيْ الشَّهادة، ولهذا نجد فيهما وفي كلام سلف الأمَّة الحثَّ على تعلُّمهما وإتباعهما وتحكيمهما عند النِّزاع، والتَّحذيرَ من مخالفتهما وارتكابِ ما أنكراه على من تقدَّمَنا من مشركين وكتابيِّين[73]، ويضيف الشَّيخ العربي التَّبسيّ- رحمه الله :إنَّ الدَّعوة الإصلاحية التي يقوم بها دعاة الإصلاح الإسلاميّ في العالم الإسلاميّ عامّة، وتقوم بها «جمعيّة العلماء «في القطر الجزائريّ خاصّة، تتلخَّص في دعوة المسلمين إلى العلم والعمل بكتاب ربِّهم وسنَّة نبيِّهم، والسَّير على منهاج سلفهم الصَّالح في أخلاقهم وعباداتهم القوليّة والاعتقاديّة والعمليّة، وتطبيق ما هم عليه اليوم من عقائدَ وأعمال وآداب على ما كان في عهد السَّلف الصَّالح، فما وافقه عدَدْناه من دِين الله فعمِلنا به، واعتبرنا القائم به قائمًا بدِين الله، وما لم يكن معروفًا في عهد الصَّحابة عدَدْناه ليس من دين الله، ولا علينا فيمن أحدَثه أو عمل به؛ فالدِّين حُجَّة على كلِّ أحد وليس عمل أحد حُجَّةً على الدِّين...[74]، وفي وصيّة ابن باديس - رحمه الله - الجامعة، ونصيحته النافعة إلى علماء الأمة يقول فيها :اعلموا - جعلكم الله من وعاة العلم، ورزقكم حلاوة الإدراك والفهم، وجمَّلكم بعزَّة الإتباع، وجنَّبكم ذِلّة الابتداع - أنَّ الواجب على كلِّ مسلم في كلِّ زمان ومكان، أن يعتقد عقدا يتشرَّبه قلبه، وتسكن له نفسه، وينشرح له صدره، ويلهج به لسانه، وتنبني عليه أعماله - أنَّ دين الله تعالى من عقائد الإيمان وقواعد الإسلام وطرائق الإحسان إنمّا هو في القرآن والسنّة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وأنّ كلَّ ما خرج عن هذه الأصول، ولم يحظَ لديها بالقبول - قولاً كان أو عملاً أو عقدًا أو حالاً فإنّه باطل من أصله، مردود على صاحبه، كائنا من كان في كلِّ زمان ومكان، ويضيف هذه نصيحتي لكم ووصيَّتي أفضيت بها إليكم، فاحفظوها واعملوا بها، تهتدوا وترشدوا - إن شاء الله تعالى، فقد تضافرت عليها الأدلة من الكتاب والسنّة وأقوال أساطين الملة من علماء الأمصار، وأئمة الأقطار، وشيوخ الزهد الأخيار، وهي لعمر الحقّ لا يَقبلها إلا أهل الدِّين والإيمان، ولا يردُّها إلا أهل الزيغ والبهتان[75].

٤/٢-إصلاح العقول والأخلاق

لقد أخذت قضية إصلاح عقلية الجزائريين عناية كبيرة في عمل رجال الإصلاح ومجهود اتهم ذلك أن إصلاح العقول كما نعلم هو المقدمة الطبيعية لكل إصلاح ناجع في المجتمع لهذا سعت الحركة الإصلاحية إلى بعث نهضة شاملة في البلاد تخرج بها من حالة الجمود والركود إلى الحيوية والنشاط وبالتالي تنهض متكاثفة إلى كسر قيود الاحتلال الغاصب، والذي بسط سيطرته عليها ردحًا من الزمن نظرًا لتخلف الجزائريين الفكري والعلمي والحضاري[76]، فكان ابن باديس رحمه الله يرى إن تحقيق هذه النهضة المنشودة يتوقف بالدرجة الأولى على تكوين الفرد الجزائري من الناحية الفكرية والنفسية والطريق إلى ذلك هو تحرير عقول الجزائريين من الجهل والأمية والفساد الأخلاق، باعتبار أن الأمم أخلاق فإن صلحت أخلاقهم صلحوا وإن فسدت أخلاقهم فسدوا، وبما أن الأخلاق تنبع من داخل الفرد، وبالتالي يجب تطهير القلوب وتهذيب النفوس وإصلاح العقائد، حتى يعمل الفرد على تغيير ما بنفسه لكي يغير الله ما به من سوء وانحطاط، طبقا لقوله تعالى: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" والظواهر كما قال ابن باديس دلائل على البواطن[77]. فإذا كان باطن الفرد صالحًا ومستقيمًا كان باطنه كذلك والعكس صحيح وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله.[78]

٥/٢-التربية على أسس علمية صحيحة

لقد جعل رجال الإصلاح من العلم الصحيح وسيلة وسلاح لدعوتهم ودعاتهم في معركة الإصلاح، فالدعوة لا تقوم إلا على علم ولا يكون داعيًا إلى الله مصلحًا متبوعًا إلا من كان متسلحا بالعلم، والعلم هو

وحده الإمام المتبع في الحياة والأقوال والأفعال والاعتقادات، وفي هذا الإطار عنى رجال الإصلاح بتربية الشباب الجزائري تربية أخلاقية قويمة في المدرسة والمجتمع، لان التربية هي العاصم للفتى والفتاة من الانحرافات العقدية والخلقية والوطنية، ولأن الشخص الذي لا يستطيع آن يوجه سلوكه بنفسه، لا يمكن أن يؤتمن على مصالح الأمة والوطن، ومن هذا المنطلق حددوا الأهداف التربوية للحركة الإصلاحية، والتي تستمد مقوماتها من روح الحضارة الإسلامية، ثم من واقع المجتمع الجزائري، والتي تهدف إلى تغيير الواقع تغييرا جوهريا في كافة مناحي الحياة، تغيير يمس بنية المجتمع، وكان عليهم آن يبدؤوا بالعنصر الأساسي، إلا وهو الإنسان لأنه أصل كل حضارة وصانعها، وإنسان لا يعني الرجل وحده، وإنما نعني الرجل والمرأة معا، وهذا ما يؤكده الإمام ابن باديس في هذا السياق: "على المربين لأبنائنا وبناتنا آن يعلموهم ويعلموهن الحقائق الشرعية، ليتزودوا بها بما يطبعونهم ويطبعوهن عليه من التربية الإسلامية العالية لميادين الحياة".(٧٩)

وبناء الإنسان لا يقتصر في نظر رجال الجمعية على النواحي الروحية والعلمية فحسب بل يتعداه إلى بناء شخصيته وتكوينها تكوينا متكاملا في جوانبها المعرفية والخلقية والذوقية والاجتماعية والبدنية وهذا ما يؤكده ابن باديس فيرى: "أن كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علمًا وعملاً فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية، ويضيف قائلاً: "حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على الأركان الثلاثة، الإرادة والفكر والعمل، وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لابد للإنسان منها، فالعمل متوقف على البدن، والفكر متوقف على العقل، والإرادة متوقفة على الخلق فلهذا كان الإنسان مأمورًا بالمحافظة على هذه الثلاثة: عقله وخلقه وبدنه، والدفاع عنها في هذا المضمار يتطلب منه أن يثقف عقله بالعلم، ويقوم أخلاقه بالسلوك النبوي، ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الأذى والتريض على العمل(٨٠)، لقد استطاع رجال الإصلاح بمواقفهم وإسهاماتهم المختلفة، أن يغلقوا الباب في وجه محاولات نقد العقيدة وتدمير الأخلاق، وزرع الانحلال، وأن يجدوا نوعًا من الاطمئنان النفسي يخفف من حدة الشعور بالنقص تجاه الآخرين وخاصة الحضارة الغربية(٨١).

٦/٢-الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

لقد سلك رجال الإصلاح في دعوتهم إلى الله الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، حتى يتجنبوا الوقوع في الإفساد وهم يقصدون الإصلاح، ويعصمهم من تنفير الناس وتشويه الإسلام وهم يردون الترغيب فيه وتحسين صورته، والصبر على الأذى واجتناب التهور وردود الفعل الغير الشرعية، خاصة ممن نطق وتكلم باسم الإسلام، والثبات على نفس الطريق وان لا يستعجلوا الثمرة، والتركيز في علاج المرض وأعراضه وسبل علاجه، وأن يتجنبوا أسباب تنفير الناس وفي هذا السياق يقول الإمام عبد الحميد بن باديس في تفسير قوله تعالى: "وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"(٨٢)، والتي هي أحسن هي الكلمة الطيبة والمقالة التي هي أحسن من غيرها فيعم ذلك ما يكون من كلام في التخاطب العادي بين الناس(٨٣).. وما يكون من الكلام في مقام التنازع والخصام فيقتصر على ما يوصله إلى حقه في حدود المتنازع فيه دون أذية لخصمه ولا تعرض لشأن من شؤونه الخاصة به، وما يكون من باب إقامة الحجة وعرض الأدلة فيسوقها بأحلى عبارة وأوقعها في النفس خالية من السب والقدح ومن الغمز واللمز والتعريض.. ومن أدنى تلميح إلى شيء قبيح وهذا يطالب به المؤمنون سواء كان ذلك فيما بينهم أو بينهم وبين غيرهم.... وهذا هو الأدب الإسلامي الذي يدعوا إلى التروي عند القول واجتناب السيئ والاختيار الأحسن(٨٤).

وكان علماء الإصلاح وخاصة ابن باديس يكرر في كل مكان بعد نهاية موعظته العبارة الثلاثية التالية قصد ترسيخها في الأذهان والقلوب: تعلموا وتحابوا وتراحموا"(٨٥)، فكان هدفهم من هذه الطريقة استمالة المترددين وحتى الخصوم والدفاع بهم إلى المشاركة في التجديد الثقافي الأكبر الذي تدعو إليه الحركة الإصلاحية، كان حرصهم لم شمل المسلمين الذين فرقتهم المدارس والانتماءات المتنوعة.

خَاتِمَةٌ

إن النشاط الإصلاحي الذي قامت به جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من حيث التجديد والتغيير حينذاك، كان يطابق روح العصر ويستمد طريقه من المفاهيم الإسلامية الصحيحة والمتمثلة في الكتاب والسنة. لقد كانت النزعة السلفية واضحة في هذه الغايات المعلنة، نظرًا لتأثر رجال الجمعية بالحركة السلفية المشرقية التي تزعمها محمد بن عبد الوهاب أو رشيد رضا من خلال مجلة المنار.

لم تكن جمعية العلماء المسلمين نسخة مطابقة لعلماء الشام أو الحجاز، بل كان رجالها سعة أفق أحياناً أكثر من الذين تأثروا بهم. ولقد اتسم عمل جمعية العلماء المسلمين بالواقعية المطلقة، لارتباطهم بواقع المجتمع الجزائري، وتواصله مع أفراده بشكل مباشر، فتمكنت بذلك من تشخيص أمراضه بكل جدية وإعطاء حلول لها.

الهَوامِشُ:

(١) محمد حاج عيسى: **أصول الدعوة السلفية عند العلامة ابن باديس**، ط١، دار الفضيلة للنشر والتوزيع الجزائر ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص٢١.

(٢) **آثار ابن باديس**: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ١٩٩١، ج ١، ص١٤٢.

(٣) علي مراد: **الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر**، تر محمد يحياتن، دار الحكمة، ٢٠٠٧، ص٣٤٧.

(٤) **سورة لقمان**، الآية ١٤.

(٥) **سورة الأعراف**، الآية ٣١.

(٦) محمد البشير الإبراهيمي، **الآثار**، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧ ج١، ص ٢٢٩.

(٧) **سورة الحج**، الآية ٤١.

(٨) **سورة النور**، الآية ٥٥.

(٩) **سورة الأنعام**، الآية ١٦٥.

(١٠) **سورة الأعراف**، الآية ١٠٠.

(١١) الإبراهيمي، المصدر السابق، ج١، ص٢٣١.

(١٢) **سورة الأعراف**، الآية ١٢٦.

(١٣) الإبراهيمي: المصدر السابق ج ٤، ص٩٤.

(١٤) آثار ابن باديس، ج١، ص ٢٥٠.

(١٥) يقول أستاذ على مراد أن ابن باديس فضلاً عن دروسه في تفسير القرآن في الجامع الأخضر كان ينشر تفاسير الحديث ويختارها بحيث تمس جمهور عريضًا. ومن أمثلة مكان ينشر في الشهاب من أحاديث عن النوايا والأعمال، الأعمال الخيرية، الصدق والكذب وغيرها من الأحاديث للمزيد انظر: علي مراد: المرجع السابق، ص ٣٤٨.

(١٦) تأسست سنة ١٩٣٣.

(١٧) آثار ابن باديس، ج١، ص ٣٧٠.

(١٨) ابن ماجه: السنن، كتاب الزهد، باب ذكر الحوض، رقم: ٤٢٩٦.

(١٩) آثار الإبراهيمي: ج٤، ص١٤٥.

(٢٠) آثار ابن باديس: ج٥، ص ١٥٤- ١55.

(٢١) محمد الحاج عيسى: **عقيدة ابن باديس السلفية وموقفه من الأشعرية**، دار الأنيس الجزائر، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦، ص٥.

(٢٢) **أثار بن باديس**: ج٣، ص٢٣٣.

(٢٣) نفسه، ج١، ص٢٥٢.

(٢٤) نفسه، ج٣، ص155.

(٢٥) نفسه: ج٤، ص٧٤.

(٢٦) الإبراهيمي: المصدر السابق، ج١/ ص ١٩٤.

(٢٧) البشير الإبراهيمي: **عيون البصائر، تق محمد طالب الإبراهيمي**، (ش، و، ط، ن)، دون تاريخ، ص٣١٣.

(٢٨) أبو يعلى زواوي: **الإسلام الصحيح**، مطبعة المنار مصر، ١٣٣٥هـ، ص٣٧.

(٢٩) المصدر نفسه، ص٩٤.

(٣٠) **أثار ابن باديس**: ج٢، ص٢٤٤.

(٣١) المقصود بالمدارس الأربعة المذاهب الأربعة المالكية، والحنفية، الشافعية، الحنبلية.

(٣٢) **الجامع الأخضر**: هذا المسجد من أهم مساجد المدينة قسنطينة، بناه الباي حسن بن حسين الملقب "أبو حنك" تولى حكم قسنطينة من عام ١١٤٩ إلى عام ١١٦٨ه (موافق

١٧٣٦-١٧٥٤) وكان بناء المسجد في عام ١١٥٦هـ "١٧٤٣" كما تدل عليه كتابة الرخامة الموجودة فوق باب مدخل بيت الصلاة وبجواره مدرسة أيضًا. وكان يقوم بالتدريس فيه نحو ثمانية من المدرسين من بينهم ابن باديس.

(٣٣) الشهاب، م ١٢، عدد أوت ١٩٣٩م، ص ٣٣٢-٣٤٤.

(٣٤) **أبو زيد القيرواني** هو عبدا لله (أبو محمد) بن عبد الرحمن (أبي زيد) القيرواني ولد بالقيروان بتونس سنة ٣١٠ ه الموافق لـ 922م وهو من أعلام المذهب المالكي. أهم أعماله كتاب الرسالة.

(٣٥) خليل بن إسحاق بن موسى، ضياء الدين الجندي: فقيه مالكي، من أهل مصر، كان يلبس زي الجند. تعلم في القاهرة، وولي الإفتاء على مذهب مالك.له)المختصر في الفقه، يعرف بمختصر خليل، وقد شرحه كثيرون، وترجم إلى الفرنسية، وشرح به مختصر ابن الحاجب، ومخدرات الفهوم فيما يتعلق بالتراجم والعلوم ومناقب.

(٣٦) علي مراد: المرجع السابق، ص٢٦٦.

(٣٧) الشهاب، م ١١، مارس ١٩٣٦م، ص٦٥٤.

(٣٨) أبو يعلى الزواوي: المصدر السابق، ٤-٥.

(٣٩) **آثار ابن باديس**، ج١، ص٢٥٠.

(٤٠) نفسه، ص٢٥١. وانظر: الإبراهيمي: **آثار البشير الإبراهيمي**، ج١، ص ١٦٧

(٤١) آثار ابن باديس: ج١، ص٢٦٠.

(٤٢) محمد حاج عيسى: **عقيدة الإمام عبد الحميد ابن باديس وبيان موقفه من الأشعرية**، ص١٢.

(٤٣) نفسه، ص ١٤.

(٤٤) أبو يعلى الزواوي: المصدر السابق، ص٦.

(٤٥) علي مراد: المرجع السابق، ص ١٩٥.

(٤٦) أبو يعلى الزواوي: المصدر السابق، ص٨.

(٤٧) المرجع نفسه، ص٩.

(٤٨) سورة الأنبياء، الآية ٢٥.

(٤٩) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٥٠) عبد الرحمن بن محمد بن قاسم: **الصارم المسلول على عابد الرسول**، دار البصائر ١٤٢٨هـ، ص٣٤.

(٥١) **آثار الإبراهيمي**، ج١، ص١٣٨.

(٥٢) الطيب العقبي: **نهضة الجزائر اليوم ودعوتنا الإصلاحية**، جريدة السنة، العدد ٢، ٢٢ذي الحجة ١٣٥١هـ/١٧ افريل ١٩٣٣م، ص٢.

(٥٣) **آثار الإبراهيمي**، ج١، ص٨٦: وانظر كذلك المادة (٦٩) من القانون الداخلي للجمعية.

(٥٤) محمد مبارك الميلي: **رسالة الشرك ومظاهره**، ط٣، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة ١٩٨٢، ص ٥١.

(٥٥) نفسه، ص٨٩.

(٥٦) محمد عابد الجابري: مجلة الثقافة، وزارة الثقافة الجزائرية، عدد٨٧ نوفمبر ١٩٨٥، ص٢٣-٢٤.

(٥٧) جريدة الصراط: **لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**، عدد ٤ أكتوبر ١٩٣٣، ص ١٥.

(٥٨) **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**: (س م ج ع م ج)، دار المعرفة الجزائر، ٢٠٠٩، ص٤٩.

(٥٩) **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**: المصدر السابق، ص٤٩--٥٠.

(٦٠) **آثار الإبراهيمي**، ج١، ص١٤٤.

(٦١) الشهاب، ج٣، مجلد ٩، ص ١٩٠- ١٩١.

(٦٢) محمد المبارك الميلي: المصدر السابق، ص٥١.

(٦٣) تُعَدّ الصحيفة الرابعة لجمعية العلماء، وهي أسبوعية يديرها ويرأس تحريرها الشيخ الطيب العقبي والسعيد الزاهري، شعارها الآية الكريمة "قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ" سورة الأنعام، الآية ١٠٤، صدر عددها الأول بتاريخ ١٩٣٥\١٢\٢٧ بمدينة الجزائر، واستمرت إلى غاية عام ١٩٣٧، ثم بعد ذلك أصبحت تصدر بمدينة قسنطينة، وظلت قائمة إلى أن أدركها إعلان الحرب العالمية الثانية فتوقفت عن الظهور. عبد القادر كرليل: **تطور الصحافة الوطنية ١٩١٩-١٩٣٩**، مجلة المصادر العدد١٣، السداسي الأول ٢٠٠٦ يصدرها (م و د ب ح وث أول نوفمبر)، ص١١٣.

(٦٤) الشهاب، ع ٤٧، ج٢، مجلد ١١، ص ٤.

(٦٥) **سورة النساء**، الآية ٥٩.

(٦٦) **سورة النساء**، الآية ١١٥.

(٦٧) الشهاب، ع ٤٧، ج٢، مجلد ١١، ص ٣.

(٦٨) المصدر نفسه، ص٧.

(٦٩) الإبراهيمي: **آثار الإبراهيمي**، ج١، ص٨٤، وانظر كذلك المادة (٦٦) من القانون الداخلي للجمعية.

(٧٠) **آثار ابن باديس**، ج٥، ص ١٥٤.

(٧١) الشهاب، ج ٣، مجلد ١٣، ص١٢٣.

(٧٢) محمد مبارك الميلي: المصدر السابق، ص ٦٣-٦٤ وما بعدها.

(٧٣) نفسه، ص٢٧.

(٧٤) **محمد الصالح رمضان**: وهو من تلاميذ ابن باديس في مقدمته على الرسالة المحققة "رسالة جواب سؤال عن سوء مقال".

(٧٥) تركي رابح: **الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر**، ص٢٠٤.

(٧٦) عمار طالبي: **ابن باديس حياته وآثاره**، ج١، ص٣٣٩.

(٧٧) عبد الحميد بن باديس: **التفسير، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ط١، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢، ص١٩٧.

(٧٨) رابح تركي: المرجع السابق، ص٢١٤.

(٧٩) الشهاب: ج٤-٥، م١٤، عدد جوان جويلية سنة ١٩٣٨ م، ص٢١١.

(٨٠) عبد الكريم بوصفصاف: **المنهج التربوي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس**، الشهاب الجديد، مج٣، السنة (٣)، العدد (٣) ربيع الأول – افريل (١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م)، ص٤٧.

(٨١) سورة الأسراء، الآية ٥٣.

(٨٢) محمد حاج عيسى: المرجع السابق، ص١٢٠.

(٨٣) المرجع نفسه، ص١٢١.

(٨٤) **آثار ابن باديس**: ج١، ص ١٠.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مقالات

تداعيات مجزرة ساقية سيدي يوسف ٨ فيفري ١٩٥٨م على المغرب العربي



د. عبد الوحيد جلامة
أستاذ محاضر تاريخ الحركات الوطنية المغاربية
قسم العلوم الإنسانية - جامعة العربي بن مهيدي
أم البواقي – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

منذ انطلاقة الثورة التحريرية الجزائرية سنة ١٩٥٤م، اتبعت السلطات الاستعمارية الفرنسية سلسلة من الإجراءات السياسية والعسكرية والتي هدفت من ورائها إلى عزل الثورة عن محيطها المغاربي والدولي، وفي هذا السياق قامت السلطات الاستعمارية بشن حرب شرسة على طول الحدود الشرقية والغربية، خصوصا بعد إصدار مجموعة من القوانين الداعمة لهذه السياسة لعل أبرزها سنها لقانون حق التتبع، الذي يسمح للجيش الفرنسي، بتتبع أفراد جيش التحرير الوطني إلى داخل الأراضي التونسية، مما أنتج ظهور مجموعة من الحوادث على طول الحدود الشرقية، أبرزها حادثة ساقية سيدي يوسف في ٨ فيفري ١٩٥٨م والتي خلفت العشرات من القتلى والجرحى وصدى إعلامي كبير نتج على إثره تدويل القضية الجزائرية في المحافل الدولية، كما أدخلت هذه القضية منطقة المغرب العربي في دوامة الصراع السياسي والاستراتيجي بين القوى الكبرى، مما جعلها مفتاحًا لتسرب نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية في منطقة المغرب العربي. ولإنجاز هذا البحث اعتمدت على المنهج التاريخي الوصفي والاستنتاجي؛ لأنهما الأنسب في تتبع أحداث وتطورات ما بعد مجزرة قرية ساقية سيدي يوسف التونسية ومعرفة ما ترتب عنها من تداعيات سياسية ودبلوماسية على القضية الجزائرية ومنطقة المغرب العربي، وقد خلص البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها: أدى الصدى الإعلامي للمجزرة في التعريف بالقضية الجزائرية لدى العديد من دول العالم، التي سارعت إلى استنكار هذه الحادثة وإعلان تعاطفها مع القضية الجزائرية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٣	يوليو	٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر:	١٩	أغسطس	٢٠١٩

كلمات مفتاحية:
الثورة الجزائرية؛ العلاقات التونسية-الجزائرية؛ العلاقات التونسية-الفرنسية؛ معارك الحدود؛ حق التتبع؛ ساقية سيدي يوسف؛ المساعي الحميدة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055846

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عبد الوحيد جلامة. "تداعيات مجزرة ساقية سيدي يوسف ٨ فيفري ١٩٥٨م على المغرب العربي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص ٨٣ – ٩٢.

مُقَدِّمَةُ

إن المسألة المتعلقة بالاعتداء الفرنسي على قرية ساقية سيدي يوسف التونسية في ٨ فيفري ١٩٥٨م؛ تتجاوز الحلقة الضيقة الخاصة بالعلاقات التونسية-الفرنسية وعلاقة هذه الثنائية بالثورة الجزائرية وسياسة فرنسا في الجزائر خاصة وفي المغرب العربي عامة، خصوصًا أنها كانت تهدف من ورائها للقضاء على مشروع الكفاح الوحدوي لبلدان المغرب العربي، الذي كان مخيفا إلى درجة كبيرة لفرنسا، كما أن المجزرة ترتب عنها أبعاد دولية سياسية واستراتيجية وإنسانية دولية. ويرمي هذا البحث المتواضع إلى إبراز تداعيات مجزرة قرية ساقية سيدي يوسف التونسية على منطقة المغرب العربي ما بين ١٩٥٨-١٩٦٢م وأيضا توضيح تداعيات المجزرة على العلاقات الفرنسية التونسية وكيف حاولت القوى السياسية الكبرى (بريطانيا-الو.م.أ)؛ استغلال المجزرة

من أجل إيجاد موطئ قدم لها داخل منطقة المغرب العربي تحت ستار إصلاح ذات البين بين فرنسا وتونس في إطار ما عرف تاريخيا بالمساعي الحميدة. ومن خلال ما سبق يمكن طرح التساؤلات التالية:

- كيف أثرت مجزرة ساقية سيدي يوسف على العلاقات الفرنسية-التونسية؟
- ما هي تداعيات التدخل الأمريكي-البريطاني على القضية الجزائرية ومنطقة المغرب العربي؟

أولاً: تداعيات مجزرة ساقية سيدي يوسف على العلاقات التونسية –الفرنسية

إن المتتبع للعلاقات التونسية-الفرنسية؛ يلاحظ أنها عرفت نوع من الاستقرار خلال السنوات الأولى من استقلال تونس، غير أن هذه العلاقات سرعان ما عرفت تبدلات وتغيرات بدءا من سنة ١٩٥٧م، بسبب الاعتداءات العسكرية الفرنسية على المناطق الحدودية التونسية؛ لتزداد هذه العلاقات تأزما عندما قام سلاح الجو الفرنسي بالجزائر بقصف المدنيين العزل في قرية ساقية سيدي يوسف مع مطلع سنة ١٩٥٨م، بحجة ملاحقة فرق جيش التحرير الوطني الجزائري داخل الأراضي التونسية[١]. وعلى إثر الاعتداء الفرنسي على الساقية، سارعت الحكومة التونسية إلى اتخاذ إجراءات سريعة وردعية للرد على الاعتداءات الفرنسية، حيث تم غلق خمسة قنصليات في كل من: قابس، قفصة، الكاف، سوق الأربعاء، مجاز الباب؛ وأيضا تم طرد عدد كبير من المعمرين الغير مرغوب فيهم والمقدر عددهم بأربعمائة معمر[٢] وفي نفس الوقت أعلنت الحكومة التونسية في يوم ١٢ فيفري ١٩٥٨م، عن منع أية سفينة حربية لدخول ميناء بنزرت[٣] وفي ١٤فيفري، صادق مجلس النواب على قانون ألغى معاهدة سنة ١٩٤٢م والتي تنص بأن ميناء بنزرت ميناء فرنسي ولا يشكل جزء من الأراضي التونسية[٤].

هذا على المستوى الداخلي، فأما على المستوى الخارجي فأمرت الحكومة التونسية سفيرها القار بواشنطن ومندوبها القار لدى هيئة الأمم المتحدة، بالقيام بإجراءات سياسية من اجل التعريف بالقضية التونسية لدى الرأي العام العالمي وفي السياق اجتمع السيد "منجي سليم" مع السيد "همارشود" الأمين العام للأمم المتحدة وقد استمرت المباحثات بين الطرفين لحوالي أربعين دقيقة وبعد انتهاء اللقاء سلم السفير التونسي، مذكرة بخصوص مجزرة ساقية سيدي يوسف للأمين العام[٥]؛ شرح من خلالها حيثيات ونتائج المجزرة، كما أشارت المذكرة إلى إمكانية تدهور العلاقات التونسية-الفرنسية في ظل تجدد مثل هذه الاعتداءات الفرنسية على المناطق الحدودية وختمت المذكرة بتبليغ الهيئة الأممية عن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة التونسية داخل تونس والتي تهدف كلها إلى حفظ السلم، ومن أهم ما جاء في المذكرة ما يلي:

"... في يوم ٠٨ فيفري١٩٥٨ على الساعة العاشرة صباحا استهدف الطيران الفرنسي فجأة قرية ساقية سيدي يوسف المتاخمة للحدود الجزائرية، لقد تعاقبت أسراب من الطائرات الفرنسية متكونة من ٢٥ طائرة قامت بقصف التجمعات السكانية،...يوم السوق الأسبوعية إذ عجت فيه المنطقة بحركة الأهالي واللاجئين الجزائريين الذين كانوا ينتظرون المساعدات التي يقدمها لهم الصليب الأحمر الدولي وبمساعدة الهلال الأحمر التونسي، ولقد استمر القصف مدة ساعة و ٢٠ دقيقة مخلفا ٧٩ قتيلا من بينهم ١١ امرأة و ٢٠ طفلاً و١٣٠ جريحًا،... وقد دمر الجزء الأكبر من القرية منها المساكن والمباني المدنية ومدرسة ابتدائية بل حتى الشاحنات التابعة للصليب والهلال الأحمرين ... إن ذلك الهجوم يعتبر اعتداء فرنسيًا مسلحًا ويدخل ضمن الاعتداءات المتكررة للقوات الفرنسية منذ شهر ماي ١٩٥٧ والتي ينتج عنها في كل مرة خسائر بشرية ، واختطاف مواطنين تونسيين ... حيث احتجت الحكومة التونسية في العديد من المرات لدى الأمين العام للأمم المتحدة عن الاعتداءات... وبأمر من الحكومة التونسية ، أبلغ مندوب تونس لدى الأمم المتحدة مجلس الأمن بالوضع المتأزم الناتج عن العدوان...كما طالب مندوب تونس من السيد الأمين العام للأمم المتحدة اتخاذ القرار الأنجع والكفيل بإيجاد انفراج للوضع الذي يهدد أمن تونس ..."[٦].

وكرد على تدابير الحكومة التونسية، حاولت الحكومة الفرنسية إثارة مشكلتين جديدتين، فالمشكلة الأولى عملت من خلالها الحكومة التونسية على استغلال مشكلة العلاقات القنصلية من أجل صرف الأنظار عن فعلتها الشنيعة بقرية ساقية سيدي يوسف، وتم ذلك عن طريق تكثيف النشاط السياسي والدبلوماسي داخل البلاد التونسية عن طريق سفارتها بتونس، وهذه الأخيرة ما فتئت أن تكرر الاحتجاجات

وتعدد المذكرات الموجهة لكتابة الدولة للشؤون الخارجية منذ أن أعلمتها كتابة الدولة بقرار الحكومة التونسية القائل بغلق القنصليات الخمسة؛ فرغم علم الحكومة الفرنسية بان قرار الحكومة التونسية لا يصبغ بأية صبغة عاطفية ولا يرمي إلى مقاصد مخفية، بل هو في ذاته وسيلة ترى الحكومة اتخاذها في نطاق واجب حفظ الأمن والسهر سلامة السكان والأجانب بصورة خاصة بما فيهم الفرنسيين، وأنها أيضا في مجملها تعبر عن السيادة الوطنية وللحكومة الحق في أن تقرها وتنفذها ضم جملة الإجراءات المتخذة في ظروف استثنائية مشابهة للظروف التي تعيشها الجمهورية التونسية في هذه الأثناء[٧].

أما المشكل الثاني؛ فيتمثل في إثارة مشكل الحدود بين تونس والجزائر، حيث عملت الحكومة الفرنسية على محورت نتائج الاعتداء على ساقية سيدي يوسف وجعلها نتيجة حتمية لغياب الأمن على طول الحدود بين تونس والجزائر، إذ حاولت الإدارة الفرنسية وضع خطط من أجل مراقبة الحدود، وفي هذا السياق شكلت المجزرة، منبع لظهور فكرة حراسة الوحدات الفرنسية الموجودة في الجزائر للحدود الشرقية من أجل عزل الجزائر استراتيجيا[٨]، لكن السلطات الفرنسية عملت أيضا على إيقاف ومنع تسرب النفوذ الأمريكي إلى منطقة المغرب العربي باعتبار أن الأمريكيون كانوا الأكثر حرصا على تكليف ملاحظين من دول الحلف الأطلسي أو من الأمم المتحدة لحراسة الحدود الجزائرية-التونسية[٩]. أما موقف "الحبيب بورقيبة" من المساعي الفرنسية، فقد رفضها باعتبارها أهملت المشكلة الأساسية –الثورة الجزائرية- وأن هذا الإجراء ينقص من هيبة وسيادة دولة تونس المستقلة باعتبار أن هذه القوات هي استمرار لبقاء القوات الفرنسية داخل الأراضي التونسية وكما هو معلوم أن تونس ومنذ استقلالها سنة ١٩٥٦م؛ تعمل على إجلاء القوات الفرنسية عنها، لدى تمسك " الحبيب بورقيبة" بموقفه تجاه اعتبار القضية الجزائرية طرفا أساسيا في النزاع الحدودي الفرنسي- التونسي[١٠].

وحول هذه القضية والمتعلقة بفكرة حراسة الحدود بقوات أممية؛ حاولت جبهة التحرير الوطني الجزائرية من خلال لسان حالها "جريدة المجاهد"، التعليق عن المشروع محاولة بذلك كشف الموقف الحقيقي لفرنسا منه هذا من جهة ومن جهة أخرى تحسيس هيئة الأمم المتحدة بمسئولياتها، لدى كتبت الجريدة مقالا حول الموضوع ومن أهم ما جاء فيه ما يلي: "...لكن استعمال القوات الأممية والبوليس في حراسة الحدود التونسية-الجزائرية، يناقض ما تقتضيه طبيعة القوات الأممية نفسها؛ التي لا يمكن إلا أن تسهر على السلم وأن تراقب تنفيذ توصيات هيئة الأمم المتحدة ومبادئها والتي وافقت على توصيات ترمي إلى إنهاء الحرب والتي سجلت عرض الوساطة التونسية-المغربية، لكنها لن تضع سلطتها وقواتها إلا في خدمة السلم في الجزائر، ثم إن وضع قوات أممية من أجل حراسة الحدود معناه أن هيئة الأمم المتحدة قد غفلت عن أصل الداء وهو حرب الجزائر،... إن البوليس ألأممي العالمي لا يمكن أن يحول إلى فرع من مصالح لاكوست ولا يمكن أن يخدم قضية الحرب النفسية بالجزائر..."[١١].

وفي ظل هذه الظروف؛ سارعت الحكومة الفرنسية بعد عدوانها على الساقية، لرفع شكوى ضد الحكومة التونسية؛ لدى مجلس الأمن لتفادي خروج القضية الجزائرية من الثنائية إلى العالمية وهذه الخطوة تعتبر هجوم دبلوماسي معاكس، يضعها في مقام المعتدى عليه وسبب ذلك هو المساعدات التونسية المقدمة للثوار الجزائريين الذين يعتمدون على التراب الجزائري-الفرنسي وبأن الحكومة التونسية ليس في استطاعتها حماية أراضيها وضبطها والدليل على ذلك تواجد قواعد عسكرية لجيش التحرير الجزائري على أراضيها ومن أهم ما جاء في نص المذكرة الفرنسية يوم ١٥فيفري١٩٥٨م، ما يلي:

"...إن الحكومة التونسية عاجزة عن حفظ الأمن على الحدود الجزائري (الفرنسية)-التونسية، وقد أنشأ الثوار الجزائريون ....، في تونس وبتواطؤ من السلطات التونسية؛ منظمة كاملة تمكنت من خرق الحدود عدة مرات ومن القيام بعدة غارات على الأراضي الجزائرية (الفرنسية)،... وقد أصبحت هذه المنطقة منذ شهر جويلية الماضية، قاعدة لهيئة أركان حرب جزائرية تسير العمليات في شرق الجزائر،... زيادة على ذلك تمد تونس الجزائريين بالإعانة المباشرة من طرف القوات التونسية والحرس الوطني والسلطات التونسية، تساهم في تهريب السلاح إليهم،... ووجود جموع من الثوار يعملون وراء الحدود ،... فأندرنا الحكومة التونسية بسوء العاقبة إذا استمرت في إعانة الثوار، فلم تستجب لنا وكانت غارة الطائرات الفرنسية على

تلك البلدة،...، وإن تحركات الجنود الفرنسيين قد منعت تماما،...، وتم إقصاء أربعمائة فرنسي،...، ووقع إغلاق قنصليات فرنسية بكل من: قفصة، مجاز الباب، قابس، الكاف، سوق الأربعاء..."[١٢].

وعلى إثر الشكوى التي قدمتها فرنسا إلى مجلس الأمن، ضد تونس في ١٥ فيفري ١٩٥٨م، واتهامها بمساعدة الثوار الجزائريين؛ قام "الحبيب بورقيبة" بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الحكومة الفرنسية، فغادر على إثرها السفير التونسي السيد "المصمودي" باريس وهذه الإجراءات جاءت من أجل الحفاظ والدفاع على مقومات السيادة التونسية وفق أحكام القانون الدولي، وفي هذا الصدد أصدرت كتابة الدولة للشؤون الخارجية؛ بلاغا تعلن فيه عن رغبتها في المحاكمة لدى مجلس الأمن ومن أهم ما جاء فيها ما يلي: "أمام أعمال الاعتداءات المتكررة التي يقترفها الجيش الفرنسي وخاصة قذف ساقية سيدي يوسف بالقنابل، فإن الحكومة التونسية قررت أن تتحاكم لدى مجلس الأمن في حالة تهديد الأمن والسلم في العالم، وقد أصدرت التعليمات إلى نائبها القار لدى هيئة الأمم المتحدة ليشرع في اتخاذ الإجراءات اللازمة"[١٣].

وبعد هذا البلاغ، رفع "الحبيب بورقيبة" القضية التونسية إلى مجلس الأمن بالأمم المتحدة والذي يعقد اجتماع له يوم ١٨ فيفري١٩٥٨م[١٤]، بسبب الغارة الجوية الفرنسية على قرية ساقية سيدي يوسف؛ حيث أعلن مكتب "همرشولد" الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة أنه لم يحدث ما من شأنه تغيير الترتيبات الموضوعة لعقد اجتماع مجلس الأمن[١٥] يوم الثلاثاء وقد أبلغ أعضاء الوفد التونسي "المنجي سليم" و"محمود المستيري" بذلك.

وعلى إثر إعلان تونس بأنها ستطلب من مجلس الأمن الدولي ببحث القضية، جرت محادثات خاصة يوم ١٣ فيفري ١٩٥٨م على الساعة ١٧ مساءا بين أعضاء الكتلة الآفروآسيوية في الأمم المتحدة مع العلم أن للكتلة عضوان وهما العراق واليابان، ومن أجل إيجاد سبل وطرق لعرض وكسب أعضاء جدد متضامنين مع تونس[١٦] بصفة عامة ومع القضية الجزائرية بصفة خاصة وأيضا إيجاد طرق لعرض القضية على المجلس من أجل إجباره على اتخاذ قرار حازم يكون ضد فرنسا وسياستها المطبقة في منطقة المغرب العربي[١٧].

وفي يوم ١٨ فيفري ١٩٥٨م، ناقش مجلس الأمن الدولي الشكوى التونسية ضد فرنسا على الساعة العاشرة، حيث استغرق الاجتماع ساعة وثلاث دقائق وقد انتهى الاجتماع بدون اتخاذ أي قرار وبدون أن يحدد موعدا لاجتماع أخر، وأثناء أشغال المجلس وبعد إقرار جدول الأعمال والسماح لمندوب تونس السيد "المنجي سليم" بحضور الاجتماع والذي جلس بدوره مقابل مندوب فرنسا؛ فاعترف هذا الأخير بوقوع العدوان ورغبة حكومته في التعويض على الحادثة، وخلال الجلسة تكلم مندوب بريطانيا الذي أوضح أن وجهة نظر حكومته والتي تكمن في "...أنها تعتبر أن المجلس يحظر عليه التدخل في الشؤون الداخلية للدول بموجب الفقرة السابعة من المادة الثامنة من ميثاق الأمم المتحدة..."[١٨].

وخلال اجتماع المجلس؛ جددت كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، اقتراحا حول مشروع الوساطة الثنائية من أجل تسوية النزاع التونسي-الفرنسي وهذان الأخيران وقبل انعقاد المجلس، عبرا عن مواقفهما الأولية حول المشروع[١٩]؛ إذ أعلنت وزارة الخارجية الفرنسية قبولها المبدئي للوساطة ثم أعلن بعد ذلك متحدث رسمي بلسان الحكومة التونسية، عن قبول بلاده للعرض الأمريكي-البريطاني وهذا ما أكدته الحكومة التونسية فيما بعد، خصوصا بعد إصدارها بلاغا رسميا؛ قالت فيه أنها تقبل الوساطة مبدئيا، لكن لم تتفق بعد على المسائل التي ستشملها الوساطة[٢٠]. أما مندوب الولايات الأمريكية؛ فقد صرح بـــ:"...إن قبول عرض الوساطة، ليس إلا دليل على الرغبة الصادقة في الوصول إلى حل للمشاكل القائمة بين المتنازعين...". كما صرح في هذا الشأن مندوب السويد، حيث قال: "...إن المجلس يحسن صنعا إذ، رفع المناقشة لكي تجري مباحثات الوساطة في جو طيب..."[٢١].

أما مندوب تونس؛ فقد صرح بـــ:"...إن الحكومة التونسية؛ رغبت في تسجيل العدوان الفرنسي في مجلس الأمن، لاتخاذ الإجراءات التي يراها مناسبة بشأنه وأعلن ترحيبه بالوساطة، لأنها جاءت من دولتين صديقتين وأكد أنها لا تريد عرقلة هذه الوساطة،...، فأعلن عن موافقة حكومته على إيقاف النظر في شكواها، لكن أعرب عن خشيته في أن تؤدي الخلافات مع فرنسا إلى إبطال مفعول الوساطة ولذلك ترغب بلاده في الاحتفاظ بطلب عقد اجتماع عاجل لمجلس الأمن إذ لم تسفر الوساطة عن أية نتائج..."[٢٢]. ومن

خلال هذا التصريح؛ نجد أن الحكومة التونسية وافقت على وقف ما اتخذته من إجراءات في مجلس الأمن ضد فرنسا، لكي تتيح للولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا أن تقوما بتسوية النزاع القائم بينها وبين فرنسا، كما أعربت عن استعدادها لسحب شكواها من مجلس الأمن إذا وافقت فرنسا على سحب قواتها من تونس والتي قدر عددها بـ٢٢ ألف جندي وذلك قبل ٢٠ مارس القادم وهو يوم عيد استقلال تونس[٢٣] وعلى سحب شكواها المضادة ضد تونس والتي تتهم فيها تونس بإيواء أفراد جيش التحرير الوطني.

ومما سبق نستنتج أن الحكومة التونسية؛ ساهمت بقسط كبير في إخراج القضية الجزائرية من الثنائية الفرنسية-الجزائرية إلى العالمية، بفعل النشاط الدبلوماسي الكبير، داخل أروقة هيئة الأمم المتحدة وهذا ما ساهم في تدويلها عالميا وهذا الأمر أقلق فرنسا، وفي ظل هذه الظروف بدأ ظهور طرف ثالث في الأزمة ألا وهو مشروع التسوية لكل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا والتي هدفتا من خلال هذا التدخل إلى إيجاد موطأ قدم داخل منطقة المغرب العربي.

ثانيًا: تداعيات مجزرة ساقية سيدي يوسف على المغرب العربي-التدخل الأمريكي البريطاني

إن قصف قرية ساقية سيدي يوسف، قد سرع في تطور العلاقات التونسية-الفرنسية نحو القطيعة؛ خصوصا بعد لجوء تونس إلى هيئة الأمم المتحدة من أجل تسوية النزاع الثنائي ومع لجوء تونس إلى الهيئة الأممية؛ فهذا يعني إخراج القضية الجزائرية إلى أروقة الهيئة وتدويلها، لأن هذه المشكلة ستزيد من ضعف سيطرة فرنسا على المغرب العربي. وفي ظل هذه الظروف وقبل عقد جلسة مجلس الأمن يوم ١٨فيفري ١٩٥٨م، لمناقشة الشكوى التونسية، سارعت كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا إلى عرض وساطتهما والتي عرفت بمهمة المساعي الحميدة[٢٤] على الطرفين المتنازعين واللذان بدورهما قبلا هذه المساعي يوم ١٧ فيفري ١٩٥٨م[٢٥]، وكانت تهدف هذه المساعي إلى تقريب الرؤى والمواقف بين تونس وفرنسا هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت تهدف إلى تجنب التداول العلني للمشكل والذي إذا ما تم تداوله سوف يضع أعضاء الحلف الأطلسي في وضعية محرجة وصعبة ودقيقة[٢٦].

ومن الأسباب التي جعلت الإدارة الأمريكية تعرض وساطتها لحل الخلاف التونسي-الفرنسي، عقب الاعتداء على قرية ساقية سيدي يوسف ما يلي:

- ضعف مؤسسات الجمهورية الفرنسية الرابعة وتأثير سياساتها بالجزائر على استقرار الحلف الأطلسي.
- الخطر الذي يمثله النظام الفرنسي على سلامة فرنسا والحلف الأطلسي[٢٧].
- ضعف السياسة الفرنسية في مواجهة الثورة الجزائرية، حيث عجزت عن إيجاد حلول سلمية لها ولجوئها إلى اعتماد القوة العسكرية من جهة ومن جهة أخرى اعتماد سياسة الكرسي الشاغر في جلسات الأمم المتحدة[٢٨].
- التخوف من إمكانية تسرب وامتداد النفوذ السوفيتي نحو منطقة شمال إفريقيا، نتيجة لتزايد عداء شعوبها للغرب جراء الحرب الفرنسية في الجزائر[٢٩].
- عزل مصر وسياساتها التحررية عن الأقطار المغاربية[٣٠].

وبعد قبول فرنسا وتونس المساعي الحميدة للو.م.أ وبريطانيا، شكلتا لجنة مكونة من السيد" روبير مورفي" Robert Murphy وكيل كاتب الدولة للخارجية الأمريكية والسيد "هارولد بيلي" Harold Beely مستشار بالخارجية البريطانية، من أجل القيام بمساعي التوفيق الرامية إلى تصفية العلاقات بين فرنسا وتونس[٣١]، وعلى إثر تشكيل هذه اللجنة حاولت الإدارة الفرنسية تحديد وحصر مهام أصحاب المساعي الحميدة في النقاط التالية:

- النظر إلى وضعية الجنود الفرنسيين داخل الأراضي التونسية، الذين منعوا من التجوال والتزود بالمؤن.
- مراقبة الحدود الجزائرية-التونسية، عن طريق لجنة مختلطة تونسية وفرنسية وتكون هذه اللجنة تحت قيادة شخص يعينه رئيس هيئة الأمم المتحدة.
- إقامة منطقة محرمة وراء خط موريس، تكون كخط دفاعي ثاني ملغم داخل التراب الجزائري تمنع فيها جميع الحركات.

- المساعي الحميدة تكون من أجل الإشراف على عملية استئناف المفاوضات الثنائية حول النزاع الفرنسي-التونسي[٣٢].

ومن خلال هذه النقاط؛ نجد أن الحكومة الفرنسية وأصحاب المساعي الحميدة، قد أهملوا ذكر القضية الجزائرية التي تعتبر لب النزاع بين الطرفين مع إهمالهم أيضا لمشكلة بنزرت، وفي هذا السياق صرح وزير خارجية بريطانيا في مجلس النواب الإنجليزي، قائلا: "...إن بريطانيا تعمل على إزالة التوتر والوصول إلى حل بين فرنسا وحكومة السيد بورقيبة، ولكن لا يمكن لبريطانيا العظمى بمناسبة هذا التوتر أن تتدخل في القضية الجزائرية التي هي قضية فرنسية محضة..."[٣٣]. أما الولايات المتحدة الأمريكية، فكانت تهدف من عدم التطرق إلى القضية الجزائرية، لمحاولة خنق وحصار واحتواء آثار وتداعيات الأزمة على المستوى الدولي وحتى لا تترك الفرصة لجبهة التحرير وقيادتها باستغلال الأزمة دوليًا[٣٤].

أما موقف الحكومة الفرنسية من المساعي الحميدة، فيمكن استنتاجه من خلال تصريح "فيلكس غايار" والذي صرح بما يلي: "...إن فرنسا لن تتنازل أبدا عن حقوقها في بنزرت، تلك الحقوق المبنية على معاهدات بين الدولتين الفرنسية والتونسية، كما أن الحكومة عازمة فيما يتعلق بالوساطة الإنجليزية-الأمريكية،... على عدم قبولها إذا كان فيها أدنى تدخل في قضية الجزائر التي هي –قضية فرنسية-، كما أن فرنسا لا تقبل خروج جنودها من الأراضي التونسي..."[٣٥]. وفي نفس السياق، صرح وزير الشؤون الخارجية الفرنسي "كريستيان بينو Kristian pineau، بأن: "...المساعي الحميدة لا يمكن لها أن تنطبق على المسألة الجزائرية، فهي ببساط تعني تقريب المعنيين بالأمر تونس وفرنسا وضمان مهمة الربط الهادفة إلى تهدئة الأزمة في انتظار ربط المحادثات مع تونس، وأن ما يهمه حاليا، هي وضعية الجيوش الفرنسية في تونس،... ومراقبة الحدود،... وهو يقبل في النهاية الجلاء العسكري بشرط الحفاظ على بنزرت،... ويبقى الهدف الدائم عزل الجزائر وتحييد تونس التي يجب عليها الكف عن التدخل لفائدة الجزائريين واعتبارها شريكا في الأمر..."[٣٦].

وفي المقابل كان "الحبيب بورقيبة"، يريد انتهاز فرصة المساعي الحميدة، من أجل الوصول إلى عمق الخلاف التونسي-الفرنسي والذي يدور حول مسألة معالجة استقلال الجزائر وأيضًا مسألة الجلاء عن الأراضي تونس بما في ذلك قاعدة بنزرت باعتبار هذا الجلاء نتيجة منطقية للاستقلال وفي نفس الوقت الإبقاء على فكرة اللجوء إلى مجلس الأمن واردة في حالة تشبث فرنسا بموقفها[٣٧]. وفي ظل هذه الظروف بقى القائمان على المساعي الحميدة خمسين يوما، يتنقلان من عاصمة إلى أخرى من أجل ربط العلاقة بين الحكومتين وإيجاد حل وسط للمسائل العالقة بين الطرفين[٣٨] ومن خلال محاولتهما لربط العديد من المحادثات واللقاءات، وجد كل من "بيلي" و"مورفي"؛ أن مهمتهما محصورة بين تعنت وتمسك الطرفين المتنازعين، فالطرف الفرنسي تمسك بمسألة بقاء وحرية تنقل أفراد الجيش الفرنسي داخل الأراضي التونسية مع تصفية القواعد العسكرية لجيش التحرير الجزائري الموجودة بالأراضي التونسية وأيضًا إخضاع المناطق الحدودية تحت مراقبة لجنة تونسية-فرنسية، تراقب تنقلات الغرباء، أما الطرف التونسي فقد تمسك بضرورة جلاء القوات الفرنسية عن البلاد وأيضَا إدخال القضية الجزائرية في المشاورات من أجل إيجاد حل سلمي لها.

وبالرجوع إلى الموقف الفرنسي؛ فنجد أن الحكومة الفرنسية بدأت تتخوف من التدخل الأمريكي المتزايد في منطقة المغرب العربي، إذ حاول "غايار" أن يبقي أمريكا على الحياد ويحتفظ بمفاتيح الموقف في منطقة المغرب العربي في أيدي الاستعمار الفرنسي، من خلال تقديمه مشروع تحت اسم مجموعة البحر الأبيض المتوسط الدفاعية أمام البرلمان الفرنسي في يوم ٧ مارس ١٩٥٨م[٣٩]، وأثناء انعقاد المجلس الوطني، ألقى "فيلكس غايار "خطابا عقب فيه على المساعي الأمريكية-البريطانية؛ جاء فيه على الأخص ما يلي:"... إن الحل الوحيد للمشكل الذي يواجهنا هو تحقيق مجموعة فرنسا-المغرب، لقد آن الأوان لتحقيق تعاون اقتصادي من اجل استغلال ثروات الصحراء، لقد آن الأوان لأن ننظم مع بلدان البحر الأبيض المتوسط محورا للدفاع المشترك، يمتد من الشمال إلى الجنوب وهذا المحور يعد تتمة طبيعية للحلف الأطلسي وفي هذه المجموعة تستعيد الجزائر الفرنسية مكانتها بعد أن تكون قد تمتعت بحريتها الإدارية التي يضمنها القانون الإطاري[٤٠]..."[٤١].

ويمكن تلخيص مشروع "غايار" في نقطتين أساسيتين هما:

-إبرام اتفاق للتعاون الاقتصادي بين الأقطار الثلاثة المتاخمة للصحراء وهي: ليبيا، تونس، المغرب الأقصى من جهة وبين فرنسا من جهة أخرى.

-إبرام حلف دفاعي خاص بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط يشمل كل من: إيطاليا، إسبانيا إلى جانب فرنسا ودول شمال إفريقيا وتقحم فيه الجزائر رغما عنها حتى تسكت كل الأصوات التي تؤيد الثورة خاصة في تونس وليبيا ومراكش[٤٢].

أما الموقف التونسي؛ فنستشفه من خلال تصريح "الحبيب بورقيبة"، عند استضافته لكل من "هارولد بيلي" و"روبير مورفي"، حيث قال: "...إن مهمتكما ستفشل حتما إذا لم تتطرق بعمق لجوهر القضية وهي مسألة الجزائر..."[٤٣]، هذا فيما يخص القضية الجزائرية أما فيما يخص قبول لجنة المراقبين التابعين لهيئة الأمم المتحدة لمراقبة الحدود التونسية-الجزائرية[٤٤] يكون شريطة أن تكلف هذه اللجنة بإجراء انتخابات في الجزائر وهذا الإجراء غير مقبول من قبل السلطات الفرنسية باعتباره يمس بسيادة البلاد[٤٥]. وبهذا اعتبرت الحكومة التونسية الجهود الأمريكية-البريطانية، لتسوية النزاع الدائر في المنطقة غير ناجعة إلا بعد جلاء القوات الفرنسية عن تونس وتدخل هيئة الأمم المتحدة لصالح حل القضية الجزائرية وبفعل هذه المستجدات رفض الرئيس التونسي، ما جاء به "بيلي" و"مورفي" والذي يقوم على وجود لجنة للمراقبة موجودة في الجزائر بإمكانها أن تتوجه إلى تونس في حالة وجود أي طارئ وذلك لأنه لا يريد أن يضع نفسه في أي موقف يجعله واقفا إلى جانب فرنسا ضد جبهة التحرير الوطني[٤٦].

أما موقف الطرف الفرنسي، فكان الأكثر تصلبا بسبب رفض الجمعية الوطنية، لمشروع حكومة "غايار" حيث ظهرت معارضة عنيفة بين أوساط أعضاءها أدت في الأخير ظهور أزمة سياسية وفي هذا المجال صرح "منديس فرانس" في ١٣ مارس ١٩٥٨م قائلا: "...إن هذا المشروع قد أثار جزعة إذ أنه ينعي فرنسا من مراكز السيطرة في شمال إفريقيا..." كما أعلن السكرتير العام للحزب الاشتراكي الجمهوري "روجر فريس"، معلقا على المشروع، قائلاً: "...إنه يؤدي مباشرة إلى تدويل المشكلة الجزائرية..."[٤٧].

ولا شك أن إثارة هذا الموضوع الدفاعي في هذا الظرف بالذات، كان يعني أن فرنسا إذا كانت تقبل بالهيمنة الأمريكية في نطاق الحلف الأطلسي؛ فإنها غير مستعدة لأن تمتد هذه الهيمنة بشكل مباشر على أقطار المغرب العربي، ومن هنا جاء الرفض الفرنسي لتبعات المساعي الحميدة في الأزمة الفرنسية-التونسية، وأمام تصلب الطرفين دخلت الوساطة الأمريكية-البريطانية في مرحلة خطيرة جدّا خصوصا بعد إيقاف المحادثات بين المسؤولين الفرنسيين ومورفي وبيلي؛ فنلاحظ أن موقف الحكومة التونسية قد تصلب منذ وصول الوسيطين إلى تونس فهي تطالب بان تعترف فرنسا بالسيادة التونسية على قاعدة بنزرت وتطالب بالجلاء التام قبل دراسة مسألة مراقبة الحدود وفرض الحياد على الحدود التونسية-الجزائرية وهذه الحالة تؤدي لا محالة إلى التناقض، ففرنسا تطلب تأسيس لجان حيادية في المطارات قبل الجلاء عنها[٤٨].

ورغم ظهور علامات فشل المساعي؛ إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تيأس بسبب حرصها الشديد على تطويق آثار وانعكاسات مجزرة ساقية سيدي يوسف ومحاولة أيضا استغلالها في إيجاد فتحة لتسريب نفوذها[٤٩] إلى داخل منطقة المغرب العربي ولتجسيد ذلك عملت على ما يلي:

- ترويج أخبار عن طريق الصحف، خلاصتها أن أحد رجلي المساعي الحميدة وهو الأمريكي "روبير مورفي" والذي يعتبر صديقا لفرنسا، كان قد اتصل بمحمد الخامس أثناء زيارة الرئيس الأمريكي "روزفلت" للمغرب في خضم الحرب العالمية الثانية من أجل ترسيخ فكرة أن أمريكا تتفهم مطالب الحركات الوطنية في المغرب العربي وأن هذا التفهم لم يكن وليد الصدفة والظروف التي حفت بحادثة الساقية وبهذا تكون أمريكا قد قدمت بديلا أمريكيا عن الاستعمار الفرنسي في المنطقة.
- تدخل الرئيس الأمريكي "إيزنهاور" شخصيا في الموضوع، إذ أن واشنطن لم تكن لتسمح بفشل مساعيها، ليس فقط للانعكاسات السلبية التي ستترتب على مخططاتها ولكن أيضا لأن القضية كانت تتعلق بالحيلولة دون انجرار الحركات الوطنية المغاربية (تونس- المغرب) إلى صف الثورة الجزائرية[٥٠].

وفي هذا الإطار أرسل "إيزنهاور" رسالة إلى رئيس الحكومة الفرنسي "فيلكس غايار" في ١١ أفريل ١٩٥٨م[٥١]، أكد فيها على ضرورة العودة إلى السلم في إفريقيا الشمالية؛ لارتباط مصالح بلاده بالمنطقة وفي نفس السياق صرح السيد "دلاس" Dulles في بعض التجمعات الشعبية في كل من مدينتي سياتل Seattle وواشنطن Washington ؛ بما يلي: "...إن عام ١٩٥٨م، سيكون أخر عام للحرب في الجزائر وأن الولايات المتحدة الأمريكية، لن تغير نيتها في طرح القضية الجزائرية أمام منظمة الأمم المتحدة، حسب ما تمليه الاعتبارات القانونية..."[٥٢].

ونتيجة لهذه الضغوطات الأمريكية؛ استجاب "فيلكس غايار" إلى مطالب الرئيس الأمريكي وأبدى استعداده لاستئناف الاتصالات مع الحكومة التونسية في نطاق المساعي الحميدة، وبرضوخ "غايار" للضغط الأمريكي ازداد وضعه السياسي حرجا وتأزما؛ خصوصًا بعد أن اتهمه بعض النواب في المجلس الوطني الفرنسي، بالضعف أمام المناورات الأمريكية-البريطانية، وفي نفس الوقت ظهر تيار استعماري متطرف تزعمته قيادة الأركان العسكرية بالجزائر، ما فتئ أن سارع في اتهام الولايات المتحدة الأمريكية بأنها تدعم حركات التحرر في إفريقيا من أجل أن تأخذ مكانة الاستعمار الأوروبي وقد دعم في ذلك موقف بالعودة إلى قضية الفيتنام بهدف مقاومة النفوذ الأمريكي[٥٣]ونتيجة لهذه المواقف، بدأت فرنسا تعيش وضع سياسي داخلي متأزم؛ أدى بالبرلمان في الأخير إلى اتخاذ قرار إسقاط حكومة "فيلكس غايار" في يوم ١٥ أفريل ١٩٥٨م وهو الشيء الذي أدى إلى إفشال المساعي الحميدة لكل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بين فرنسا وتونس[٥٤].

والواضح أن أزمة إقالة الحكومة الفرنسية؛ لم تكن مجرد أزمة وزارية كما كان الشأن سابقا عند سقوط حكومات الجمهورية الرابعة، فوجود حرب الجزائر وتواصلها بعنف وفشل الجيش الفرنسي في القضاء عليها وتزايد بوادر تدويل القضية الجزائرية عالميا، ضاعف من تعميق الأزمة الداخلية الفرنسية حتى أصبحت أزمة نظام، وفعلا لم تلبث الجمهورية الرابعة أن سقطت؛ إذ لم تعمر حكومة "فليملان" التي خلفت حكومة "غايار"، إلا أياما معدودات، لتحل محلها جمهورية خامسة قامت بين مخاوف حرب أهلية في فرنسا وتهديدات الجيش الفرنسي المحارب بالتدخل العنيف والاستيلاء على الحكم بصورة أو بأخرى.

والملاحظ أن هذه الظروف، كانت من وراء اعتلاء الجنرال "شارل ديغول" سدة الحكم كمنقذ لفرنسا في أوائل شهر جوان ١٩٥٨م على إثر الانقلاب العسكري الذي قام به بعض الجنرالات في ١٣ ماي ١٩٥٨م، ونظرا لسمعته بين الدول فقد حاول بسياسته تقزيم الثورة والتقليل من الضغط الدولي المسلط على فرنسا بسبب القضية الجزائرية، فهذه المستجدات دفعت بالحكومة الأمريكية إلى دعم المبادرات الرامية إلى حل القضية الجزائرية إقليميا، معتمدة في ذلك على تصريحات ديغول نفسها؛ القائلة بإقامة حكم ذاتي في الجزائر وحق تقرير المصير.

خَاتِمَةٌ

في نهاية البحث يمكن القول:

- أن قصف الطيران الفرنسي لساقية سيدي يوسف لم يكن مجرد حادثة، بل كان مجزرة مدبرة راح ضحيتها العشرات من النساء والأطفال والشيوخ العزل.
- إن الصدى الإعلامي لهذه المجزرة، كان كبيرًا جدًا، حيث ساهم في التعريف بالقضية الجزائرية لدى العديد من دول العالم، التي سارعت إلى استنكار هذه الحادثة وإعلان تعاطفها مع القضية الجزائرية.
- لقد استفادت تونس من هذه المجزرة المرتكبة على أراضيها، فبفضل المجزرة أثارت الحكومة التونسية فكرة حرب الجلاء من أجل استكمال استقلالها وطرد الجيش الفرنسي المتبقي على الأراضي التونسية داخل القواعد العسكرية، كالمطالبة باسترجاع قاعدة بنزرت.
- لقد فتحت مجزرة ساقية سيدي يوسف الباب أمام، الولايات المتحدة الأمريكية لتجد لها موطئ قدم في منطقة الشمال الإفريقي، من خلال المشروع السياسي مع حليفتها بريطانيا والذي سمي "بالمساعي الحميدة" بهدف حل الخلاف الفرنسي-التونسي.
- لقد أثبتت هذه المجزرة، عقم وفشل السياسة الاستعمارية الهادفة للقضاء على الثورة التحريرية الجزائرية.

لقد أدت هذه المجزرة إلى تعبيد الطريق أمام الجنرال ديغول للوصول إلى الحكم في شهر ماي من سنة ١٩٥٨م.

الهَوامِشُ:

(١) معمر، العايب: "**حادثة ساقية سيدي يوسف فيفري ١٩٥٨م وبداية الاهتمام الأمريكي بمنطقة المغرب العربي**"، حولية المؤرخ، ع٣-٤، يصدرها اتحاد المؤرخين الجزائريين، الجزائر، ٢٠٠٥م، ص٤٧٥- ٤٧٦.

(٢) مركز التوثيق الوطني التونسي: إعلان كتابة الدولة للأخبار والإرشاد، الجمهورية التونسية، يوم:١٩/٠٢/١٩٥٨م، ص١.

(3) Les développements de l'affaire de sakhiet-sidi-youssef, l'entrée de Bizerte interdite aux navires français, le monde, 13-02-1958.

(٤) لمياء، بوقريوة: **العلاقات الجزائرية التونسية ١٩٥٤-١٩٦٢م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران-الجزائر، السنة الجامعية، ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٥) "**السيد المنجي سليم يقابل المستر دالس والمستر همارشولد**"، جريدة العمل، يوم: ١١ فيفري ١٩٥٨م، ص٤.

(٦) للمزيد من التفاصيل حول نص المذكرة التونسية المقدمة إلى هيئة الأمم المتحدة، ينظر: المنصف بن فرج: ملحمة النضال التونسي الجزائري من خلال حوادث ساقية سيدي يوسف، تق: الهادي البكوش، مطبعة المغرب للنشر، الشرقية-تونس، ٢٠٠٦م، ص ٦٢-٦٣.

(٧) مركز التوثيق الوطني التونسي: إعلان كتابة الدولة للأخبار والإرشاد، الجمهورية التونسية، المصدر السابق، ص١.

(8) "Paris recherche une formule de contrôle de frontière Algéro-tunisienne", la presse, 28/02/1958.

(9) M. Gaillard à MM. Bons offices, Non-ingérence signifie contrôle efficace de la frontière Algéro-Tunisienne", la presse, 29/03/1958.

(10) "Bourguiba neveux pas d'observateur de l'O.N.U. a la frontière Algérienne", paris journal, 05/04/1958.

(١١) بشير، سحولي: **الثورة الجزائرية وعلاقاتها بالعالم العربي ١٩٤٥-١٩٦٨م -تونس نموذجًا-**، ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس-الجزائر، ٢٠٠٨-٢٠٠٩م، ص ١٩٥.

(١٢) حبيب حسن، اللولب: **التونسيون والثورة الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢م**، دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر-الجزائر، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م، ص ٢٧٤.

(١٣) **بلاغ من كتابة الدولة للشؤون الخارجية، كتابة الدولة للأخبار والإرشاد**، الجمهورية التونسية، ينظر: مركز التوثيق الوطني التونسي: قسم الحركة الوطنية، أحداث ساقية سيدي يوسف ١٩٥٨م، العلبة رقم:٠٢، الملف رقم:٠٣، ردود الفعل، تقرير كتابة الدولة للأخبار والإرشاد، الجمهورية التونسية، ١٧ فيفري ١٩٥٨م. ص٢.

(١٤) الهادي، البكوش: **الاعتداء الفرنسي على ساقية سيدي يوسف الوقائع والأحداث**، تر: أحمد العايد ومحمد بلحاج، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، جامعة منوبة-تونس، ٢٠٠٨م، ص ٥٣.

(١٥) "**مجلس الأمن سيجتمع يوم الثلاثاء المقبل لبحث العدوان الفرنسي على تونس**"، جريدة **الأيام**، ١٧/٠٢/١٩٥٨م.

(16) "Le groupe AFRO Asiatique se réunit", La dé pèche, 14/02/1958 , p01.

(١٧) "**تونس تشكو فرنسا إلى مجلس الأمن**"، جريدة الشعب، ١٧/٠٢/١٩٥٨م.

(١٨) "**مجلس الأمن الدولي ناقش الشكوى التونسية ضد فرنسا**"، جريدة **الأيام**، يوم:١٩/٠٢/١٩٥٨م.

(19) "Le débat au conseil de sécurité sur le litige franco-tunisien, le petite matin", 19/02/1958, p8.

(٢٠) "**تونس وفرنسا تقبلان وساطة أمريكا وبريطانيا، نشاط دبلوماسي في العواصم الأربع قبل انعقاد مجلس الأمن**"، جريدة **الأهرام**، يوم: ١٨/٠٢/١٩٥٨م.

(21)"Le débat au conseil de sécurité sur le litige franco-tunisien, L'opinion Américaine, le petite matin",19/02/1958,p8.

(٢٢) "**مجلس الأمن الدولي ناقش ...**"، جريدة **الأيام**، المصدر السابق.

(٢٣) "**تونس تسحب شكواها من مجلس الأمن إذا سحبت فرنسا قواتها من الأراضي التونسية**"، جريدة **الأهرام**، يوم: ١٩ /٠٢/١٩٥٨م.

(٢٤) نعني بالمساعي الحميدة؛ ذلك العمل الودي من طرف محايد مع أطراف النزاع والذي يسعى إلى التقارب بين المتنازع وجرها إلى محاولة إقامة محادثات أو استئنافها إذا كانت متوقفة وهذا النوع من التدخل، يحترم سيادة الدولة ولا ينتج أي التزام على عاتق الأطراف، فهو اختياري بالنسبة للطرف الذي يسعى وكذلك حتى بالنسبة للأطراف المتنازعة التي لها كامل الحرية في قبول تلك المساعي الحميدة. ولقد أكدت اتفاقية لاهاي سنة ١٩٠٧م؛ على صفة الشرعية لهذا الإجراء، مؤكدة أن حق عرض المساعي الحميدة، لا يمكن إلا في كونه عمل ودي لا غير، لأن المساعي الحميدة؛ ليست وسيلة حل بل هي توطئة للمحادثات أو لأية وسيلة أخرى لحل النزاعات؛ للمزيد من التفاصيل حول كيفية تطبيق المساعي الحميدة وأسسها؛ ينظر: مختار، بسكاك: **حل النزاعات الدولية على ضوء القانون الدولي**، مذكرة ماجستير، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة وهران-الجزائر، ٢٠١١-٢٠١٢م، ص ٧٥-٧٩.

(٢٥) عبد الكريم، بلخيري: **العلاقات الأمريكية الجزائرية ١٩٥٤-١٩٨٠م توازن بين المصلحة والمبدأ**، تر: سمير حشاني، دار الكرامة للطباعة والنشر والاتصال، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص١٠٧.

(26) Lorin James, Anderson: **The 1958 good offices mission and its implications for French- American relations Under the Fourth Republic**, Master of Arts in History, Portland State University, presented November 30, 1970, p38.

(٢٧) معمر، العايب: **العلاقات الفرنسية الأمريكية والمسألة الجزائرية ١٩٤٢-١٩٦٢م**، دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان-الجزائر، ص١٩٣.

(٢٨) مريم، الصغير: **"القضية الجزائرية في المنظور السياسي الأمريكي"، حولية المؤرخ**، ع٥، مجلة دورية يصدرها اتحاد المؤرخين الجزائريين، الجزائر، ٢٠٠٥م، ص-ص ١٩٠-١٩٦.

(٢٩) الشاذلي، زقادة: **الحرب الباردة وانعكاساتها على الثورة التحريرية الجزائرية ١٩٥٤-١٩٦٢م**، ماجستير تخصص علوم سياسية فرع العلاقات الدولية، قسم العلوم السياسية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة الحاج لخضر، باتنة –الجزائر، ٢٠١١-٢٠١٢م، ص ٧٩.

(٣٠) مسعود، الجزائري: **مشاريع ديغول في الجزائر**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة-مصر، (د-ت)، ص٢٧.

(31) **"La position Française Après L'acceptation des Bons offices Anglo-U.S", le petit matin**, 19/02/1958, p2.

(32) Lorin James ,Anderson : op.cit, p-p 43-44.

(٣٣) مركز التوثيق الوطني التونسي: قسم الحركة الوطنية، أحداث ساقية سيدي يوسف ١٩٥٨م، العلبة رقم:٠٢، الملف رقم:٠٢، المواقف الدبلوماسية والصحافية، **الوساطة لا تمس المشكل الجزائري ولا قاعدة بنزرت**، نشرة الإذاعة، تونس، ص٢.

(٣٤) معمر، العايب: **العلاقات الفرنسية الأمريكية...**، المرجع السابق، ص١٩٤.

(٣٥) مركز التوثيق الوطني التونسي: **الوساطة لا تمس...**، المصدر السابق، ص٢.

(٣٦) الهادي، البكوش: المرجع السابق، ص ٥٤.

(37) **"Tunis: recors possible aux nations unies, mais Bourguiba lance un appel an calme", l'aurore**,10/02/1958.

(٣٨) الهادي، البكوش: المرجع السابق، ص٥٥.

(٣٩) مسعود، الجزائري: **المرجع السابق**، ص ٣٥.

(٤٠) القانون الإطاري: هو قانون وضعته حكومة "بورجيس مونري"، التي خلفت حكومة "غي مولي" عام ١٩٥٧م والخطوط الأساسية لهذا القانون مستمدة من مشروع يحمل نفس الاسم، كان وضعه "غاستون ديفي" عام ١٩٥٦م بوصفه وزيرا لأقطار ما وراء البحار، لكي يطبق على البلدان الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء حتى لا تصاب بعدوى حرب الجزائر.

(٤١) إبراهيم محمد، الميلي: **"النضال المشترك في الحقل الجماعي المغاربي"، مجلة الذاكرة الوطنية**، مجلة نصف سنوية تعنى بتاريخ حركات التحرير الوطني، عدد خاص، تصدرها المندوبية السامية بالتعاون مع المجلس الوطني المؤقت لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الصومعة، الرباط-المغرب، ٢٠٠٢م، ص-ص ٣٣٤-٣٣٥.

(٤٢) معمر، العايب: **"حادثة ساقية سيدي يوسف..."**، المرجع السابق، ص ٤٧٣.

(٤٣) معمر، العايب: **العلاقات الفرنسية الأمريكية...**، المرجع السابق، ص١٩٤.

(٤٤) مركز التوثيق الوطني التونسي: قسم الحركة الوطنية، أحداث ساقية سيدي يوسف ١٩٥٨م، العلبة رقم:٠٢، الملف رقم:٠٢، المواقف الدبلوماسية والصحافية، **التقارب في وجهات النظر التونسية الفرنسية حول النزاع القائم بين الحكومتين**، محطة باريس، ص١.

(٤٥) لمياء، بوقريوة: **العلاقات الجزائرية التونسية...**، المرجع السابق، ص٢٤٦.

(٤٦) مركز التوثيق الوطني التونسي: أحداث ساقية سيدي يوسف ١٩٥٨م، العلبة رقم:٠٢، الملف رقم:٠٢، المواقف الدبلوماسية والصحافية، **المساعي الحميدة**، أنباء الرباط، قسم الحركة الوطنية، ص١-٢.

(٤٧) مسعود، الجزائري: المرجع السابق، ص٣٥.

(48) **"Bourguiba ne veut pas d'observateurs de L'O.N.U a la frontière Algérienne", Paris journal**, 05/04/1958.

(49) **"Pas de contre-propositions Tunisiennes sur le contrôle de la frontière, Tunis : il dépend des U.S.A et de l'Angleterre que les Bons offices continuent ou échouent", la presse**, 06/04/1958.

(٥٠) إبراهيم محمد، الميلي: **المرجع السابق**، ص-ص٢٣٠-٢٣١.

(51) Lorin James ,Anderson : op.cit, p53.

(52) **Hartmut, Elsenhans** :La guerre d'Algérie 1954-1962. La transition d'une France à une autre, le passage de la IVème à la Vème République, **Editeur publisud , paris, 1999, p 144.**

(٥٣) إبراهيم محمد، الميلي: **المرجع السابق**، ص ٣٣٦.

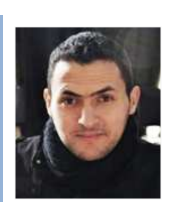
(٥٤) لمياء، بوقريوة: **العلاقات الجزائرية التونسية... المرجع السابق**، ص-ص ٢٤٦-٢٤٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

دراسات

الكتابات التاريخية في الحركة الوطنية الجزائرية
المقاومة والدعوة إلى وحدة المغارب (١٩٢٠-١٩٥٤)

د. بن عبد المومن إبراهيم
أستاذ التاريخ - قسم العلوم الإنسانية
جامعة العربي بن مهيدي
أم البواقي - الجمهورية الجزائرية



مُلَخّصْ

إن سياسة التشويه التاريخي التي اعتمدتها فرنسا في مستعمراتها وقف ورائها أخصائيون ومؤرخون وعلماء آثار فرنسيون، فبالإضافة إلى هدم المنشآت الفكرية وطمس المعالم الدينية، ابتدعوا أفكار أخرى كان هدفها محو كل ما هو قيّم في مستعمرة الجزائر ومحميات بلاد المغارب، فقالوا بتأخر الحضارة الأمازيغية أحيانًا، وأصولها الآرية أو الأوروبية أحيانًا أخرى، مدعمين وجهة نظرهم بالتواجد الروماني المسيحي القديم في شمال إفريقيا، وواصفين الشعوب الأمازيغية تارات أخرى بالتوحش والتفرق والصراع والهمجية، هذا واعتبروا الفتح الإسلامي غزوًا عربيًا لم يعدّ بالفائدة على بلاد المغرب، وقد ذهب وراء تلك الكتابات والإشاعات العديد من المثقفين الجزائريين، وطلبة الجامعات، وحتى الأهالي الجزائريون، لذلك ظهرت طبقة مثقفة حملت على عاتقها لواء المقاومة والرد على مزاعم الفرنسيين. ومن منطلق أن الكتابة التاريخية كانت وما زالت تُعَدّ أهم وسيلة من وسائل المقاومة، والحفاظ على أسس ومقومات الشخصية الوطنية لمختلف شعوب العالم، لذلك سنحاول من خلال هذه الدراسة تقديم إطلالة موسعة على أهم الأقلام الجزائرية التي بصمت على حضورها في هذا المجال زمن الاحتلال الفرنسي، مؤكدة على أن الجزائر دولة عريقة موحدة من القدم، وتنتمي إلى الفضاء الطبيعي والروحي لها، ألا وهو المجال المغاربي الذي ينتمي بدوره إلى العالم العربي والإسلامي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٧ يونيو ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ أغسطس ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

التاريخ؛ التأريخ؛ الوحدة؛ المقاومة؛ المغرب العربي؛ الأمة العربية الإسلامية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055847

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بن عبد المومن إبراهيم. "الكتابات التاريخية في الحركة الوطنية الجزائرية: المقاومة والدعوة إلى وحدة المغارب (١٩٢٠-١٩٥٤)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص ٩٣ – ١٠٦.

مُقَدِّمَة

إن سياسة التشويه التاريخي التي اعتمدتها فرنسا في مستعمراتها وقف ورائها أخصائيون ومؤرخون وعلماء آثار فرنسيون، فبالإضافة إلى هدم المنشآت الفكرية وطمس المعالم الدينية، ابتدعوا أفكار أخرى كان هدفها محو كل ما هو قيّم في مستعمرة الجزائر و محميات بلاد المغارب، فقالوا بتأخر الحضارة الأمازيغية أحيانا، وأصولها الآرية أو الأوروبية أحيانًا أخرى، مدعمين وجهة نظرهم بالتواجد الروماني المسيحي القديم في شمال إفريقيا، وواصفين الشعوب الأمازيغية تارات أخرى بالتوحش والتفرق والصراع والهمجية، هذا واعتبروا الفتح الإسلامي غزوا عربيا لم يعدّ بالفائدة على بلاد المغرب، وقد ذهب وراء تلك الكتابات والإشاعات العديد من المثقفين الجزائريين، وطلبة الجامعات، وحتى الأهالي الجزائريون، لذلك ظهرت طبقة مثقفة حملت على عاتقها لواء المقاومة والرد على مزاعم الفرنسيين وإثبات أن للمغرب الكبير تاريخًا كبيرًا، وحضارات مزدهرة، وتاريخا مشرقا كتب بأحرف من ذهب، فحاولت هذه الأقلام الجزائرية الشابة والغيورة إعادة كتابة التاريخ

الجزائري والمغاربي من جديد، وسعت لتفنيد ما جاء في الدراسات والكتابات الغربية، وأكّدت على أن الجزائر ليست فرنسية لأنها ببساطة جزء لا يتجزأ من بلاد المغرب العربي الكبير[١]، الذي هو بدوره قطعة حيوية منتمية إلى العالم العربي الإسلامي؛ لذلك نسعى جاهدين من خلال هذا المقال أن نسلط الضوء على أهم الانتاجات الفكرية والعلمية التاريخية التي ساهمت في صدّ مزاعم الفرنسيين، وأثبتت أن الجزائر دولة تنتمي إلى العائلة المغاربية والإسلامية وليس للعائلة الأوروبية كما يشاع، فيا ترى ما فحوى هذه الكتابات؟ وإلى أي مدى ساهمت في التصدي للمخططات التقسيمية الفرنسية؟ وكيف تصدت للمدرسة الكولونيالية التغريبية؟

يرجع الدكتور سعد الله أن المفهوم السياسي للتاريخ في الجزائر ظهر ربما لأول مرّة على يد الأمير خالد فقد الذي استشهد في خطبه وعرائضه بتاريخ جدّه الأمير عبد القادر، وبكفاح الجزائريين خلال القرن١٩م، ويقول الراحل أبو القاسم سعد الله في هذا: "يظهر أن التغيّر الهام في مفهوم التاريخ وتقنياته قد ظهر مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وكان ذلك مرتبطا بظهور الحركة الإصلاحية من جهة، والحركة الوطنية (=المطالب السياسية) من جهة أخرى، فكانت جهود ابن باديس في الأولى، وجهود الأمير خالد في الثانية"[٢]، لذلك وفي فترة ما بين الحربين، ومع خضم التحول الذي عرفته الحركة الوطنية، ظهر مؤرخون جزائريون قادتهم الغيرة الوطنية مثّل غالبيتهم الحركة الإصلاحية من أمثال: "مبارك الميلي، وأحمد توفيق المدني، إذ حاول هؤلاء كتابة تاريخ يشمل كلّ الحقب من العهد الفينيقي-البربري القديم إلى غاية الفترة المعاصرة، مع تفضيل الارتباط بالشرق الإسلامي والطابع المغربي-الإسلامي للجزائر، ردّا على الأيديولوجية الاستعمارية التي اجتهدت في إيجاد أسباب الوجود الفرنسي..."[٣].

أولاً: الفرنسيون وكتابة تاريخ الشمال الإفريقي

١/١-سياسة التشويه التاريخي

لن نتجرأ على اتهام الكلّ، والتقزيم من سمعة كل الباحثين والدارسين الأجانب والفرنسيين بالخصوص، واتهامهم بالإجحاف أو التقصير والتشويه، لأننا قبل كلّ شيء أمام ظاهرة اسمها الاستشراق، ولعل وقفة تأملية بسيطة لواقع الاستشراق والمستشرقين، قد تنير لنا الطريق حول ما نريد أن نقول في هذا العنصر، لكي نكون حذرين من مغبة الوقوع في حكم لم نحتط له جيّدا، فالاستشراق حسب الدكتور ناصر الدين سعيدوني "ظاهرة ثقافية نتجت أساسا عن توسع آفاق المعرفة الأوروبية، ومحاولة العقل الغربي فهم الآخر، والتعامل معه أملا في احتوائه، وتوجيهه، ثم الهيمنة عليه"[٤]، فإنتاج المستشرقين حسبه ينطلق من نظرة موسوعية للثقافة الإسلامية، ويلتزم بالشروط الأكاديمية في البحث التي تقوم على التعمق في تناول المواضيع، ويتوفر على روح المبادرة الفردية، وضمان حرية البحث[٥].

فيمكننا القول بأن إيجابيات الاستشراق، وحتى الدراسات التي قام بها باحثون أو مهتمون مدنيين كانوا أو عسكريين كثيرة جدًا، فلقد تركت لنا هذه الدراسات حقيقة تراكمًا معرفيًا كبيرًا ليس من السهل تحصيله اليوم، ولكن مع ذلك لم تخلو تلك الدراسات من سلبيات ونقائص ووصولاً إلى اجحافات، وتشويهات عن قصد، وعن غير قصد للتاريخ الإسلامي عمومًا والمغاربي خصوصا، فكتابات المستشرقين لم تكن تعدو في العديد منها كتابات السائح الغريب، أو المستكشف الجاهل بحقائق الأشياء، وهي في العادة نظرة من الخارج، تهدف إلى تكوين صورة عن العالم الإسلامي حسب الرؤية الغربية، مما جعلها تخرج باستنتاجات لا تتماشى مع المعطيات التاريخية، ولا تعبر عن المناخ الحضاري للأمة الإسلامية، لأنها تنطلق من قيم أوروبية، وليس من خصوصيات الحضارة الإسلامية، وهو ما جعل هذه الدراسات الاستشراقية تغض الطرف عن وحدة الأمة، وتركز على خصوصيات الشعوب وهوية الجماعات والأفراد[٦]، وهو ما أفقدها النظرة الموضوعية في كثير من الأحيان ، ومع ذلك فإنه في رأينا لا يجوز لنا أن نسود كل شيء والعكس، ولكن ما يجب أن نقوله، هو أن الفرنسيين خاصة تعاملوا مع الحالة الجزائرية بطريقة جد مميزة في كتاباتهم، لأنهم كانوا أولا وقبل كل شيء، يعتبرون الجزائر قطعة فرنسية، لذلك كان السعي من أجل كتابة تاريخها ممنهجًا ومدروسًا، وبالتالي العمل على رسم خطة طريق للذهنية التي سيكون عليها الإنسان الأهلي(indigène) بعد عقود.

٢/١-نفي صفة الأمّة عن الجزائر

منذ وطأت أقدم الاحتلال الفرنسي أرض الجزائر كان لا بدّ من السعي لمحو شيء اسمه الدولة الجزائرية من الوجود، واحلال نظام جديد محلّ ذلك، لكي لا يكون هناك تفكير في المقاومة، وانشاء دولة جديدة على أنقاض الدولة المفقودة، لذلك ومنذ دخول الفرنسيين

إلى الجزائر فإنهم سعوا إلى تحطيم تاريخ الأمّة الجزائرية، بل وتاريخ وكل شعوب المغرب القديم، وتحكم الفرنسيون في المدرسة التاريخية الجزائرية، "إلى حد يدفع إلى الجزم بأن لا أحد يستطيع اليوم وفي المستقبل القريب أن يحرر دراسات ما قبل تاريخ المغرب من قبضة أساتذة جامعة الجزائر الاستعمارية"[٧]، لذلك دائمًا ما حاولوا تزوير التاريخ المغاربي القديم، ومن ثم الجزائري لإحداث قطيعة تامة مع ماضيه وهويته التي انصهرت عبر العصور، فأصبحت تسمى الجزائر الفرنسية المتكونة من ثلاث عمالات لا أكثر ولا أقل، وأي محاولة لنفي هذه الفكرة كانت تقابل بالقوة، والكتم، وحتى القتل.

ولكن يجب أن نقول بأن عملية التجهيل بدأت من خلال دراسة التاريخ العربي والإسلامي، والاضطلاع على سر القوة التي تمتعت بها الحضارة الإسلامية عبر العصور، ومن ثم العمل على بتر تاريخ الشعوب المستعمَرة وخاصة الجزائر، لذلك لن نحصي أبدًا كمية الدراسات الفرنسية المنجزة حول تاريخ العرب والمسلمين عامة والشمال الإفريقي بالخصوص، فكل المصالح الإدارية والعسكرية والمدنية كانت تقريبا تعدّ بحوثا وتقارير عن الجزائر، وتحاول تطوير وتحيين تلك الدراسات كل مرة بالرجوع إلى المصادر، والمراجع الأجنبية والعربية السابقة التي اشتغلت عليها المصالح السابقة في الهياكل الإدارية والحكومات المتعاقبة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر الجمعيات الجغرافية والأثرية التي كانت تنشط في العمالات مثل وهران والجزائر وقسنطينة مثلاً[٨]، كما نذكر مركز المعلومات والدراسات(CIE)، الذي كان دائما ما يقوم بدراسات تاريخية معمقة، وقد اضطلعنا على عديد تلك الدراسات خلال بحوثاتنا في دور الأرشيف الجزائرية، فعلى سبيل المثال لا الحصر وقفنا على دراسة بعنوان "بيبليوغرافية العالم الإسلامي"، تطرقت لحياة العرب والأمازيغ في العالم الإسلامي، وأشارت إلى عديد الدراسات، والكتب، والمجلات التي وجب الرجوع إليها، في حال القيام ببحث حول ذلك[٩].

لذلك لم تخل هذه الدراسات من إنقاص وتشويه لتاريخ الجزائر، وشخصياتها، وأدبها، وتراثها، فقد حاول المؤرخون الاستعماريون أن يشوهوا تاريخ ساكنة الشمال الإفريقي بوصفهم بالوحشية والهمجية فكتب بيكار يقول أن: "لا مانع من القول بأن الرّجل الإفريقي متمرد على النشاط التقني بطبعه"[١٠]، كما يقول غوتييه في كتابه "العصور المظلمة للمغرب": "ها هو بلد لا يوجد له اسم معروف عالميًا، ما دمنا مضطرين إلى تحديد اسم له. ذلك لم يكن له وجود سياسي متميز، وبناء على ذلك لم يكتب تاريخه"[١١].

وذهبت جريدة لعمال السكك الحديدية بالقول إلى أن "الإنسان الأهلي ينتمي إلى سلالة دنيا... ولا يمكن أن يصعد بنفسه من خلال جهوده الخاصة ليكون في مستوى الأوروبي... ذلك أن الأهلي هو انسان غشاش، وقذر، ولصّ، ومكار، وجحود... إذن فإهانته هي التي تعلمه أن يصبح طائعًا ومتحضرًا"[١٢]. وقد راح موريس طوريز في هذا الطرح أيضا في خطاب له بتاريخ١١فيفري١٩٣٩، حينما قال بأن الجزائر أمّة في طور التكوين" معتبرًا أن الأمة الجزائرية لم تتشكل بعد لعدم توفر الشروط والمقومات التي حددها ستالين في نظرته القومية، واستدل موريس طوريز في ذلك بوجود ٢٠ عنصر أو عرق بشري في الجزائر، قائلاً بأنه لا يمكن لأي عرق أن يفكر في السيطرة على الجزائر بدعوى أنها أرض أجداده"[١٣]، ومن هكذا نصوص وتصريحات، نلحظ كيف أن الاستعمار لعب على أوتار الهوية الجزائرية(=المغاربية)، وجعلها حقلاً تنظيريًا لسيكولوجيته الاستعمارية، التي كانت تهدف إلى التشكيك في أصول الساكنة المغاربية أولا، ونفي فاعليتهم الحضارية ثانيًا[١٤].

كما أن الدارس لعديد الكتابات يجد أنها نفيت تقريبا جميع معالم الحضارة والتطور أو حتى التقدم الزراعي والفلاحي بالنسبة للساكنة المحلية المغاربية، فلطالما فسّر الفرنسيون أن سبب نجاح سكان المغرب القديم في الزراعة أو الملاحة، إنما مرده إلى الفينيقيين والقرطاجيين، والفترات الاقتصادية الزاخرة التي عرفوها كانت بسبب الرومان قديما والفرنسيين حديثًا[١٥].

٣/١-تشويه تاريخ العرب والعروبة والإسلام

راحت الكتابات التاريخية الفرنسية تشوه صورة العرب والمسلمين الذين فتحوا الشمال الإفريقي وانتزعوه من أيدي الروم، فقد غالى عديد المؤرخين ذوو القراءات الاستعمارية في ذلك، وأكدوا على أن السكان البربر الأصليين لم يقبلوا بالإسلام ولا بالعروبة، ودخلوا فيه بحد السيف على حد تعبيرهم، فهذا وليام مارسي يقول في إحدى كتاباته: "... في كلتا الحالتين غزا المشرق هذا الجزء من الغرب"[١٦].

فالأحكام التاريخية التي أطلقت على الفترة الإسلامية في الجزائر، وعموم الشمال الإفريقي، كانت تقول بأن تلك المرحلة هي مرحلة فوضى، وتخلف،

وتفكك، وجمود فكري، معتبرة أن الزحف العربي الهلالي إلى المغرب في القرن الحادي عشر الميلادي كان استعمارًا، ولم يخلف إلاّ البداوة، بأن أتى على الحواضر العلمية والفكرية بالجزائر[١٧]، وفي هذا المجال اعتبر "غوتييه" أن الازدهار الروماني في شمال افريقيا توقف بسبب العرب وليس بسبب الوندال والبيزنطيين[١٨]، وأن الجزائر ماهي إلا جزء لا يتجزأ من الغرب الأوروبي، وقد عاشت عصورا مظلمة تحت حكم المستبدين المشارقة المسلمين، قبل أن يعيدها الفاتحون الفرنسيون المتحضرون والإنسانيون إليهم[١٩]، والكتابات الفرنسية الممنهجة والمدروسة، كانت تقول بتخلف المرجعية الإسلامية التي انعكست سلبا على سلوك الإنسان العربي، فالعرب المسلمون لهم صفات هجينة، وسمات توارثوها أبا عن جدّ من دينهم، والمجتمع العربي في منظور "أ. بوميل": "ذلك المجتمع كما كان قديما، وكما وجدناه في السهول الكبرى للجزائر، فهو رهين الجمود، وغير قادر على الإنتاج الفكري...وهي صفات ملازمة له"[٢٠].

وطرح الفرنسيون بالمقابل بديل الحضارة الرومانية، حينما حاولوا إحياء كنيسة افريقيا الرومانية منذ دخولهم إلى الجزائر، ومنها الاحتفالات المئوية الاستفزازية سنة ١٩٣٠، واحتفاليات سنة ١٩٣٩، التي كانت تعمل تحت شعار:" إن العرب لا يطيعون فرنسا إلاّ إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين"[٢١].

وحتى عندما كانوا يقفون أمام عقدة واشكالية كيفية استطاعة الجنس العربي الذي تربي في الجزيرة العربية إيصال رسالته إلى مختلف الأمصار، فإنهم كانوا يحاولون اختلاق مبررات وحجج لذلك، فقد اعتبر "رينان" أن ذلك كان منعطفًا تاريخيًا أو مجرد قدر اتسم بالسلبية لا غير فيقول: "شاءت العوارض التاريخية أن تصبح الديانة الإسلامية ملكية لأجناس مندفعة إلى التعصب على غرار الإسبان، البربر، الفرس، الأتراك، لقد اتخذت تحت هذه الأيدي الجديدة، ملامح دوغماتية وقطعية عقائدية، تتميز بالتقشف والإحصاء... بمرور الزمن صارت الديانة الإسلامية تزداد انفلاتا من التبعية للجنس العربي، وهو جنس ارتيابي"[٢٢]، كما صرح المستشار غاسير(gasser)، بأن الجزائري سيبقى متخلفا ما بقي بالإسلام متمسكًا، ولن يتطور الجزائري مادام مسلمًا، لأن الدين الإسلامي غير متلائم مع التطور"[٢٣].

فكل شيء أصبح في الجزائر الفرنسية يسخر من العرب، والإنسان العربي، ووصل ذلك إلى تشويه صورة الرسول "محمد عليه الصلاة والسلام"، فقد كانت تصدر مجلات وجرائد، مثل سلسلة "كاقايوس"، وتفرد قصص مخصصة لذلك، فأحمد أو محمّد، هو شخص غبي، وساذج، وقذر، وهمجي، أما "فاطمة" فهي قليلة أدب، لذلك فإن الشيء العربي دائما ما يتميز بالسوء ومجلب للضحك، وهو وحشي، وفقير، وغشاش، وشهواني، كما أن العمل العربي أو الحكاية العربية يتميزان بالرداءة ويفتقدان للجمالية [٢٤].

ثانيًا: الكتابة التاريخية الجزائرية: المقاومة والدعوة إلى الوحدة المغاربية في إطار الأمة العربيبة الإسلامية

٢/١-عملية التأريخ عند رجال الإصلاح

إن السياسات الفرنسية الثقافية المنتهجة في الجزائر، وعملية التشويه التي طالت التاريخ الجزائري لقرون، استدعت من النخب الوطنية والفكرية الجزائرية وقوفا مستميتا من أجل رد الاعتبار إلى التاريخ المشوّه من قبل المدرسة الفرنسية، ولعل الحركة الإصلاحية بعلمائها ومثقفيها كانت سباقة في هذا المجال، فحمل رجالها همّ البحث والتنقيب في المكتبات، ودور المخطوطات من أجل التحصّل على المادة المعرفية الأولى أو الخام، ومن ثم تمحيصها والتحقيق فيها، وتقديمها للقارئ في أساليب سهلة ومبسطة[٢٥]، وفيما يلي سنتعرض لأهم تلك الكتابات.

(٢/١) ١-أحمد توفيق المدني (رائد المدرسة التاريخية المغاربية):

من بين الشخصيات التي أعطت دفعا قويا للمدرسة التاريخية الجزائرية والمغاربية عموما أحمد توفيق الندني، الرجل الذي عاصر ونشط كل المراحل ابتداءً من الحركة الوطنية إلى الثورة وصولا لمرحلة ما بعد الاستقلال، فقد اشتغل في فترة حرجة جدا من تاريخ الجزائر، فمنذ العام ١٩٢٥ نشط في إخراج عديد الإنتاجات التاريخية، وصدر ذلك في عديد المجلات والجرائد، ومنها ما طبع على شكل كتب [٢٦].

ويقول الدكتور عبد الكريم بوصفصاف رحمه الله عن شخص المدني[٢٧]: "لعل المؤرخ الجزائري الذي جمع بين الذاتية الجزائرية والإقليمية المغاربية في كتاباته التاريخية، هو أحمد توفيق المدني، كاتب القطرين، وهو من طلائع المؤرخين الجزائريين الذين بدأوا يبحثون في التاريخ قديما وحديثا ومعاصرا في

العشرينات"، واعترافا بدوره الهام أيضًا كتب الدكتور عبد المالك مرتاض منوّها يقول[٢٨]: "يجب أن يعده التاريخ أحد المؤرخين الجزائريين، الذين قامت على أكتافهم النهضة التاريخية في وطننا خلال فترة عصيبة جدًا، فلم يكد يفتر عن البحث في القضايا التاريخية التي تتصل بالشعب الجزائري منذ أن بدأ هذه البحوث سنة ١٩٢٥...فإن فضل المدني على التاريخ الوطني الجزائري إذن عظيم"، كما تقول فيه الدكتورة أنيسة بركات درار: "...من الرواد القلائل الذين رافقوا سير الحركات السياسية والإصلاحية والثورية بالشمال الإفريقي...إنه كاتب ممتاز وخطيب مصقع، له مؤلفات قيمة في التاريخ والجغرافيا وله مقالات شيقة في مناهضة الاستعمار..."[٢٩]. ويعرف أحمد توفيق المدني التاريخ قائلا: "التاريخ في نظري عرض وتحليل وتعليل وحكم، فالمؤرخ الحق إنما هو حاكم نزيه، حرّ الضمير، يدرس الوثائق والمستندات، ويستخرج الحقائق من بين النصوص، ويستمع بإمعان إلى ما يقوله هؤلاء وما يقوله هؤلاء، ثم ينظر الملابسات ويدرس المحيط، فإذا ما أسفر أمامه وجه الحق ناصعا أصدر حكمه عادلا لا عاطفة، ولا رياء، ولا محاباة"[٣٠].

والحق أن هذا المؤرخ بحث في كثير من المواضيع التاريخية المتفرقة، وهذا ليس معناه أنه حاول أن يجوب بفكره مجاهل التاريخ الإنساني العام، فذلك مالم يكد يتاح لمؤرخ جزائري في النصف الأول من القرن العشرين، إنما معناه أن الرجل كان ولعا بالدراسة التاريخية التي تتصل بالجزائر إذ أنه من العسير على أولئك المؤرخين الجزائريين أن يصرفوا وجهتهم إلى التاريخ الإنساني العام، من حيث أن تاريخهم نفسه بحاجة إلى البعث والإحياء، حيث أن تاريخ الجزائر كتب من وجهة نظر واحدة، وهي استعمارية بحتة، حيث كلف المستشرقون وغير المستشرقين من الفرنسيين وغيرهم بكتابة هذا التاريخ [٣١]. فالمدني بذلك حرر مؤلفات جد قيمة، فتحت آفاقا عريضة وواسعة، شكلت قطيعة كاملة بالنسبة للمنشورات التقليدية في ميدان تاريخ الجزائر والمغرب العربي، وأثبت من خلال هذه الكتابات أن الجزائر هي جزء مغاربي وإفريقي وعربي إسلامي، ويمكننا تتبع أعماله على النحو التالي:

- تقويم المنصور:

جاء في شكل مجلة، وشمل خمسة أجزاء، أصدرت الثلاثة الأولى منه بتونس بداية من العام ١٩٢٢، وأصدر الجزأين الرابع والخامس في الجزائر سنوات ١٩٢٦-١٩٢٧[٣٢]، ويقول عنه المدني: "كانت مادته العلمية غزيرة، ومادته الأدبية وافرة، وقد ضمنته بحوثًا ضافية ممتعة عن المدنية العربية وعن العالم الإسلامي، وكان اقبال الشعب عليه عظيمًا، خاصةً بالقطر الجزائري" وقد حجزت نسخه في كل من الجزائر والمغرب، ورفض تداوله [٣٣]، وقد كتبت الشهاب عن المؤلف تقول: "أهدى إلينا صديقنا الكريم الكاتب الشهير السيد أحمد توفيق المدني نسخة من تأليفه النفيس –تقويم المنصور- الذي كنا قد نوهنا به قبل صدوره، فكان فوق ما نوهنا علم حي، وأدب غض، وتاريخ قومي ومختارات نفيسة، وقطع فائقة في ستة عشر بابا..."[٣٤].

- قرطاجنة في أربعة عصور:

صدر عام١٩٢٧ بتونس، تناول تاريخ إفريقيا الشمالية خلال أربعة قرون تحت حكم قرطاجنة، وعن دوافع تأليف هذا الكتاب ذكر المدني أنها جاءت استجابة لإرادة بعض أقطاب الحركة الإصلاحية [٣٥]، بحيث طُلب منه الردّ على مزاعم بعض الكتاب الغربيين والفرنسيين، الذين قاموا بدعاية مشوهة لهوية وأصالة منطقة المغرب العربي [٣٦]، ويقول المدني عن الكتاب: "أنجزت تحرير الكتاب وتنقيحه وتبييضه، واخترت له أبدع الصور الأثرية التي لم يسبق نشرها إطلاقًا في اللغة العربية، وطبعت له مصورًا جغرافيًا لكامل المغرب العربي كبير الحجم، واضح الشكل، كتب بخط الأخ عمر راسم، وقدمته للطبع بتونس في دار المطبعة الأهلية، ثم أعلنت عنه في الصحف بالشمال الإفريقي"[٣٧].

- كتاب الجزائر:

ألزم المدني خمس سنوات من العمل، ظهر عام ١٩٣١ تزامنا والاحتفالات المئوية الاستفزازية الفرنسية في الجزائر، اعتبره أبو القاسم سعد الله بأنه كان بمثابة كتاب الجيب بالنسبة لتاريخ الجزائر، وبالرغم أنه لم يكن كتابًا تاريخيًا حين صدر[٣٨]، إلا أنه أحدث ضجة كبيرة بين الأوساط، فكان فتحًا مبينًا، كشف الزيف الاستعماري، وسجل تاريخ الجزائر من أقدم العصور إلى سنة ١٩٣٠[٣٩]، وقد جاءت لغة وأسلوب وعاطفة الكتاب كلّها في صالح الهوية العربية الإسلامية للجزائر[٤٠]، ووصلت توفيق المدني بعد تأليفه أكثر من ٥٣٣ رسالة تثني عليه، كما كتب عنه عدة رجال سياسة وعلم وأدب على غرار الأمير شكيب أرسلان، والدكتور حسين مؤنس، والدكتورة عائشة عبد الرحمن...الخ [٤١]، ويكتب المدني في مستهلّه قائلاً: "إليكم أيها الشبان

المسلمون الجزائريون في أرض الجزائر الكريمة... إنكم ترون كما رأيت، أن أبناء العربية في الجزائر يجهلون عن الوطن الجزائري كل شيء... تاريخه... طبيعته... نظمه وقوانينه... عناصر سكانه... حالته الأدبية وقوته الاقتصادية... ها أنا ذا يا شبان المسلمين أقدم لكم كتاب الجزائر...فتقبله من أيها الشاب المسلم الجزائري... تذكر ولا تنس أن الجزائر لا تسعد إلا إذا عملت في دائرة دينها ولغتها و قوميتها"[٤٢].

- المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا:

صدر في بداية الأربعينات، كلّف المدني سنة كاملة من العزلة والبحث والتحرير، وكان كتابًا لعموم العالم العربي، لمعرفة تاريخه وجغرافيته، فتطرق للفتوح الإسلامية في صقلية، التي اعتبرها المدني أنها افريقية أكثر مما هي أوروبية، ولما انتهى منه ونشره، تقبله التونسيون والجزائريون والمراكشيون بابتهاج كبير، وقد كتبت عنه الصحف والمجلات أيضًا معرّفة به ومثنية عليه، كما قرأه المستشرقون ناقديه إياه ومنوهين به[٤٣]، وقد ذكر المدني دوافع تأليفه فقال: "صفحة التاريخ الإسلامي بصقلية لم تكتب بعد، ولم يقيض الله لها من يفرد بها بدراسة قيمة...فيكاد يخيل إليك وأنت تتلو كتب التاريخ القديمة أن مقام المسلمين بصقلية ما كان إلا سلسلة حروب وفتن واضطرابات، وتلك لعمري هفوة من مؤرخينا علينا تداركها، وعلينا أن نسد هذه الثلمة في هيكل تاريخنا القومي العربي"[٤٤].

ولعلنا نقول بأن كتابات المدني، ماهي إلا جزء من نضاله ومقاومته للاستعمار في الجزائر، وبلاد المغرب العربي، وعموم العالم الإسلامي، فالقارئ لكتابات المدني يلاحظ موضوعيته الكبيرة في دراسة الأحداث، ومنهجيته التاريخية السليمة مقارنة بكتابات أخرى في ذلك العصر، فقد استغل قدراته وامكانياته للتعريف بالحالة الحاضرة في الجزائر والعالم الإسلامي، فطرحها من زاوية تاريخية مبتغيا في ذلك إثارة وتحفيز أصحاب الهمم للثورة ضد الأوضاع القائمة[٤٥]، فقاوم المستعمر الفرنسي بنفس سلاحه تقريبًا وهو التاريخ، فالأول سعى لتشويه وطمس وتزوير التاريخ والثاني سعى لإبراز وتصحيح وترسيخ التاريخ، ولعل المادة التي أخرجها المدني التي قدمها لجيله وللأجيال اللاحقة، كانت كفيلة ببعث روح الوحدة المغاربية الضائع مجدها، والتشبث بالمجال العربي الإسلامي والإفريقي لميز العالم الشرقي عن الغربي في كلّ شيء، وإقرار قاعدة أن الوجود الأوروبي في الشمال الإفريقي والمستعمرات الأخرى ما هو إلا حرب على الإسلام، والعروبة، والثقافة، وامتصاص الخيرات، وتطبيق سياسة غلبة القوي على الضعيف، فالمؤلّفات دحضت كل تلك الشائعات التي تقول أن الأوروبيين أتوا بالحضارة إلى هذه الضفة، لذلك كانت كتابات أحمد توفيق المدني في نظرنا ليست مدرسة تاريخية فقط، بل مدرسة وطنية ووحدوية مغاربية، وعربية اسلامية بامتياز وجب علينا قراءة انتاجاتها من جديد، لاستنباط الروح والحماسة الجماعية منها.

(١/٢) ٢-محمد بن مبارك الميلي [٤٦]

من بين الجزائريين الذين وقّعوا حضورهم لكتابة التاريخ الجزائري والمغاربي عمومًا المؤرخ الشيخ محمد بن مبارك الميلي، فقد ألف كتابًا يعتبر الأول من نوعه، وهو تاريخ الجزائر بشكل عام فتطرق فيه بشكل جيد لمختلف العصور التي مرّت بها الجزائر[٤٧]، وعنونه ب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" [٤٨]، وقد جاء في جزأين، رادّا على مزاعم الفرنسيين الذين نفوا وجود الأمة الجزائرية، ولم يعترفوا أبدا بوحدة المغرب العربي الجغرافية والتاريخية التي انصهرت مكوناتها بدخول الإسلام، صدر الجزء الأول منه سنة ١٩٢٨ والثاني في ١٩٣٢[٤٩]، ويقول الميلي في إهدائه الأول: "... إن الإرادة الحقيقية التي بيدها رفع مستوى الأمم هي إرادة الشعب، فقد صار الكتّاب يهدون لشعبهم أو لعظيم من عظمائه هو رمز لذلك الشعب، ونحن نهدي كتابنا هذا إلى الشعب الجزائري، إلى شبابه المفكر، ورجاله العاملين المخلصين".

وما إهداء كهذا إلا دليل على أن الميلي كان على دراية بأن الجزائريين يجهلون تاريخهم تماما، وهم بأمس الحاجة إلى هذه الأعمال، فأراد أن يثبت أن للجزائر تاريخا وحضارة، تندرج ضمن حضارة المغرب العربي العريقة، المنضوية تحت لواء الأمة العربية الإسلامية الكبيرة، فنجده في الكتاب يذكر كل المراحل التاريخية التي مرت بها، بدءًا من تشكل جغرافيتها الطبيعية، ومارا بجميع العصور والدويلات التي حكمتها، وإلى غاية نهاية العصر الوسيط، فاعتمد التبويب وتقنيات البحث الحديثة في تلك الفترة، فبدت الجدية واضحة في عمله، كما بدت الوطنية أكثر وضوحًا في المؤلَّف، الذي اعتبر صاحبه أن الفرنسيين هم أجانب(=محتلين) سوآءا كانوا مدنيين أو عسكريين[٥٠]، وقد اعتمد في كتابه على مصادر ومراجع أجنبية وعربية، غالبها كان في الجزء الأول

خاصة لمّا أظهر الهوامش، ويذكر الميلي أن أحمد توفيق المدني، وعمر دهينة ساعداه كثيرا في عملية الترجمة في العربية إلى الفرنسية[٥١]، وقد كتبت جريدة النجاح قائلة عن مؤلفي الميلي والمدني: "إن المؤلفين قد أزالا الحجاب الذي كان يحجب تاريخ آبائنا، وأعاد الحياة إلى تراث أجدادنا"[٥٢]، كما ذكرت الشهاب خبر طبع جزئه الثاني بالطبعة الإسلامية الجزائرية التي تُطبع بها الشهاب[٥٣].

(١/٢) ٣-الشيخ عبد الرحمن بن محمّد الجيلالي[٥٤]

ألف الشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي كتابا بعنوان "تاريخ الجزائر العامّ"[٥٥] سنة ١٩٥٣، وجاء في جزءين، تناول فيهما التاريخ الجزائري من العصور القديمة إلى العهد العثماني، وكانت دوافعه وطنية هو الآخر[٥٦]، بحيث أهداه إلى فاتح شمال افريقيا عقبة بن نافع الفهري فقال: "باسمك اللهم أتشرف برفع كتابي هذا وإهدائه إلى مقام رفعة حامل قبس الهداية الإسلامية إلى هذه الديار، ومنقذها من وصمة الكفر والعار والمُعلي فيها كلمة الله، والمجاهد في سبيل الله، إلى فاتح افريقية، وقاهر القوات الرومانية، و كاسر عادية البيزنطية، إلى مزلزل أقدام القياصرة، وهازم جحافل الجيوش الأباطرة، ومارك البرابرة، إلى روح ذلك البطل الخالد والأمير الفاتح العظيم، مفخرة الجزائر، ودرة تاج تاريخ الجزائر مجدها في الحاضر والغائب سيد الشهداء عقبة بن نفع الفهري رضي الله تعالى عنه"[٥٧]، فعلى البرغم من أن عبد الرحمن الجيلالي يلتقي مع المدني والميلي في الرؤية الوطنية للتاريخ وتوظيفه لصالح الحاضر[٥٨]، إلا أنه ركز في كتابه على الفترة الإسلامية كثيرا، وخصص ٨٤ صفحة فقط لما قبل الإسلام عكس المدني والميلي، وكان ذلك لعدة أسباب من بينها الرد على ما كتبه المؤرخ الاستعماري "قوتييه" في هذه الفترة، والذي سماها بـ "الفترة المظلمة"، ومقاومة تلك النزعات البربرية التي كانت تظهر في بدايات نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينات، خاصة وأن البعض كان يرى في العرب غزاة لا فاتحين[٥٩]، كما هدف المؤلف أن يقتدي الجيل الجديد بأسلافهم، ولا ينغمسوا في الحضارة الأوروبية، وينسوا ماضيهم الحافل بالقادة والإنجازات[٦٠].

كما يبدو أن عبد الرحمن بن محمد الجيلالي تأثر في هذه الفترة حسب رأينا بنشاط الجامعة العربية في هذا الميدان، والتي كانت مؤتمراتها تسعى لرد الاعتبار للتاريخ العربي والإسلامي، وتمجيد الشخصيات والبطولات والسيرّ الذاتية، لذلك ضمّن في كتابه تلك القرارات التي خرج بها المؤتمر الثقافي العربي الأول لجامعة الدول العربية، المنعقد بلبنان بتاريخ ٩ سبتمبر١٩٤٧، والذي من بين ما جاء فيه حول أهمية التاريخ في ترسيخ مشروع الوحدة العربية: "إن المؤتمر يرى إبراز الاشتراك التاريخي، والاتصال الجغرافي التام بين البلاد العربية في قارتي آسيا وإفريقيا، إذا كانت هذه البلاد في العصور القديمة مرتبطة بأوثق الصلات، ثم كانت حقبة طويلة من الزمن وحدة سياسية تضمها امبراطورية عربية عظيمة، كما ظلت في العصور المتأخرة مرتبطة بعضها مع بعض بروابط متينة، وأن الحضارة العربية احتفظت بكيانها وطابعها ووحدتها على مرّ العصور"[٦١].

لذلك كان هذا الكتاب التاريخي وحدويا هو الآخر، وخادمًا لأطروحة أن الجزائر جزء لا يتجزأ من المغرب العربي، ومن الأمة العربية الإسلامية، لذلك دائما ما كان يثني المؤرخ على دور الإسلام والعروبة في انسجام بلاد المغرب، هذا بالإضافة إلى عبقرية أبنائه وعلمائه الذين توالوا على الدول المستقلة الحاكمة[٦٢]، ونقتبس جملة افتتاحية من الكتاب في جزئه الثاني، يثني فيه على فضل دولة الموحدين على وحدة الشمال الإفريقي(=المغرب الإسلامي) حيث قال عبد الرحمن الجيلالي: "لقد مرّ بنا أن دولة الموحدين استمرت قابضة على صولجان الملك ووحدة الشمال الإفريقي طيلة مدة قرن ونصف، ولقد اكتسب المغرب الإسلامي يومئذ بوحدته هذه بأسا وقوة، تمكن بهما من نشر نفوذه السياسي على بلاد الأندلس"[٦٣].

هذا وقد ساهم الشيخ عبد الحميد ابن باديس هوّ الآخر ببعض الكتابات القليلة في المجال التاريخي، لكنها مست خاصة تاريخ الصحابة وسيرهم، وبعض القادة المغاربيين والعرب أو المسلمين الذي أثنى على أدوارهم التاريخية، لذلك افتتح بابا في مجلة الشهاب، يُعنى بسير وتراجم الأولين وأخبارهم، وفتح الأبواب لكل الأقلام للمشاركة فيه، فكتب يقول: "هذا باب جديد فتحناه في الشهاب، أردنا منه أن يطلع القراء على تراجم بعض رجالنا ونسائنا من سلفنا الصالح، ومالهم من صفات اكتسبهموها (كذا) الإسلام، وما كان منهم من أعمال في سبيله، ففي ذلك ما يثبت القلب، ويعين على التهذب، ويبعث القدوة، وينفخ روح الحياة، وماحي خلف إلا بحياة سلف، وما حياة السلف إلا بحياة تاريخهم ودوام ذكرهم..."[٦٤]،

والشيخ ابن باديس كان يعلم أن كل البلاء الذي كان مسلطا على الأمة العربية والإسلامية، إنما مردّه إلى أحداث وأخطاء تاريخية متراكمة، لذلك كان دائما ما يوصي بالتشبث بمبادئ السالف الصالح التي تمثل تاريخا وعبرا من أجل التحرر من الاستعمار.

أما الشيخ البشير الإبراهيمي فساهم هو الآخر بمقالاته التاريخية في الصحف والجرائد والمجلات، والتي نجدها في كتابه الآثار ومن جملة ما كتب نذكر: مقاله بعنوان "تلمسان وابن خلدون"[٦٥]، أشاد فيه بحاضرة العلم تلمسان، وعلمائها ومؤسساتها الدينية والفكرية، وما استقطابها لعلماء على غرار ابن خلدون إلا على منزلتها الرفيعة وذلك يندرج دائما ضمن التعريف بحضارة الجزائر والمغرب العربي ، ولعل ذلك مرده لكونه كان مديرا لدار الحديث القلعة القلعة الإصلاحية بتلمسان فتأثر بعمرانها وثقافتها واطلع على تاريخها الشامخ، لذا سعى لتقديمه كمادة تعريفية تثقيفية للقراء، كما كتب في نفس السياق مقالا آخر بعنوان "المسلمون في جزيرة صقلية"[٦٦]، يشيد فيه بالدور الذي لعبه المسلمون الفاتحون وخاصة فاتحي شمال إفريقيا للمنطقة، و يثني على كتاب أحمد توفيق المدني والذي كان ردّا مبينا على الفرنسيين تجاهلوا الأمّة الجزائرية والمغاربية وصنّفوها من الحضارات المتأخرة، كما أن الشيخ الابراهيمي ألّف أرجوزة حول تاريخ الجزائر منذ القدم وإلى فترة كتابتها جاءت في ثلاثة آلاف وستمائة ٣٦٠٠ بيت، لكنها ضاعت إبان الثورة التحريرية، وله أيضًا أربعة محاضرات حول تاريخ الجزائر المعاصر، كان قد ألقاها في بداية الخمسينات بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة تحت عنوان "الاستعمار الفرنسي_ في الجزائر"[٦٧]،ومما جاء في إحدى تلك المقالات حول الاستعمار ومحاولاته لتشويه التاريخ: "الجزائر وطن بربري قبل الإسلام يضم جماهر القبائل البربرية وأصولها الأولى، ووطن عربي إسلامي منذ دخله الإسلام يصحب ترجمانه الأصيل وهو اللسان العربي... ومن السفه لو ادّعى الرومان الذين ملكوها قرونا أنها صارت بذلك رومانية... ومن أسفه السفه دعوى مجانين السياسة من الفرنسيين أنها قطعة من فرنسا"[٦٨].

ولعل التيار الإصلاحي كان سباقا إلى الاهتمام بالتاريخ والكتابة التاريخية، فكل المؤرخين الذي مررنا بهم هم من الإصلاحيين، فكانوا بعملهم ذاك قد حضروا الأرضية لاسترجاع الاستقلال الوطني، ولولا كتاباتهم لما أينعت الفكرة الاستقلالية بشكل جيد، وذلك من خلال الوعي الذي انتشر بين صفوف الشعب والمثقفين خاصة[٦٩]، هذا ويجب الإشارة إلى أن معظمهم لم يكن يرى الجزائر منعزلة أبدا، بل العكس دائمًا ما كانوا يسعون جاهدين لربطها بفضائها المغاربي والعربي والإسلامي والإفريقي، خاصة لما كان الاستعمار يرى أن الجزائر هي ثلاث عمالات تابعة لفرنسا.

٢/٢-عملية التأريخ عند روّاد الاستقلال

تصنف الأدبيات والكتابات التاريخية الجزائرية التيار الاستقلالي عادة في حزب مصالي الحاج منذ نجم شمال افريقيا ثم حزب الشعب الجزائري وبعده الحركة من أجل انتصار الحريات الديموقراطية، ففيما يتعلق هذا التيار فإن قليلين صراحة هم الذين اهتموا بعملية التأريخ خاصة في العشرينات وبداية الثلاثينات، ويعود ذلك في نظرنا لعدة أسباب، ولكن قبل ذلك نستعرض رأي الدكتور سعد الله الذي يقول: "على الرغم من أن التنظيمات السياسية(الأحزاب) كانت أولى بالاهتمام بالتاريخ واستثماره في الحاضر، فإنها كانت في أول أمرها بعيدة عن ذلك، إما لجهل أصحابها بالتاريخ الإسلامي وتاريخ الجزائر بالذات، وإما لابتعادها منذ البداية عن التراث والأصالة وتعلقهما بالفكر الاقتصادي الماركسي_ والصراع الطبقي... وكانت الأناشيد السياسية تشير إلى وقائع تاريخية معينة وإلى أسماء شهيرة، مثل يوغرطة، وماسينيسا، وعقبة بن نافع، ولكن الزعماء السياسيين، لم يكونوا يهتمون أو لم يكونوا يعرفون الضروري عن الكتابة التاريخية، ولو من أجل توظيفها في البرامج السياسية لأحزابهم"[٧٠].

من خلال هذا القول يمكننا أن نقول أن من بين الأسباب التي جعلت التيار الاستقلالي يعزف عن الكتابة التاريخية خاصة في بداياته، هو أن غالب الطبقة العمالية التي كانت تشكل نجم شمال افريقيا وحتى حزب الشعب لم تكن مثقفة بما يكفي لتخوض غمار ميدان التأريخ، عكس الحركة الإصلاحية التي كانت تملك كفاءات ومشايخ تخرجوا من الجامعات والمعاهد العربية والإسلامية، وحتى مصالي الحاج رئيس النجم اعترف في بداياته، بأنه كان يجهل الكثير عن المتعلقة بالحضارة العربية الإسلامية، وسقوط دولة الخلافة، وأحداث الشرق وعلاقتها بدول المغرب والاستعمار، كما يعترف بأن درايته كانت سطحية فيها.

لكن مع ذلك يذكر مصالي الحاج أنه سعى إلى معرفة ذلك، في اجتماع له مع مجموعة من المناضلين تناولوا فيه وجوب التطرق لبعض النقاط، كذكر عظمة الحضارة الإسلامية واشعاعها في العالم، وذكر الحضارة العربية في إسبانيا والعرب في "بواتييه"، وابراز عظمة الثورة الكمالية وشخصية مصطفى كمال المرموقة، المبادئ الإسلامية والكفاح من أجل الاستقلال، يقظة العالم العربي الإسلامي [٧١].

إذن لا يمكن أن ننفي بأن التيار الاستقلالي لم يستخدم التاريخ والتأريخ وهو بصدد مقاومة الاستعمار أبدا، بل بالعكس، فلطالما سعى لجلب أساتذة لتدريس التاريخ للمناضلين من أجل وعي أكثر للقضية الوطنية والمغاربية والإسلامية، فعلى سبيل المثال جاء في تقارير لمصلحة المعلومات والدراسات والشرطة، أن حزب الشعب قد كلف المناضل التونسي المدعو "بن فرج محمد" المقيم في مدينة مستغانم "تيقديرت"، بتدريس التاريخ واللغة والأدب العربي ومواد أخرى، وقد كانت هذه الدروس تقدم ابتداءً من الساعة مساءً ويحضرها من ٢٥ إلى شخصًا من أنصار حزب الشعب الجزائري، يستغلون مسائيات رمضان للاجتماع بساحة "تيقديرت" دون لفت الانتباه متذرعين بالصلاة[٧٢].

كما حوت صحف وجرائد التيار الاستقلالي وخاصّة الأمّة والمنار، عدة مقالات، وتقارير عادة ما كانت ترجع إلى التاريخ والحضارة التي كانت تعرفها الجزائر وبلاد المغرب عموما، وتقارنها بالحالة الحاضرة وقت الاستعمار، كما كانت الحركة الاستقلالية توظف التاريخ أيضا، وهي بصدد مقاومة سياسة الإدماج أو التجهيل أو السياسة البربرية على سبيل المثال، فتربط الجزائر بالعروبة والإسلام، والفضاء المغاربي الذي تنحدر منه وتعود إليه. ولعلنا نسوق مثال المؤرخ "محمد الشريف السّاحلي"[٧٣] المحسوب على هذا التيار، بالرغم من أنه مستقل نوعًا ما عنه ولم يكن ينسق مع أعضائه دائما[٧٤]، إلا أنه اهتم كثيرًا بالتاريخ ووظّفه توظيفا لائقا لمقاومة الاستعمار، والدفاع عن الوحدة المغاربية، فقد ألقى محاضرة بعنوان: "مقاومة الوطنيين بالشمال الإفريقي للاستعمار الروماني" بمقر نادي جمعية الطلبة المسلمين الشمال إفريقيين بفرنسا، بتاريخ ١٤ فيفري١٩٣٨، فتحدث عن الأمة المغاربية، رادًا على كلّ الذين كانوا ينفون الشعور المغاربي الوطني المشترك، فتحدث عن يوغرطة وباكوس ودورهما في نشأة ومساهمتهما في التاريخ المغاربي القديم [٧٥].

ويقول محمد الهادي الحسني عن كتابات الساحلي: "إن إنتاج محمد الشريف ساحلي "رسالة يوغرطة " الذي نشر عام ١٩٤٧، و"الجزائر تتهم" عام ١٩٤٩، و"المؤامرة في وجه الشعوب الإفريقية" عام ١٩٥٠، و"الأمير عبد القادر فارس الإيمان" عام ١٩٥٣، فكأنه يحذر كل من له قلب وعقل وعين وينبهه أن استقلال الجغرافيا ناقص، وقد يذهب، إن لم يعزز بتحرير التاريخ... "[٧٦].

ويضيف الحسني حول الملاحظات التي لاحظها في المؤرخ محمد الشريف الساحلي قائلا:" هي نجاته من فيروسات المدرسة الفرنسية القاتلة، فبالرغم من تكونه في هذه المدرسة...فإنه أعمل عقله، وأَنْعَمَ نظره في موادها فتبين له سليمها من سقيمها، وصحيحها من عليلها... وقد تصدى لأحد ضحايا هذه المدرسة الاستعمارية، وهو مولود معمري" وأما الملاحظة الأخرى: "فهي أن محمد الشريف الساحلي لم يكن غِرّا، فلم ينخدع لبعض المؤرخين الفرنسيين الذين يزعمون الانفتاح ويدّعون الأمانة، ومع ذلك لم يسلموا من النزعة الاستعمارية"[٧٧]. لذلك فقد هدف الشريف الساحلي بكتاباته إلى استنهاض العزائم في الجزائر والمغرب العربي، فمن خلال اضطلاعه الكبير على الكتب والوثائق والدراسات المتعلقة بالفضاء المغاربي، يكون قد تشبع بالنزعة المغاربية، خاصة لما ألف كتاب يوغرطة فأصبح بذلك لا يفرق بين الوطنية الجزائرية والمغاربية [٧٨].

هذا وقد وجد الكثير من المناضلين ممن كتبوا مقالات أو حاضروا في التاريخ وغالبيتهم من التيار الإصلاحي والاستقلالي، أمثال أبو يعلى الزواوي، ومحمد علي دبوز وعبد الوهاب بن منصور[٧٩] وكاتب ياسين[٨٠]، وعمار بن سعيد بوليفة...الخ، وكلهم كانوا يعتبرون أن العروبة والإسلام عاملان ساهما في صهر الشمال الإفريقي وتحقيق وحدته، أما فيما يخص التيارات الاندماجية والماركسية فقد كانت محاولاتها في التأريخ للجزائر شبه منعدمة مادام أن غالبيتهم لم يكن يؤمن بوجود أمة جزائرية أصلاً، وإن وجدت فإنها يجب أن تكون في اتحاد مع فرنسا وليس مع بلاد المغرب أو الأمة العربية الإسلامية، ونستثني هاهنا بعض المحاولات في توظيف التراث الإسلامي من طرف البعض مثل فرحات عباس مثلاً الذي حث الفرنسيين على اتباع خطة المسلمين في الرفق بالبربر للسيطرة عليهم واجتناب الطريقة الرومانية في ذلك، ومن ثم

تفادي الثورات والحروب وسهولة دمج هذه الشعوب[٨١].

ثالثًا: بعض مواقف وردود فعل المصالح الفرنسية من حركة التأريخ الجزائرية

بما أن المصالح الفرنسية بشتى فروعها حاولت مرارًا وتكرارًا تشويه التاريخ الجزائري، فإنها لم تتوان عن تضييق الخناق على الكتابات الجزائرية والمؤلفين والمؤرخين، لأن ذلك كان بمثابة وعي يتشكل يوم بعد يوم ويهدد المصالح الفرنسة في المنطقة، فالكتابات التاريخية كانت جزءًا مهمًا من الحركة الوطنية الجزائرية، لذلك كانت التقارير التي ينجزها القادة العسكريون أو حتى الباحثون الفرنسيون، تحذر من تلك الكتابات التي كان رجال الإصلاح خاصة قد بدأوا فيها مع بداية الثلاثينات بغية ردّ الاعتبار للشخصية الجزائرية والمغاربية والمسلمة عموما، ففي إحدى البحوث المقدمة من طرف السيد شرفان "charvin" الذي كان يشغل منصب مدير رئيسي بالأربعاء نايت - ايراثن بتيزي وزو، حذر فيه من النشاط الذي يقوم به الإصلاحيون، كما أكد على خطورة المؤلفين التاريخيين لمبارك الجيلالي "تاريخ الجزائر العام"، الذي قال بأن صاحبه يرى بأن الأهالي يعتبرون الشمال الإفريقي أمّة واحدة، وكتاب "الجزائر" لأحمد توفيق المدني، الذي قال عنه أنه قد رفع فيه شعار "الإسلام ديننا-الجزائر وطننا- العربية لغتنا"[٨٢]، خاصةً إذا علمنا أن السلطات الفرنسية في منطقة القبائل خاصة كانت تشن حملات شرسة على العروبة والإسلام، وتسعى لتشويه التاريخ خدمة لسياستها البربرية.

ويذكر أحمد توفيق المدني كيف أن كتبه تعرضت للمضايقة والحجز عدة مرات، فيقول عن كتاب تقويم المنصور: "ما كاد الكتاب يوزع بالمكاتب وتتناوله أكف القراء حتى جاءني الجاسوس الرسمي الفرنسي-الزيتوني... يحمل لي قرارًا من الوالي العام موريس فيوليت مؤرخًا بيوم ٨ فيفري ١٩٢٦ يقتضي تحجير تقويم المنصور ومنع تداوله وحجز ما يوجد منه في المكاتب... كذلك أصدرت الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب الأقصى أمرها بالتحجير على تقويم المنصور، وحجز ما وجد منه في المكاتب العامة من نسخ، فلم يجدوا منها إلا النّزر اليسير"[٨٣].

وحتى تلك الكتابات الفرنسية والأوروبية المعتدلة أو التي دافعت عن الإسلام والعرب والجزائريين، قد شدد الخناق عليها هي الأخرى، ورِوقبت وصودرت مثل كتاب قوستاف لوبون وغيره، ففي مذكرة أمنية جاء فيها أن المقيم العام الفرنسي-السابق في تونكين السيد "أوجان يونغ" يكتب كتابات يدافع فيها عن الإسلام ضد الإمبريالية الأوروبية، وألف كتابًا بعنوان:" الإسلام ومسلمو الشمال الإفريقي"، يدافع فيه عن الأهالي بمناسبة مئوية الاستعمار الفرنسي-في الجزائر، وخمسينية الحماية في تونس، ويضيف التقرير أن "يونغ" مدح الثعالبي والأمير خالد اللذان قاوما الامبريالية الفرنسية، كما دافع عن الفقراء العرب، وأضاف في الأخير أن هذا الكتاب يلقى اقبالاً كبيرًا من الأهالي، ويُتوقع له أن يجد نجاحًا مثل كتاب تونس الشهيدة للثعالبي[٨٤].

خاتمِةٌ

يمكن أن نقول في الأخير بأن حركة التأريخ الجزائرية التي نشطت خاصة مع نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات قد أسست لمفاهيم أوضح لمعاني الأمة، والدولة، والأصول، والتاريخ، والثقافة، والمرجعية... فقد شكلت كتابات الرواد الأوائل قاعدة متينة بنى عليها الوطنيون والثوريون مبادئهم فيما بعد، ورسموا وفق برامجها خارطة طريق فيما يتعلق بمصير الجزائر حاضرًا ومستقبلاً، فبالإضافة إلى أن تلك الكتابات كانت سدًا منيعًا ضد محاولات اختراق وتفكيك البنى الاجتماعية والثقافية والدينية الجزائرية، كانت أيضًا حجر أساس في تمتين العلاقات الجزائرية المغاربية والعربية الإسلامية، بدليل تهافت عديد الشخصيات من المغرب والمشرق وحتى من الغرب على تلك الكتابات، فأصبحت بحق أهم المصادر الأولى لكتابة التاريخ، بحيث لا يستطيع أي مؤرخ أو باحث أو حتى هاوي التغاضي عنها أبدًا.

الهَوامِشُ:

(١) أصبح هذا المصطلح يشكل مؤخرًا كثيرًا من اللغط بين المفكرين الجزائريين، فلحد الساعة لم يحصل اتفاق حول المصطلحات التالية (الشمال الإفريقي- المغرب العربي- المغرب الكبير- المغرب الإسلامي-بلاد تامزغا..)، وحتى مصطلح المغرب والمغارب أصبح هو الآخر يشكل مغالطة في الفهم، فالمغرب أصبح يفهم عند المشارقة مثلاً هو المغرب الأقصى، بينما تقصى الدول الأخرى، والواضح أن الدسائس والنزعات البربرية التي دعمت كثيرا من المدرسة الفرنكفونية قد أتت أكلها، فأصبح كثيرون يهاجمون كلّ ما هو عربي لا من أجل التاريخ أو إنصاف البربر أو تاريخهم، ولكن من أجل مهاجمة العرب والإسلام لا غير، لذلك حاولنا التوفيق بين كلّ هذه المصلحات في هذه الدراسة واستعملناها كلها تقريبًا حسب إطارها الزماني والمكاني.

(٢) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٧، دار البصائر، ط٦، الجزائر،٢٠٠٩، ص٣٠٦

(٣) أحمد عبيد، **التاريخ الجزائري: نقد وتقييم-حالة الجزائر العثمانية**، مجلة انسانيات، المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية،2010، نشر في الإنترنت ٠٩ août 2012، تاريخ الاطلاع ٠٤ janvier 2017. URL : http://insaniyat.revues.org/4843 ; DOI : 10.4000/insaniyat.4843

(٤) ناصر الدين سعيدوني، **الجزائر منطلقات وآفاق، مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا ومفاهيم تاريخية**"، عالم المعرفة، ط٢، الجزائر،٢٠٠٩، ص٥٠٥.

(٥) نفسه، ص٥٠٧.

(٦) نفسه، ص٥٠٨.

(٧) أحمد مالكي، **صورة المغرب العربي في الكتابات الاستعمارية**، الملتقى الدولي: الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي،-٣٠جويلة/ ٢٠٠٦، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، ص١٦٧.

(٨) تحتوي مثلاً مكتبة البلدية بوهران "أحمد زبانة حاليا"، على كم هائل من الدراسات حول الجزائر والشمال الإفريقي، وهي تفيد الباحث كثيرًا في هذا المجال، باحتوائها على الجرائد والدراسات التاريخية النادرة.

(9) AWO (directions archives de wilaya d'Oran), boite 2260, dossier 15, (CIE) Oran, bibliographie du monde musulman, sans date.

(١٠) محمد الميلي، **المغرب العربي في منظور المؤرخين الاستعماريين**، مجلة الثقافة، ع١٢، جانفي١٩٧٣، ص١٦.

(١١) نفسه، ص١٧.

(١٢) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج٤، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ١٩٨٤ ص٩٤.

(١٣) رابح لونيسي، **التيارات الفكرية في الجزائر المعاصرة، بين الاتفاق والاختلاف (١٩٢٠-١٩٥٤)**، دار كوكب العلوم، ط١، الجزائر، ٢٠٠٩. ص ص٣٤٨،٣٤٩.

(١٤) امحمّد مالكي، **صورة المغرب العربي**، المرجع السابق، ص١٦٩.

(١٥) محمد الميلي، المرجع السابق، ص١٧.

(١٦) نفسه، ص١٦.

(١٧) ناصر الدين سعيدوني، **منطلقات وآفاق**، المرجع السابق، ص٧٩.

(١٨) محمد الميلي، المرجع السابق، ص١٧.

(١٩) ناصر الدين سعيدوني، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر**، ج١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص٥٣.

(٢٠) فريد حاجي، **السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر(١٨٣٧-١٩٣٧): المنطلق-السيرورة-المآل**، دار الخلدونية، الجزائر، ٢٠١٣، ص١٥١.

(٢١) ناصر الدين سعيدوني، **الجزائر منطلقات وآفاق**، المرجع السابق، ص٧٥.

(٢٢) فريد حاجي، المرجع السابق، ص١٥٢.

(٢٣) شاوشي حباسي، **من مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر، (١٨٣٠-١٩٦٢)**، دار هومة، الجزائر، (د.ت)، ص٤٠.

(٢٤) راجع: حول الثقافة الشعبية وتحقير العربي: أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء**، ج٤، المرجع السابق، ص٥٩-٧٣.

(٢٥) لم يكن بالإمكان اعتماد الطرق التقليدية القديمة التي كان يكتب بها مؤرخو القرون الوسطى أو الحديثة، لأنها قد لا تلاقي رواجًا أو مقروئية لدى العامة التي كانت ثقافتها جدّ محدودة، فقليلون هم الذين كانوا يقرؤون ويهتمون بالتاريخ، وذلك جراء سياسات التجهيل الفرنسية التي خلقت القطيعة.

(٢٦) عبد القادر خليفي، **أحمد توفيق المدني ودوره في الحياة السياسية والثقافية بتونس والجزائر(١٨٩٩-١٩٨٣)**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٠٠٧، ص١٠١.

(٢٧) عبد الكريم بوصفصاف، **المؤرخون الجزائريون ومنهجية الكتابة في الحركة الوطنية في عهدي الاحتلال والاستقلال**، أعمال المؤتمر الأول لمنتدى التاريخ المعاصر حول: منهجية كتابة تاريخ الحركات الوطنية في المغرب العربي، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، سبتمبر١٩٩٨، ص٤٦.

(٢٨) عبد المالك مرتاض، **نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر(١٩٢٥-١٩٥٤)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط٢، الجزائر، ١٩٨٣، ص٢١٩.

(٢٩) أنيسة بركات، **محاضرات ودراسات تاريخية وأدبية حول الجزائر**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد،١٩٩٥، ص ص٢٥٧،٢٥٨.

(٣٠) أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (١٤٩٢-١٧٩٢)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت)، ص٠٨.

(٣١) عبد المالك مرتاض، المرجع السابق، ص٢٠٧-٢١١.

(٣٢) عبد القادر خليفي، المرجع السابق، ص١٠٤.

(٣٣) أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**، ج٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط٢، الجزائر،١٩٨٨. ص٨١.

(٣٤) الشهاب، المجلد ٢، السنة ٢، العدد٥١، ٢٦ أوت ١٩٢٦، ص٢٧٥،٢٧٦.

(٣٥) يقول المدني: "جاءتني مئات الرسائل من ابن باديس والميلي وغيرهم، وممن عرفت من رجال قسنطينة وبسكرة وتلمسان، وعنابة ومن فاس ومراكش والرباط ومن تونس، وأغلب مدن مملكتها، رسائل نثرية، حافلة بالإعجاب والثناء. لا أزال اعتز بها ومحتفظا بها كذخيرة من أثمن ذخائر الحياة". المدني، حياة كفاح، ج٢، ص ١٠٩. نتمنى أن تكون هذه الرسائل التي تحدث عنها المدني لازالت موجودة عند عائلته، فالرسائل من الأدبيات الهامة في عملية التوثيق التاريخي، فيمكنها أن تطلع الباحثين أكثر عن الحركة الثقافية الجزائرية في هذه الفترة، ومراسلات الشخصيات المغاربية فيما بينها، خاصةً وأن المدني قال إنها بالمئات.

(٣٦) عبد القادر خليفي، المرجع السابق، ص ١٠٦،١٠٧.

(٣٧) أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص١٠٧.

(٣٨) شبّهه الراحل سعد الله بكتاب المرآة لحمدان خوجة، خاصة لما كان ضعيفا من حيث الجانب التاريخي، وركز على النظام الإداري، والقضائي والمحاكم، والحالة الاقتصادية والاجتماعية، وأبرز المدن وعدد سكانها، والحياة التعليمية...الخ. انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج٧، المصدر السابق، ص ٤٢٢.

(٣٩) أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**، ج٢، المصدر السابق، ص١٩٨.

(٤٠) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٧، ص٤٢٢.

(٤١) أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**، المصدر السابق، ج٢، ص٢٠٧.

(٤٢) أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر** (آثار أحمد توفيق المدني)، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ص١٧-١٩. في مذكرة أمنية جاء أن المدني طلب من مصطفى بن شعبان أن يبحث له عن طوبوغرافي تونسي من أجل مساعدته في الكتاب. انظر:

A.N.T (archives national de Tunis) série: mouvement national، carton ٢٣, dossier n°3, Note n°21-05: politique musulmane, information divers: d'ampliation à la résidence générale intérieure, Tunis le 3 janvier 1930.

(٤٣) أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**، ج٢، ص٣٤١-٣٤٣.

(٤٤) أحمد توفيق المدني، **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط٢، الجزائر،١٩٨٥، ص٤.

(٤٥) كانت السلطات الفرنسية تراقب كتابات المدني وتصريحاته أو دعايته لكتبه، فقد صرح في إحدى الاجتماعات أن من خلال كتابه الجزائر، بين للجزائريين أن لهم مكانة محترمة في تاريخ العالم، داعيًا إياهم للعمل الوطني منذ١٩٢٩ والسنوات التي تلت. انظر:

CAOM (centre d'archives d'autre mer -Aix en province-France), bobine A46, 25h32، dossier n°12: A/S : d'une réunion chez tewfik el Madani, rapport de 14 octobre 1938.

(٤٦) هو **مبارك بن محمد بن مبارك الهلالي الميلي** (١٨٩٨-١٩٤٥): مؤرخ، كاتب، ومناضل من رجال الإصلاح، ولد في الميلية بالقبائل الصغرى، تيتم وهو في سن الرابعة من عمره، دخل لتعلم القرآن على يد الشيخ احمد بن الطاهر مزهود، وكان حفظه لكتاب الله في أولاد مبارك، انتقل بعد سنوات إلى زاوية الشيخ الحسن بسيدي خليفة، ثم إلى مدرسة الشيخ محمد الميلي المعروف بابن معنصر فوجد فيها ضالته ولبث فترة (١٩١٢-١٩١٨)، توجه بعد ذلك إلى قسنطينة للتعلم على يد ابن باديس. ذهب بعدها إلى تونس فتخرج من الزيتونة بشهادة التطويع، ثم عاد على الجزائر، ويرى سعد الله أنه في هذه الفترة عكف على التأليف أكثر من التدريس رغم أنه كان شابا في الثلاثينات من عمره، انتقل إلى الأغواط وكان من رجال الإصلاح بها، وقد ساهم في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، له عدة كتابات على غرار تاريخ الجزائر في القديم والحديث الذي نحن بصدد التعريف به، ورسالة الشرك ومظاهره الذي كان ينشر على شكل مقالات أو فصول في الشهاب والبصائر، ومقالات وآراء أخرى حول الجزائر والعالم العربي الإسلامي والإصلاح...الخ. راجع للاستزادة عنه: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٧، المصدر السابق، ص٤٠٩-٤١٣. أيضًا: عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط٣، بيروت، لبنان،١٩٨٣، ص ٣٢٥.

(٤٧) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٧، المصدر السابق، ص٤٠٩.

(٤٨) مبارك بن محمد الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح: محمد الميلي (مؤخرًا)، تقع الطبعة التي استعملناها في جزئين، وله عدة طبعات لدور نشر مختلفة، وقد استعملنا نحن طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب (د.ت). ونشير إلى أن ابنه محمد الميلي قد واصل الكتابة عن أبيه الذي توقف في الجزء الثاني، وقد بدا في كتابة الجزء الثالث لكنه توقف وترك منه عشرين صفحة فقط، وأكمل ابنه محمد الميلي (توفي ٨ديسمبر٢٠١٦) هذا الجزء وخصصه للحكم العثماني في الجزائر. انظر: مبارك بن محمد الهلالي الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج٣، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٤، ص٨٠٧.

(٤٩) رابح لونيسي، المرجع السابق، ص٣٦٤. سعد الله يرى أن الجزء الأول صدر في ١٩٢٩.انظر: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٧، ص٤١٤.

(٥٠) أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص٤١٦.

(٥١) مبارك الميلي، المصدر السابق، ج١، ص٧. أيضًا: المدني، **حياة كفاح**، ج٢، المصدر السابق، ص٢٠٩.

(٥٢) نور سلمان، **الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير**، دار الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر،٢٠٠٩، ص١١٧.

(٥٣) **جريدة الشهاب** (لإبن باديس)، المجلد ٨، السنة ٨، الجزء ٥، ماي١٩٣٢، ص٣٢٣.

(٥٤) ولدعام ١٩٠٦ أو عام١٩٠٨ في الجزائر، درس كتاتيب ومساجد الحي، ثم انقل إلى المسجد الكبير، وجامع سيدي رمضان ومسجد علد الرحمن الثعالبي بالعاصمة، تتلمذ على خيرة علماء ذلك العصر أمثال الشيخ عبد الحليم بن سماية والشيخ المولود الزريبي الأزهري، والحفناوي صاحب تاريخ الخلف، والشيخ محمد بن أبي شنب، ومع كلّ هذا كانت ثقافته عصامية حسب سعد الله، فقد تعمق في القرآن، والحديث، والأدب، والتاريخ، والفقه، وتولى بدوره التدريس في مدرسة الشبيبة الإسلامية أثناء إدارة الشاعر محمد العيد آل خليفة خلال الثلاثينات، له بعض الإسهامات القليلة في الشهاب، وله كتاب تاريخ الجزائر العام الذي ندرسه في المتن، وكتاب آخر بعنوان "ذكرى الدكتور محمد بن أبي شنب" الجزائر١٩٣٢. انظر عنه: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٧، ص٤٢٣،٤٢٤.

(٥٥) استعملنا نسخة: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ج١-ج٢، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ط٢، ١٩٦٥.

(٥٦) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٧، المصدر السابق، ص٤٢٣.

(٥٧) عبد الرحمن الجيلالي، المصدر السابق، ج١، ص١٢.

(٥٨) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٧، المصدر السابق، ص٤٢٣.

(٥٩) رابح لونيسي، المرجع السابق، ص٣٧٢.

(٦٠) أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص٤٢٣.

(٦١) عبد الرحمن الجيلالي، المصدر السابق، ج١، ص٢٨.

(٦٢) للاستزادة في منهجية تأليف الكتاب راجع: فاطمة بلهواري، **الشيخ عبد الرحمن الجيلالي ومنهجه في تدوين تاريخ دول الجزائر خلال العصر الوسيط**، مجلة عصور، ع١٨-١٩، ديسمبر-جانفي٢٠١٢، منشورات مخبر البحث التاريخي (مصادر وتراجم)، جامعة وهران، ص ص١٨٧-٢٠٠.

(٦٣) عبد الرحمن الجيلالي، المصدر السابق، ج٢، ص٧.

(٦٤) ابن باديس، **رجال الإسلام ونساؤه**، الشهاب، المجلد ١٠، العدد جانفي ١٩٣٤، ص١٦.

(٦٥) محمد البشير الإبراهيمي، **الآثار**، ج١(١٩٢٩-١٩٤٠)، الآثار جمع وتقديم نجله: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، لبنان،١٩٩٧، ص ٣٧٠،٣٧١. عن: الشهاب، المجلد ١٤، ج٦، أوت١٩٣٨.

(٦٦) نفسه، ج٢، عن: **البصائر**، السنة ١، السلسلة الثانية،١ أوت١٩٤٧.

(٦٧) رابح لونيسي، **الاتجاهات الفكرية**، المرجع السابق، ص ٣٦٠.

(٦٨) الإبراهيمي، **الآثار**، ج٤، ص٣٧٨،٣٧٩. هذا المقال عثر عليه في أوراق الإمام، ولا يعلم الناشر عن كان نشر أم لا، وفي رأينا لا ترقى هذه المقالة إلى مستوى الكتابة التاريخية في ذلك العصر، بل هي وثيقة تاريخية تفيد باحث اليوم في معرفة تفكير النخب واهتمامها بالتاريخ في الفترة الاستعمارية.

(٦٩) رابح لونيسي، المرجع السابق، ص٣٧٤.

(٧٠) أبو القاسم سعدالله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٧، المصدر السابق، ص٣٠٤.

(٧١) مصالي الحاج، **مذكرات** (١٨٩٨-١٩٣٨)، تصدير عبد العزيز بوتفليقة، ترجمة: محمد المعراجي، منشورات anep، الجزائر، ٢٠٠٧، المصدر السابق، ص١٣٦،١٣٧.

(72) CAOM, A46, 25h32، dossier n°12, rapport de secrétaire-interprète bouras mazouz, mostaganem le29octobre1938.

(٧٣) محمد الشريف ساحلي ولد في سيدي عيش، بولاية بجاية، في عام ١٩٠٦، وتلقى التعليم الابتدائي في المدرسة الأهلية الخاصة بالجزائريين، ثم التحق بمدرسة المعلمين في بوزريعة، وحصل على البكالوريا من ثانوية بيجو (الأمير عبد القادر حاليًا). انضم إلى جامعة السوربون، وتخرج فيها بشهادة الليسانس ودبلوم الدراسات المعمقة في الفلسفة. درس في باريس عدة سنوات ثم أوقفته السلطات الفرنسية لما أبداه من نزعة استقلالية، ومشاعر وطنية، حيث كان يكتب في جريدة "الأمة"، الناطقة باسم حزب "نجم شمال إفريقيا"، كما كان ينشط في "جميعة طلبة شمال إفريقيا"، عندما اندلعت الثورة، كان محمد الشريف ممن لبّى النداء، فعُهد إليه بتمثيل جبهة التحرير الوطني، والحكومة المؤقتة في البلاد الاسكندنافية حتى الاستقلال. وقد عُين محمد الشريف ساحلي سفيرا للجزائر في الصين الشعبية، وفي تشيكوسلوفاكيا، ثم تقاعد عن العمل الرسمي في ١٩٧٨، توفي في ٥ جويلية ١٩٨٩.نقلا عن: محمد الهادي الحسني، تحرير التاريخ، الشروق أون لاين، بتاريخ: 2010/03/10.

(٧٤) حسب الدكتور رابح لونيسي فإن دليله على فتور العلاقة بين الشريف الساحلي والتيار الاستقلالي، هو مؤاخذة بعض قياديي الحركة من اجل الانتصار للحريات الديموقراطية له على عدم إهدائه كتاب الجزائر تتهم إلى مصالي الحاج، وفضل عليه إهداءه للمسلمين الذين استشهدوا من أجل الوطن الجزائري منذ عام١٨٧١. رابح لونيسي، المرجع السابق، ص٣٧٥.

(٧٥) كتبت عن المحاضرة جريدة البصائر فقالت أنّه اختار موضوعا يمثل العلاقة المتينة بين الطالب وتاريخه لأن، ذلك يظهر سيرة السلف الصالح الذي قام بواجب الجهاد ضد المستعمر، ولا شك أن ذلك اسقاط للماضي على الحاضر. أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٧، ص ٣١٠.

(٧٦) محمد الهادي الحسني، المرجع السابق.

(٧٧) المرجع نفسه.

(٧٨) رابح لونيسي، المرجع السابق، ص٣٧٧.

(٧٩) كان يكتب هؤلاء مقالات تاريخية في جريدة البصائر الثانية خاصة. انظر: مولود عويمر، **مالك بن نبي شغلته مهمة**

تغيير العالم الإسلامي، جريدة البصائر... تاريخ أعلام... وصحوة. نقلاً عن: منتدى طلبة علوم الإعلام والاتصال، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم: قسم علوم الاعلام والاتصال: تاريخ التسجيل:٠٨-٠٦-٢٠٠٩.

(٨٠) لا يمكن أن نعتبر كاتب ياسين مؤرخًا، ولكن يحسب له في هذا المجال تلك المحاضرة التي ألقاها بعنوان "الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر" سنة١٩٤٧ بباريس، بحيث استهدف من خلالها كسب المزيد من الفرنسيين لنصرة القضية الجزائرية(=الاستقلال)، ودافع فيها عن العرب الفاتحين، ورفض فكرة الاستعمار العربي لشمال افريقيا، ويظهر من خلال محاضرته بأنه مؤمن فكرة الأمة الجزائرية العربية المسلمة، ويقول فيها: "إن ما من شخص صادق وواع، ينكر البداهة المتمثلة في أن الجزائر بعد أن انتصرت على كل محاولات الاحتلال منذ الفينيقيين مرورا بالرومان، قد اندمجت من تلقاء ذاتها في للقومية العربية الإسلامية" .انظر: رابح لونيسي، المرجع السابق، ص٣٧٨. نقلاً عن: كاتب ياسين، **الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر**، ترجمة: محمد هناد-محاضرة ألقيت في قاعة الجمعية العلمية بباريس عام١٩٤٧، ونشرتها مجلة الثقافة الجزائرية مترجمة، ع٧٥ (ماي-جوان١٩٨٣)، ص١٧٥-١٩١.

(٨١) راجع للاستزادة: رابح لونيسي، نفسه، ص٣٨٥-٣٨٩.

(82) AWO, boite 2260. Expose de : charvin, influence de l'orient sur la presse de langue arabe en Algérie (tendances et programme des oulamas), mai1936, p06.

(٨٣) أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح**، المصدر السابق، ج٢، ص٨١.

(84) A.N.T, série: mouvement national, carton ،٢٣ dossier n°3, note n°1003-5, l'Islam et les musulmans de l'Afrique du nord, note de résidence générale, Tunis le31mars 1930.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

الأحوال الصحية في الطائف
في الفترة ما بين ١٢٢٨-١٣٤٣هـ/ ١٨١٣-١٩٢٤م



د. متعب ماطر مطر البلادي
دكتوراه في التاريخ الحديث
وزارة التعليم – الرياض
المملكة العربية السعودية

مُلَخّص

تعتبر مدينة الطائف من أهم مدن إقليم الحجاز القريبة من مكة المكرمة، وتهدُف الدراسة إلى التعرف على الأحوال الصحية في الطائف في الفترة ما بين (١٢٢٨-١٣٤٣هـ/١٨١٣-١٩٢٤م)، والكشف عن ما مرت به من أمراض مستوطنة ومعدية نتيجة لموقعها الجغرافي، والكشف عن النجاحات والمساهمات الطبية التي قام بها أطبائها، والوقوف على مدى مساهمة المرافق الصحية في تحسن الوضع الصحي للسكان، والتعرف على أسباب انتشار المراض بها، والتوصل للأساليب العلاجية والممارسات الصحية التي قام بها الأهالي، والتعرف على مدى تأثير العوامل السياسية والاقتصادية على الأوضاع الصحية، واستعراض الأنظمة الصحية التي طبقت في الطائف والجهات المسئولة عنها، وتقوم الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي. وقد توصلت إلى مجموعة من النتائج أهمُّها: إدراك الأهالي لخصاص الكثير من الأعشاب الطبية، وتطور مستوى الطب بها نتيجة هجرة الكثير من الأجناس الإسلامية المختلفة، وظهور الكثير من الأطباء الذين حققوا نجاحات كبرى نالوا بها على ثقة أمراء مكة، وكان من أبرز ملامح تلك الفترة اختيار الطائف المدينة الصحية الأولى في الحجاز.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٩ مايو ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ٢٤ أغسطس ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

تاريخ الحجاز الحديث؛ السلطنة العثمانية؛ الطب الشعبي؛ الحج؛ محمد علي باشا

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055848

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

متعب ماطر مطر البلادي. "الأحوال الصحية في الطائف في الفترة ما بين ١٢٢٨-١٣٤٣هـ/ ١٨١٣-١٩٢٤م".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص ١٠٧ – ١١٥.

مُقَدِّمَةُ

تعتبر مدينة الطائف من أهم مدن إقليم الحجاز القريبة من مكة المكرمة، وزاد من أهميتها موقعها الاستراتيجي من الناحيتين العسكرية والإدارية، فقد شكلت قاعدة عسكرية ومركز قيادة وسيطرة للدفاعات الأمامية للحجاز باتجاه عسير ونجد، وعاصمة صيفية لجميع الدول التي تعاقبت على حكم الحجاز في العصر الحديث، نظرا لجوها العليل الذي تغنى به الشعراء، وأطنب في وصفه الأدباء، وكذلك كثرة فواكهها وخضرواتها وحبوبها، ومناظرها الخلابة، فكانت الطائف حاضرة من حواضر العرب منذ مئات السنيين، وظلت على وهجها التاريخي إلى عصرنا الحاضر.

ولقد شهدت الفترة ما بين (١٢٢٨-١٣٤٣هـ/١٨١٣-١٩٢٤م)، تعاقب ثلاث دول على إدارة الطائف تمثلت في حكم محمد علي باشا في الفترة ما بين (١٢٢٨-١٢٥٦هـ/١٨١٣-١٨٤٠م)، فعانت من حالة من الدمار والبؤس بسبب الحروب وانتشار الطاعون حتى عودتها لإدارة السلطنة العثمانية في الفترة ما بين (١٢٥٦-١٣٣٤هـ/١٨٤٠-١٩١٦م)، ولكن مع ظهور أحداث جديدة على الساحة تمثلت في التوسع البريطاني في البحر الأحمر، وقيام الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣هـ/

١٩١٤م)، وظهور جمعية الاتحاد والترقي، والعنصرية التي سادتها؛ مما أثار سخط العرب وقيام الثورة العربية (١٣٣٤-١٣٣٨هـ/١٩١٦-١٩١٩م)، مما أدى إلى سقوطها في أيدي الثوار، فأصبحت تحت نفوذ مملكة الحجاز في الفترة ما بين (١٣٣٤-١٣٤٣هـ/١٩١٦-١٩٢٥م).

أرخت تلك التغيرات السياسية بظلالها على الأحوال الصحية في الطائف، علاوة على ظهور الكثير من الأوبئة والأمراض التي لم تكن معروفة سابقا، والتي مصدرها أفواج الحجاج القادمون لإداء الفريضة حاملين معهم العديد من الأمراض، مما حدا بالكثير من الممارسين الصحيين للتصدي لها وابتكار طرق جديدة لعلاجها، كما تميزت تلك الفترة بظهور العديد من الأطباء خريجي الكليات الطبية، فأصبحت اكثر الفترات التاريخية زخما بالأطباء، لذلك كانت جديرة بالدراسة، ورغم ذلك لاحظ الباحث عدم اهتمام المؤرخين بها فلم يتجاوز الحديث عنها إشارات لبعض المؤرخين والرحالة لذا اخذ الباحث على عاتقه القيام بهذه المهمة.

أولاً: الطب الشعبي

تطور الطب في مدينة الطائف مع هجرة بعض الأجناس الإسلامية[١] إليها بنقل ثقافتهم الطبية، وبالذات الهنود الذين كانت لهم خبرة في العطارة، فكان المجتمع يعتمد على الطب الشعبي الذي ينتقل بالوراثة من الأب لابنه أو من العم لابن أخيه أو من السيد لغلامه، ولم يكن الطبيب متفرغًا بل إلى جانب عمله بالطب يمارس مهنة أخرى كالحلاقة أو تصليح الساعات، والبنادق وتقطير الزيوت والنجارة وغيرها[٢]، ومع ذلك ساهموا في علاج الكثير من المرضى وبالذات في القرى التي تخلو أو تبعد كثيرًا عن المستشفيات، ويعد هذا الطب هو الأصل أما ما ظهر من طب حديث ومستشفيات فهي تعتبر دخيلة على المجتمع ولم يعرفها إلا في عهد محمد علي باشا (١١٨٣-١٢٦٥هـ/١٧٦٩-١٨٤٩م)، وكانت ضعيفة فلم تكن سوى مستشفى وحيدٍ خصص للعسكريين وملحق به صيدلية، ولا يتوفر به تطعيمٌ للأمراض السارية كالجدري، فكان المجتمع يرى المستشفيات والأدوية العصرية ثقافة جديدة ودخيلة عليه، فقد اعتمد أباءه وأجداده على العلاج بالطرق الشعبية والتي نالت ثقتهم.

تعدد الممارسون الصحيون للطب الشعبي فكانت المرأة تقوم بدورها كطبيبة في بيتها حسب ما توارثته من وصفات عن أمها جيلاً عن جيل من أدوية لمعالجة بعض الأمراض والإصابات البسيطة، فهي طبيبة الأسرة الأولى التي يلجا إليها في بداية الأمر، وقد جرت العادة أن يكون لديها عقاقيرها المنزلية، ومعرفة بالخواص العلاجية لبعض الأعشاب التي تحصل عليها من محلات العطارين، وبالذات للأمراض الأكثر شيوعًا كالحمى والجروح، ولا يلجأ الأهالي للطبيب إلا إذا فشلت المرأة في تقديم العلاج اللازم، ولقد اشتهر العديد من النساء في هذا المجال ومنهن فاطمة محمد الكاملي، وزينب حسن الكاملي، وزينب مسلم محمد العرابي اللاتي كن يقمن بعلاج النساء والأطفال بالرقية والشرعية، والأدوية الشعبية من خلال خبرتهن الطويلة في هذا المجال[٣].

وكان هناك العديد من الممارسين الصحيين الذين يلجأ إليهم الأهالي عرفوا بالأطباء الشعبيين، ومنهم: الحلاق الذي يقوم بالختان والحجامة وعلاج الأسنان، والتطبيب والتمريض لخبرتهم وتجاربهم الطويلة التي اكتسبوها من مهنة الآباء والأجداد في طرق العلاج، ومن ضمن الممارسين الصحيين في تلك الفترة المجبر الذي كان يقوم بتجبير الكسور، وأيضًا العطار الذي كان يصف للمرضى الخلطات، ومن الممارسين الصحيين في تلك الفترة الحجام، ومنهم: منصور سعد الحجام، ومن الممارسين من يفد إلى الطائف من المشعوذين من بقايا الحجاج الذين يدعون قدرتهم على العلاج بالتعاويذ والذبائح، ومما يجدر ذكره أن هؤلاء الأطباء الشعبيين يكرهون الأطباء الحكوميين، ولكنهم يحاولون التعلم والاستفادة منهم[٤].

واستطاع هؤلاء الممارسون التعرف على أسباب الأمراض التي تصيب الأهالي فعالجوها بالأساليب التقليدية، وبعض الطرق البدائية، التي تتراوح بين الكي والأغذية والأعشاب والحمية والعمليات الجراحية، فمن الأمراض التي عالجوها بالكي الالتهاب الرئوي، ومرض (الخاطر) وهو: أن يشعر المريض بارتجاف وإرهاق وأحيانًا بإسهال، وكانوا يعالجونه بالكي في باطن القدم، وبالأعشاب عالجوا أمراض المعدة بشرب النانخة والسنامكي[٥]. أما في حالات الإمساك فيشربون زيت الخروع أو العصارة المتبقية بعد عملية تقطير الورد الطائفي، وفي حالات الإسهال يأكلون الرمان والحمص وصفار البيض المطبوخ، ولعلاج لدغة الحشرات السامة كالثعبان يربطون العضو المصاب برباط قوي يضغط عليه من أجل منع سريان السم مع الدورة الدموية ثم يشرط العضو بالمشرط لإسالة الدم، ويوضع بعد ذلك الثوم المدقوق مكان اللدغة، ويستخدمون أيضًا أدوية

لعلاج لدغة العقرب منها أمعاء الخروف الصغير بعد أن يذبح وتستخرج أمعائه وتّسخن وتوضع على المنطقة الملدوغة وأيضًا يقومون بعمل فصدات[٦] حول المنطقة المصابة، وهذا العلاج ناجح عندما تكون اللدغة في اليدين أو الرجلين، وأما إذا كانت اللدغة في مكان لا يمكن فصده فقد يواجه الشخص الملدوغ الموت[٧].

واستطاع أطباء الطائف إجراء العمليات الجراحية لعلاج الماء الأبيض باستخدام (المخيط[٨])، والقيام بثقب الغشاء الذي كون الماء داخل العين، ثم يعزل المريض في غرفة مظلمة وعيناه معصوبتان لمدة أربعين يومًا ثم يخرج للضوء تدريجيًا، ولقد منعت الحكومة إجراء هذه العملية نظرًا لخطورتها ولكنهم استمروا في إجرائها بعيدًا عن أعين الدولة، كما أجريت العمليات الجراحية من أجل استخراج الرصاص من الجسم، واستطاعوا تحقيق نتائج جيدة في التعامل مع الجروح بالسلاح الأبيض من الرمح والخنجر، كما تخصص بعضهم في مجال العظام بمعالجة الكسور عن طريق تجبيرها باستخدام نبات الطباق[٩]، وتعلموا من الأتراك استخدام المراهم المرطبة للبشرة لاستخدامها للوجه، وفي المقابل هناك الكثير من الأمراض التي لم يجدوا لها علاجًا كالبهاق والزائدة الدودية، وكذلك بعض أمراض العيون[١٠].

وحقق الأطباء الشعبيون في الطائف نجاحات كبيرة، واشتهر منهم أطباء قبيلة بني سعد بإجراء العمليات الجراحية لاستخراج حصى المثانة البولية، كما أنهم في حال استقرار الأوضاع السياسية يذهبون إلى مكة من أجل إجراء هذه العمليات التي عادة ما تتكلل بالنجاح، ولقد تعلموا إجراء هذا النوع من الجراحات من أجدادهم، كما حققوا نجاحات باهرة بعلاج الحمى بالكي ولقد قام أحدهم بعلاج الملك حسين بن علي (١٢٧٠-١٣٥٠هـ/١٨٥٤-١٩٣١م) منها، ويكمن سر مهنتهم في اختيار موقع الكي فهم يختارون مواقع في الجسم تتصل بالأعصاب التي تنتهي بمجموعها عند موضع المرض، ولا يتركون الكي مفتوحًا ليخرج منه الصديد، بل يقفلونه مباشرة بالملح، واستطاعوا علاج أمير مكة محمد بن عبدالله بن عون (ت. ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م) من الحمى بست كيات في رجله فشفي عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣، كما نجحوا في علاج يد أمين الريحاني (١٢٩٣-١٣٥٩هـ/١٨٧٦-١٩٤٠م)[١١] الذي لاحظ الملك حسين حركة تدل على ألم؛ فسأله عنها فأخبره، فاستدعى الملك طبيب بني سعد، فسأل الطبيب الريحاني ثلاثة أسئلة، ولم يفحصه ثم قال: لا ينفعك الكي، ووصف له دواء تكون من إذابة السمن وفرم الثوم ومزجه به ودهن مكان الألم ثلاث مرات في اليوم فشفي الريحاني[١٢].

واشتهر من أطباء الطائف علي بن حسن بن صالح النجار (١٢٢٨-١٣١٣هـ/١٨١٣-١٨٩٥م) وهو أحد الأطباء الشعبيين الذي اتصل ببعض الأطباء الهنود فدرس طبهم، وأبدع فيه حتى أصبح أمير مكة الشريف عبدالمطلب بن غالب (١٢٠٤-١٣٠٣هـ/ ١٧٩٠-١٨٨٦م) يثق به، ولقد تميز عن الأطباء الآخرين في عصره بأنه كان يعالج الفقراء، ويعطيهم الأدوية مجانًا، وكذلك أصبح يضع القواعد الطبية فألف كتابين طبيين أحدهما في استخراج الأملاح من الجسم، والأخر في استخراج الدهون من الجسم، ولم تتوقف إنجازات هذا الطبيب عند هذا الحد بل ورَّث علمه وخبرته إلى ابنه أحمد (١٢٧٢-١٣٤٧هـ/١٨٥٥-١٩٢٨م) الذي افتتح محلاً للعقاقير لمعالجة الأهالي، وفاق شهرة والده وأصبح الملك الحسين بن علي يعتمد عليه إذا مرض؛ وتعود شهرة هذين الطبيبين إلى أحد علماء الطائف من الهنود يدعى الشيخ محمد نواب الذي يعود إليه الفضل في تعليمهما الطب[١٣].

كثرت الأمراض والأوبئة ورافقتها قلة الأطباء وصعوبة المواصلات، والحالة المالية السيئة فضلاً عن الجهل الذي سيطر على عقول الناس، وظهرت لدى الأهالي الكثير من المعتقدات ومنها ارتداء البعض تعويذه في عنقه لحمايته من الأمراض، وهي مصنوعة على شكل كرة من شمع العسل بحجم الرصاصة، ومعها لفافة ورق صغيرة يكتب عليها بعض الطلاسم، وظهر الاعتقاد في الطبيعة فقد كان هناك بئران في حوايا[١٤] بجوار بعضهما البعض أحدهما ماؤه عادي، والآخر تختلف خواص مياهه عن الآخر فهو يشفي من رمل الكلى رغم مجاورتهما لبعضهما البعض فيكون ماء هذا البئر شافيًا صالحًا للشرب، ولا يكون الأخرى كذلك[١٥].

واهتم الأهالي بالصحة العامة من خلال الحرص على النظافة الشخصية، وبالذات أجسادهم، وأدت وفرة المياه بالطائف إلى إنشاء حمام بها على الطريقة التركية سمي بحمام الشفا، تسبب ببنائه محتسب الطائف أحمد خيرة، ويقوم بدور صحي كبير، وغالبًا ما كان يستخدم في فصل الشتاء نظرًا لبرودة المياه، وحاجة الناس إلى الماء الساخن أما في فصل الصيف فيقل الاستخدام لأن الناس تغتسل في بيوتها

ورحالها لحرارة الماء، كما حرص الأهالي على شرب واستخدام المياه النظيفة للمحافظة على صحتهم فعندما يصلون إلى مجاري المياه يقومون بحفر حفر صغيرة إلى جانب المجرى؛ يملؤون منها قربهم باستخدام مغارف من الخشب، وذلك لأن المياه الجارية تحمل معها الديدان التي تسبب لهم الأذى في حين أنه عندما تشرب حيواناتهم فإنهم لا يتخذون هذه الاحتياطات ربما لاعتقادهم أن هذه الديدان لا تؤثر في الحيوانات، كما حرصوا على إنشاء الأسبلة[١٦] لتوفير المياه النظيفة الخالية من الأمراض، وهو عبارة عن مبنى فيه صنابير للمياه مجاناً، كما حرصوا على إنشاء ثلاثة أحواض للمياه النظيفة، على جانب الطريق كصدقة جارية ُتملأ بالماء، ويُترك دلو عندها لمن يريد أن يشرب أو يسقي بهيمته.

وعلى أية حال، تُعَدّ الطائف المدينة الصحية الأولى في الحجاز، والمنتج الطبي الوحيد في شبه الجزيرة العربية للاستشفاء؛ لوفرة الأوكسجين في هواء جبالها العالية، وكثرة المياه الجارية فيها، فيصبح من الصعوبة انتقال الجراثيم، كما أن العيش في المناطق المرتفعة كالطائف يقي من الموت بنسبة كبيرة من أمراض القلب ومشاكل الدورة الدموية، إضافة إلى التسلق المتواصل يزيد نشاط القلب والرئتين ويحافظ على قوتهما ومرونتها لفترة أطول، وكذلك رفع نسبة كريات الدم البيضاء، ولقد كان محمد علي يرسل الجنود المرضى إليها؛ لأن هواءها وماءها صحي للعساكر، ويجلب لهم الصحة والعافية، فأصبحت الطائف منتجع أهل الحجاز الطبيعي، ولقد ساهم جوها في شفاء الرحالة بوركهارت (Burckhardt) (١١٩٩-١٢٣٢هـ/ ١٧٨٤-١٨١٧م)[١٧] من المرض الذي أصابه بعد وصوله إلى الحجاز، كما حَرص عِلية القوم على الذهاب إليها للاستشفاء في جوها الصحي وهواءها العليل، ومنهم: قاضي مكة عام (١٢٣٠هـ/١٨١٥م)، وأيضًا عندما أصيب بالملاريا في حج عام (١٢٤٦هـ/١٨٣١م)، وقد اعتاد أهل مكة الذهاب إلى الطائف للاستشفاء، ولم تتوقف شهرة الطائف في السياحة العلاجية على المسلمين بل تجاوزت ذلك بكثير، فقد زارها الغربيون حيث وصلها للاستشفاء القنصل الفرنسي في جدة بدعوة من الأمير عبدالمطلب، ولقد أدرك الأطباء العثمانيون ذلك فعندما مرض والي الحجاز حلمي حسن باشا (١٣١١-١٣١٢هـ/١٨٩٣-١٨٩٤م) أوصى رئيس الصحية في الحجاز نقله إلى الطائف في أسرع وقت عام (١٣١٢هـ/١٨٩٥م)، وهناك العديد من المسئولين العثمانيين في الحجاز الذين رحلوا لها للنقاهة والعلاج، ومنهم: سعيد بن عائض قائمام غامد وزهران (١٢٥٦-١٣١٦هـ/١٨٤٠-١٨٩٨م) عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)، وإسماعيل افندي عام (١٣١٠هـ/١٨٩٢م)[١٨].

ثانيًا: الطب الحديث

ظهر الطب الحديث في الطائف في عهد محمد علي إبان سيطرته عليها بإنشاء أول مستشفى بها، وخصص لعلاج الجنود، ومن يقوم على خدمتهم من الأمراض، والتعامل مع الجرحى في ميادين المعارك وكل من يلجا إليه من المرضى، وكذلك لعلاج الجنود السودانيين الذين تم انتدابهم إلى الطائف، والذين بلغوا حوالي خمس بلوكات، ولقد اهتم المستشفى بإجراء التحصينات الأولية للجنود والمواطنين لكنه لم يستمر؛ نظرًا لأنه لا يخدم مصلحة محمد علي الشخصية، ويتكون المستشفى من طاقم طبي متكامل مكون من مدير المستشفى الطبيب (فولفي)، كما زود المستشفى بالأطباء من أوروبا مثل الدكتور: م.قاتي، الإيطالي، ويعاونهم طاقم طبي متكامل من الصيادلة[١٩] والممرضين والمساعدين الطبيين.

ولم تلقِ الطائف الاهتمام الكافي في الشؤون الصحية من قبل السلطنة العثمانية في نظام الولايات الصادر عام (١٢٨١هـ/١٨٦٤م)، والتي اكتفت بإرسال بعض اللجان الصحية إليها للمسح الطبي كما حدث عام (١٣٠٦هـ/١٨٨٨م)، برئاسة الدكتور عبد الحكيم حكمت[٢٠]، أو من أجل القيام ببعض الأعمال الصحية، وكتابة التقارير للسلطان منها اللجنة التي أرسلت عام (١٢٨٣هـ/١٨٦٦م)[٢١].

استمرت الأوضاع على ماهي عليه حتى قامت السلطنة عام (١٢٨٨هـ/١٨٧١م)، بإصدار أول نظام يتعلق بالصحة العامة؛ لينظم الشؤون الصحية وإدارتها، وهو نظام الإدارة العمومية الطبية، وقد أوجب هذا النظام على كل بلدية من بلديات المدن تعيين طبيب وممرض، وتخصص عيادة له ليتوجه إليها المرضى للعلاج مجاناً مرتين في الأسبوع، كما ألزم النظام الطبيب بمعالجة المرضى في بيوتهم لمن لا يستطيع الحضور إليه، على أن يأخذ أجرة مقابل ذلك تحددها البلدية، كما أن من مهامه الكشف على الوقائع المتعلقة بالجنايات بطلب المحكمة، ويعتبر الطبيب المسؤول عن الصحة العامة في المدينة، لذلك وجب عليه معرفة طبيعة المدينة وأحوالها المناخية والأمراض السارية المنتشرة فيها، وفي حال انتشار مرض معين فعليه مراجعة الإدارة المحلية في

الولاية، والرفع إلى إدارة الطب الملكية في إسطنبول لمساعدته على القيام بالتدابير اللازمة بحسب طبيعة المرض لمنع انتشاره، كما ألزم النظام الطبيب بإرسال تقرير شهري إلى نظارة الطب الملكية عن مرئياته واقتراحاته للحالة الصحية داخل دائرته[٢٢].

أدركت الحكومة العثمانية ضرورة الاهتمام والعناية بالوضع الصحي في الحجاز، وذلك لطبيعة الولاية التي تضم الأماكن المقدسة ويتوافد الحجاج إليها من مختلف أنحاء العالم، إضافةً إلى حرص السلطنة على منع الدول الأوربية من اتخاذ الوضع الصحي في الحجاز سبيلاً للتدخل في شؤون الحج، فقامت بتشكيل مجلس للصحة في الحجاز عام (١٣١٣هـ/١٨٩٥م) تحت مسمى الإدارة الصحية بمكة؛ لتشرف على الحالة الصحية في الحجاز، وكان تابعًا لمجلس صحة إسطنبول، ولها مخصصات من وزارة المالية، وتجدر الإشارة إلى أنه في عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م)، تغير اسم إدارة صحة الحجاز إلى المديرية العامة للصحة في الحجاز، وقامت السلطة برفع ميزانيتها، وقد أصدرت الإدارة الصحية في ولاية الحجاز مجموعة من الأنظمة الصحية عُرفت باسم لائحة الحجاز الصحية، وصدق عليها المجلس الصحي في إسطنبول عام (١٣١٤هـ/١٨٩٦م)؛ تهدف إلى تطوير الخدمات الصحية في ولاية الحجاز، وخصوصًا في مواسم الحج[٢٣]، والإشراف على الحالة الصحية في الطائف ومكافحة العدوى وانتشار الأمراض والإشراف على مستشفى الغرباء.

إن الخدمات الصحية التي تقدمها السلطنة لأهالي الطائف تتبع إداريًا إلى جهتين مختلفتين وكلا الجهتين ملزمتان بتطبيق نظام إدارة الطب الملكية، وما جاء بها من تنظيمات، إحداهما البلدية ممثلة في صحة البيئة والرقابة على المواد الغذائية والتي تشرف على الصيدلية التي يديرها صيادلة حاصلون على شهادات في هذا المجال، وتُصرف الأدوية مجانًا للفقراء بموجب وصفة طبية من طبيب البلدية. أما الموسرون من الناس فإنهم يقومون بدفعها حسب التسعيرة المحددة، وأطباء البلدية ملزمون بزيارة الفقراء، ومعالجة العامة ومباشرة طلاب المدارس والمعلمين، وصدرت الأوامر بإنشاء مستشفى سُمي بمستشفى الغرباء لعلاج المرضى من الأهالي وحجاج اليمن وأيضًا زوار قبر عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما)[٢٤]، وإنشاء أقسام للتنويم وزيادة الاهتمام بالنظافة إلا أن الإدارة العثمانية قامت بنقله إلى مكة عام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، وتركت الطائف بدون مستشفى، فعاد الأهالي للعلاج بالأساليب الشعبية[٢٥].

أما الجهة الأخرى فهي الجيش الذي أقام مستشفىً عسكريًا قبل عام (١٢٧٢هـ/١٨٥٥م)، من أجل علاج الجنود المرضى والمصابين كالجندرمة والشرطة وأفراد أسرهم فالنظام ينص على وجوب معالجة العسكريين وأفراد أسرهم على حساب السلطنة، كما كان يقوم بالتطعيم ضد الأمراض وبالذات للأطفال فقد كان يولي لهم أهمية كبيرة، وبعد إنشاء القشلة تم نقل المستشفى لها، واهتمت السلطنة بتعيين أطباء وجراحين للمستشفى منهم محمد أفندي عام (١٢٩٩هـ/١٨٨١م)، وفي العام (١٣٠٧هـ/١٨٨٩م) تم تعيين اليوزباشي علي طاهر طبيبًا به، ولقد تولى إدارة المستشفى عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م)، اليوزباشي عبدالقادر افندي، كما أُلحق بالمستشفى صيدلية لصرف الأدوية للمرضى تولاها محمد علي افندي، وتميز الأطباء الأتراك العسكريون بأنهم أكثر دقةً ومهارةً ووعيًا وفهمًا ويمكن الاعتماد عليهم، ولكنهم قليلو التدين، ولا يعرفون كيف يتعاملون مع الأهالي، ولقد ذكر شكيب أرسلان (١٢٨٦- ١٣٦٦هـ/١٨٦٩- ١٩٤٦م) أنه في فصل الصيف يصل عدد الأطباء إلى خمسة عشر طبيبًا ما بين مدني وعسكري يأتون لخدمة الجنود والاستمتاع بقضاء الصيف في الطائف، وتميزت طريقة علاجهم للأهالي من خلال جس النبض، والنظر إلى اللسان والعيون ومعرفة المرض من خلالها من دون سؤال المريض عما يعاني[٢٦].

انتشرت كثير من الأمراض الوبائية والمعدية في الطائف في العهد العثماني؛ لطول الفترة التي حكموها بالمقارنة بالدول التي تعاقبت عليه في العصر الحديث، وفي ظل عالم يشهد تطورات كبيرة في وسائل النقل مما أدى إلى زيادة في أعداد الحجاج وتفشيًا للأمراض الوبائية، ومن هذه الأمراض الحمى (الملاريا) التي تعتبر إحدى أكثر الأمراض المستوطنة انتشارًا بين أهالي القرى والبساتين الواقعة في شبرا[٢٧]، وربما يعود ذلك إلى كثرة الأمطار التي تؤدي إلى تجمع المياه الراكدة، بالإضافة إلى الماء الفائض عن سقي البساتين؛ مما يؤدي إلى ارتفاع الرطوبة فتكثر الجراثيم في الهواء، وكذلك اختلاط هذه المياه بفضلات البشر والحيوانات مما يجعلها ملوثة، وبلغت ذروته عامي (١٢٠٤هـ/١٨٣٩م)، و(١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)، فمات منها أناس كُثر، وممن مات بسببها العالم محمد الكتبي، والشيخ: سليمان البنا،

ومفتي الحنابلة الشيخ: محمد بن حميد الشرفي والسيد: خليل عبدالله كشك[٢٨].

وتأثرت الطائف بالأوبئة التي تظهر في مكة أيام الحج، من حيث موت الكثير من أهاليها في مكة متأثرين بالمرض، أو نقل بعضهم المرض للطائف، ومن هذه الأوبئة الكوليرا التي ظهرت لأول مرة في الحجاز عام (١٢٤٦هـ/١٨٣١م)، وأدت إلى وفاة الكثير من الأهالي في الطائف، وبالذات من قرية مظللة[٢٩]، وتشهد على ذلك المقبرة التي وقف عليها الرحالة تايمزيه (Tamisier)[٣٠] والتي تحمل دليلاً مأساويًا على ما حدث، وخلال خمسة وثمانين عامًا من هذا التاريخ ظهرت الكوليرا اثنين وعشرين مرةً حتى عام (١٣٣٠هـ/١٩١٢م)؛ فتسببت في وفاة كثير من أهالي الطائف، وذلك لضعف التدابير المتخذة التي لم تتجاوز عزل المريض، وفي العام (١٢٨٤هـ/١٨٧٦م)، تكررت المأساة خصوصا بين البدو والأتراك مما أدى إلى وفاة الكثير من الناس، وعلى رأسهم قاضي مكة وابن الوكيل والسيد حسن شيكه المحتسب السابق لمكة، ولشدة هذا الوباء وانتشاره شرع علماء مكة في قراءة البخاري أمام باب الكعبة لأجل رفع هذا الوباء عن الطائف[٣١].

ظهرت الكوليرا في الطائف عدة مرات فقامت السلطنة باتخاذ بعض الإجراءات الاحتياطية؛ خشية من انتشار الكوليرا في الطائف وضواحيها، ومنها: إنشاء كرنتينه على الطريق بين مكة والطائف للطالع والنازل في العام (١٢٩٨هـ/١٨٨٠م)، وهذا إجراء طبي احترازي من أجل حمايتها، وعدم وصول هذا المرض إليها، ولقد اتخذت السلطنة بعض التدابير الاحترازية الأخرى، التي لم تلق نجاحًا ومنها: إنشاء محجر صحي بالطائف لحجاج عسير واليمن ونجد والعراق عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)؛ بإرسال الأطباء الموجودين في خدمة أمير مكة للعمل فيه، وتعيين أحدهم رئيسًا للحجر الصحي مؤقتًا، ومن الأفكار التي نُوقشت تشكيل هيئة صحية مختلطة يكون لها مقرٌ في الطائف[٣٢] لمراقبة قوافل عسير واليمن ونجد والعراق[٣٣].

كما يعد الجذام[٣٤] أحد الأمراض المنتشرة في الطائف، ولقد شاهد بوركهارت (Burckhardt) حالة جذام خلال رحلته، واستمر يظهر بها من حين لآخر فظهر عام (١٢٩٠هـ/١٨٧٣م)، وأصاب محمد سنبل الذي توفي به، ومن الأمراض المنتشرة مرض الجدري والحصبة، وهما: أكثر الأمراض التي تؤدي إلى وفيات كبيرة بين المواليد، فقد أصاب وكيل إمارة الطائف الشريف شاكر بن زيد (١٣٠٢-١٣٥٣هـ/١٨٨٥-١٩٣٤م) وهو صغير وبقيت آثاره عليه[٣٥].

ومن أكثر الأمراض التي تصيب أهل الطائف سوء الهضم وتوسيع المعدة، والديزنتاريا والحمى وأبو الركب، والأمراض الجلدية وأمراض العيون، واحتقان الدماغ والسكتة القلبية، والكسور والجروح والرضوض، والحمرة وسل الرئة وحمى التيفويد، وذات الرئة وذات الجنب وذات القصبات، وداء الخنازير والتهاب المثانة وداء الفيل والخناق، وبعض الأمراض القلبية والسكتة الدماغية وأمراض الكبد والحمى القرمزية[٣٦].

وعمومًا لم تكن الخدمات الصحية في المستوى المأمول فقد كان المستشفى يضم طبيبًا واحدًا وأطباءً عامين حديثي التخرج، وجراحين أما بقية التخصصات فلم توفره السلطنة، ويظهر ذلك واضحًا في العام (١٣١٧هـ/١٨٩٩م)، عندما أصيب الكثير من أهالي الحجاز بأمراض العين والرمد والعمى، ولم يكن في الحجاز طبيب مختص بأمراض العيون فتدهورت أحوال الناس الصحية، مما اضطر أمير مكة عون الرفيق (١٢٥٦-١٣٢٣هـ/١٨٤٠-١٩٠٥م) إلى الطلب من السلطان إرسال أطباء عسكريين متخصصين في العيون لعلاج الناس، ولم يلحق بالمستشفى من الأقسام المساندة سوى الصيدلية وقسم التنويم، ولم يكن به إمكانات لإجراء التحليل الطبية[٣٧].

وجهت المملكة الهاشمية شيئًا من الاهتمام إلى شؤون الصحة العامة، وذلك لأن الحجاز كان معرضًا للإصابات المختلفة من الأمراض خلال موسم الحج، حيث يستقبل أجناسًا من مختلف الأقطار الإسلامية فعمدت الحكومة إلى تأسيس دائرة مركزية للصحة (دائرة الصحة العمومية)، وهي هيئة طبية يرأسها أحد الأطباء العسكريين، وتكمن مهمتها في تخصيص الأطباء وتوزيعهم على مختلف القطاعات العسكرية أثناء الحرب والسلم لمعاينة المرضى والمصابين، وكان من مهامها تعيين الأطباء والصيادلة والممرضين والإداريين وتزويدها بالمستلزمات الطبية من أدوية وأثاث[٣٨]. فأخذت العناية الصحية بالتحسن عما كانت عليه سابقًا، وأصاب الشوارع والمحلات شيء من الاهتمام بالنظافة، وقامت المملكة بشراء الأدوية والعقاقير الطبية ومصول التلقيح، وبالذات الأمراض السارية كالجدري والطاعون التي تنتشر أثناء موسم الحج، وكثيرًا ما كانت الجهات الصحية تهيب بالأهالي للتلقيح، ولاسيما الأطفال عن طريق الإعلان الرسمي في الجريدة[٣٩].

وعلى صعيد إنشاء المستشفيات فقد تم إنشاء مستشفى في الطائف، وتزويده بالأطباء؛ لكونها قاعدة عسكرية، وقام المستشفى على البنية التحتية للمستشفى العثماني وبمساندة الفرقة الطبية المرافقة للمدفعية المصرية التي قدمت الخدمات الطبية للمقاتلين والمصابين في حصار الطائف عام (١٣٣٤هـ/١٩١٦م)،() فتم إعادة افتتاح المستشفى بمجرد سقوط الطائف، وعلاج الجنود والأهالي وصرف الأدوية لهم مجانًا، ويشرف على المستشفى طبيب واحد تم نقله إلى محجر معان عام (١٣٤٢هـ/١٩٢٤م)، وتعيين الطبيب بشير الرومي بدلاً منه[٤٠].

ومن الإجراءات التي قامت بها المملكة حرصًا على سلامة مواطنيها منع الأطباء غير الحاصلين على شهادات طبية بمزاولة المهنة، وقد صدرت عقوبات ضد من يخالف ذلك سواء من الأطباء أو المرضى، كما تقرر أيضًا منع دخول الأفيون والحشيش والخمر إلى البلاد وسمح فقط للصيدليات باستيرادها لاستخدامها في بعض المركبات الدوائية[٤١].

خَاتِمَةٌ

أدى قرب الطائف من مكة المكرمة إلى انتقال الأوبئة الخطيرة إليها خلال موسم الحج، مما أدى إلى وفاة الكثير من أهليها، ولم يقف الأهالي مكتوفي الأيدي أمام ذلك، بل قاموا بالبحث عن الأدوية الناجعة فاستطاعوا التعرف على بعض خصاص النباتات الطبيعة، وفهم التركيبات الكيميائية لها وفوائدها وأضرارها على البشر؛ فاستطاعوا علاج الكثير من الأمراض، وبرع منهم الكثير من الأطباء الذين نالوا ثقة الأهالي والحكومة، ووصلت بهم براعتهم إلى تأليف الكتب الطبية.

لم يكن الأهالي يجهلون الممارسات الصحية السليمة بل كانوا يقمون بالكثير من الممارسات الصحية اليومية التي تقي من الأمراض من خلال تطبيق التعاليم الإسلامية، أو من خلال ما تناقل لهم من خبرات عن طريق الآباء والأجداد؛ بالإضافة إلى الخبرات والتجارب الطبية التي قامت التركيبة السكانية الجديدة (المجاورون) بنقلها من بلدانهم الأصلية، مما أدى إلى التخفيف من حدة الكثير من الأمراض.

أدى عدم اهتمام الدول الحاكمة للطائف بالتوعية الصحية للأهالي وضعف الإمكانات الصحية المقدمة والمتمثلة في قلة عدد الأطباء، وضعف التجهيزات الطبية، بالإضافة إلى صعوبة نقل المرضى إلى لجوء بعض الأهالي إلى الممارسات المنافية للشريعة، وظهور الكثير من المشعوذين.

وعلى العموم فعلى الرغم من تعدد الجهات المشرفة على الشؤون الصحية في الطائف وانتقالها من دولة لأخرى، وإصدار العديد من الأنظمة المنظمة لها، إلا أنها لم ترقى إلى المستوى المأمول الذي يليق بعاصمة صيفة لدولة في تلك الحقبة التاريخية؛ وذلك نظرًا لعدم جدية تلك الدول في خدمة الأهالي، بل كانت تسعى من تقديم تلك الخدمات إلى تحقيق أهداف سياسية وعسكرية.

الهَوامِشُ:

(١) هاجر إلى مكة المكرمة الكثير من أبناء العالم الإسلامي على فترات تاريخية مختلفة فرارًا بدينهم ودنياهم من بلدانهم ومن ثَمَّ اخذوا في النزوح إلى الطائف رغبة في مجاورة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما المدفون بها، ونظرًا لأجوائها المشابهة لبلدانهم الأصلية، ومع مرور الزمن أصبحوا يشكلون شريحة لا بأس بها من المجتمع الطائفي.

(٢) هورخرونية، ك سنوك، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، ترجمة: علي الشيوخ، علق عليه: محمد السرياني و معراج مرزا (مكة المكرمة: مركز مكة التاريخي، ١٤٣٢هـ)، م٢، ص ٤٤٥.

(٣) هورخرونية، المصدر السابق، م٢، ص ٤٤٤،٤٤٧. وم١، ص١٨٥. محكمة الطائف العامة، سجل المحكمة للعام ١٣٣١-١٣٣٢هـ، ص٤٥،٦٥.

(٤) محكمة الطائف العامة سجل المحكمة للعام ١٢٤٦-١٢٤٩هـ، ق١٠٢. هورخرونية، مصدر سابق، م٢، ص ٤٤٧. آل عيسى، عيسى علوي، **الطائف القديم داخل السور في القرن الرابع عشر**، ط١ (الطائف: لجنة المطبوعات في التنشيط السياحي، ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م)، ص١٨٤. السالمي، **قبيلة ثقيف حياتها وفنونها وألعابها الشعبية**، ط٢ (١٤١٩هـ=١٩٩٨م)، ص١٩٨.

(٥) يعتبر دواءً مُليّنًا لعلاج الإمساك، وتنظيف الجهاز الهضمي، ولقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (لو أن شيئًا كان فيه شفاء من الموت، لكان في السني)، الالباني، محمد ناصر، **سلسة الأحاديث الصحيحة**، ط١ (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع) ج٤، ص٤٠٨.

(٦) الفصد: هو إحداث شق أو قطع في الوريد أو العرق، وإسالة الدم منه.

(٧) تايمزية، موريس، **رحلة في بلاد العرب الحملة المصرية على عسير ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م**، ترجمة محمد آل زلفة، ط١ (١٤١٤هـ=١٩٩٣م)، ص٧٢. الثقفي، يوسف علي، **بلاد ثقيف، ضمن سلسلة هذه بلادنا**، ط١، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٢هـ=١٩٩٢م)، ص٩٤-٩٦. آل كمال، سليمان صالح، **نماذج عن الطيب في الحضارة الإسلامية**، ط١ (الطائف:

دار الحارثي، ١٤١٦هـ) ص٩٧. السالمي، **قبيلة ثقيف حياتها وفنونها وألعابها الشعبية**، ص١٩٨. دولتشن، عبد العزيز، **الرحلة السرية للعقيد الروسي عبد العزيز دولتشن إلى الحجاز سنة ١٨٩٨-١٨٩٩م**، ط١ (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٨=١٤٢٨هـ)، ص١٤٢. هورخرونية، مصدر سابق، م٢، ص ٤٤٥-٤٤٦.

(٨) آلة تستخدم للخياطة تشبه الإبرة ولكنها أطول منها واغلظ، تستخدم لخياطة الخيام والاجولة وغيرها.

(٩) شجيرة صغيرة تنمو في المناطق الجبلية جنوب الطائف، ولا يزيد ارتفاعها على متر وهي ذات أزهارًا صفراء اللون، يتم تجفيف أوراقها ثم طحنها حتى تصبح كالدقيق ثم تعجن بالماء الدافئ ويوضع عليها قليلا من زيت الزيتون ثم توضع في قطعة قماش وتلف على المنطقة المصابة بالكسر.

(١٠) السالمي، **قبيلة ثقيف حياتها وفنونها وألعابها الشعبية**، ص ٢٠٢-٢٠٦. ديدية، شارل، **رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الهجري**، ترجمة محمد البقاعي (الرياض: دار الفيصل الثقافية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص٣٢٥. مغربي، محمد علي، **ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز**، ط١ (جدة: تهامة للمكتبات،١٤٠٢هـ=١٩٨٢م)، ص١٥٧. صبري، أيوب، **مرآة جزيرة العرب**، ترجمة أحمد فؤاد والصفاصافي احمد، ج١ (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م) ج١، ص٢٩١-٢٩٦. الثقفي، مرجع سابق، ص٢٩،٩٦. داوتي، تشارلز.م، **رحلات داوتي في الجزيرة العربية**، ترجمة عدنان حسن، ط١ (بيروت: شركة دار الوراق للنشر المحدودة، ٢٠٠٩م)، ص٣٩٠.

(١١) مفكر وأديب ومؤرخ ورحالة لبناني وأحد دعاة الإصلاح الاجتماعي وعمالقة الفكر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في الوطن العربي.

(١٢) الريحاني، أمين، **ملوك العرب**، ط٢ (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧م) ج١، ص ٣٥. بيت المال، أحمد أمين، **النخبة السنية في الحوادث المكية**، تحقيق حسام مكاوي (د.ن، د.م، د.ت)، ص١٣١. بوركهارت، جون لويس، **رحلات في شبه جزيرة العرب**, ترجمة عبدالعزيز الهلابي وعبدالرحمن الشيخ، ط١ (بيروت: مؤسسة الرسالة, ١٤١٣هـ=١٩٩٢م) ص٢٢٠.

(١٣) الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، م٤، ط٦، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤) ص٢٧٦. وم١، ص١٧٧.

(١٤) حي من أحياء الطائف الجنوبية بين المثناة شرق وحوايا والنزهة والسداد، كان فيما سبق ضاحية جميلة وواديًا زراعيًا مشهورًا. السالمي، حماد بن حامد، **المعجم الجغرافي لمحافظة لطائف**، ط١(الطائف: لجنة المطبوعات في التنشيط السياحي، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣)، ج٢، ص٧٣٠.

(١٥) كين، جون فراير، **ستة أشهر في الحجاز**، ترجمة أنعام إيبش، مراجعة أحمد إيبش، ط١(أبو ظبي: دار الكتل الوطنية، ١٤٣٣هـ=٢٠١٢م) ص١٤٥. رتر، إلدون، **مدينتا الجزيرة العربية المقدستان**، المجلد الثاني، المدينة المنورة، ترجمة عبد الله نصيف (مكة المكرمة: مركز تاريخ مكة المكرمة، ١٤٣٣هـ) م٢، ص٤٠٠. هيكل، محمد حسين، **في منزل الوحي**، ط٥، (القاهرة، دار المعارف، د.ت)، ص٢٣٩.

(١٦) محكمة الطائف العامة، سجل المحكمة لعام ١٣٣١-١٣٣٢هـ، ق ٢٦. سالنامة ولاية الحجاز، مكة المكرمة: مطبعة الميرية، لعام ١٣٠٥، ص ١٧٩. صبري، مصدر سابق، ج١، ص١٨٤. مغربي، مرجع سابق، ص٢٦٢. آل كمال، محمد سعيد، **الطائف جغرافيته تاريخه أنساب قبائله**، جمع وتعليق سليمان صالح آل كمال، (الطائف: مكتبة المعارف، ١٤١٦هـ=١٩٩٠م)، ص٣٨. علي، عبد المالك عبد القادر، **الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية الحاكمة في ليبيا**، القسم الأول، (دمشق مسكية: مطبعة دار الجزائر العربية، ١٣٨٦هـ=١٩٦٦م)، ص٣٩

(١٧) جون لويس بوركهارت (Johan Lewis Burckhardt) رحالة سويسري صاحب كتاب (رحلات في شبه الجزيرة العربية) زار الطائف عام ١٢٢٩هـ/١٨١٤م، والتقي بمحمد على باشا بها.

(١٨) الأرشيف العثماني، تصنيف: BEO 234/17501. وتصنيف BEO 641/48022. دارة الملك عبد العزيز، الوثائق العثمانية، سجل٥٧٠٢٠. ديدية، مصدر سابق، ص٣٠١. دار الوثائق القومية المصرية، القاهرة، محفظة٩٧ أبحاث الحجاز، ملف٤، محفظة١٧ بحربرا، وثيقة ٦، ٣/صفر/١٢٤٧هـ. محفظة٩٨ أبحاث الحجاز، ملف٤، محفظة١٧ بحربرا، وثيقة٥٠، ٣/صفر/١٢٤٧هـ. ومحفظة٩٩ أبحاث الحجاز، ملف٤، دفتر٦٧ معية تركي، وثيقة٦٨، ق١٢، ؟/؟/١٢٥١هـ. بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص١٦،٧١. جريدة الرياض، ع١٣٨١٤، ٢٠/ربيع الأول/١٤٣٨=١٩/ديسمبر/٢٠١٦م، أرسلان، شكيب، **الإرتسمات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف**، قدم لها وعلق عليها محمد رشيد رضا، صححها وعلق عليها حسن السماحي سويدان، الطبعة الثانية، (دار النوادر: سوريا،١٤٣٤هـ=٢٠١٣م)، ص٢٠٧.

(١٩) دار الوثائق القومية المصرية، بالقاهرة، **محفظة ١٠٠ أبحاث الحجاز**، ملف ٢، محفظة٢٦١عابدين، وثيقة ٣٤٣، (د. ت). تاميزية، مصدر سابق، ص٣٠١،٣١٣. بوركهارت، جون لويس، **ملاحظات عن البدو والوهابيين**، ترجمه وعلق عليه عبد الله العثيمين (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٤هـ)، ص٢١٦. البطريق، **وثائق الحكم المصري في الجزيرة العربية**، ق٦. نقلًا عن محفظة ٢٦١ عابدين، وثيقة رقم ١٥٢.

(٢٠) أستاذ في كلية الطب في إسطنبول وعضو الجمعية الطبية العثمانية رئس هيئة طبية مكلفة من السلطان عبد الحميد الثاني لزيارة خمس ولايات عربية هي: طرابلس الغرب وبنغازي والحجاز واليمن وبغداد لإجراء مسح طبي شامل وكتابة تقارير حول طرائق العلاج المحلي في الولايات العربية والحالة الصحية بها وعمل مسح للأمراض المنتشرة وعوامل انتشارها في كل ولاية.

(٢١) صابان، سهيل، **مراسلات الباب العالي إلى ولاية الحجاز (مكة المكرمة- المدينة المنورة) في الفترة من ١٢٨٣ إلى ١٢٩١هـ**، (مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، طبع بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م) ص ٢٨. حكمت، عبد الحكيم، **"المسح الطبي**

لولاية الحجاز بداية سنة ١٣٠٤روميه=١٨٨٨م=١٣٠٦هـ"، مجلة الدارة، ع٢، ١٤١٩هـ، س٢٤، ص١٥١-١٧٨.

(٢٢) **الدستور**، ترجمة نوفل افندي نعمة الله، مراجعة خليل أفندي الخوري (بيروت: المطبعة السورية، ١٣٠١هـ).م٢، ص٧١٣-٧١٥.

(٢٣) يلدز، جولدن صاري، **الحجر الصحي في الحجاز ١٨٦٥-١٩١٤م**، ترجمة عبد الرزاق بركات، راجعه مسعد الشامان، ط١ (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م) ص ٢٤٤،٢٤١-٢٨٠،٢٤٥-٢٨١. يوسف، عماد عبد العزيز، **الحجاز في العهد العثماني ١٨٧٦-١٩١٨م**، ط١ (العراق: الوراق للنشر، ٢٠١١م)، ص١٠٣. المكي، مرجع سابق، ص٩٠. عز الدين، قاسم، **حجاز ده تشكيلات وإصلاحات صحية**، (إسطنبول: المطبعة العامرة، ١٣٣٠هـ) ص٣.

(٢٤) توفي الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وترجمان القرآن في الطائف عام (٦٨هـ/ ٦٨٨م) ودفن بها وبني حول قبرة مسجد عام (٥٩٢هـ/١١٩٦م)، ومع مرور الزمن أصبح مزارًا للحجاج بعد أداء مناسك الحج وبالذات للجالية الهندية.

(٢٥) المكي، المرجع السابق ص٩١. الدستور، مصدر سابق، م٢، ص٧١٦-٧٢٥. حكمت، مصدر سابق، ص١٦٧،١٦٣. **صحيفة حجاز** (مكة المكرمة: مطبعة الولاية، ١٩٠٨-١٩١٥م)، ع ١٥٦، ٢٩/جمادى الثانية/١٣٣٢هـ. AL-AMR, Saleh Muhammed, The Hijaz Ottoman Rule 1869-1914 Ottoman Vale, The sharif of Mecca, And the Growth of British Influence, Riyadh University, Riyadh, 1978., P106

(٢٦) **الأرشيف العثماني**، تصنيف Y.EE 21/44 وتصنيف I.DH 996/78633. هيرجرونجي، سي سنوك، **مكة في أواخر القرن التاسع عشر**، ترجمة صبري محمد حسن، مراجعة جمال زكريا قاسم(القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٧م) ص١٨٧. مدحت باشا، **مدحت باشا حياته مذكراته محاكمته**، يوسف حتاته وصديق الدملوجي، الطبعة الأولى، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٢هـ=٢٠٠٢م) ص١٣٩. صحيفة حجاز، ع ٨١، س٣، ٨/شعبان/١٣٢٩هـ. ع ١٤٣، ١١/ربيع الأول/١٣٣٢هـ. وع٦٨، س٢، ١٩/محرم/١٣٢٩. هورخرونية، مصدر سابق، م٢، ص٣٠٥،٤٤٥. باشا، مرجع سابق، ص ١٤٠. أرسلان، مصدر سابق، ص٣٤٩،٢٠٨.

(٢٧) في شمال الطائف على ضفة وادي العقيق الشرقية، سُميت على شبرا مصر كانت مليئة بالبساتين وهي الآن حي من أحياء الطائف. السالمي، **المعجم الجغرافي لمحافظة الطائف**، ج٢، ص٦٨٢.

(٢٨) دار الوثائق القومية المصرية، القاهرة، محفظة١٠٣ أبحاث الحجاز، ملف٢، محفظة٢٦٩عابدين، وثيقة١٦١حمراء، ق١، ٢٥/محرم/١٢٥٥هـ. بيت المال، مصدر سابق ق١٦٣. حكمت، مرجع سابق، ص١٧١.

(٢٩) تقع في جنوب شرق الطائف، وتبعد عنها قرابة ٤٠ كم.

(٣٠) رحالة فرنسي صاحب كتاب (رحلة في بلاد العرب) زار الطائف عام (١٢٤٩هـ/١٨٣٤م).

(٣١) بيت المال، مصدر سابق، ق٧٤. يلدز، مصدر سابق، ص٣٩. تايمزية، مصدر سابق، ص٦٦.

(٣٢) خشيت السلطنة من إنشاء هيئة دولية متعددة الجنسيات في الطائف للكشف على حجاج نجد واليمن خوفًا من تدخل دولهم في الشؤون السياسية للحجاز مما يزعزع سيادتها، وأيضًا لأنها أكشفت زيف الادعاء بأن الكوليرا عام (١٣٠٧هـ/١٨٩٠م)، جاءت من الطائف عن طريق حجاج اليمن، والصحيح أنها جاءت من الهند. القيصري، محمد شاكر، **الأحوال الصحية العامة في الحجاز عام ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م**، ترجمة مصطفى زهران، مراجعة مسعد الشامان (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٧هـ=٢٠١٥م) ص٢٦٣-٢٦٥، ٢٥٥-٢٥٤، ٣١٦،٢٧١.

(٣٣) يلدز، مصدر سابق، ص٢٠٨-١٨٢،٢٠٩. بيت المال، مصدر سابق، ق١٩٧.

(٣٤) مرض معدي كان المصاب به يُنبذ من مجتمعه وأسرته لأنه يؤدي فقدان أجزاء من أطراف الإنسان.

(٣٥) مشاقبة، أمين، **الأمير شاكر بن زيد بن عون نشأته وحياته ١٨٨٥-١٩٣٤م**، (١٩٩٥م) ص١٩. بوركهارت، **رحلات في شبه جزيرة العرب**، ص٢٢٠. بيت المال، مصدر سابق، ق١٢٩. أوكسنولد، وليم، **الدين والمجتمع والدولة في جزيرة العرب الحجاز تحت الحكم العثماني ١٨٤٠-١٩٠٨م**، ترجمة: الدكتور عبد الرحمن سعد العرابي، ط١ (جدة: مركز النشر العلمي جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٣١هـ=٢٠١٠م)، ص٢٨.

(٣٦) حكمت، مرجع سابق، ص١٧٠،١٦٨.

(٣٧) **الأرشيف العثماني**، وثيقة YMTV 200/68. مدحت، مصدر سابق، ص١٤٤.

(٣٨) صحيفة القبلة، (مكة المكرمة: المطبعة الأميرية، ١٣٣٤-١٣٤٣هـ) ع٤٥، س١، ٢٦/ربيع الثاني/١٣٣٥هـ، وع٥٥، س١، ٢٩/ربيع الثاني/١٣٣٥هـ.

(٣٩) القبلة، ع٥١٦، س٦، ٩/محرم/١٣٤٠هـ. وع٣٧٧، س٤، ٣/شعبان/١٣٣٨هـ.

(٤٠) **صحيفة الفلاح**، (مكة المكرمة: المطبعة المخصوصة، ١٣٣٨-١٣٤٣هـ)، ع٣٢٢، س٥، ٢٢/رمضان/١٣٤٢هـ، القبلة، ع٨٠٤، س٩، ٣/محرم/١٣٤٣هـ. وع٥٣، س٢٢،١/ربيع الثاني/١٣٣٥هـ. المؤمني، نضال داود، **علاقة مصر بالحجاز في عهد الشريف الحسين بن علي ١٩٠٨-١٩٢٥م** (عمان: اللجنة العليا لكتابة تاريخ الأردن، ١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م)، ص٢١٥-٢١٦.

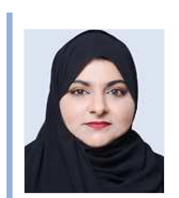
(٤١) القبلة، ع٥٥٥، س٦، ٢٨/جمادى الأولى/١٣٤٠هـ.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

دراسات

سفينة شباب عُمان الأولى ودورها في التواصل الحضاري ١٩٧٩ – ٢٠١٥

د. بدرية بنت محمد النبهاني
دكتوراه التاريخ -جامعة السلطان قابوس
مدرب في المركز التخصصي للتدريب
المهني للمعلمين – سلطنة عمان



مُلَخّص

إن لسلطنة عمان تاريخ عريق، تشهد له حقب التاريخ المختلفة، وقد استطاع العمانيون الوصول ببلدهم لمستوى رفيع من الحضارة والتقدم بتكامل العوامل الطبيعية، مع العوامل البشرية. وقد عزز هذه الحقائق المستكشفات الأثرية التي استطاع الباحثون من خلالها كتابة التاريخ الحضاري لعمان عبر فترات تاريخية ساحقة، موضحين الأهمية الاقتصادية والازدهار الحضاري الذي كان تعيشه المجتمعات العمانية آنذاك. ونظرًا لهذا التاريخ الحضاري، فقد أولى مولانا حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم تاريخ عمان البحري عناية خاصة، منطلقًا من مبدأ الحفاظ على تراث هذا البلد وإحيائه وتعريف العالم بتاريخنا البحري المجيد. وتهدف هذه الدراسة إلى تتبع تاريخ السفينة شباب عمان الأولى، وذلك من خلال محورين رئيسين، ففي المحور الأول سيتناول لمحة تاريخية عن تاريخ عمان البحري وجهود صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد لإحياء التراث البحري العماني، ثم سيركز المحور الثاني للحديث عن سفينة شباب عمان الأولى. وقد خرجت الدراسة بعدد من النتائج أهمها إن التشجيع المستمر من لدن صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد، دورًا مهما في إحياء التراث البحري العماني. وقد تمثلت الجهود في إحياء التراث البحري بتسيير عدد من الرحلات البحرية التقليدية، مثل السفينة صحار والسفينة مجان. ومثلت سفينة شباب عمان نموذجًا متفردًا من حيث الفكرة والمضمون. حيث لعبت دورًا كبيرًا ومهما حتى الآن في ترسيخ قيم السلام والمحبة، بمشاركاتها المستمرة في السباقات الشراعية الدولية، والتعريف بعمان تراثًا وفكرًا وحضارة. ولقد كان لاستمرار حصد سفينة شباب عمان الجوائز المختلفة في سباقات السفن الشراعية الدولية لدليل على مكانتها ونجاحها في أداء الرسالة المنوطة بها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٦ يونيو ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ٢٣ أغسطس ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

التراث البحري؛ الموانئ العُمانية؛ صناعة السفن؛ السلطان قابوس

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055849

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بدرية بنت محمد النبهاني. "سفينة شباب عمان الأولى ودورها في التواصل الحضاري ١٩٧٩ – ٢٠١٥".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة -العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص ١١٦ – ١٢٧.

مُقدِّمَة

إن لسَلْطَنَة عُمان تاريخ عريق، تشهد له حقب التاريخ المختلفة. استطاع العُمانيون بهما الوصول ببلدهم لمستوى رفيع من الحضارة والتقدم، عبر تكامل العوامل الطبيعية، مع العوامل البشرية. وقد عزز هذا المستكشفات الأثرية التي استطاع الباحثون من خلالها كتابة التاريخ الحضاري لعُمان عبر فترات تاريخية ساحقة، موضحين الأهمية الاقتصادية والازدهار الحضاري الذي كان تعيشه المجتمعات العُمانية آنذاك. وحتمًا لا يستطيع أي مجتمع النهوض بنفسه، دون تشجيع وتحفيز من السلطة الحاكمة في البلاد، ولهذا كان لحكام عُمان عبر تاريخها الممتد من ملوك وسلاطين وأئمة، دورًا في تشجيع العلم والعلماء، وتشجيع التبادل التجاري والحضاري مع

مختلف الحضارات والشعوب المجاورة. وقد كان لحضارات عديدة تأثيرات مباشرة في التاريخ العُماني القديم خاصة، نذكر منها حضارات بلاد الرافدين ممثلة في الحضارة السومرية والبابلية، وكذلك الحضارة الفرعونية التي تبادلت اللبان وسلع أخرى مع مجان القديمة، وغيرها من الحضارات التي اتصل وتواصل معها العُمانيون. ونظرًا لهذا التاريخ الحضاري، فقد أولى مولانا حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم تاريخ عُمان البحري عناية خاصة، منطلقًا من مبدأ الحفاظ على تراث هذا البلد وإحيائه وتعريف العالم بتاريخنا البحري المجيد.

وتهدف هذه الدراسة إلى تتبع تاريخ سفينة شباب عُمان، المعروفة في ميادين البحار العالمية بسفيرة السلام والمحبة، والتي تمثل أكثر من كونها قطعه حربية في سلاح البحرية السلطانية العُمانية، بل هي سفير عُمان والعرب عامة لموانئ العالم، حاملة الإسلام بسماحته وأخلاقه، وتعكس كذلك قيم الشعب العُماني وحضارته، أينما حلت، بنموذجها الأول، وبنموذجها الثاني في الخدمة الآن. وذلك من خلال محورين رئيسين، ففي المحور الأول سيتناول لمحة تاريخية عن تاريخ عُمان البحري وجهود صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد لإحياء التراث البحري العُماني، ثم سيركز المحور الثاني للحديث عن سفينة شباب عُمان الأولى.

أولاً: لمحة تاريخية لتاريخ عُمان البحري وجهود صاحب الجلالة السلطان قابوس لإحياء التراث البحري العُماني

١/١-تاريخ عُمان البحري:

إن موقع عُمان الاستراتيجي مَكنَّها من أن تكون جسرًا للتفاعل بين الحضارات القديمة المجاورة والمعاصرة لها، وقد لعب الساحل العُماني الطويل مساحة دورًا في تنوع هذا التفاعل، فتارة نجده مباشرًا وتارة يكون غير مباشر. فسَلْطَنَة عُمان تقع في الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وتطل على ثلاث مسطحات مائية مهمة، هي الخليج العربي وبحر عُمان وبحر العرب، وهي بهذا الموقع منفتحة على طول ساحل يتجاوز ٦ آلاف كم على المحيط الهندي، مما أهَّلَها منذ القدم للعب دور بحري ريادي سواء من الناحية التجارية أو من الناحية العسكرية. ولا ننسى أن هذا الموقع ساهم بصورة طبيعية في نشوء موانئ ساحلية ازدهرت مدنها وذاع صيتها.

يرى بعض الباحثين أن عُمان كانت مركزًا مهمًا للملاحة البحرية والتجارة البحرية منذ استقرار الدولة العربية الإسلامية حتى أوائل القرن الرابع الهجري[١]، وفي هذا يقول العالم الروسي أندريه شيغاكوف يقول: "إن العُمانيين كانوا أول أمة عبرت مياه المحيط الهندي، وقد فعلوا ذلك قبل الفينيقيين والمصريين والفرس والهنود والصينيين واليونانيين والرومانيين بزمن بعيد، مؤكدين على أن السفن العُمانية قد كان لها الأولوية في اكتشاف الكثير من دول وجزر المحيط الهندي"[٢]. وقد جاء في إحدى اللوحات البابلية القديمة (٢٣٠٠ق.م) أن سرجون الأكادي يعبر عن فخره واعتزازه بحضارة بلاده ونجاحها في استقطاب التجار من كل من مجان ودلمون وملوخا، ويوضح النص كذلك أن مجان كانت المحطة الكبرى في الطريق إلى ملوخا. أما اللوحات المسمارية التي تلي بتاريخها هذا النص فقد أسهبت في ذكر مجان، التي اقترن اسمها دائما بالتجارة لاسيما النحاس، كما يوضح نصًا أخر من مدينة الاغاش السومرية يعود لسنة ١٠٥٠ق.م، إن أحواض موانئ مجان كانت مراكز لبناء السفن وتجهيزها، وتشير تلك الوثائق التاريخية إلى أن بلاد ما بين النهرين كانت في تلك الحقبة مركز الصناعة في العالم، وإنها كانت تستورد النحاس وهو مادة صناعية أساسية من مجان[٣].

بالإضافة إلى الوثائق المسمارية حول التجارة البحرية تدل مجموعة المدافن الأثرية التي اكتشفت مؤخرًا في عُمان على أن حضارة مجان قد عرفت خلال الحقبة الواقعة بين سنتي ٢٨٠٠ و١٨٠٠ق.م، ازدهارًا حضاريا تمثل بالأساليب الصناعية والفنية الراقية والمتطورة بمقاييس العصر، وبكثرة القرى الزراعية في المناطق الداخلية من البلاد[٤]

ومهما كان الأمر فإن العُمانيين كثرت الإشارة إليهم باشتغالهم بالملاحة وتفوقهم فيها، فالجاحظ مثلاً يصف أزد عُمان بأنهم ملاحون[٥]، وذكرت المصادر الجغرافية والتاريخية على حد سواء امتداد نشاط العُمانيين البحري بعد الإسلام، ومساهمتهم كذلك في الفتوحات الإسلامية البحرية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، حينما أرسل حملة بحرية بقيادة الوالي عثمان بن أبي العاص سنة (١٦هـ/ ٦٣٢م) منطلقة من صحار ومسقط في حملة ضافره على ساحل الهند الغربي. وذكرهم المسعودي كذلك في إطار ذكره للمحيط الهندي، فيقول: "له خليج متصل بأرض الحبشة ويسمى الخليج البربري... وأهل المراكب

من العُمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج...وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عُمان عرب من الأزد... وينتهي هؤلاء في بحر الزنج إلى جزيرة قنبلو... وإلى بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج والأسافل من بحرهم"[٦]. وقد وصفت بلاد سفالة وهي في كينيا حاليًا بأنها مقصد المراكب العُمانية. كما قيل كذلك أن عدد المراكب التي كانت تصل بلاد الزنج عام ٣٣٢هـ من عُمان وحدها ستة عشر مركبا، انكسر منها واحدًا في طريق الرحلة[٧].

إن إشارة المسعودي تدل على أن تلك الملاحة لم تظهر فجأة في زمنه بل كانت استمرار لنشاط يرجع إلى أزمنة قديمة... ومن الطبيعي أن العُمانيين كانوا يتاجرون أيضًا مع المحطات الملاحية والتجارية التي تقع على طريق الصين، وقد ذكرت المصادر هذه المحطات وأشارت إلى تجارة العُمانيين، وأهم هذه المحطات هي كله، وقد وصفها ياقوت بانها فرضة بالهند وهي منتصف الطريق بين عُمان والصين[٨]. وكانت مراكب العُمانيين تزور معظم الموانئ في المحيط الهندي وتتاجر معها، فقد ذكرت المصادر أن مراكب عُمان وصلت إلى الصنف ومنصور وسرنديب وصندابور وسندان، كما كانت سفنهم تزور ميناء الديبل باستمرار[٩].

(١/١) ١-التضاريس:

كان للتضاريس دورًا في إيجاد مواقع بحرية لإقامة الموانئ، ودورًا محوريًا في توجيه العُمانيين نحو البحر، وذلك بفضل الحماية الطبيعية التي توفرها تلك السلاسل الجبلية للسفن من خطر الرياح وما يصاحبها من أمواج عاتية. أضف إلى هذا عامل المناخ الذي كان لتنوعه دورًا في تسهيل حركة السفن، والذي جعل الإبحار سهلاً ومريحًا في مختلف فصول السنة، كذلك كان لطبيعة السواحل العُمانية وتنوعها بين السواحل الرملية والجبلية، أهمية لنشأة مواقع لصناعة السفن، فلا نجد على تلك السواحل عوائق تضاريسية كالأخاديد أو المنحدرات الجبلية الصعبة. وكذلك وجود الجزر البحرية يعتبر عامل إيجابي مهم للملاحة البحرية، حيث مثلت المحطات التجارية للأسطول للتزود بالماء والمؤن كجزيرة مصيرة وأم الغنم والديمانيات[١٠]. لقد تميز كل ميناء من موانئ عُمان بوجود الظهير القاري، أي بمعنى المجال الحيوي لسكان الميناء والمنطقة لتصريف جزء من الواردات، وتجهيز ما يلزم التجار وعمال الشحن من مواد الغذاء، فالباطنة والظاهرة ظهير قاري لصحار، والداخلية ظهير قاري لمسقط، والشرقية ظهير قاري لصور، وظفار ظهير قاري لمرباط[١١].

(١/١) ٢-صناعة السفن:

لقد تلازم ظهور صناعة السفن بالمكانة الملاحية والتجارية التي وصلت إليها عُمان. وكان العُمانيون يتبعون في صنع سفنهم التقاليد السائدة في صناعتها في المحيط الهندي والتي تتميز عن صناعتها في البحر المتوسط من حيث أن سفنها كانت تخرز بالألياف وتشد ولا تسمر بمسامير الحديد. وكان العُمانيون يحضرون الخشب من الهند، وفي أحيان كثيرة كانوا يذهبون لصناعتها هناك، وهذا واضح من كلام أبي زيد الذي يذكر أن بعض العُمانيين كانوا يقصدون الجزر التي تنتج جوز الهند، وكانوا يقطعون خشب النارجيل بالآت نجاره، فإذا جف قطع ألواحًا، ويفتلون من ليف النارجيل ما يخرزون به ذلك الخشب ويستعملون منه مركبًا وينحتون منه أدق لآلي وينسجون من حوضه شراعًا، ومن ليفه حزابات وهي القلوى... فإذا فرغوا منه جميعه شحنت المراكب بالنارجيل فقصد بها عُمان فبيع"[١٢]. ونستنتج من هذا النص أن مادة السفن كانت خشب النارجيل، إلا أنه سابقًا صنع العُمانيون القوارب الصغيرة المسماة بالمدرعة وصَدَّروها إلى بلاد العرب، كما تشير إليها المصادر، وكانت المادة الخام للسفن الشراعية هي جذوع النخيل أو سعفه أو البوص[١٣]، كما استعمل الساج الذي يتميز بصلابته ومتانته كي يستطيع المقاومة وتحمل العوامل والتأثيرات الجوية والبحرية القاسية، وهو يستورد من الهند، وما زالت صناعة القوارب والسفن قائمة في عُمان حتى اليوم.

ويذكر في هذا الاطار أن أهل كانتون كانت تثير إعجابهم ضخامة سفن العُمانيين التي رست في الميناء، حيث كان علوها في بعض الأحيان يبلغ حدًا يضطر الناس لاستعمال سلالم يبلغ ارتفاعها عشرات من الأقدام ليصعدوا إلى سطحها، وأطلق اسم "السفن الصينية" على هذه السفن رغم أن الشواهد تثبت أنها لم تكن لأهل الصين، لأنه لا يوجد ما يدل على وصول الملاحين الصينين للمياه العربية، وكذلك ما ذكرت هذه السفن مع تدمير مراكز المسلمين التجارية في الصين، والراجح أن تسميتها بالسفن الصينية تعود إلى استخدامها في التجارة مع الصين، وأن ملاحيها من أهل عُمان[١٤]. ويذكر في هذا السياق أن حكام الصين كانوا يولون رجالاً من المسلمين للحكم في الخلافات التي قد تحدث بينهم وبين أهل الصين، وهو

أمر كان يرتاح له المسلمون[١٥]. وقد ذكرت المصادر عدداً من النواخذة العُمانيين، ومنهم يزيد العُماني ناخوذة الزنج، وجعفر بن راشد المعروف بابن لاكيس وهو ربابنة الذهب ونواخذته المشهورين، ومردانشاه أحد نواخذة بلاد الفلفل، ومحمد العُماني، والنوخذاه اسمعيلويه بن ابراهيم بن مرداس، والربان عمران الأعرج[١٦].

وهكذا فإن أهل عُمان لم يقتصر نشاطهم على الملاحة، بل امتد إلى مختلف جوانب النشاط التجاري البحري، فكان بعضهم يدير السفن ويبحر فيها، وبعضهم يمتلك السفن ويستخدمها لنفسه أو لمَنْ يؤاجره، وبعضهم يقوم بالتجارة أيضًا، وهذا مكنهم من القيام بنقل سلع أفريقيا والهند والشرق الأقصى مباشرة دون الاعتماد على العناصر الأخرى. وهناك عامل مهم علينا ألا نغفله، وهو متمم للعامل الجغرافي ألا وهو العامل البشري. فقد استطاع الإنسان العُماني أن يتعامل مع مكونات بيئته، واستغلالها خير استغلال. والأدلة الأثرية توضح أن استقرار الإنسان في عُمان يعود إلى حقب تاريخية قديمة، إلا أن الاستقرار الجماعي للبشر عرف خلال فترة لاحقة، وتعد مستوطنة رأس الحمراء من أقدم المستوطنات البشرية إذ يعود تاريخها إلى الألف الرابعة ق.م، وحجمها كان ٥٠٠*٦٠٠ مير مربع[١٧]. وقد استغل العُماني بيئته وموادها خير استغلال، فازدهرت صناعات عده فيها كالفخاريات التي تدل التنقيبات الأثرية للفخار المكتشف أنه يعود إلى حِقبتي أم النار والحديد، بل إن هذه الصناعات كانت متطورة بما تحتويه من رسوم ونقوش، ووجدت في مواقع متفرقة في عُمان، مثل عملا وبات وميسر وسمد وطوي سليم[١٨].

جميع هذه العوامل عملت على استقرار الأحوال الأمنية في عُمان، فالأوضاع الأمنية في أي بلد تحدد توجهاتها الحضارية، فالاستقرار السياسي يمثل ركيزة أساسية لازدهار العوامل الأخرى كالاقتصاد مثلاً، لتصبح محطة جذب للتجار وغيرهم، يقول النبي (ﷺ): "من تعذر عليه الرزق فعليه بعُمان، كما دعا عليه الصلاة والسلام لعُمان بتوسع السيرة وازدهار التجارة"[١٩]. يقول هاملتون إن العُمانيين فرضوا هيبتهم على الساحل كله، من رأس كومورين في أطراف شبه الجزيرة الهندية حتى البحر الأحمر، وامتد نفوذهم إلى الخليج، حيث ملأوا الفراغ الذي أحدثه انهيار سلطة الفرس، واستردوا البحرين في عهد اليعاربة في العام (١١٢٩هـ/١٧١٧م)[٢٠].

(١/١) ٣-الموانئ العُمانية:

أهم الموانئ العُمانية خلال التاريخ:

ميناء عُمانا: أثيرت الكثير من التساؤلات حول موقع عُمانا الميناء، ويذهب البعض انه يقع على الخليج العربي، وهو طرح فيه الكثير من التسرع، رغم أن صاحب الطواف يقولها صراحة، أن موقع عُمانا يقع على مسافة ستة أيام من مدخل الخليج، وهنا ظن البعض أن المقصود بالخليج الخليج العربي بينما الأصح انه يقصد خليج عُمان/ بحر عُمان[٢١].

ميناء أكيلا: يذكر جاليوس بلينوس الثاني، هذا الميناء كأحد الموانئ العُمانية النشطة في العصر السلوقي، حيث يقول: "إن السفن التجارية التي كانت تنطلق من أكيلا الواقعة قرب رؤوس الجبال متجهة إلى الهند، وترى أسمهان الجرو أن بلينوس قد يكون خلط بين رأس الحد ورأس مسندم، ويشترك البعض معها من أن أكيلا هي ميناء قلهات[٢٢].

ميناء مسقط: أورد كلوديوس بطليموس (ت:١٥٠م) في جغرافيته إشارة هامة عن ميناء يقع على الساحل بعد سلسلة جبال حجر عُمان الوسطى، وأسماه الميناء الخفي، وهذا الرأي اتفق معه فيه العالم الجغرافي جروم ويعتبره الميناء الرئيس لعُمان في عهد بطليموس، انا بليني فيشير إلى وجود ميناء على ساحل بحر عُمان أسماه أميثوسكاتا، ويذكر بوتس ان ميناء مسقط يعتبر من أشهر ميناء في المنطقة لتصدير جوز الطيب، حتى عرف في أوروبا باسم مسقطنوس (Muskatatnuss). ويطلق على قشرة جوز الهند ماكا نسبة إلى ماكيتا. ورغم حالة الركود الاقتصادي التي تشهدها المنطقة من حين لآخر، إلا أن النشاط التجاري نادرا ما يتأثر به العُماني، ورغم الاضطرابات السياسية التي عكرت صفو الدولة البوسعيدية إلا أن الاقتصاد العُماني تميز بالازدهار والانتعاش، وهذا يرجع إلى عدة عوامل أهمها نشاط الملاحين العُمانيين الذين كانت أساطيلهم تجوب البحار، الذين استفادوا من تدهور نشاط الموانئ الإيرانية لدعم ميناء مسقط باعتباره المركز الأول للتجارة في البحر العربي وخلجانه[٢٣].

ميناء مطرح: يعتبر ميناء مطرح القريب من ميناء مسقط الميناء الرئيس لعُمان، لذا لعب ميناء مطرح دورا هاما في النشاط الاقتصادي العُماني، حيث كانت السفن ترد إليه من مختلف بقاع الأرض شرقها وغربها، وساعد في ذلك السوق التجارية النشطة في مطرح. وميناء مطرح كان يربط بين موانئ الشرق في الهند

والصين وأفريقيا ومن ثم أوروبا وأمريكا مع موانئ الخليج العربي، وحتى تلك السفن التي كانت في طريقها في موانئ البحر الأحمر كانت تلقي مراسيها في ميناء مطرح، ويعتبر ميناء مطرح منذ فجر التاريخ وحتى منتصف القرن العشرين الميلادي المصدر الرئيس للدخل الحكومي في عُمان، وذلك نتيجة إقبال السفن عليه رغم بساطة الضرائب المقررة عليها[٢٤].

صحار: تعتبر صحار من أبرز وأقدم الموانئ العُمانية التي تطرق إلى ذكرها العديد من المؤرخين والرحالة، وخاصة في فترة ما قبل الإسلام والفترة التي تلته، ففي العصر العباسي أصبحت صحار مركز التقاء السفن التجارية والقوافل البحرية، وذلك باعتبارها محطة لتمويل السفن وسوقًا تجاريًا، ولا يمكن إغفال الموقع الجغرافي المتميز لولاية صحار على بحر عُمان، والذي اكسبها انتعاشًا اقتصاديًا وتجاريًا وملاحيًا وثقافيًا على مر العصور، فقد تمكنت صحار من استغلال ظروفها الجغرافية والبشرية وأحوال العالم الإسلامي لتتبوأ مكانة هامة في العالم الإسلامي، من خلال وساطتها الحضارية بصورة عامة، والتجارة بصورة خاصة، فكانت ميناء عُمان التجاري في المحيط الهندي والعالم الوسيط بأسره[٢٥]. كانت صحار محل صراع مستمر بين العُمانيين والأطماع الفارسية، فعند ظهور الإسلام كانت صحار تحت سلطة الفرس، يقول الأمين: "عند ظهور الإسلام كان شيوخ بني الجلندى يحكمون عُمان ويدينون بالولاء إلى الفرس المتواجدين في صحار والرستاق، ومع مجيء الإسلام استعاد العُمانيون ميناء صحار والأراضي الزراعية في منطقة مزون، واستولوا عمليًا على جميع الامتيازات البحرية التي كان الفرس يتمتعون بها"[٢٦]. يصفها الجغرافيون المسلمون بملامح تعكس أهميتها الجغرافية والتجارية في ذلك الزمان، فالاصطخري مثلاً يقول: "وهي على البحر وفيها متاجر البحر وقصد المراكب... وهي أعمر مدينة في عُمان وأكثرها مالاً. ولا تكاد تجد على بحر فارس وفي جميع بلاد الإسلام مدينة أكثر عمارًا ومالا من صحار". ويقول المقدسي: "صحار مدينة ذات هواء طيب وخيرات كثيرة، وهي بلد عامر آهل حسن طيب، ذو يسار وتجار وفاكهة حسنة، حيث لا يوجد على بحر الصين بلد أجمل منها... وهي خزانة الشرق والعراق، ودهليز الصين، ومغوثة اليمن". وظلت صحار ذات مكانة سياسية واقتصادية كبيرة حتى مطلع العصر الحديث.

صور: من أقدم المدن الساحلية العُمانية، وتتمتع بأهمية سياسية وتجارية كبيرة، ويمثل ميناء صور قلب المحيط الهندي وكان أي اتصال بين أجزاء المحيط الهندي وأقاليمه لا يتم إلا بعد المرور بالسواحل العُمانية بشكل عام، وميناء صور بشكل خاص[٢٧]. وهناك العديد من العوامل التي أهَّلَت صور لتولي هذه المهمة، منها موقعها، فهي أقرب مدينة عُمانية للهند، وعندها تبدأ نقطة الانعطاف بين بحر العرب وبحر عُمان عند رأس الحد، بالإضافة لاحتوائها على ثلاثة موانئ طبيعية صالحة للرسو والصيانة والتموين، يضاف إلى ذلك توفر الأيدي العاملة الماهرة في صناعة السفن وصيانتها، وسهولة نقل البضائع من صور إلى مناطق عُمان الداخلية، وأخيرا خبرة أهل صور بفن الملاحة والأسفار الطويلة[٢٨].

يذكر أنه في عهد النهضة المباركة وفي عام ١٩٧٠م، كان تجار صور يمتلكون ٨٦ قاربًا، ومن ثَمَّ تناقص هذا العدد بسرعة، حتى وصل إلى مركب واحد بعد شق وتعبيد الطريق بين مطرح وصور في سنة ١٩٧٧م[٢٩]، بصورة اختصرت الوقت اللازم لقطع المسافة بين المدينتين إلى النصف، أي إلى أقل من خمس ساعات، مما شجع على نقل البضائع برا من ميناء السلطان قابوس بمطرح إلى صور وما جاورها من الولايات.

ميناء سمهرم: يقع هذا الميناء في الجهة الشرقية لمدينة طاقة، وهو من أهم الموانئ في جنوب شرق الجزيرة العربية وخاصة تجارة اللبان منذ أقدم العصور التاريخية. وقد تم من خلال التنقيبات الأثرية العثور على عدد من المخطوطات ومعبد قديم وقطع نقدية وأثرية، تشير جميعها أن المدينة كانت على صلة تاريخية وحضارية بالهند وبلاد ما بين النهرين وبلاد النيل، وكذلك اتضح أن المدينة بنيت بالحجر الجيري، وتميزت بفن معماري جميل. وقد تم تصدير اللبان لمصر الفرعونية في عهد الملكة حتشبسوت في القرن ١٥ قبل الميلاد وإلى ملكة سبأ من هذا الميناء[٣٠].

ريسوت: يقع على بعد ٥٠٠ ميل إلى الجنوب الغربي من صور، وهو الميناء الحديث الوحيد بين عدن ومطرح، وثالث ميناء عُماني قادر على استقبال السفن الأجنبية. ولا يبعد أكثر من ١٢ ميلاً من مدينة صلالة في ظفار، حيث يعيش قسم كبير من العُمانيين في مناخ طبيعي يختلف عن مناخ بقية البلاد. إذ تتعرض محافظة ظفار لأمطار موسمية بفعل حركة الرياح الجنوبية الغربية، وتكسوها الخضرة معظم أيام السنة خصوصًا

بين حزيران/ يونيو، وتشرين الثاني/ نوفمبر، ولا توجد إحصائيات لعدد المراكب التي كانت تصل إلى صلالة سنويا قبل بناء ميناء ريسوت، الذي وصله حوالي ٧٤٠ مركبًا كبيرا خلال سنة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، لكن كما يبدو أن هذا العدد انخفض بنسبة ٩٠% خلال السنوات الأربع التالية[٣١]، وقد يكون تزايد استخدام الطرق البرية والسفن التجارية الحديثة التي تحولت بصور أساسية إلى ميناء السلطان قابوس بمطرح دورا في ذلك. أو نمو موانئ إقليمية أخرى.

ولجميع هذه الأسباب كان لعُمان دورًا حضاريًا في التاريخ البشري منذ القدم، وضربوا أروع الأمثلة في الجرأة والشجاعة، وتميزوا بالأخلاق العالية، وظلوا يجوبون البحار، ويمخرون عباب المحيطات حتى أصبحوا أبطالا لقصص وروايات، تتناقلها الأجيال، ويذكرها الكثير من المؤرخين والرحالة. وقد واكب كل هذا بروز حركة التأليف في الملاحة البحرية، وإدخال العديد من الأجهزة الملاحية كالإسطرلاب والبوصلة وآلة الكمال وخشبات ابن ماجد، بالإضافة إلى إدخال طرق جديدة في صناعة السفن نتيجة التأثر بما تم تأليفه في هذا الجانب[٣٢]. ومع وصول السلطان قابوس بن سعيد المعظم لسدة الحكم في ٢٣ يوليو من عام ١٩٧٠م، بدأت البلاد تشهد عمليات تطوير وتنمية على مختلف الأصعدة. فقد تم إنشاء ميناء السلطان قابوس عام ١٩٧٤م، ورغم أنه لا توجد أرقام لعدد المراكب في الميناء والتي كانت ترسو عليه آنذاك، إلا أنه وبعد عام واحد فقط من افتتاحه أي في عام ١٩٧٥م، بلغت عدد السفن التي زارت الميناء حوالي ٤٦٣ سفينة شحن كبيرة، بلغت حمولة أكبرها حوالي ٢٨٠ طنًا[٣٣].

٢/١-جهود صاحب الجلالة في إحياء التراث البحري العُماني:

ينطلق فكر السلطان قابوس من إيمانه الراسخ بتاريخ عُمان، وتراثها المجيد، وأهمية إحيائه حاضرًا للأجيال القادمة، ولهذا حرص صاحب الجلالة على التأكيد المستمر على أهمية التاريخ، من خلال خطاباته السامية في مناسبات مختلفة، ومن ذلك قوله: "نود ونحن على مقربة من تلك السواحل المُضمَّخةِ برائحة السفن العتيقة، أن نُعبرِّ بادئ الأمر عن اعتزازنا العظيم بتاريخ عُمان البحري، الذي سَطَّرتُه تلك الصواري الشامخة، التي اندفعت في ذلك الماضي الموشَّ بالمجد من مختلف الموانئ العُمانية، تمخر العُباب المتلاطم في طُموح فَتِي، مُجسِّدةً قوة هذا البلد، وقدرته وهيبته وعزته ورغبته في التواصل مع حضارات العالم كلها، القريبة منها والبعيدة"[٣٤]. فجاءت الأوامر السامية بتسيير عددًا من الرحلات، المحددة الأهداف لتعيد رسم تاريخ السفن العُمانية القديمة، على خطى الأسلاف، ومن أهم هذه الرحلات:

(٢/١) ١-السفينة صحا:

وهي أولى السفن الشراعية التي بنيت عام ١٩٨٠م على نفقة جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم حفظه الله ورعاه، وقادها القبطان تيم سيفرين، يعاونه عددًا من البحارة العُمانيين. واتخذت الرحلة من أسطورة رحلات السندباد السبع أنموذجا، والتي يقدر أنه قام بها بين أعوام ٧٨٦ و٨٠٩ م، وجاءت ضمن قصص شهرزاد قصص ألف ليلة وليلة. انطلقت السفينة صحار من مسقط في ٢٣/ ١١/ ١٩٨٠م، عابرة بحر العرب، متجهة إلى الهند، لتدور حول جزيرة سريلانكا، مواجهة الظروف المناخية الصعبة، قاطعة الطريق نحو جزيرة سومطرة ومضيق ملقا، ومع وصول السفينة إلى بحر الصين، اتجهوا إلى نهر اللؤلؤ، ومنه إلى ميناء كانتون في الصين في ١١ يوليو ١٩٨١م، والرحلة لم تكن دون مخاطر، ولكنها دلت على "مدى كفاءة البحارة العرب، وصول الملاحة العربية منذ زمن العصور الوسطى"[٣٥].

وتأكيدًا للتاريخ الملاحي العُماني، وبناءً على توجيهات من لدن صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد – حفظه الله ورعاه – قامت وزارة التراث و الثقافة، بصناعة سفينة عُمانية حسب النموذج الذي عرفت به السفن العُمانية في القرنين السادس والسابع الميلاديين، في مدينة صور العُمانية، وبنفس أسلوب صناعة السفن في تلك الفترة الزمنية، وهي الفترة التي كانت تصنع فيها السفن المخيطة، حيث لا استعمال للمسمار في تثبيت الألواح، وأطلق عليها السلطان اسم صحار، تيمنًا بالمدينة العُماني التي ارتبط تاريخها بالتجارة البحرية كسوق وملتقى للسفن من مختلف بقاع المعمورة، والسفينة صحار صنعت بأيدي صنَّاع السفن العُمانيين من أيناء مدينة صور. قامت السفينة صحار برحلتها من ميناء مسقط إلى ميناء مدينة كانتون، مستخدمة الأشرعة فقط، ومرت خلال رحلتها بمعظم الموانئ التي كانت تتوقف فيها السفن العُمانية[٣٦].

تحركت السفينة صحار من مسقط متوجهة للصين في عام ١٩٨٠م وحتى عام ١٩٨١. وكانت أشبه برحلات السندباد وكانت حدثنا مميزا وبارز لأنها وضعت تقاليدها البحرية في دائرة الضوء[٣٧]، والسفينة الآن

تقبع في وسط دوار البستان، لشاهدها الجميع. وبعد خروجها من مسقط مرت على ميناء مدينة صور ومنه إلى رأس الحد، ثم نحو الهند. وقد أثبتت السفينة صحار التي أبحرت بنفس مسار السفن العُمانية القديمة بقدرة وخبرة العُمانيين الملاحية. وكان قائد السفينة الملاح الإنجليزي تم تدريبه في صور من قبل النوخذا صالح بن خميس الغيلاني، الذي حدد له مسارات السفينة وكيفية التعامل مع الرياح والأمواج بالنسبة لهذا النوع من السفن المخيطة، ولأن السفينة سوف تبحر مستخدمة المهارات الملاحية الفلكية العُمانية القديمة، تدرب على كيفية استخدام أجهزة الكمال المستخدمة في تحديد موقع السفينة بالنسبة لخطوط الطول والعرض[٣٨].

إن علاقة العُمانيين بالبحر علاقة أزلية جدلية، حيث كان لهم الريادة في ارتياد البحار قبل ظهور الإسلام بزمن طويل، بل كانوا من طليعة رواد المحيطات في العالم، على مر العصور، وإن مجد عُمان وشهرتها التي كانت مصدر فخرها، إنما جاءت عن طريق ما كانت تقوم به من نشاط بحري وملاحي، تبادل العُمانيون من خلاله التجارة مع شهوب وأمم العالم وينتشرون دين الله بحسن الأخلاق والمعاملة. وتجسيدا لهذه الملحمة البحرية التاريخية، ورغبة من جلالة السلطان قابوس المعظم في إحياء الأمجاد البحرية العُمانية، كان التفكير في تسيير رحلة بحرية مشابهة للرحلات التي كان يقوم بها العُمانيون في القرون الماضية عبر تاريخهم البحري الطويل، وتم اختيار مدينة كانتون الصينية التي ربطتهما بعُمان روابط تجارية وثقافية لتكون المحطة التي تقصدها السفينة "صحار" لتكتب من جديد فصول هذه الملحمة التاريخية البحرية العُمانية بمداد الإصرار والتحدي وحب المغامرة. في الثامن من عشر من نوفمبر عام ١٩٨٠م، نقل العُمانيون ٣٠٠ طن من الحصى لبناء رصيف على شاطئ مدينة صور العُمانية، يرتفع عن مستوى المياه بحوالي متر واحد، ليكون هذا الرصيف موقعًا للعمل في بناء وتشييد "سفينة السندباد". استمر العمل على أيدي ثلاثين رجلاً لعشر ساعات يومًا، ولستة أيام بالأسبوع، وعلى مدة ١٦٥ يومًا[٣٩]. وتم بناؤها بواسطة الأسلوب العُماني القديم الذي يعتمد على تثبيت الألواح الخشبية بالحبال. وأخيرًا ظهرت السفينة" صحار" أطلق عليها هذا الاسم بأمر صاحب الجلالة السلطان قابوس المعظم، تيمنا باسم صحار، عاصمة عُمان وأهم موانئها في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. استغرق بناء السفينة ١٦٥ يومًا من العمل الشاق، بعد أن استخدام في صناعتها ١٤٠ طنا من خشب/ الآني، من غابات الهند، واحتاجت السفينة صحار إلى قشور أكثر من ٧٥ ألف (جوزة الهند) وأربعة أطنان من حبال ألياف جوز الهند لتربيط الأشرعة والصواري والمراسي. وقد حملت السفينة سارية رئيسة، بلغ طولها ٧٥ قدما، وقد كان الهدف من بناء السفينة "صحار" أن يطابق تصميمها مركب البوم، وفقًا للخصائص المعروف بها أن يكون بناؤها بلا مسامير، أن تكون ثلاثية الشراع، أن تكون مزدوجة الطرفين. واستخدام في بناء السفينة الطرق التقليدية، ابتداء من طاقم العمال من نجارين وصناع حبال ومتخصصين في ربط أجزاء السفينة بحبال ألياف قشر جوز الهند، وكان هؤلاء العمال كأسلافهم لم يستخدموا الرسوم في صناعة السفينة، لكنهم كانوا يعتمدون في عملهم على خبرتهم ونظرهم المجرد. انطلقت السفينة صحار في تمام الساعة الحادية عشر من صباح الثالث والعسرين من نوفمبر ١٩٨١م، وعلى ظهرها عشرون بحارًا اغلبهم من العُمانيين، تحت قيادة المغامر الأيرلندي تيم سيفرن[٤٠]. تواصل السفينة صحار إبحارها وتحديها للمستحيل، الذي اضطر أن ينحني أمام عبقرية الإنسان العُماني، الذي لا يعرف المستحيل، وعند وصول السفينة صحار إلى ميناء كانتون في الصين، بعد أن قطعت مسافة ٦٠٠٠ ميل، في مركب بدون محرك، في رحلة استغرقت ٨ أشهر تقريبًا، كانت قد وصلت في نفس الوقت إلى تأكيد حقيقة تاريخية بحريه، وهي أن البحار العُماني بسفينته المثبتة بحبال العزم والإصرار والتحدي، قد كانت له صولات وجولات تشهد له بها بحار الدنيا. وصفقت الصين ومعها العالم كله، لهذا الإنجاز العُماني، وأقامت احتفالاً بهذه المناسبة التاريخية كتحية رسمية من حكومة الصين، كما أنها أقامت احتفالاً ثانيًا، بمناسبة الذكرى العاشرة لوصول السفينة صحار إلى ميناء كانتون، وبإكمال الرحلة بنجاح، أكد العُمانيون بأنهم قد قاموا بأطول رحلاتهم البحرية، وأعظمها بهذه السفينة المخيطة، وتحولت أسطورة رحلة السندباد إلى واقع استطاع الملاح العُماني أن يقدمه للعالم أجمع ليرى بأم عينه بعضًا من الأمجاد البحرية العُمانية، متجسدة في هذه الرحلة التي تكررت بعد ١٠٠٠ عام. وتعتبر السفينة صحار حاليًا من معالم مدينة مسقط، حيث تقف شامخة في وسط أحد الميادين الهامة التي تتحكم في مفترق الطرق

المؤدية إلى مدينة مسقط، مجددة الأمجاد التليدة، والآمال في مستقبل أكثر إشراقاً[٤١].

(٢/١) ٢-السفينة مجان:

مع نجاح السفينة صحار في تحقيق الأهداف المنوطة بها، عملت وزارة التراث والثقافة على إعداد سفينة أخرى، أبعد زمنا في التاريخ من السفينة صحار، وتم صناعتها بنفس أسلوب السفن العُمانية البدائية التي يعود تاريخها إلى ما قبل الميلاد، وقد تمت صناعة السفينة في مدينة صور التاريخية بذات الأدوات والآلات التي كانت تصنع فيها قديما، وكان من المقرر أن تبحر مجان من صور إلى الهند بنفس المسار القديم لهذا النوع من السفن، إلا أن الرحلة لم تكلل بالنجاح لضعف خبرة قائد السفينة مع هذا النوع من السفن[٤٢]، فغرقت مباشرة بعد خروجها من الميناء بكيلومترات.

ثانيًا: سفينة شباب عُمان الأولى سفيرة المحبة والسلام

جاء اقتناء سفينة شباب عُمان الأولى، من خلال رؤية صاحب الجلالة حفظة الله في إحياء التراث البحري العُماني، وإتاحة الفرصة للشباب للتدرب على الإبحار الشراعي شأنهم في ذلك شأن أجدادهم وتاريخهم الحافل بالأمجاد العظيمة، وقد توافقت هذه الرؤية مع عرض السفينة (كابتن سكوت) للبيع في الصحف الإنجليزية، فجاءت الأوامر السامية في عام ١٩٧٧م، بشرائها. وقد كانت هذه السفينة قد بنيت عام ١٩٧١م من قبل شركة هيرد آند ماكينزي في مدينة بيكي بمقاطعة بانفشاير شمال شرق إسكتلندا، بهدف صقل مهارات البحارة عبر العالم، وإمدادهم بالخبرات والمهارات اللازمة لخوض غمار البحار، وسميت بكابتن سكوت[٤٣]، وتعتبر السفينة سكوت من أطول السفن الشراعية في العالم، وقد تم صناعتها من أفضل الأخشاب في إسكتلندا ثم سميت سفينة شباب عُمان مع التحاقها بوزارة الشباب في السلطنة[٤٤]

وأما عن أسباب اقتناء هذه السفينة فهو تدريب الشباب العُماني على الإبحار الشراعي التقليدي، وذلك للمحافظة على الموروث البحري العريق الموغل في القدم. وقد جاء شراء هذه السفينة، لتقوم بمهام التدريب الشراعي التقليدي وتنفذ دورات إبحار ومغامرة. وقد جاءت الفكرة لتطبيق وتنفيذ فكرة دورات الإبحار والمغامرة للشباب العُماني على غرار ما كانت تقوم به السفينة سابقًا.[٤٥] وقد تم استقبال السفينة عند وصولها من قبل وزير الشباب آنذاك السيد فهر بن تيمور آل سعيد رحمه الله، ولهذا كانت تتبع وزارة الشباب في وقتها، ويتكون طاقمها من التلاميذ المرشحين التابعين للبحرية السلطانية العُمانية، وعدد من الضباط البريطانيين المرشحين، ثم نقلت تبعية السفينة للبحرية السلطانية العُمانية عام ١٩٧٩م.[٤٦]

وجاء نقل تبعية السفينة من وزارة الشباب آنذاك إلى بحرية سلطان عُمان - وهو الاسم الذي كانت تعرف به البحرية السلطانية العُمانية في ذلك الوقت- وذلك لسهولة إدارتها وصيانتها من قبل جهة بحرية متخصصة، ولتكون إحدى قطع الأسطول البحري العُماني، أضف إلى ذلك أن طاقم السفينة في بداية التحاقها في السلطنة كانوا في الأصل خليط من ضباط مرشحين وأفراد من بحرية سلطان عُمان وبعض الضباط المعارين البريطانيين وبعض الجنسيات الأخرى، وبالتالي كان حتميًا الحاق السفينة كإحدى قطع أسطول بحرية سلطان عُمان، مع البقاء على مهمتها في تنفيذ دورات الإبحار والمغامرة للشباب العُماني العسكريين والمدنيين[٤٧].

وكان الهدف الأساسي من اقتناء السفينة شباب عُمان هو الاهتمام بتدريب الشباب على الإبحار الشراعي، وتنشئتهم ليكونوا بحارة مهرة، ذووا شخصيات يميزها الضبط والربط العسكري، والنظام والطاعة، والثقة بالنفس، والقدرة على تحمل المسؤولية وسرعة التصرف والقيادة، إلى جانب التدريب النظري والعملي على معدات الملاحة وقراءة الخرائط واستعمال البوصلة، وتحديد اتجاه وسرعة الرياح وكيفية رفع الأشرعة وإنزالها، وإجادة السباحة واستخدام قوارب وأطواق النجاة والإنقاذ. وأصبحت خلال فترة وجيزة نجمة المهرجانات البحرية العالمية، فقد تلقت السفينة العديد من الدعوات من شتى دول العالم للمشاركة في مهرجاناتها السنوية سعيًا منها لرؤية السفينة شاخصة بين سفن العالم الشراعية. كما فازت بجائزة الصداقة الدولية عشر مرات خلال مدة خدمتها لتقوم بمهام التدريب البحري للضباط والجنود من قوات السلطان المسلحة والأجهزة العسكرية والأمنية الأخرى.[٤٨]

وقد قطعت السفينة منذ التحاقها بالبحرية السلطانية العُمانية آلاف الأميال، زارت خلالها دول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا وعدد من الدول الأوروبية والأسيوية. وتضطلع السفينة بدور ريادي قلما نجد له

نظيرًا، وهو إرساء أواصر الصداقة والإخاء والتفاهم بين السلطنة وشعوب الدول التي ترسو السفينة في موانئها من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن شمال الكرة الأرضية إلى جنوبها، ورغم موقع العالم العربي على محيطين كبيرين هما المحيط الهندي في الشرق والمحيط الأطلسي في الغرب، وما بينهما من بحار إلا أن سَلْطَنَة عُمان هي الدولة العربية الوحيدة التي تنفرد بهذا الدور الحضاري الذي تمارسه بكل جدارة واقتدار دون سواها من الدول العربية والإسلامية كافة[٤٩].

دورات الإبحار والمغامرة:

تقوم سفينة البحرية السلطانية العُمانية (شباب عُمان) بعقد دورات الإبحار والمغامرة للراغبين في تعلم الإبحار الشراعي من الشباب الذين لا تزيد أعمارهم عن ٢٥ سنة. وتستغرق كل دورة في اغلب الأحيان ثلاثة أسابيع إلا في حالة الرحلات الخارجية، فقد تصل الدورة الواحدة إلى ثلاثة أشهر أو اكثر، وتهدف دورات الإبحار والمغامرة إلى ترسيخ مبادئ العمل الجماعي، وفنون القيادة وتطبيقاتها، وغرس الثقة بالنفس لدى الشاب المغامر، وتعلم مبادئ الملاحة البحرية، وفنون ركوب البحر وتطبيقاته، وتعتبر اللياقة البدنية شرطًا أساسيًا للالتحاق بالدورة، حيث يخضع المتقدم للتدريب لفحوصات اللياقة البدنية، كما يتلقى المتدرب برنامجا تدريبيًا يهدف إلى غرس مبادئ السلامة البحرية، إلى جانب المحاضرات المتواصلة عن طبيعة العمل على متن السفينة والمهام المتنوعة المطلوبة من المتدرب القيام بها، مثل مكونات السارية والأشرعة والجبال والربطات أو العقد البحرية، وصعود السارية الذي يعتبر من أهم الأنشطة التي تأخذ جزءا كبيرا من التدريب نظرًا لما تمثله من أهمية قصوى في زرع الثقة بالنفس لدى المتدرب مع التركيز على مبادئ السلامة عند الصعود كاستخدام حبل الأمان والإجراءات اللازمة في الأحوال الجوية الصعبة. ويكون صعود الصواري بإشراف مباشر من الطاقة سواء أثناء رسو السفينة في الميناء أو من خلال الإبحار وكذلك هو الحال في عملية فرد الأشرعة أو طيها. وقد نفذت السفينة شباب عُمان عددًا كبيرا من الدورات خلال خدمتها في البحرية السلطانية العُمانية[٥٠].

وللسفينة شباب عُمان مميزات عديدة، فهي السفينة العربية الوحيدة التي تشارك في سباقات السفن الشراعية الطويلة السنوية، مما جعل استقبالها مختلفا في الموانئ التي تزورها، وقد أطلق عليها اسم سفينة المحبة والسلام خلال تجوالها في هذه الموانئ الدولية، وترسخت في الأذهان أن هذه سفينة جاءت تعكس واقع شعب عربي إسلامي عريق، شعب عرف بتاريخه البحري وأساطيله الضخمة التي مخرت عباب المحيطات والبحار. ومع تزايد مشاركة السفينة في هذه السباقات والمهرجات البحرية الدولية، أصبح المنظمون والمشرفون على هذه المهرجات ينظرون إلى مشاركة السفينة شباب عُمان كميزة تستقطب من خلالها مشاركات سفن أخرى، وتستقطب جماهير تتوافد من جميع بقاع العالم لزيارة السفينة والاطلاع على تاريخ عُمان البحري. وقد حصدت السفينة كأس الصداقة الدولية عشر مرات، وهو إنجاز لم تحققه أية سفينة شراعية في العالم. وتعتبر جائزة الصداقة الدولية التي تمنحها الجمعية الدولية للإبحار الشراعي في نهاية السباقات الشراعية السنوية هي أرقى جائزة تمنح لسفينة شراعية تشارك في هذه السباقات، وهي تمنح للسفينة التي يبذل طاقمها جهود متميزة في غرس مبادئ الصداقة والسلام والمحبة بين أطقم السفن الشراعية المشاركة، حتى أن أحد قادة السفن المشاركة في إحدى السباقات أكد "أن السفينة شباب عُمان متى ما شاركت بهذا الطاقم وبهذا الأداء وبهذه الأخلاق ستحتكر جائزة الصداقة الدولية للسفن الشراعية للأبد"[٥١].

ويتم تقييم السفن في هذه السباقات من عدة جوانب منها المشاركة في مراحل السباق وفق مسارات محددة مسبقًا، وجهود هذه السفن في الموانئ، والعلاقات مع السفن الأخرى، والأنشطة التي تقوم بها السفن، وأداء طاقم السفينة، وفي نهاية السباق يتم التصويت لأفضل سفينة حيث يكون لكل سفينة صوت، بدون تدخل اللجنة المنظمة، والتركيز في المجمل على السفينة التي استطاعت إرساء قيم الصداقة والسلام بينها وبين السفن الأخرى. وكانت شباب عُمان تدخل ضمن أنشطتها وضمن برنامج متكامل إبراز جوانب الحضارة العُمانية بمختلف جوانبها بما في ذلك الفنون الشعبية والأكلات التقليدية العُمانية، بالإضافة لمعارض متنوعة داخل السفينة، يستقبل فيها الزوار وأطقم السفن الأخرى. وذلك لجذب الزوار، والذي يدخل ضمن بنود التنافس للفوز في هذه المسابقة[٥٢]، فالتاريخ البحري العُماني عريق، ومع توجيهات حضرة صاحب الجلالة القائد

الأعلى لقوات المسلحة الداعية إلى نشر معاني ومبادئ الصداقة والسلام بين شعوب العالم، والاهتمام الكبير من قبل البحرية السلطانية العُمانية بالسفينة وطاقمها، بالإضافة إلى الجهود المضنية والإخلاص والتفاني لطاقم السفينة شباب عُمان، هي أسباب رئيسة لفوز السفينة شباب عُمان عشر مرات بجائزة الصداقة الدولية لسباقات السفن الشراعية الطويلة التي شاركت فيها السفينة على مدى تاريخ مشاركاتها.

ونظرًا لمبدأ التطوير والتحديث في قطع البحرية السلطانية العُمانية، فقد جاءت التوجيهات السامية لمولانا حضرة صاحب الجلالة القائد الأعلى للقوات المسلحة، باقتناء سفينة شراعية جديدة ذات مواصفات حديثة، تتميز بقدرات أوسع في مجال تدريب الإبحار الشراعي، حيث كانت السفينة " شباب عُمان الثانية" هي ثمرة هذه التوجيهات السامية، مما دعى في ٢٠١٥م إنهاء خدمات السفينة شباب عُمان. لتحمل السفينة شباب عُمان الثانية الراية وتواصل الدور العريق الذي رسمته السفينة شباب عُمان[٥٣]. وقد فتحت السفينة شباب عُمان خلال رحلاتها الدولية البالغة ثلاثة عشر رحلة دولية زارت خلالها أكثر من مائة وخمسين ميناء حول العالم أبوابها للزوار وبشكل متواصل أثناء رسوها في كافة المحطات والموانئ التي زارتها، وأقامت على متنها العديد من المعارض ذات الصلة بالموروث التقليدي العُماني، مدعمًا بمجموعة من الصور التي جسدت أوجه التطور للنهضة العُمانية. كما أبدع عازفو القرب من الفرقة المصغرة في السفينة في عزف المقطوعات الموسيقية وتقديم الاستعراضات للفنون الشعبية التقليدية. كما شاركت السفينة شباب عُمان في عروض المشاة البحرية لأطقم السفن التي نظمت ضمن فعاليات المهرجانات البحرية، ومن خلالها تجول طاقم ومتدربو السفينة وهم يرفعون علم السلطنة مرددين العديد من الأناشيد والأهازيج الحماسية بمصاحبة مقطوعات موسيقية من التراث العُماني والتي تجاوبت معها الجماهير أينما حلت " شباب عُمان".

وأفردت الصحف العالمية ووسائل الإعلام الأخرى مساحات واسعة حول مشاركات شباب عُمان ودورها الحضاري والثقافي في تعريف العالم بسَلْطَنَة عُمان حضارة وشعبا والمجهود الكبير لطاقم السفينة في نشر قيم المحبة والسلام بين أطقم السفن، وقد تصدرت سفينة البحرية السلطانية العُمانية شباب عُمان العناوين الرئيسية بعد أن حصدت العديد من الجوائز الدولية المهمة، ورصدت كذلك آراء وانطباعات زوار السفينة، إلى جانب حديثها في الوقت ذاته عن المسافة الطويلة التي تقطعها شباب عُمان من المياه العُمانية للمشاركة في المهرجانات البحرية الأوروبية والدولية، كما قامت العديد من قنوات التلفزة الحكومية منها والخاصة ببث تقارير تلفزيونية يومية تضمنت العديد من اللقاءات مع طاقة ومتدربي السفينة مستعرضة كذلك ما تحقق من منجزات على صعيد الإنسان والتنمية في العهد الزاخر لمولانا حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم حفظه الله ورعاه، إلى جانب الحديث عن اهم العادات والتقاليد العُمانية وتسليط الضوء على مختلف الفنون الوطنية التقليدية العُمانية. وقد قدمت السفينة شباب عُمان، العديد من الدورات في الإبحار والمغامرة لعدد كبير من الجهات الرسمية العسكرية والأمنية والمدنية، تهدف إلى تنمية القدرات الفردية للشباب وغرس مبدأ التحدي، وإبراز المواهب، وزرع الثقة، بالإضافة إلى كيفية التعامل مع الأشرعة، وإكسابهم الخبرات الملاحية اللازمة إلى جانب تعميق الجوانب الثقافية ذات الصلة بالتاريخ البحري، وتنظم على متن السفينة عدة دورات تدريبية داخلية من بينها دورة الإبحار والمغامرة التي يشارك فيها أفراد من أسلحة قوات السلطان المسلحة، والحرس السلطاني العُماني، وشرطة عُمان السلطانية، إضافة إلى بعض المؤسسات والدوائر الحكومية الأخرى[٥٤].

ومن أهم الشواهد على ما حققته السفينة شباب عُمان من تواصل حضاري ومعرفي، ما حدث في رحلة ٢٠٠٥م في رحلة النرويج حيث كانت توجد جاليات عراقية، وكان المنظور الأوروبي سيء للعالم العربي والإسلامي نتيجة أحداث ١١ سبتمبر٢٠٠١م، وكانت هناك هجمة مضادة ضد العرب عامة والمسلمين خاصة، ومع قدوم سفينة شباب عُمان للنرويج وما قامت به من فعاليات وأنشطة واستقبالها لأكثر من أربعة ٤ آلاف زائر يوميًا، حدث تحول وشعر به ليس طاقم السفينة وحدها وإنما كذلك العرب من الجاليات المختلفة بمن فيهم الجالية العراقية الذين عبروا عن ذلك لطاقم السفينة. وأما عن رحلة اليابان فقد تطوع أكثر من ٢٠٠ طالب لدراسة اللغة العربية للترحيب بالسفينة شباب عُمان، وقد استقبلوا السفينة بلافتة كبيرة جدًا باللغة العربية "أهلاً وسهلاً بسفينة البحرية السلطانية"، وقد كان الاستقبال حاشدًا في اليابان[٥٥].

خَاتِمَةٌ

إن التاريخ العُماني البحري جزء رئيس من تاريخ هذا البلد الحضاري، وكان لتميز العُمانيين ومقدرتهم الملاحية البحرية دورًا مهمًا في قيام الحضارة العُمانية قبل التاريخ. وقد خرجت هذه الدراسة بعدد من النتائج أهمها:

- إن التشجيع المستمر من لدن صاحب الجلالة – حفظه الله ورعاه – دورًا مهمًا في إحياء التراث البحري العُماني.
- تمثلت الجهود في إحياء التراث البحري بتسيير عدد من الرحلات البحرية التقليدية، فكانت السفينة صحار التي وصلت لميناء كانتون، مارة بطريق السندباد البحري الذي جاب البحار ناقلاً للبضائع بين شرق آسيا وغربها، متجاوزًا الظروف المناخية الصعبة.
- إن السبب الرئيس لغرق السفينة مجان في ٢٠٠٥م هو عدم قدرة قبطان السفينة على التعامل مع التيارات البحرية التي صادفته، مما أدى إلى انقلاب السفينة وغرقها.
- تمثل سفينة شباب عُمان نموذجًا متفردًا من حيث الفكرة والمضمون، فهي سفينة شراعية متطورة تزور الموانئ المختلفة.
- لعبت سفينة شباب عُمان دورًا كبيرًا ومهمًا حتى الآن في ترسيخ قيم السلام والمحبة، بمشاركاتها المستمرة في السباقات الشراعية الدولية، والتعريف بعُمان تراثًا وفكرًا وحضارة.
- استمرار حصد سفينة شباب عُمان لجوائز مختلفة في سباقات السفن الشراعية الدولية لدليل على مكانتها ونجاحها في أداء الرسالة المنوطة بها.

الهَوامِشُ:

(١) العاني، عبد الرحمن عبد الكريم. **دور العُمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري**. سلسلة تراثنا: العدد ٢٦. وزارة التراث والثقافة، مسقط: ١٩٨١م، ص٥.
(٢) الغيلاني، حمود بن حمد. **أسياد البحار**. ب.د: ٢٠١٥ ص ١٨.
(٣) الأمين، إسماعيل. **العُمانيون رواد البحار**. رياض الريس للكتب والنشر، بيروت: ١٩٩٠م، ص١١.
(٤) الأمين، نفسه، ص١٣.
(٥) العاني، نفسه، ص٦.
(٦) المسعودي، ج١، ص ١٠٧-١٠٨؛ الأمين، نفسه، ص٢٧.
(٧) العاني، نفسه، ص٧-٨؛ الأمين، نفسه، ص٢٨.
(٨) العاني، نفسه، ص ١٠؛ الأمين، نفسه، ص٢٩.
(٩) العاني، نفسه، ص ١١-١٢.
(١٠) القاسمي، خلفان بن مبارك. **تاريخ البحرية العُمانية في عصر دولة اليعاربة (١٠٥٩هـ/١٦٤٦م – ١١٣١هـ/١٧١٩م)**. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة السلطان قابوس، السيب: ٢٠١١م، ص ٢٧-٢٨.
(١١) الغيلاني، نفسه، ص٤٣.
(١٢) العاني، نفسه، ص ١٢-١٣؛ الأمين، نفسه، ص٣١.
(١٣) الغيلاني، نفسه، ص١٠٢.
(١٤) العاني، نفسه، ص ١٤ – ١٥.
(١٥) العاني، نفسه، ص٢١.
(١٦) العاني، نفسه، ص١٦.
(١٧) الغيلاني، نفسه، ص ٢٣.
(١٨) بوتس، دانيال، **تاريخ الخليج العربي في العصور القديمة**. ترجمة إبراهيم خوري. ج١. المجمع الثقافي، أبو ظبي: ٢٠٠٣، ص ٢٠١-٢٠٢.
(١٩) الأمين، نفسه، ص٣٥.
(٢٠) نفسه، ص٦١.
(٢١) الجرو، أسمهان سعيد. **الموانئ العُمانية ومساهمتها في التجارة الدولية**. مؤسسة عُمان للصحافة والنشر والإعلان، مسقط: ٢٠١١م، ص١٢٨.
(٢٢) الجرو، أسمهان سعيد. **مصادر التاريخ العُماني**. وزارة التراث والثقافة، مسقط: ٢٠٠٦م، ص ١٢٨.
(٢٣) الجرو، الموانئ، ص١٠٥.
(٢٤) الغيلاني، نفسه، ص٧٦.
(٢٥) نفسه، ص ٨٠.
(٢٦) الأمين، نفسه، ص٣٩.
(٢٧) قرقش، محمد. **صور ودورها الحضاري في عالم المحيط الهندي في فترة صدر الإسلام**. بحث منشور ضمن حصاد ندوة صور عبر التاريخ. وزارة التراث والثقافة، مسقط: ٢٠٠٠م، ص٤٣.
(٢٨) العريمي، ربيع بن عمير. **صور العُمانية: مهد الملاحة البحرية**. مطبعة المها للطباعة والقرطاسية، مسقط: ٢٠١٦م، ص٩-١٠.
(٢٩) الأمين، نفسه، ص٧٤.
(٣٠) الغيلاني، نفسه، ص ٨٢ – ٨٣.

(٣١) الأمين، نفسه، ص ٧٥.
(٣٢) القاسمي، نفسه، ص٣٣-٣٤.
(٣٣) الأمين، نفسه، ص٧٤.
(٣٤) البحرية السلطانية، **سفينة شباب**، ص١١؛ **من خطاب السلطان قابوس بن سعيد المعظم في احتفالات البلاد بالعيد الوطني**، ١٨ نوفمبر ١٩٩٦م، ولاية صور
(٣٥) اللجنة الوطنية والعلوم والثقافة للتربية. **عُمان واليونسكو: ثقافة التواصل والحوار**. مسقط: وزارة التربية والتعليم.عُمان واليونسكو: ٢٠٠٥م، ص ٢٦.
(٣٦) الغيلاني، نفسه، ص٣٨ -٣٩.
(٣٧) فورمان، ميجان. **جوهرة مسقط: وسط أعالي البحار في سفينة شراعية من القرن التاسع**. ترجمة نبيل عبد الرحيم. تلفزيون لينجوا فرانكا المحدودة، مسقط: ٢٠١٥، ص ١٤.
(٣٨) الغيلاني، نفسه، ص ٣٩ -٤٠.
(٣٩) السنهوري، إسلام. **السفن الشراعية والملاحة البحرية في عُمان**. القاهرة: مركز الراية للنشر والإعلام، ص ١٩٧.
(٤٠) السنهوري، نفسه، ص١٩٨.
(٤١) السنهوري، نفسه، ص١٩٩.
(٤٢) الغيلاني، نفسه، ص ٤٠- ٤١.
(٤٣) **البحرية السلطانية العُمانية**. (٢٠١٧م). **شباب عُمان: سفير المحبة والسلام**. مسقط: البحرية السلطانية العُمانية: ٢٠١٧م، ص ١١.
(٤٤) **التاريخ البحري العُماني**. (٢٠٠٢م). :www.nizwa.com www.nizwa.com
(٤٥) العقيد سيف بن ناصر الرحبي. (٦ يونيو, ٢٠١٨م). **سفينة شباب عُمان الأولى**. مقابلة بتاريخ ٦/ يونيو ٢٠١٨م .
(٤٦) البحرية السلطانية العمانية، مرجع سابق، ص٢٧.
(٤٧) الرحبي، نفسه.
(٤٨) البحرية السلطانية العمانية، مرجع سابق، ص٢٨.
(٤٩) نفسه.
(٥٠) البحرية، مرجع سابق، ص ٣٦، ٣٨-٤٥.
(٥١) الرحبي، مقابلة. (الرحبي، سفينة شباب عمان الأولى، ٢٠١٨م)
(٥٢) نفسه.
(٥٣) الرحبي، مقابلة.
(٥٤) إسلام، مرجع سابق، ص ٢٥٢-٢٥٣.
(٥٥) الجابري، صالح بن سعيد. مقابلة بتاريخ ٧ يوليو ٢٠١٨م.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مقالات

النشاط الاقتصادي لقبيلة الفراشيش في نهاية القرن التَّاسع عشر وبداية القرن العشرين وعلاقته باقتصاديات البلدان الأوروبية



محمد صلاح حقي
باحث في تاريخ الجزائر وتونس
مخبر دراسات – كلية العلوم الإنسانية
الجمهورية التونسية

مُلَخّص

تعتبر قبيلة الفراشيش المتمركزة في الوسط الغربي للبلاد التونسية من أشد القبائل التونسية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ومن أكبرها وزنًا ديمغرافيًا حتى أن "قاموس تونس المصور" الاستعماري الصادر باللغة الفرنسية سنة ١٩١٢" وصفها بـ"المشاغبة جدًا"، وقد لعبت هذه القبيلة دورًا مهمًا في تحريك الأحداث التاريخية في تلك الفترة لاسيما في علاقتها بقبائل الشرق الجزائري التخومية، ونظرًا لهذه الأهمية أردنا البحث في الجانب الاقتصادي لهذه القبيلة بعيدًا عن "شغبها" وشدّتها وعلاقتها ببقية القبائل التونسية الأخرى والجزائرية المتاخمة، فسلطنا الضوء على مكونات مجال الفراشيش (الوسط الغربي) ومناخه ووسطه الطبيعي وغطائه النباتي وخاصة نبتة الحلفاء التي توجد بكثرة في هذا المجال وما لهذه النبتة من إيجابيات باعتبار أنها تحولت إلى مادة حرفية معدة للتجارة وستكون فاعلة خلال القرن العشرين في فضاء الفراشيش نظرًا لكونها ستصبح حيوية باعتبار أنها أصبحت تُحَوَّلُ إلى ورق ومصدر رزق أهالي المنطقة. نتيجة لهذه الخاصيات حظيت نبتة الحلفاء ومن ورائها الغابات باهتمام كبير من قبل دولة الحماية (فرنسا) ويتجلى ذلك من خلال إصدار الأوامر والقوانين التي تعتبر كل غابات البلاد التونسية ملكًا للدولة على غرار أوامر ٤ أفريل/ أبريل ١٨٩٠ و١٣ جانفي/ يناير ١٨٩٦ و٢٢ جويلية/ يوليو ١٩٠٣ وبالأخص أمر ٢٣ أفريل ١٩١٥ الذي يسعى إلى تنظيم استغلال الغابات والمحافظة عليها وحراستها، بل ودخلت فرنسا في صراع مع إنجلترا في سبعينيات القرن التاسع عشر من أجل هذه النبتة حُسم لصالح هذه الأخيرة نظرًا لما تملكه من مصانع متطورة لتحويل الحلفاء.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٦	يونيو	٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر:	١٥	أغسطس	٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الحلفاء؛ القبائل؛ فرنسا؛ الاستعمار؛ النشاط الزراعي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055850

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد صلاح حقي. **"**النشاط الاقتصادي لقبيلة الفراشيش في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وعلاقته باقتصاديات البلدان الأوروبية**"**.- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص ١٢٨ – ١٣٦.

مُقَدِّمَة

إن الهدف من دراسة بعض الجوانب من قبيلة الفراشيش مردّه أهمية هذه القبيلة في القرن التاسع عشر وبداية القرن الذي يليه ووزنها الديمغرافي ودورها في تحريك الأحداث خلال هذه الفترة، فهي من أكبر القبائل التونسية وزنًا ديمغرافيًا وأكثرها تأثيرًا في التحولات السياسية والاجتماعية في تلك الفترة، غير أنه رغم ذلك يمثل الواقع التاريخي للفراشيش نسياناً كبيراً لم تسعفه حتى الذاكرة الجماعية التي نحتتها معطيات دون أخرى وحددتها ظروف على حساب ظروف، فتعددت بذلك مجالات النسيان للقبيلة. فالهدف الأساسي من هذا العمل هو إماطة اللثام عن بعض الجوانب من تاريخ الفراشيش في حلّهم

وترحالهم وإخراجهم من دائرة النسيان أو الصَّمت أو الذاكرة المشوهة أو المشوشة. فهي محاولة لردّ الاعتبار لقبيلة حرّكت مجرى التاريخ الحديث وساهمت في إثراء مكتبة التاريخ التونسية، وهي محاولة لتقديم عناصر وثائقية ومنهجية حول التاريخ المحليّ والجهوي للبلاد التونسية في العهدين الحديث والمعاصر من خلال عيِّنَة متميزة وهي قبيلة الفراشيش بمعطياتها وأبعادها الجغرافية والديمغرافية والسياسية وخاصة الاقتصادية التي تهمّنا في هذا العمل.

كما تكمن أهمية هذا العمل في محاولة تقصيٍّ جذور وخصائص التاريخ الاقتصادي قبل التحولات العميقة والخطيرة التي أحدثتها الظاهرة الاستعمارية بكل آلياتها ومظاهرها ومضاعفاتها في الدولة والمجتمع في تونس الحديثة. ولئن تعددت مصادر البحث وتنوعت فإن أهمّها على الإطلاق عددًا على الأقل هو الأرشيف الوطني التونسي بما تضمَّنه من أرقام ومعلومات ووثائق أخرى تنير سبيل الباحث في التاريخ الاجتماعي والسياسي والثقافي وخاصة الاقتصادي محور دراستنا.

١-مكونـات قبيلـة الفراشـيش وفضـاءها الجغرافي: المجتمع والوسط الطبيعي

سنعتمد في دراستنا لقبيلة الفراشيش على الوثائق الأرشيفية الموجودة في الأرشيف الوطني التونسي علاوة على المصادر والمراجع والكتابات التي كتبت حول هذه القبيلة التي تعتبر من أكبر القبائل التونسية خلال القرن التاسع عشر، والتي استطاعت أن تفرض نفسها في فضاء وُجدت فيه ثلاثة قبائل كبرى أخرى كانت فاعلة ومؤثرة في المشهد السياسي في منطقة الوسط الغربي للبلاد التونسية ونقصد قبائل ماجر والهمامة والجلاص، وربما حظيت قبيلة الفراشيش بالاهتمام أكثر من بقية القبائل نظرًا للأحداث التي شهدها فضاء الفراشيش، ولعل أهم حدث جلب اهتمام المؤرخين هو ثورة الفراشيش أو التي سماها الهادي التيمومي "انتفاضة القصرين، تالة ١٩٠٦"[١]، وتعتبر هذه الثورة أهم حدث شهدته البلاد التونسية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين علاوة على ثورة ١٨٦٤ التي حصلت في فضاء ماجر، كما جلبت هذه القبيلة اهتمام المؤرخين نظرا لكونها قبيلة مشاغبة لا تتردد في الإغارة على القبائل المجاورة سواء التونسية أو الجزائرية.

تتمثل وثائق الأرشيف الوطني التونسي المتعلقة بتاريخ قبيلة الفراشيش خلال القرن التاسع عشر الميلادي في دفاتر جبائية وإدارية وعددها أربعة وثلاثين دفترًا، إضافة إلى ذلك نجد وثائق أخرى من نوع خاص تتمثل في الأوامر العلية الصَّادرة لعمَّال الفراشيش من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٨٨٣ وكذلك مكاتيب ومراسلات عمّال الفراشيش من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٨٨٣، وكذلك مكاتيب ومراسلات عمّال الفراشيش إلى البايات والوزراء من سنة ١٨٢٦ إلى سنة ١٨٨٥ وهي موجودة ضمن السلسلة التاريخية للأرشيف الوطني[٢]. أما عن عدد أفراد قبيلة الفرشيش خلال القرن التاسع عشر فقد تضاربت بشأنه الإحصائيات، حيث أكّد دوفايري سنة ١٨٨١ أن عدد الفراشيش يساوي ١٢,٠٠٠ نسمة[٣]، بينما قدّم ضابط الشؤون الأهلية الفرنسية عام ١٨٨٥ رقمًا قدّر فيه عدد سكان الفراشيش بـ١٠,٠٠٠ نسمة[٤]، أما شارل مانشيكور- الموظف السامي والكاتب المعروف- فقد تحدث سنة ١٨٩٥ عن ٦٥٠٠ نسمة[٥].

وتوضح مختلف الوثائق المتعلقة بقبيلة الفراشيش التركيبة القبلية والدمِّيَّة والعشائرية لهذا المجتمع المحليّ والجهوي للسباسب العُليا الذي احتل فضاء تالة وحيدرة وفوسانة والقصرين وسبيبة وسبيطلة وفريانة وتلابت وبرماجنة وفُمّ القرجومة وزلفان وجبل سمّامة وعين الخمايسية والقرعة وكدية الحلفاء وجبل بولحناش وجدليان وسيدي علي بن أم الزين والمريرة وعنازة والشّار والصّْرَيْ والمكيمن وعين الدفلة وبوزقام وخمودة ودشرة أولاد غيدة والطباقا وجبل الأجرد وأفران والأحماد والرخمات وأم علي والمقسم وجبل الرخمات وبوشبكة وبوحية وبودرياس وخنقة الزازية... وغير هذه المجالات. وتعيش هذه القبيلة على مجال تقدر مساحته بقرابة ٤٠٠,٠٠٠ هكتار، وتخترق هذه المنطقة جبال الظهرية التونسية، وتحدّها غربًا الحدود الجزائرية وبالتحديد مجال تبسّة فضاء قبيلة النمامشة، ومن الشمال الشرقي جبال سمامة وتيوشّة، ومن الشرق " وطن ماجر" ومن الجنوب " وطن الهمامة "[٦].

وتعتبر قبيلة الفراشيش -حسب تعريف "قاموس تونس المصور" الاستعماري الصادر باللغة الفرنسية سنة ١٩١٢" - قبيلة مشاغبة جدًّا"[٧]. وتتكون قبيلة الفراشيش

أو "بردعة الفراشيش" من ثلاثة عروش كبيرة متفاوتة الحجم الديمغرافي وهي أولاد وزاز وأولاد علي وأولاد ناجي. ويعتبر عرش أولاد وزاز الأكثر شغبًا وعددًا من بقية العروش ويتكون من أولاد عسكر والزعابة والحنادرة والأفيال والفرضة وأولاد بولعابة والبعاصصة وأولاد موسى والقصارنية، أمّا أولاد علي فيتكون من القماطة والسماعلة والحوافظ والبنانة وأولاد محمد وأولاد زيد والمراونة وأولاد غيدة والهياشرة، وأمّا أولاد ناجي فيتكون من أولاد الحاج والحوادث والحراكتة وأولاد موسى بن ناجي وأولاد محفوظ[٨].

يعتبر مناخ منطقة الفراشيش أكثر المعطيات الجغرافية بروزا إذ هو مناخ ذو طابع قاري شتاؤه قاسي كثير الثلوج وصيفه حارّ تهب خلاله رياح الشهيلي الساخنة، كما يتميز فضاء الفراشيش بمعدلات أمطار كافية لقيام حياة زراعية مرْضِيَّة، حيث بلغ معدل الأمطار السنوية بالنسبة إلى قرية تالة في الفترة الممتدة بين ١٩٠١و١٩٣٠: ٤٦١ ميلمترا[٩]، غير أن المشكل يكمن في عدم انتظام الأمطار من فصل إلى آخر ومن سنة إلى أخرى، بحيث لا يحصل أفراد القبيلة على صابة حبوب مرضية[١٠] إلا كلّ أربعة أو خمسة سنوات في أحسن الحالات، وهو ما جعل زراعة الحبوب تمثل خطرا يتهدد القبيلة التي يتهددها أيضا خطر "الزَّقَّة" - ومعناها توالي سنوات الجفاف- مما يدفع بأفراد القبيلة أو البعض منها إلى القيام بحركة الانتجاع أو "التَّعْشِيبَة" بحثًا عن الكلأ سواء في شمال البلاد أو في الأراضي الجزائرية، كما دفع هذا المناخ بأفراد القبيلة إلى التعويل على النباتات السّباسبيّة مثل الحلفاء والشيح والهندي التي لا تتأثر بقلة وتذبذب الأمطار وتغيير نشاطهم الاقتصادي من الزراعة إلى تربية الماشية.

٢-النشاط الاقتصادي لقبيلة الفراشيش: الحلفاء مصدر علاقة بين الفراشيش والقبائل الأخرى ومحاولة فرنسا وضع اليد عليها

نظرًا للوسط الطبيعي القاسي اهتم الفراشيش بالنباتات السباسبية مثل الحلفاء التي تحولت إلى صناعة بأتم معنى الكلمة، فهذه المادة موجودة بكثرة في مجال الفراشيش لأنها تتأقلم وطبيعة المناخ شبه الجاف والتربة، فأرض الفراشيش هي أرض حلفاء وهذه النبتة تحولت فيما بعد إلى خصوصية من خصوصيات الفراشيش رغم أنها موجودة أيضًا في مجالات قبائل ماجر وجلاص بالوسط الغربي التونسي والهمامة بالوسط والجنوب الغربيين وبني زيد بالجنوب الشرقي، وكذلك مجال النمامشة في تبسَّة الجزائرية، وظلت هذه النبتة فاعلة عند الفراشيش باعتبار أنها تحولت إلى مادة حرفية معدة للتجارة وستكون فاعلة خلال القرن العشرين في فضاء القصرين نظرًا لكونها ستصبح حيوية باعتبار أنها أصبحت تُحَوَّلُ إلى ورق ومصدر رزق أهالي المنطقة. وتمثل المساحة التي تمتد عليها نبتة الحلفاء بالوسط التونسي عمومًا بحوالي مليون ونصف المليون هكتار سنة ١٩٢٠[١١].

وجني الحلفاء هو عمل يشترك فيه رجال الفراشيش ونساؤهم، ويتولى الرجال ظفر الحلفاء وتحويلها إلى أدوات فلاحية متنوعة على غرار الروني والزنبيل[١٢] والشّارية[١٣] والشّامية والبردعة[١٤] والسّتّاج[١٥] والحصيرة والجيّابة[١٦] والحبل، وتوجه هذه المصنوعات الحرفية إلى الاستهلاك الداخلي ولكنها معدة أيضا للتَّسويق والتِّجارة، كما يمكن تسويق كمّيات من الحلفاء الخام في سنوات المساغب في سوسة والسخيرة وقابس وخاصة في صفاقس وهناك تباع الحلفاء الخام إلى تجار الحلفاء الذين يصدرونها إلى أنقلترا (إنجلترا) لاستعمالها في صناعة أنواع من الخيام والحصائر وخاصة في عجين الحلفاء[١٧] .

حظيت الحلفاء والغابات باهتمام كبير من قبل دولة الحماية ويتجلى ذلك من خلال إصدار الأوامر والقوانين التي تعتبر كل غابات البلاد التونسية ملكا للدولة على غرار أوامر ٤ أفريل ١٨٩٠ و١٣ جانفي ١٨٩٦ و٢٢ جويلية ١٩٠٣ وبالأخص أمر ٢٣ أفريل ١٩١٥[١٨] الذي يسعى إلى تنظيم استغلال الغابات والمحافظة عليها وحراستها. وضمن هذا السياق دخلت العديد من أراضي الحلفاء لاسيما المحاذية للغابات في مربع أملاك الدولة، علاوة على "بلاد الرِّملة" التي تعتبر أصلاً ملكًا لها ليدفع مستغلوها إتاوة مقابل استغلالهم لهذه النبتة. واستنادًا إلى هذه الأوامر وضعت السلط الاستعمارية قيودا على استغلال الحلفاء وهو ما عسّر على مجموعات الفراشيش مواصلة نشاطهم في المناطق التي دخلت ضمن أملاك الدولة.

٣-مجــالات اســتغلال الحلفــاء وتنــافس أوروبي على هذه النبتة

تمثل نبتة الحلفاء مادة أساسية للحرفيين باعتبار أنّها مادة أولية لصناعة بعض ما يحتاجه الريفي مثل الرّوني والزنبيل والشارية والبردعة والصّنّاج لوضع الهندي والحصيرة التي تستغل كفراش سواء في المنزل أو في المساجد والجوامع والجيّابة والحبل والأحذية (الطرباقة) والمشاعة لاستخراج الجبن من حليب الضأن[١٩]، كما تستعمل الحلفاء كوسيلة لحماية الخيمة من الرياح في ظل غياب نبات السّدر، وتستعمل أيضا لإشعال النار مع الإكليل الجاف و"الرّتَم" لطبخ الطعام والشّواء.[٢٠]

يتم ترويج البضائع المصنوعة من الحلفاء في العديد من الأسواق التونسية ،غير أن الصناعة الأكثر استهلاكًا للحلفاء هي صناعة "الشوامي" التي تستعمل لعصر عجين الزيتون، وقد ازدادت هذه الصناعة انتشارًا زمن الحماية تزامنا مع انتشار عمليات غراسة الزيتون في كافة أنحاء البلاد وتطور عدد المعاصر[٢١]، كما كثر الإقبال على هذه النبتة من قبل بلدان أوروبا جنوب المتوسط المنتجة لزيت الزيتون خاصةً إيطاليا وإسبانيا، كما تستعمل الحلفاء في صناعة التبغ بإيطاليا والنمسا، ذلك أن نسبة هامة من غلاف "السّيقار الممتاز" تصنع من الحلفاء، كما تباع السجائر في بعض الأحيان في علب مصنوعة من الحلفاء[٢٢]، كما تمكنت بعض المعامل البلجيكية من اختراع أعواد الكبريت المصنوعة من هذه النبتة، كما يمكن إنتاج خيوط رفيعة بعد مشط الحلفاء بواسطة الماء أو بالطريقة الميكانيكية مما سمح للعديد من المصانع في أوروبا بصنع الزّرابي والسّجاد والأبسطة والسّاف لحشو الكراسي وغيرها.[٢٣]

هذه الأهمية وهذه الاستعمالات المتعددة لنبتة الحلفاء جعل سلطة الحماية تسيطر على الأراضي المنتجة لهذه النبتة الحيوية في اقتصاد فرنسا الاستعمارية باعتبارها ستدر عليها مداخيل مالية هامة، خاصةً وأن فرنسا كانت تأمل في مزيد توسيع أسواق التصدير في القارة الأوروبية. غير أن الصناعة الأكثر ارتباطاً بنبتة الحلفاء هي الورق باعتبار أن المادة الأولية التي كانت تستغل قبل اكتشاف الحلفاء هي الخشب قبل أن يتمكن الأنقليزي " روتلاج" Routledge من اكتشاف طريقة تحويل الحلفاء إلى ورق سنة ١٨٦١[٢٤]، ومنذ هذا التاريخ عرفت صناعة الحلفاء تطورًا كبيرًا في أنقلترا (إنجلترا) وهو ما نشط صادراتها من تونس والوسط الغربي خاصة أين تكثر هذه النبتة لتحويلها في المصانع هناك، حيث بلغت سنة ١٩١٤ ، ٥٧٦٣٠٣ قنطارًا أي ما قيمته ٤,٥٠٠,٠٠٠ فرنك[٢٥]، وقد تزايد اهتمام الرأسمالية الأجنبية سيما الفرنسية والأنقليزية بأهمية ثروة البلاد التونسية من الحلفاء في سبعينيات القرن التاسع عشر[٢٦]، وحُسمت هذه المنافسة لصالح أنقلترا (إنجلترا) نظرًا لما تملكه من مصانع متطورة لتحويل الحلفاء.

وتستورد أنقلترا (إنجلترا) من الجزائر وتونس حوالي ١٠٠,٠٠٠ طن سنويًا، بينما لا تستهلك صناعة الورق في فرنسا سوى كميّة ضئيلة[٢٧]، كما تمكنت ألمانيا قبيل اندلاع الحرب الكبرى من تطوير صناعة الورق المعتمدة على الحلفاء وركزت العديد من الشركات في شمال إفريقيا لشراء هذه المادَّة مزاحمة الشّركات الانقليزية، حيث كان الألمان يشترون الحلفاء بأثمان مرتفعة مقارنة بأثمان الصناعيين الأنجليز والفرنسيين وهو ما جعل "سيتانوفا" Cittanova – وهو أحد أعضاء الحجرة التجارية الفرنسية بتونس- يتساءل عن عدم اهتمام فرنسا بهذه الصناعة وعن عدم وجود مصانع لاستغلال هذه النّبتة، مع العلم أن فرنسا تستورد الورق من أنقلترا (إنجلترا) بكميات تزداد من سنة لأخرى[٢٨]، مع العلم أيضا أنه إلى حدود الحرب العالمية الأولى يتم تصدير ٥٠,٠٠٠ طن من الحلفاء الخام سنويًا إلى أنقلترا (إنجلترا) ولم يقع صنع ولو كيلوغرام واحد من الحلفاء في تونس[٢٩]، وفي هذا السياق برمجت سلطة الحماية بناء سد كبير على واد زرود بالقيروان لاستخراج الكهرباء وتطوير الزراعة السقوية بريف القيروان وتحويل حلفاء الوسط الغربي[٣٠]، ولسنا ندري لماذا تم الاختيار على القيروان وأهملت القصرين رغم أن مساحة الحلفاء في الأولى تقدر بـ١٨ ألف هكتار بينما تقدر المساحة في القصرين بـ١٤٦ ألف هكتار؟ ولكنها كانت محاولة محتشمة لأن الاستعمار الفرنسي يعتمد في استراتيجيته على التمويل الذاتي للمستعمرات، وكما هو معلوم فان ميزانية المستعمرة التونسية لا تقدر على ذلك على الأقل قبل الحرب العالمية الأولى، كما أن مثل هذه المشاريع تندرج ضمن المشاريع الصناعية التي من الممكن أن ترتقي بالبلاد التونسية إلى مرتبة اقتصادية مهمة وهو ما لا تريده الامبريالية التي تسعى إلى إبقاء المستعمرات متخلفة صناعيا

لمزيد استنزاف ثرواتها وخاصة منها المواد الأولية. وتعللت فرنسا بعدم وجود العديد من المواد الكيمياوية المساعدة على صناعة عجين الورق الواجب استيرادها من الخارج علاوة على استنزاف الثروة المائية بالجهة المهمة جدا في عجين الحلفاء.

وفي هذا السياق يقول المهندس المدني "جون كوانيي" Jean Coignet: "أن معالجة ١٠٠ كيلوغرام من الحلفاء الخام تعطي حوالي ٤٥ كيلوغراما من العجين الجاف وهذه الكمية تحتاج إلى ٤٠ كيلغراماً من الفحم كطاقة محرّكة و٤٠ كيلوغرام للتذويب والتجفيف وغير ذلك و١٨ كيلوغراماً من كربونات السّودة Carbonate de soude وثماني كيلوغراما من مسحوق القصر Hypochlorite de chaux أي ١٠٦ كيلوغرام من المواد الكيمياوية، مقابل ١٠٠ كيلوغرام من الحلفاء الخام يضاف إليها ٢٥ لتر مكعب من المياه الجيدّة. إن غياب هذه المواد بالبلاد التونسية هو السبب في عدم صناعة كيلوغرام واحد من الحلفاء وبالتالي يقع تصديرها إلى أنقلترا (إنجلترا). لكن في المقابل إذا بني سدّ على واد زرود وتم استغلال الكميات الهامّة من الملح والماء الموجودة بسبخة سيدي الهاني، يمكن بناء معمل لعجين الحلفاء بجانب هذا السّد وربطه بميناء سوسة عن طريق بناء خط حديدي ولن يحتاج هذا المعمل إلا إلى استيراد الفحم من الخارج لتذويب وتجفيف الحلفاء"[٣١]. يبدو أن الحديث عن القيروان لتركيز معمل لعجين الحلفاء ليس مرده كثرة هذه النبتة في الجهة (١٨ ألف هكتار مقابل ١٤٦ ألف هكتار في جهة القصرين أين تقطن قبيلة الفراشيش محور دراستنا وقد أشار المولدي القسومي إلى أن مساحة الزّملة – وهي اصطلاح عامي محلي يعني منبت الحلفاء لدى الفراشيش – بلغت ١٧٩,٠٠٠ هكتارا[٣٢]) وإنما لقربها من موانئ التصدير في سوسة التي لا تبعد سوى حوالي ٦٠ كيلومترا على القيروان بينما تبعد القصرين ٢٠٠ كيلومترا على نفس الميناء من ناحية وقرب القيروان من سبخة سيدي الهاني التي توفر كميات كبيرة من الماء والملح وهما مادتين حيوتين في عملية عجن وتحويل الحلفاء من ناحية ثانية.

وقد أدرك أفراد قبيلة الفراشيش الأهمية الاستراتيجية لهذه النبتة لدى السلطات الاستعمارية لذلك استعملت كوسيلة ضغط على السلطات الاستعمارية من قبل المقاومين الذين أقدموا على حرق ١٢٠٠ طنا من الحلفاء في سبيطلة بتاريخ ١٠ أفريل ١٩٠٦ في محاولة لإضعاف اقتصاد فرنسا.

توزع المساحة الجملية لنبات الحلفاء بالقصرين (أرض الفراشيش وماجر)

المنطقة	المساحة بالهكتار
القصرين الجنوبية (فضاء الفراشيش)	١٧,٥ ألف
سبيطلة (فضاء قبيلة ماجر)	١٨ ألف
فريانة (فضاء الفراينة وأولاد تليل)	٢٥ ألف
ماجل بلعباس (فضاء أولاد تليل)	٣٣ ألف
حاسي الفريد (فضاء الفراشيش)	٥١ ألف
باقي المناطق (توجد بها مجالات تابعة للفراشيش)	١,٥ ألف
المجموع	١٤٦ ألف هكتار

ما نلاحظه من خلال الجدول هو استئثار فضاء الفراشيش بالمساحة الأهم من نبتة الحلفاء (حاسي الفريد والقصرين الجنوبية ٦٨,٥ ألف هكتار علاوة على باقي المناطق).

توزع مساحة نبتة الحلفاء في البلاد التونسية ونصيب القصرين منها

المنطقة	المساحة بالهكتار
القصرين (مجال الفراشيش)	١٤٦ ألف
سيدي بوزيد (مجال قبيلة الهمامة)	٩٩ ألف
قفصة (مجال قبيلة الهمامة)	٩٥ ألف
القيروان (مجال قبيلة الجلاص)	١٨ ألف
قابس (مجال قبيلة بني زيد)	٣٢ ألف
الأراضي الجزائرية المجاورة	--------------------------

٤-الزّراعة والرّعي:
مصدر عيش قبيلة الفراشيش

تخترق سلسلة الظهرية مجال الفراشيش من الجهة الغربية وتتمثل في جبال بيرانو ولجرد والشعانبي، ويتميز مجال الفراشيش بمنطقتين طبيعيتين متباينتين ولكنهما متكاملتين:

- المنطقة الشمالية الرطبة وتحتوي على تربة طينية تعرف لدى الفراشيش بـ"الحميري" و"العيثة" وهي تربة متوسطة الخصوبة ونباتها الصنوبر والدّيس[٣٣].
- المنطقة الجنوبية السباسبية شبه الجافة وتغلب عليها التربة الرملية الفقيرة ونباتها الحلفاء والنباتات النحيفة.

ويتميز مجال الفراشيش باتساعه وهو ما جعله متنوع الأنشطة الاقتصادية: بين النشاط الزراعي والغابي والرعوي، حيث ينتشر النشاط الأول في المناطق السَّهلية على غرار الحوافظ والسّماعلة وأولاد محمد وأولاد غيدة من عرش أولاد علي الذين ينتشرون حول بحيرة فوسانة وخمودة والحماد وهنشير الأرنب والصرّي، علاوة على هنشير القصرين. وتشق هذه الأراضي مجاري عميقة تغذيها سيول السّفوح والمنحدرات مثل سمامة ومن بين هذه المجاري وادي الحطب ووادي الدرب وحيدرة والشَّار.... وتتميز هذه المجموعات من الفراشيش القاطنة بهذه المنطقة بالاستقرار المرتبط أساسًا بزراعة الحبوب خاصة القمح والشعير، ونظرًا لأهمية الزراعة تقل المراعي بهذه المنطقة. أما النشاط الغابي فيمارسه سكان الغابات مثل أولاد العَسَّالْ والبريكات والحراكتة الذين تمركزوا حول مرتفعات لجرد وبيرانو وعين بودرياس والطباقا وهي مناطق حدودية مع المناطق الشرقية الجزائرية، وأمّا نشاط هذه الفئة من الفراشيش فهو النشاط الزراعي بالفرجات الجبلية وتربية الماشية وقطع الخشب وصناعة الفحم والقطران والدباغ وتربية النحل[٣٤].

وقد فرض هذا النشاط الغابي على الفراشيش نمط عيش مستقر لكن هذا لا ينفي لجوء هذه المجموعات من القبيلة إلى الترحال والانتجاع أحيانا كلما اقتضت الضرورة. وهو ما يعني ازدواجية بين نمط العيش المستقر والراحل وهذا يفسره محافظة هذه المجموعات على خيامها إلى أواسط القرن التاسع عشر رغم ظهور سكن الأكيام (جمع كيم) والمعامير (جمع معمّرة)[٣٥].

أما النشاط الرعوي فيميز المجال السباسبي على غرار حاسي الفريد وتعرف المنطقة محليا بـ"الزّملة" لأهمية نبات الحلفاء وهي مجال النشاط الرعوي بامتياز نظرا لتوفر تشكيلات نباتية دائمة تعرف "بالحماضة والقْطَفْ" تساعد على تغذية القطيع خاصة الأغنام والإبل على امتداد السَّنة علاوة على أهمِّية العيون[٣٦]، ومن المختصين في النشاط الرعوي من فروع قبيلة الفراشيش أولاد وزاز وخاصة فرق الأفيال والزعابة وأولاد عسكر وأولاد خضراوي من البعاصمة[٣٧]، وهناك تكون زراعة الحبوب محدودة جدًا.

ونظرًا لطبيعة النشاط الرعوي تعرف هذه المجموعات من الفراشيش بالترحال والانتجاع، حيث تتنقل شمالا نحو بلاد "فْرِيقْيَا" صيفًا (الكاف حاليًا)، ونحو المجالات الجنوبية الدافئة خلال فصل الشتاء بحثا عن المرعى وحفاظا على سلامة القطيع من برد الشّمال. غير أن سنوات المساغب المتعددة بمجال الفراشيش تدفع بجميع مكونات هذه القبيلة إلى الرّحيل في إطار ظاهرة "الهطايا" في اتجاه بلاد الحبوب صيفًا – والهطايا هي المشاركة في حصاد الحبوب ببلاد "فريقيا" - وبلاد التمر شتاء، حيث يذكر الملف ٢٠٠، بتاريخ (١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧-١٨٦٨)، الوثيقة ٦٠ رسالة بعث بها محمد قعيد بن سالم إلى الوزير بوعتور جاء فيها ما يلي: "لمّا تعينا وجدنا القليل من الفراشيش منهم من هو بناحية الجريد ومنهم بناحية الأعراض ببني زيد وهم أولاد وزّاز والبعض خارج العمالة". كما أن العديد من الفرق تتحول إثر فترة الصيف إلى مجالات غراسة الهندي"للتخريف" على هذه الثمرة التي تعتبر "أهم النبات النّافع للفقراء"[٣٨] وذلك داخل مجال القبيلة خاصة في زلفان وسمامة وبولحناش[٣٩].

خَاتِمَةٌ

من خلال ما تقدم نستنتج أن نمط عيش قبيلة الفراشيش فرضته الظروف الطبيعية لاسيما المناخية، فالاعتماد على الحلفاء والهندي والرعي والغابات وهي خصوصيات الغطاء النباتي في الجهة أمر أملاه مناخ المنطقة شبه الجاف باستثناء شمال القصرين (تالة وحيدرة وفوسانة) أين يمارس النشاط الزراعي، كما نستنتج أن هذه الخاصية المناخية لفضاء قبيلة الفراشيش فرضت عليهم أو على العديد منهم تعاطي ظاهرة الانتجاع والهجرة المؤقتة سواء نحو فريـقيا (شمال البلاد التونسية) أو نحو الجنوب (بلاد التمر) علاوة على ممارستهم لظاهرة الهطايا. كما نستنتج تأقلم هذه القبيلة مع واقعها المناخي من خلال استغلالها لثرواتها كغذاء على غرار نبتة الهندي التي تستغل كغذاء للبشر وللحيوانات.

الملاحظة المهمة الأخرى تتمثل في احتواء فضاء الفراشيش على ثروة نباتية مهمة ساهمت في نمو صناعي للبلدان الأوروبية لاسيما أنقلترا (إنجلترا) وألمانيا وهي نبتة الحلفاء، كما ساهمت في توفير مداخيل مالية هامة للسلطات الاستعمارية الفرنسية التي سيطرت على البلاد منذ ١٨٨١، فكان فضاء الفراشيش – بهذه النبتة – سببًا في التنافس بين القوى الرأسمالية الأجنبية وفي تطور صناعة الورق بمادته الأولية وهي الحلفاء. غير أن هذه النبتة ظلت اليوم في القرن الحادي والعشرين مهملة ولا تستأثر بالاهتمام اللازم رغم إقرار مصنع لعجين الحلفاء وصنع الورق بفضاء الفراشيش (القصرين)، كما أن صادرات هذه المادة الخام توقفت بعد أن كانت مزدهرة خلال الفترة الاستعمارية رغم أهمية الكميات حيث تشير الإحصائيات إلى وجود (٤٢) منشرًا للحلفاء موزعين على كامل جهة القصرين.

الملاحق

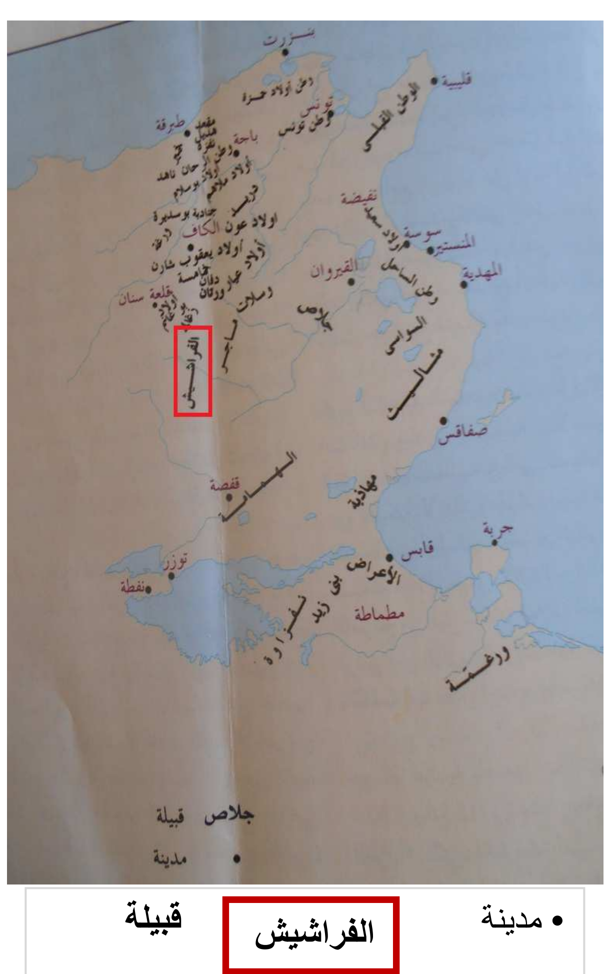
خريطة رقم (١)

توزع الأنشطة الاقتصادية لقبيلة الفراشيش



المصدر: الماجري (لزهر)، **قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي)**، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منُّوبة، ٢٠٠٧، ص ٧٠ (بتصرف).

خريطة رقم (٢)
موقع قبيلة الفراشيش خلال القرن التاسع عشر



تونس عبر التاريخ من العهد العربي الإسلامي إلى **حركات الإصلاح**، الجزء الثاني، تأليف نخبة من الأساتذة الجامعيين بإشراف الأستاذ خليفة شاطر، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ٢٠٠٧. ص ٢١٣. (بتصرف).

الهَوامِش:

(١) التيمومي (الهادي)، **انتفاضة القصرين، تالة ١٩٠٦**، دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١١.

(٢) جدي (أحمد)، **قبيلة الفراشيش في القرن التاسع عشر**، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، نوفمبر/ تشرين الثاني، تونس، ١٩٩٦، ص ١٤.

(3) Duveyrier (H), *La Tunisie*, Paris, 1881, p 65.

(4) Timoumi (Hedi) , *Paysannerie tribale et capitalisme colonial (l'exemple du centre ouest tunisienne 1881-1930)*, thèse de 3(ème) cycle, Nice , 1975, p46.

(5) Monchicourt (CH), *La région du Haut Tell en Tunisie (le Kef, Teboursouk, Maktar, Thala) essai de monographie géographique* , Paris, A, colin, 1913, p 297.

(٦) التيمومي (الهادي)، **انتفاضة القصرين-تالة ١٩٠٦**، مرجع مذكور، ص ١٣.

(7) Lambert (P), *Dictionnaire illustré de la Tunisie*, Tunis, Saliba, 1912, p 248.

(٨) انظر: الدفاتر الجبائية عدد: ١٣٩٧، التاريخ (١٢٩٧هـ/ ١٨٦٢ – ١٨٦٣م)، صفحات غير مرقمة، انظر أيضًا: الجدي (أحمد)، **قبيلة الفراشيش في القرن التاسع عشر**، مرجع مذكور، ص١٦٩-١٧٠-١٧١-١٧٢ أيضًا: التيمومي (الهادي)، **انتفاضات الفلاحين في تاريخ تونس المعاصر مثال ١٩٠٦**، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩٣، ص٢٠٧-٢١٠.

(9) Bulletin de la Direction de l'agriculture, du commerce et de la colonisation (Tunis).

(١٠) التيمومي (الهادي)، مرجع مذكور، ص ١٥.

(١١) مزالي (محمد الصالح)، **تطور تونس الاقتصادي ١٨٨١-١٩٢٠**، تعريب الهادي التيمومي، بيت الحكمة، قرطاج، ١٩٩٠، ص ٣٨.

(١٢) **الزنبيل** هو وعاء يصنع من الحلفاء ويتكون من جزئين (قفتين) متلاصقين يوضع على ظهر الحمار أو البغل لنقل البضاعة من مكان لآخر.

(١٣) **الشارية** شبيهة بالزنبيل ولكنها تتكون من جزء وحيد (أي من قفة وحيدة).

(١٤) **البردعة** توضع على ظهر الحمار أو البغل أو الحصان وهي بمثابة الفراش لراكب الخيل.

(١٥) **السناج** يشبه الجيابة ولكن حجمه صغير يستعمل لنقل كمية صغيرة من البضاعة وهو بمثابة القفة اليوم

(١٦) تستعمل لنقل غمر القمح والشعير بعد الحصاد والغمر هو كمية محدودة من القمح أو الشعير المحصود قبل خضوعه للدريسة.

(17) Faucon (N), *La Tunisie avant et depuis l'occupation française, histoire et colonisation*, Paris, Challamel, 1893, 2V, pp 59-60.

(18) YAZIDI (B), *La politique coloniale et le domaine de l'Etat en Tunisie*, édition Sahar, Faculté des lettres, des Arts et des Humanités de Manouba, 2005,p 300.

(19) FOUCON (N), *La Tunisie avant et depuis l'occupation française, histoire et colonisation*, Paris, 1893, pp 59 et 60. Voir aussi: MONCHICOURT (CH), "La steppe Tunisienne chez les Frechich et les Majeurs" *Bulletin de la direction de l'Agriculture et du commerce*, 10(ème) années, N° 38, 1èr semestre, 1906, p185.

(20) Ibid.

(21) LAITMAN (L), "Le marché et la production de l'huile d'olive en Tunisie ,"**Annales de géographie**, 1953, p276.

(22) CITTANOVA (M),"L'alfa", **Revue de la section tunisienne de la société de géographie commerciale et d'études coloniales de paris**, 1935, pp129.

(23) Ibid.

(24) Ibidem

(٢٥) مزالي (محمد الصالح)، **تطور تونس**...، مصدر سابق، ص٣٨.

(٢٦) بويحي (سالم)،"**الحركة النقابية في قطاع الحلفاء بالوسط والجنوب الغربيين، ١٩٤١-١٩٥١**"، **كراسات تونس**، الثلاثة أشهر الثالثة، ١٩٩٣، ص ١٢.

(27) CITTANOVA (M),**"L'alfa"**..., art.cité, p129.

(28) CITTANOVA (M),**"L'alfa"**..., art.cité, p129.

(29) COIGNET (J), *L'hydraulique en Tunisie et les grands barrages réservoirs*, Tunis, 1970, p53.

(٣٠) مزالي (محمد الصالح)، **تطور تونس**...، مرجع مذكور، ص ١٨١-١٨٢.

(31) COIGNET (J), *L'hydraulique en Tunisie...op.cit.*p 53.

(٣٢) قسُّومي (المولدي)، القصرين: "من الاستعمار الرأسمالي إلى الاندماج الوطني أسئلة حول التحولات الهيكلية"، القصرين ذاكرة وتاريخ، **أعمال الندوة العلمية** التي انتظمت بالقصرين من ٥ إلى ٨ أفريل ٢٠٠٧. القصرين، تونس، ٢٠٠٩. ص ١٩٩.

(٣٣) الماجري (لزهر)، **قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي)**، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، ٢٠٠٧، ص ٧٢. انظر أيضًا:

- Monchicourt (Ch), *La Région du Haut Tell*...., p 36.

(٣٤) الملف ٢٠٢، التاريخ (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م)، الوثيقة ١٢٠. مراسلة من الحاج سليمان يوسف وحراث بن محمد ومصطفى بن قضوم إلى الإدارة المركزية يذكرون أن " أناس يبيعون الدباغ أتوا للبنباشي أخذ منهم ما وجب عليه بمقتضى الإذن ومكنهم من ترخيص للتوجه للجزائر للبيع لكن حكام تبسة افتكوا سلعتهم ٧٣ بعير و٣٦ حمار وتمكنوا بالتجار" نجد أيضًا: بالدفتر عدد ٧٤ بتاريخ (١١٦٥ – ١١٦٨هـ/ ١٧٥٢-١٧٦٨م)، ص ٥٢ ما يلي: "٧٢٦٩ شبكة حطب لتدفئة وتسخين حمام الباي وحاشيته" ، ٢١٦٠ شبكة حطب خرجوا لحمام المعظم سيدنا" ، توفر الجهة كميات هامة من السمن إلى السلطة. انظر الدفتر عدد ١٤٧، تاريخه ١١٨١هـ/ ١٧٦٧ – ١٧٦٨م، ص ١٢٦-١٣٣، وفر الفراشيش بمفردهم خلال هذه السنة ٨٨ قنطارا و٩٠ كيلوغرامًا. انظر أيضًا في خصوص تنوع الحرف: Fond du Quai d'Orsay: G11, p 62.

(35) Monchicourt (Ch), *La Région du Haut Tell*....,op.cit, pp 391-398.

(٣٦) الماجري (لزهر)، **قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**...مرجع مذكور، ص ٧٦.

(37) Attia **(H), Les Hautes Steppes Tunisiennes,** p290.

(٣٨) الخامس (محمد بيرم)، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، ذكره الهادي التيمومي، **الكادحون في الأرياف التونسية**...، ص٢٦٢. ورد في **قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**...مرجع مذكور للزهر الماجري، ص ٧٧.

(٣٩) الملف ٢٠٠، التاريخ ١٢٦٨ هـ/ ١٨٦٩-١٨٧٠ م، الوثيقة ١٠١. مراسلة من محمد قعيد بنسالم والشيخ محمد بن سليمان إلى الباي محمد الصادق يذكر فيها: "تخريف هجيج أولاد علي (من الفراشيش) على الهندي بجبل سمامة.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

ترجمات

الجزر الجعفرية
خلال القرن العشرين

محمد عبد المومن
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
باحث دكتوراه في تاريخ وحضارة الأندلس
تطوان – المملكة المغربية



مُلَخّصْ

بعد احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠، تصاعد الضغط الاستعماري الأوربي على المغرب، فحاولت فرنسا مد نفوذها انطلاقًا من الشرق، فاصطدمت بالجيش المغربي في معركة إسلي سنة ١٨٤٤، التي فتحت المجال للقوات الفرنسية للتدخل في الأراضي المغربية، أربع سنوات بعد ذلك احتلت إسبانيا أرخبيل الجعفرية، الذي يتكون من ثلاث جزر صغيرة المساحة، وذلك بهدف جعلها منطلقًا لاستعمار المغرب الشرقي. ولإدامة احتلالها للجزر عملت إسبانيا على بناء مجموعة من الثكنات العسكرية والحصون، كما حاولت طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر استثمار هذه الجزر اقتصاديًا، عبر تشجيع التهريب والصيد البحري، لكن ذلك لم يحقق النتائج المرجوة فتحولت تلك الجزر إلى معتقل لعتاة المجرمين، ومنفى للثوار الكوبيين والفلبينيين المطالبين باستقلال بلدانهم، وحتى للسياسيين الإسبان، خصوصًا ذوي التوجهات الاشتراكية. هذا المقال الذي كتبه الباحث الإسباني كارلوس إسكمبري هينوخو، يسلط الضوء على تاريخ هذه الجزر الصغيرة المنسية، ومن خلاله على تاريخ إسبانيا والمغرب خلال القرن التاسع عشر، معتمدًا على الصحف الإسبانية الصادرة خلال تلك الفترة. وتجدر الإشارة إلى أن الإحالات التي بالإسبانية من وضع المؤلف، وتلك التي بالعربية من وضع المترجم.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٩ نوفمبر ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ١٨ فبراير ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

تهريب الأسلحة؛ الثروات السمكية؛ الصيد البحري؛ حرب الريف؛ استقلال المغرب

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055851

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

كارلوس إسكمبري هينوخو. "الجزر الجعفرية خلال القرن العشرين": **ترجمة:** محمد عبد المومن.- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص١٣٧ – ١٤٨.

١-عودة ساتورنينو خيمينيث وتهريب الأسلحة

١/١- عودة ساتورنينو خيمينيث:

رغم أن السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت فترة عصيبة بالنسبة لإسبانيا عامة، وللجزر الجعفرية[١] بشكل خاص، إلى درجة التفكير في بيعها مع جزر المرجان[٢] لألمانيا، إلا القرن العشرين جلب معه آمالا جديدة. ففي سنة ١٩٠٢ جلب ساتورنينو خيمينيث SATURNINO JIMÉNEZY مشروعًا جديدًا للجزر، وكان فشل قبل ذلك في إقامة وكالة التجارية في ساحل قبيلة كبدانة، ولذلك باع الأراضي التي كان يملكها هناك لشركة من برشلونة كان اسمها: "الشركة التجارية الإسبانية الإفريقية"، وقد حاولت هذه الشركة أن تحصل من الحكومة على ضمانات أمنية للأراضي التي اشترتها كضمان لإقامة المشروع المخطط له، لكن الرد السلبي للحكومة، جعل الشركة تتخلى نهائيًا عن المشروع.[٣]

وفي سنة ١٩٠١ حصل مشروع الوكالة التجارية على نفس جديد، وهي نفس السنة التي استقر فيها خيمينيث في مليلية[٤] مع زوجته الروسية، التي كان يشاع على أنها ابنة المهندس الذي أشرف على بناء

قاعدة بورت أرثر[٥] البحرية الروسية في كوريا. وأثناء مقامه في مليلية حظي خيمينث بثقة الجنرال بيناثيو هيرنانديث الذي أرسل تلغرافات لوزير الحرب للجنرال وايلر يوصي فيها بإقامة مشروع الوكالة التجارية في الجزر الجعفرية.[٦]

اشتمل المشروع الذي كان خيمينيث ينوي إقامة في جزيرة الملك[٧] على رصيف، ومستودع للفحم، ومخازن للسلع، وأوراش للصيانة. أما الربط البحري براس الما، ومناطق مغربية أخرى فكان من المنتظر أن تؤمنه سفن البريد، وقد كان هدف خيمينث من هذا المشروع استيراد البضائع وتسويقها على طول الساحل الشمالي المغربي، ولتحقيق ذلك أسس خيمينيث شركة أسماها: "الشركة الإسبانية لشمال إفريقيا"، وجعل مقرها في الجزر الجعفرية، كما نسق مع شركات تجارية أخرى كانت تستقر في وهران وفي مدن إسبانية. ولينجح المشروع كان لابد من تحرير التجارة مع كل الشمال المغربي، لذلك خطط خيمينث للقيام بحملة دعائية تدافع عن تحرير التجارة.[٨] لكن هذا المشروع لم يتحقق لأنه ببساطة غير قابل للتطبيق بالنظر إلى الإمكانات الضعيفة للجزر الجعفرية ولأسباب أخرى عديدة.[٩]

كان من الممكن اعتبار فشل مشروع خيمينيث مجرد فشل تجاري، لولا رسالة نشرت ضمن عدد ٢ شتنبر، من جريدة لو سييكل الباريسية، والتي أعادت نشرها الجرائد الإسبانية، هذه الرسالة كتبها مواطن فرنسي كان يقيم في منطقة واد كيس[١٠] اسمه ليون دوبوشيف Leon Dubochef، وتحدث فيها عن زيارته للجزر الجعفرية ولقائه بخيمينيث الذي قدم نفسه باعتباره مالك جزيرة الملك بموجب الأمر الملكي المؤرخ في ٥ غشت١٩٠٢، والذي أعطاه الحق في التصرف في هذه الجزيرة لإقامة وكالة تجارية أو مصنع.

كما تفاخر خيمينيث بصداقته القوية مع الجنرال وايلر Weyler، [١١] واقتراحه عزل حاكم الجزر بابلو أرتال Pablo Artal y Abad واستبداله العقيد بضابط من قوات المدفعية يحمل رتبة رائد اسمه رافاييل ريبول أي كابريرا Rafael Ripoll y Cabrera لأنه حسب خيمينيث متحمس لمشاريعه أكثر من أرتال.[١٢] أثار محتوى الرسالة زوبعة إعلامية، في وقت كانت المسألة المغربية تعرف فيه تطورات متسارع لذلك كان على الحكومة أن تكذب منح امتياز لشركة خيمينيث.

قضية الجزر الجعفرية وصلت إلى البرلمان البريطاني، حيث تردد في المراسلات العسكرية البريطانية المؤرخة في ٥ غشت ١٩٠٢، صدى سؤال طرحه أحد أعضاء مجلس العموم حول الصحة الشائعة الرائجة بخصوص التنازل عن الجزر الجعفرية لصالح روسيا. ولنتذكر أن زوجة خيمينيث كانت روسية الأصل.

٢/١- تهريب السلاح وتبعاته:

كان السلاح والذخيرة من أكثر السلع التي تلقى رواجا لدى المهربين المغاربة، ومع وصول الطامح إلى عرش المغرب المعروف بالروغي[١٣] إلى وادي ملوية، تزايد الطلب على الأسلحة المهربة، مما مكن المهربين والمتواطئين معهم من التوفر على قوة اقتصادية، وعلى نفوذ أصبحت معهما سلطة حكام الجزر مهددة. وأصبحت الصحافة العسكرية تتحدث عن النفوذ الذي أصبح لهؤلاء "التجار"، إلى درجة تهديد المسار المهني للحكام الذين لا يسايرون مشاريع المهربين.[١٤]

هذه النفوذ الذي تحدثت عن الصحافة العسكرية، قد يكون مجرد تعبير عن رغبة السكان المدنيين في تسيير شؤون جماعتهم الصغيرة، وقد كان هذا الدور بهيئة الحكام Junta de Arbitrios وهو جهاز تأسس سنة ١٨٩٧ وكان يرأسه حاكم الجزيرة وكل أعضائه من العسكريين إلى تم تطبيق مجموعة من التعديلات سنة ١٩٠٢.

تكشفت قضية تهريب السلاح للرأي العام بعد نشر جريدة إل ديا في عدد ١٠ نونبر ١٩٠٢، رسالة وصلتها من مليلية وتحمل توقيع شخص اسمه مصطفى، وجاء فيها أنه في مستهل شهر أكتوبر غادر قارب دون إذن الجزر، متوجها نحو الساحل المغربي، في تلك الليلة تم اكتشاف تعرض نوافذ ثكنة المدفعية للكسر، وأن بندقيتي ريمنغتون Remintong مفقودتان، في اليوم التالي عاد القارب وألقي القبض على طاقمه، وتمت مصادرة مبلغ سبعين دورو من الرايس، الذي اشتبه في أنه حصل عليها من بيع البندقتين.

وعلى الرغم من فتح تحقيق، ونشر كل من جريدة إل ديا، والجريدة العسكرية، لسلسلة مقالات تكشف عن تعقيدات هذه التجارة المخالفة للقانون، لم يتم الكشف عن كل جوانب هذه القضية. تركز تهريب السلاح على بنادق رمنغتون التي كان يسميها المغاربة ميريكانوس، نسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث كانت تصنع، رغم أن موريديها كانوا إسبان وبلجيكيين.

استخدمت جزيرة كونغريسو[15] غير المأهولة لإخفاء الأسلحة إلى حين بيعها للمشترين المغاربة، وقد ذكرت الصحافة أسماء بعض أولئك المهربين ك "كورُّو" و "تينيوسو" و "حميد النيكرو" و"شورليطو" واسمه الحقيقي حميد من ولاد الحاج، والذي كان أهم مهرب سلاح في المنطقة حيث كون عصابة من أفراد عائلته، تخصصت في تهريب السلاح من الجزر الجعفرية وسرقة الماشية في منطقة كبدانة وواد كيس.

وقد باع "شارليطو" قسماً من المسروقات (خصوصًا الماشية) في الجزر الجعفرية، بعد نقلها ليلا إلى هناك. وعندما حاول توسيع أنشطته الإجرامية من خلال تهريب السجناء قتل في اشتباك مع المكلفين بالحراسة في جزيرة إيزابيلا الثانية[16] وكان ذلك يوم ٩ دجنبر سنة ١٩٠١.[17]

٢-الجزر الجعفرية وبداية التحركات الإسبانية في المغرب

في السنوات الأولى من القرن العشرين، اتخذت الحكومة الإسبانية قرار بتأهيل الجزر الجعفرية، خصوصا مع تجدد الاهتمام بالتدخل في المغرب، ومن بين مشاريع التي تمت برمجتها، الميناء. المشاريع التي بدأ تنفيذها سنة ١٩٠٦، كانت تعني ازدهار الجزر بسبب تدفق الاستثمارات وزيادة السكان. نشطت المبادلات التجارية مع قبيلة كبدانة بعد احتلالها من طرف جيش الروكي بوحمارة، الدعي الساعي إلى عرش المغرب، كانت القوارب تأتي للجزر ثم تعود بكل حرية، محملة بالسلع التي كانت تباع لسكان المنطقة بما فيهم جنود المحلة المخزنية الذين ظلوا هناك.

من خلال المعطيات الاقتصادية لمناطق السيادة الصغيرة، والتي جمعها المؤرخ غابرييل دي موراليس Gabriel de Morales،[18] نجد أن الجزر الجعفرية صدرت الحلفاء، الفحم، والشعير بقيمة ٢٢٣٢ بسيطة، واستوردت الثياب، والشاي، الدقيق، الصابون، القهوة، والسكر، الملح، وسلعا أخرى بقيمة ٤٨٩,٣١٨،٥٠ بسيطة، وقد جرى بيع معظم هذه السلع المستورة لتجار كبدانة، هذه التجارة استمرت لسنوات حيث نجد في جريدة ميناء قرطجنة لشهر مارس ١٩٢١، خبر وصول سفينة أنخيليس قادمة من الجزر الجعفرية بحمولة من الفحم.[19]

ورغم ذلك فلم تكن هذه النتائج الإيجابية، متينة ولا دائمة، -لذلك اختفت في وقت قصير- بما في ذلك أهمية ميناء الجزر الجعفرية كملجأ للسفن خلال الطقس المسيء، والتي تلاشت مع احتلال شبه جزيرة قلعية [20] خلال حرب ١٩٠٩، حيث أصبح بإمكان السفن الرسو في ساحلها الغربي إذا ما هبت رياح شرقية قوية، مع إمكانية التواصل مع مدينة مليلية عبر البر، ولهذا لم يتم إصلاح الرصيف الذي كان يربط بين جزيرة إيزابيلا سيغوندا بجزيرة الملك، عقب انهياره بسبب عاصفة ضربت الجزر في مارس ١٩١٤.

احتلال راس الما من طرف فرقة المشاة العاملة بالجزر، والتي كان يقودها العقيد أوخينيو أنكا Eugenio Anca، أثر سلبيا أيضا على الجزر، التي فقدت بعضا من نشاطها التجاري لصالح القرية التي أقيمت بجانب الثكنة العسكرية. إنشاء تلك الثكنة العسكرية بررته الحكومة الإسبانية، بكونه استجابة لطلب تقدم به أعيان قبيلة كبدانة، لمساعدتهم على حماية مخزن المؤن الذي أقيم براس الماء لتلبية الحاجات المتزايدة لسكان الجزر الذين ارتفع عددهم مع قدوم العديد من العمال المشتغلين في ورش بناء الميناء.

٣-حرب ١٩٠٩[21]

كان الدور الرئيس الذي أنيط بالجزر الجعفرية خلال الصراع، هو اعتبارها ميناء لجوء للسفن المتوجهة إلى مليلية محملة بالمؤن والذخائر والجنود، في حالة هبوب رياح شرقية قوية مثلما حدث أثناء حصار (١٧٧٤ - ١٧٧٥)[22] وخلال حملة ١٨٩٤ المعروفة بحملة مرغايو Campaña de Margallo،[23] مع العلم أن الجزر استخدمت سنة ١٩٠٩ أيضا كمخزن للفحم المخصص لسفن البحرية الإسبانية.

يوم ١٣ يوليوز واجهت سفينة مونتيفيديو المملوكة لشركة تراس أتلانتيكا والتي كانت تحمل فرقا عسكرية، عاصفة قوية مما اضطر طاقمها إلى البحث عن مرسى آمن في الجزر الجعفرية، نفس الشيء حصل مع سفينة بوينوس أيريس التي وصلت اليوم الموالي، وقد تكرر ذلك طيلة أيام الحملة، في كل مرة تهب فيها رياح شرقية قوية. وخلال الحملة تم استعمال مستشفى الجزر، لتخفيف الضغط عن مستشفى مليلية معالجة المرضى والمصابين الذين يقضون فترة نقاهة.[24]

هذا الأدوار الصغيرة التي قامت بها الجزر الجعفرية، تحققت بسبب إحجام قبيلة كبدانة عن مساندة قبائل قلعية،[25] ومن كون المناطق القريبة من الجزر بقيت هادئة طيلة فترة الصراع، وقد جرى احتلالها فعليا خلال شهر شتنبر انطلاقا من راس الما بواسطة فرقة قادها العقيد لاريا coronel Larrea.

وقد سقط عدد قليل من القتلى خلال هذه العملية، منهم الجندي فرانسيسكو نيبوت، الذي توفي براس الما نتيجة جراح أصيب بها، وجرى دفنه في مقبرة الجزر الجعفرية بعد أن حملت جثته إلجزيرة إيزابيلا سيغوندا، على متن سفينة لا سيرينا المستأجرة، من طرف صحيفة لاكورسبونديسيا دي إسبانيا وقد حمل الجثمان إلى مثواه الأخيرة من طرف الصحفيين أرمينيانArmiñán ، ليوبولدو روميو Leopoldo Romeo (مدير الصحيفة)، غييرمو ريواغين Guillermo Rittwagen، وفيرير Ferrer.[٢٦]

السفينة البخارية لاسيرينا Sirena، كانت تستعمل لنقل التقارير الصحفية التي كان يعدها محررو صحيفة لاكورسبونديسيا دي إسبانيا Correspondencia de La España المتوجدون بمدينة مليلية، إلى محطة التلغراف الموجودة في الجزر الجعفرية، لتفادي الرقابة العسكرية المفروضة على مليلية، عبر إرسال المعلومات في بواسطة أسلاك البرق الذي كان يربط الجزر بمدينة الغزوات،[٢٧] والذي أقيم في السنة السابقة –١٩٠٨- ويبدو أن هذه الحيلة لم تكن ناجحة لأن السلطات كانت تعترض البرقيات عند وصولها إلى مدريد.[٢٨]

٤-استغلال الثروات السمكية بالجزر الجعفرية

٤/١- اللجنة العلمية لسنة ١٩٠٨: علماء البحار الإسبان يوجهون اهتمامهم نحو الجزر الجعفرية

سنة ١٩٠٨ كانت المنطقة البحرية الموجودة بين رأس المذرات الثلاث Tres Forcas،[٢٩] الجزر الجعفرية، راس الما، محط اهتمام أولى البعثات العلمية المنظمة من طرف مختبر الأحياء البحرية بجزر البليار، (شكل نواة المعهد الإسباني لعلوم البحار)، والذي كان يرأسه عالم البحار والسياسي الجمهوري أودون دي بوين Odón de Buen الحاصل على الدكتوراه في علم الأحياء من جامعة برشلونة، وممثل هذه المدينة في مجلس النواب.

سنة ١٨٧٧، زار ألبير الأول أمير موناكو Alberto de Mónaco، ومؤسس علم المحيطات، الجزر الجعفرية على ظهر يخته "لا هيرونديل" Hirondelle ، في رحلة قادته أيضًا إلى مليلية جزيرة البوران Alborán،[٣٠] ووهران.[٣١] وصل أودون دي بوين إلى مليلية في الأيام الأولى من شهر يوليوز سنة ١٩٠٨، وفي العشرين منه زار الجزر للمرة الأولى، وآنذاك انطلقت الأبحاث تحت إشرافه الفعلي، وبمشاركة لويس لوزانو المتخصص في الأحياء البحرية وكارلوس باريلا المخصص في البلانكتون وعلماء آخرين. كما تم أخذ من عينات، والقيام بالعديد من عمليات التجريف لتحديد طبيعة قاع البحر.

وقد تحققت اللجنة من مدى غنى مياه المنطقة بالأسماك، بسبب تيارات مضيق جبل طارق، حيث تتواجد بالمنطقة الكثير من الأنواع التي تعيش بالمحيط الأطلسي، وفي شتنبر من نفس السنة اختتمت البعثة العلمية الأولى. سنة ١٩٠٩ عادت اللجنة العلمية لاستكمال الأبحاث، إلى أن قامت الحرب ضد قبائل قلعية، ثم استؤنفت مرة أخرى في يوليوز من سنة ١٩١٠، وفي هذا المرة كانت اللجنة العلمية تتوفر على مركب شراعي مخصص للأبحاث البحرية، سمي ابن رشد وتكون طاقمه من ربان وثلاثة بحارة.

٤/٢- انطلاقة نشاط الصيد البحري

مع احتلال أراضي قبائل قلعية وكبدانة، أصبح بإمكان البحارة الإسبان الاستفادة من مجال بحري واسع، معروف من قدم من بغناه بالثروات السمكية، وهو ما تأكد عمليا بفضل النتائج التي توصلت إليها البعثة العلمية التي أشرف عليها أودون دي بوين.

أنواع السمك الموجودة في المياه القريبة من الجزر الجعفرية تختلف باختلاف فصول السنة، ففي فصلي الربيع والصيف حيث تكثر الأسماك، وخصوصا السردين والأنشوبة، التي تجذب أسماك البينيت[٣٢] وأسماك التونة، التي تستعمل القناة الفاصلة بين الجزر الجعفرية وراس الما، أثناء هجرتها وأيضًا لتسمين اليرقات، مما أدى إلى التفكير في إقامة مجموعة من مشاريع الصيد بالمضربة.

لقد ظلت الجزر الجعفرية هامشية بالنسبة لنشاط الصيد البحري بمليلية، لأن سفن الصيد الشراعية كان عليها أن تبحر ٢٤ ميلاً بحريًا التي تفصل الجزر عن المدينة. فمن ميناء الجزر كانت تصدر الأسماك المصطادة نحو شبه الجزيرة الأيبيرية، وهذه مسافة كبيرة بالنسبة لهذا النوع من السفن، الذي كان إبحاره متوقفا على هدوء البحر، وكان مفتقرا إلى وسائل المحافظة على الأسماك، بحالة جيدة أثناء نقلها إلى مليلية، خصوصا خلال فصل الصيف لكن كل هذا تغير مع انتشار السفن ذات المحرك والسيارات.

ففي صيف ١٩١٦ كان من العادي أن تعود سفن الصيد محملة يوميا بما يتراوح ما بين ١٠٠٠ و١٥٠٠ سمكة تونة، يتراوح ونها ما بين ٢ و ٢,٥ كيلوغرام، وهذه أحجام صغيرة بالنسبة لسمك التونة، مما أدي إلى استنزاف المصايد.[٣٣] في وقت لاحق ظهرت سفن

الصيد المعتمدة على الضوء، والتي تعرف بسفن الجر، وقد استعمل بحارتها الشباك ذات عيون صغيرة، المستخدمة عادة في صيد السردين، مما زاد من حجم الإنتاج من الأسماك الصغيرة. قسم من الكميات المصطادة كان يحافظ عليها بواسطة الملح أو الجليد، لتصديره إلى شبه الجزيرة، والقسم الآخر كان يوجه للاستهلاك بمليلية والمناطق المجاورة.

كانت توجد بمليلية معامل لتمليح وتعليب السردين، والأنشوبة، والتونة، كما تم التفكير في إقامة مشاريع مشابهة بالجزر الجعفرية لكنها لم ترى النور. وعلى الرغم من أن الكميات المصطادة لم تكن تصنع في الجزر، إلا أن البحارة الذين كانوا يصطادون بالمياه المحيطة بها والذين كان يستعملون ميناء جزيرة إيزابيلا سيغوندا في حالات الطقس السيئ، وللتزود بالمؤن وخصوصا الخبز، وأخذ قسط من الراحة، مما جلب بعض الرواج لأصحاب المحلات التجارية والحانات.

٥-حرب الريف والحماية

٥/١- الجزر الجعفرية خلال حرب الريف

كما كان الحال خلال حرب ١٩٠٩ فقد لعبت الجزر الجعفرية دورا ثانويا في الحملات العسكرية التي قامت بها إسبانيا لاحتلال منطقة حمايتها بشمال المغرب، بخلاف مليلية، التي كان تعرف نمواً اقتصادياً وديموغرافيًا وحضريًا استثنائيًا، خلال تلك الحملات، فإن الجزر الجعفرية لم تستفد كثيرا من هذه من تلك المستجدات، وباستثناء وصول خيوط الكهرباء سنة ١٩٢٢، فإن حالة سكان الجزر لم تتحسن كثيراً.

الدور المهم للجزر الجعفرية، تزامن مع ما يسمى كارثة أنوال،[٣٤] التي سببها انتفاضة القبائل ضد السلطات الإسبانية، حيث أنضم العديد من الكبدانيين إلى صفوف المنتفضين، مما دفع السلطات العسكرية إلى إخلاء المواقع الداخلية، أما رأس الما فقد ظل تحت سيطرة القوات الإسبانية، لكن السكان المدنيين تم إجلائهم نحو الجزر، التي تحولت تحت قيادة أرسينيو فوينتيس إلى قاعدة خلفية للوحدات الموجودة في راس الما.

وكما في سنة ١٩٠٩، فقد أقيم في جزيرة إيزابيلا سيغوندا مستودع للفحم لصالح البحرية الإسبانية، وخلال المراحل الأولى من حرب الريف، كانت الفرقاطة بونيفاز تحمي بمدافعها قاعدة راس الما، والممر المائي الرابط بينها وبين الجزر الجعفرية، والذي كان ضروريا لنقل المؤن والفرق العسكرية.

هناك دور آخر قامت به الجزر الجعفرية، وهو توفير ملاذ للعائلات الإسبانية الهاربة من التمرد القبلي، بعضها جاء من راس الما مباشرة، وبعضها الآخر من المنطقة الفرنسية، ففي بداية شهر غشت (١٩٢١) كان يوجد في الجزر ١٨٠ لاجئًا، وكان هناك ألف أخرون موزعين بين بور سايPort Say[٣٥] وبركان ووجدة، والذين يعتقد أنهم مروا عبر الجزر الجعفرية. لقد وصل أولئك اللاجئون أو الفارون دون أية موارد، وكان على السلطات العسكرية أن تقدم لهم المأوى والمساعدة.[٣٦]

وفي شتنبر وافقت السلطات على مصادرة الممتلكات التي توجد بالجزر والتي تعود ملكيتها للكبدانيين المشاركين في التمرد، وكما في سنة ١٩٠٩ نقل إلى مستشفى الجزر الجنود المرضى والجرحى الذين هم في فترة نقاهة.[٣٧] قد أدت الزيادة السكانية الكبيرة إلى مشكلة في التموين، مما أجبر هيئة الحكام على شراء الماشية والمؤن الضرورية لتوفير التموين اللازم.[٣٨] بعدما تلك المرحلة المضطربة التي تزامنت مع بداية الحرب، عاد الهدوء إلى الجزر الجعفرية ولم تكن هناك أية مواجهات عسكرية.

لكن بقيت الجزر مكان يقضى فيه الجنود الجرحى فترة نقاهتهم، ومعتقلاً للأشخاص الذين يشتبه في علاقتهم بتمرد قبائل الريف وقلعية، ومنهم ادريس بن سعيد[٣٩] الذين يقال أنه ترجم رواية دون كيشوت إلى اللغة العربية، ومحمد Mohamed Asmani المعروف بمورو غاطو، الذي كان محل ثقة مليلية خلال حرب ١٩٠٩، بالإضافة إلى عدد من النساء والأطفال من قبيلة بني سعيد الذين أخذوا كرهائن لإجبار القبيلة على الاستسلام.

بعد استسلام عبد الكريم،[٤٠] تم اقتياد بعض رجاله المقربين ومنهم حميد بودراع[٤١] إلى معتقل الجزر، كما تم سجن بعض العسكريين المتهمين بالتقصير أثناء معركة أنوال، منهم العقيدين السابقين، خيمينيث أرويو وروس، رفاييل غاييغو Rafael Gallego، والقائد سيرينيولا لاريا، والنقيب سيبانتوس، والملازمان بلاخا ودابينا، بعد ذلك بوقت قصير تم إطلاق سراحهم جميعا، البعض لانقضاء مدة محكوميتهم والبعض الآخر لتمتعيهم بالعفو.[٤٢]

ترجمات

٢/٥- الحماية

نهاية الحرب لم تجلب أي جديد للجزر الجعفرية التي واصلت تراجعها البطيء، والذي استحال إيقافه، والحاجة إلى تنمية وتأمين المناطق الخاضعة لإسبانيا، دفعت إلى الاهتمام ببلدات مثل بيا سان خورخو Villa Sanjurjo،[٤٣] وراس الما، على حساب الممتلكات الإسبانية القديمة كصخرة نكورPeñón de Alhucemas،[٤٤] وحجرة بادس Peñón de Vélez،[٤٥] والجزر الجعفرية.[٤٦] في شهر شتنبر من سنة ١٩٢٦ تم نقل القيادات العسكرية التي كانت في حجرة بادس وحجرة نكور والجزر الجعفرية إلى طوريس دي ألكالا،[٤٧] وبيا سان خورخو، وراس الما على التوالي. لكن في حالة الجزر الجعفرية لم يدم ذلك إلى لمدة قصير حيث تم سحب مفرزة المشاة من راس الما، وإعادة القيادة العسكرية مرة أخرى إلى الجزر الجعفرية.[٤٨]

أما على المستوى الاقتصادي فقد تم إلغاء العديد من الامتيازات التي كان يتمتع بها الميناء الحر، وفرضت إدارة الجمارك التابعة للحماية الإسبانية الواجبات الجمركية على السلع المصدرة للمغرب. ومن أجل تعزيز المبادلات التجارية بين مناطق السيادة ومنطقة الحماية تم بموجب الأمر الملكي المؤرخ ب ٣ أبريل ١٩١٣، تشكيل لجنة لدراسة السبل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف.[٤٩]

وقد اقترحت هذه اللجنة تخفيض الضرائب الجمركية المفروضة على السلع المستوردة، ليتم تصديرها للمغرب، بالإضافة إلى تقليص تكاليف شحن السلع نحو مناطق السيادة Plazas de Soberanía،[٥٠] لتكون لها قدرة تنافسية، لكن هذه الاقتراحات لم تطبق في أرض الواقع، بل بقيت حبرا على ورق.[٥١]

في نفس الوقت صدر الأمر الملكي، الذي سمح بإنشاء موانئ تجارية في راس الما، وأركمان، سيدي موسى، والناضور. ورغم أن ميناء راس الما كان يتوفر على مكتب جمارك مما يمكن من إقامة مبادلات تجارية مباشرة مع الجزر الجعفرية، إلا أن تلك المبادلات كانت تتم مع ميناء مليلية، مما أدى إلى تراجع حاد في نشاط الميناء الحر للجزر الجعفرية، وفي سنة ١٩٣٤ فقد وضعيته كميناء حر.[٥٢]

وكمثال على ذلك نذكر أنه في سنة ١٩٢٦ كانت المواصلات البحرية بين الجزر ومليلية تقتصر على رحلة واحدة أسبوعيا على متن سفينة غانديا ذات ستة والثلاثين مترا، حيث كانت المغادرة تتم في منتصف نهار يوم السبت، والعودة يوم الأحد. غير أن قرب الجزر من راس الما، جعل من الممكن الممكن السفر إلى مليلية عبر البر، في وقت قصير إذا كان الطقس يسمح بالعبور.

أما الصيد البحري فقد واصل تطوره لكن مع مخالفة تامة لقوانين الصيد، مما كان يهدد باستنزاف المصايد، وفي صيف ١٩٢٧ انتقلت السلطات البحرية بدوريات، تم على إثرها إيقاف سبع سفن صيد، وتوجيهها لمليلية في انتظار صدور العقوبات، لأنها كانت تصطاد في منطقة محظورة كما تمت مصادرة ١٤٥ صندوق سمك.[٥٣] وخلال ديكتاتورية بريمو دي ريبيرا،[٥٤] تم نفي العديد من المعارضين إلى جزيرة إيزابيلا سيغوندا، منهم الكاتب فرانثيسكو كاسيو، وأرتورو كازانوبيا، والسياسي ورجل القضاء خيمينيث دي أسوا.

وفي الفترة الأخيرة من حكم الملك ألفونسو ١٣،[٥٥] استقبلت الجزر الجعفرية ٤١ رقيب وجندي من أجل استكمال الأحكام التي صدرت في حقهم من طرف القضاء العسكري، بسبب مشاركتهم في التمرد الذي قام به الجمهوريون في ثكنة خاكا.[٥٦] وقد وصلوا إلى الجزر في ٤ أبريل ١٩٣١، ومع إعلان الجمهورية يوم ١٤ أبريل تم إطلاق سراحهم، وفي يوم التالي وصلوا إلى مليلية حيث استقبلوا بحفاوة بالغة.

٣/٥- الجمهورية، الحرب الأهلية، وما بعد الحرب

مع قيام الجمهورية شارك سكان الجزر الجعفرية مع سكان سبتة ومليلية في المطالبة بحقوق مدنية متساوية مع باقي أفراد الأمة الإسبانية، هذا التحرك المدني تمثل في بعض المظاهرات والعرائض التي وجهت للحكومة. وفي يوم ٢٣ غشت ١٩٣١ قدم فرع حزب الاتحاد الجمهوري بمدينة مليلية، العلم الجمهوري لمجلس الخدمات البلدية بالجزر الجعفرية، تقديرا لحسن المعاملة التي تلقاها الجنود الذين شاركوا في تمرد خاكا والذين تم نفيهم إلى الجزر كما أشرنا سابقًا.

جيء بالعلم إلى الجزر، عبر راس الما، وقد حملته لجنة تمثل الحزب، من بين أعضائها، رامون وإداوردو دي بوسطوس. وهما من أهم القادة الجمهوريين في مليلية.

وحسب جريدة تليغراما ديل ريف، فقد اطلع الزوار على الإهمال الذي عاناه سكان الجزر، والذي كان ظاهرا للعيان، من خلال تدهور جميع مباني جزيرة إيزابيلا سيغوندا.[٥٧] بعد فوز الجبهة الشعبية[٥٨] بالانتخابات، قام ممثلون عن سكان الجزر، بإرسال برقية تهنئة للويس بارينا، المنتخب عن مدينة مليلية لمجلس

النواب، وإلى زعماء الجبهة الشعبية، بينوا فيها أن شاركوا في الانتخابات رغم استحالة تنظيمها في الأرخبيل، وطالبوا بمنحهم الحقوق المدنية، وفي الختام اقترحوا تغيير اسم الجزر الثلاث إلى الحرية والإخاء والمساواة.[٥٩]

التمرد العسكري ل ١٦ يوليوز ١٩٣٦، لم يكن له صدى مباشر في الجزر، والقمع الفرنكاوي لم يطل إلى فئة محدودة جدا، من السكان الذين اعتقلوا خلال لفترة.[٦٠] لم تتعرض الجزر خلال الحرب للقصف الجوي والبحري، وانقضت سنواتها الثلاث دون أحداث مهمة، باستثناء فرار ثمانية بحارة إلى الجزائر، على متن مركب الصيد أنطونيو مارفيل، الذي كان راسيا في ميناء مليلية، بعد حصولهم على ترخيص بالصيد في مياه الجزر الجعفرية من طرف السلطات الفرنكوية، وفي يوم ١٧ ماي ١٩٣٧ أبحروا نحو وجهتهم قبيل الفجر هما هو معتاد، وعندما لاحظوا غياب خفر السواحل توجهوا نحو الغزوات حيث انقطعت أخبارهم.[٦١]

لم تكن فترة ما بعد الحرب قاسية، كما كان الحال في مناطق أخرى، وكان بإمكان السكان التزود بالمؤن من راس الما، أما الخبز والأسماك فقد كانا متوفرين بشكل دائم، رغم أن جودتهما لم تكن مثالية.[٦٢] في تلك السنوات المظلمة تم الاحتفال بمرور قرن على احتلال الجزر،[٦٣] عبر تنظيم استعراض عسكري في مليلية، وفيها أيضا وقعت عاصفة شديدة خلال شهر ديسمبر من سنة ١٩٤٩، وقد ألحقت أضرار بالغة بالسفن التي كانت راسية في ميناء مليلية، بينما احتمت بعض مراكب الصيد بالجزر الجعفرية.[٦٤]

٤/٥- السراب المسمى إعادة إحياء الجزر الجعفرية

فيما بين ١٩٥٢ و١٩٥٣، كانت فترة الحماية قد وصلت إلى نهايتها، وأشاعت أبواق الدعاية التابعة للنظام، أن هناك العديد من المشاريع المقرر تنفيذها بالأرخبيل تحت شعار إعادة إحياء الجزر الجعفرية. وحسب جريدة أ ب س، فإن تلك المشاريع " ستكون علامة فارقة في تاريخ الجزر، وستشكل دليلاً حاسمًا على الوجود الإسباني في المغرب".

من بين المشاريع التي كان من المنتظر تنفيذها إصلاح الكنيسة وعددًا من المباني، إصلاح الميناء، لجعله قادرًا على استيعاب السفن الكبيرة، وتلك المخصصة لصيد التونة، بناء مقر للصيادين، ومنشآت لتنمية نشاط الصيد البحري، نزل سياحي، وأيضًا إقامة خط بحري أسبوعي يربط الجزر بمدينة مليلية خدمة "للسياح الكثر" الذي سيتوافدون على الأرخبيل. ورغم أن هذا المخطط روج له اثنان من كبار الأفريقانيين الفرنكاويين وهما الجنرال غارسية بالينيو،[٦٥] (المندوب السامي وحاكم مناطق السيادة)، والمؤرخ طوماس غارسية فيغيراس،[٦٦] فلم يتحقق منه أي شيء مثل جميع المخططات التي كان من المنتظر أن تنفذ في الجزر.

في النهاية تم ترميم الكنيسة، وبعض المباني وساحة السلاح، التي أصبح اسمها ساحة غارسية بالينيو، كما بنيت بعض الأكواخ لصالح الصيادين الذين يتمركزون في جزيرة إيزابيلا سيغوندا.[٦٧] في يناير سنة ١٩٥٠، تم بناء على طلب من الحكومة الكوبية، استخراج رفات المفترضة للزعيمين الانفصاليين الكوبيين، الذين توفوا في الجزر وهما رفاييل ماسيو والعقيد خوان ثينترا.[٦٨] قام النظامان الديكتاتوريان الكوبي والفركاوي بتنظيم سلسلة من الاحتفالات بمناسبة تبادل رفات من ماتوا في حرب استقلال كوبا.[٦٩] [٧٠]

٦-الجزر الجعفرية من استقلال المغرب إلى أزمة ١٩٧٥

١/٦- استقلال المغرب

في أبريل ١٩٥٦ استعاد المغرب استقلاله، رغم إعادة انتشار القوات الإسبانية استمر إلى سنة ١٩٦١، ومع نهاية الحماية تم إلغاء منصب المندوب السامي، مما حتم إدخال تغييرات على التنظيم الإداري في سبتة ومليلية والممتلكات الشمال إفريقية، رغم أن الجزر الجعفرية ظلت تابعة للقيادة العامة بمليلية. وبعد سنوات قليلة تم تقليص الوجود العسكري، حيث اقتصر على حامية بعد أن كانت ترابط بالجزر الجعفرية كتيبة عسكرية، كما تم إلغاء منصب القائد العسكري للجزر الجعفرية، وتولى اختصاصاته للضابط المسؤول عن الحامية.

في السنوات التي أعقبت استقلال المغرب استمرت الحياة في الجزر على طبيعتها، كما استمرت علاقات الجوار مع قبيلة كبدانة، واستمر سكان الجزر في التزود بالمنتوجات الطاجزة من راس الما، باعتماد على الرصيف الصغير بسبب صعوبة التنقل إلى مليلية. واصلت سفن الصيد المملوكة لسكان راس الما، الرسو قريبًا من جزيرة إيزابيلا سيغوندا، ويتذكر أنطونيو باردو الذي أمضى تلك السنوات في الجزر أن طواقم تلك السفن كانوا بمجرد الرسو يغادرون نحو رأس الما، في قارب الأضواء تاركين شخصًا ليحرس سفينة الصيد مالم

يكن الطقس سيئا، ففي تلك الحالة يضطر الطاقم عله للبقاء.

أما فيما يتعلق بالصيد في المياه المحيطة بالجزر، والتي لم تعتبرها إسبانيا مطلقاً مياه خاصة، فقد تم استغلالها بموجد اتفاقية ١٩٥٧، التي ضمنت للصيادين المغاربة والإسبان الصيد في المياه الإقليمية للبلدين كما كان حال دائماً. وبقي الحال على ما هو عليه حتى سنة ١٩٦٩، تاريخ توقيع أول اتفاق صيد بين إسبانيا والمغرب، والذي حدد المياه الإقليمية لكل بلد ١٢ ميلاً بحريًا، مع التأكيد على "الحقوق التاريخية" للصيادين الإسبان في المياه المغربية. [٧١] وقد سمحت هذه الاتفاقية للصيادين الإسبان، وخصوصا المليليين، باستمرار بممارسة مهنتهم في الجزر الجعفرية، لكن سنوات قليلة بعد ذلك اندلع الصراع بين البلدين على عدة جبهات منها الصيد البحري.

٢/٦- الأزمات المغربية الإسبانية خلال عقد السبعينات: الصحراء، الصيد البحري، المطالبات الترابية

انطلقت شرارة هذه الأزمات بسبب الصيد البحري، حيث أن اتفاق الصيد البحري بين البلدين الموقع سنة ١٩٦٩، كان محدود الفعالية، ولذلك تم إلغاءه سنة ١٩٧٢، وقد استغل المغرب هذا الإلغاء فقام عند بداية سنة ١٩٧٣ بمضاعفة عرض منطقته الاقتصادية الخاصة ليبلغ ٧٠ ميلاً بحريًا، وهذا ما قامت به حينها مجموعة من الدول التي تمتلك ثروات سمكية هامة، رغم أن هذا الإجراء لم يكن منظماً قانونيًا على المستوى الدولي.

كان هناك وضع غريب في مليلية، حيث كان ميناؤها قاعدة انطلاق لعدد هام من سفن الصيد المغربية، وكان مسموحًا للصيادين الإسبان الصيد في المياه المغربية حتى يوم ٢ يوليوز ١٩٧٣، يومها قامت دورية مغربية باحتجاز مركب الصيد كواترو مندامينتو واقتادته إلى الحسيمة. وقد منع هذا الحادث أسطول الصيد المليلي من العمل عدة أيام إلى أن يتضح الوضع.

وفي نوفمبر من نفس السنة، وقع حادث آخر مع دوريات المراقبة المغربية وهذه المرة في مياه الجزر الجعفرية، ففي يوم ٢٧ من نفس الشهر، تم احتجاز سفينة الصيد غوتياغو، بينما كانت تتواجد على بعد ستة أميال من الجزر، كما تم احتجاز السفن التالية أولبيرا غاياردو وكينيبيرو وبالوما بلانكا، وجميعها مسجلة مليلية، عندما كانت عائدة إلى الميناء، وتم اقتيادها إلى الحسيمة، حيث توجد قاعدة للبحرية المغربية، وفي يوم ٣٠ نوفمبر تم لها بالعودة إلى مليلية.[٧٢]

المشاكل المتعلقة بالصيد البحري كان من الممكن حلها بالتفاوض والاتفاقيات الثنائية، لكن المطالب المغربية بضم الصحراء الإسبانية، وذلك عبر مطالبة الأمم المتحدة بتصفية الاستعمار، أدى إلى اندلاع أزمة جديدة بين المغرب وإسبانيا ذلك أن المملكة الشريفة ضغطت على إسبانيا عبر تدويل مطالبتها بمناطق السيادة سبتة ومليلية والجزر الجعفرية وصخرتي نكور وبادس.

وقد وجه السفير المغربي في منظمة الأمم المتحدة، رسالة بتاريخ فبراير ١٩٧٥ للجنة تصفية الاستعمار يطالب فيها بإدراج هذه المناطق ضمن لائحة المناطق الخاضعة لتصفية الاستعمار. لكن اللجنة لم تأخذ هذه الرسالة بعين الاعتبار. في النهاية تم يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧٥، توقيع اتفاقية مدريد التي تخلت بموجبها إسبانيا عن إدارة الصحراء لصالح المغرب وموريطانيا مما أدى إلى تهدئة الأوضاع.

٣/٦- تراجع نشاط الصيد البحري بالجزر الجعفرية

بعد اتفاقية مدريد عادت العلاقات بين البلدين على مستوى الأنشطة البحرية إلى طبيعتها، وعادت السفن القليلة المتبقية في مليلية، بالإضافة إلى سفن أخرى كانت تأتي من ألميرية وأدرا وبرباطي للصيد في مياه الجزر الجعفرية خصوصًا في سنوات الوفرة. خوسي لوبيث لوبيث، مالك سفينة صيد من أدرا، يتذكر جيدًا تلك الفترة التي يسميها "سنوات أنشوبة مليلية"، حيث أدى سوء استغلال الثروات السمكية عبر استخدام المتفجرات من طرف الصيادين الإسبان والمغاربة إلى استنزاف وتدمير المصايد أواسط عقد الثمانينيات.

وعندما كانت اتفاقيات الصيد بين المغرب وإسبانيا سارية المفعول، كانت هناك دائماً سفن صيد إسبانية تصطاد في مياه الجزر الجعفرية، وتستخدم رصيفها للجوء كلما كان ذلك ضروريًا مثلما هو حال السفينة ماريسول التي جنحت في يونيو ١٩٩٦ بالقرب من جزيرة إيزبيلا سيغوندا. حامية الجزيرة وخصوصًا جنود البحرية، قدموا لطاقمها المساعدة في حدود إمكانياتهم، ومع ذلك احتاجت السفينة إلى مساعدة إضافية بسبب التيارات البحرية القوية، وسوء الأحوال الجوية، فتم إرسال سفينة الإنقاذ "سالبامار ١"، والتي أرسلها مؤلف هذه السطور من مليلية، مع طاقم متخصص لإجراءات

الإصلاحات الضرورية، والتي سمحت لسفينة الصيد بالإبحار من جديد والعودة إلى ألميريا.

٧-الجزر الجعفرية في الوقت الحاضر

١/٧- نهاية الساكنة المدنية في الجزر الجعفرية

عند نهاية عقد السبعينات وصلت الجزر الجعفرية إلى حالة من التدهور الشامل، وتم تخفيض حاميتها إلى فرقة من الريغولاريس،[٧٣] يرأسها قبطان وفرقة من جنود البحرية يرأسهم رقيب. وانحصر الوجود المدني في جزيرة إيزابيلا سيغوندا في موظف تلغراف، وخباز، والمسؤول عن المنار، وفي بعض الأحيان كان يحل بالجزيرة أقارب أحد جنود للزيارة. وكانت المواصلات البحرية مع مليلية منحصرة في رحلة واحدة كل أسبوعين، تأمنها سفينة "ليون إي كاستيو"، المملوكة لشركة تراسميديترانيا. أما المواصلات مع راس الما فقد كانت مستمرة على مركب مملوك لشخص كان يعرف باسم "لارغو".[٧٤]

بعد سنوات قليلة غادر المدنيون نهائيا، لأن مهماتهم لم يعد لها وجود كما هو حال موظف التلغراف، والمسؤول عن المنار، أو تولاها موظفون تابعون لوزارة الدفاع يتغيرون كل شهر كما هو حال الخباز والميكانيكي البحري. مع تقاعد المسؤول عن المنار، وعن الميناء مانويل غونثاليث مادوليل سنة ١٩٨٦،[٧٥] انتهى الوجود المدني في الجزر الجعفرية، وفي نفس السنة تم إلغاء الخط البحري الذي كان يربطها بمليلية.

٢/٧- حاضر ومستقبل الجزر الجعفرية

باعتبارها منطقة خاضعة للإدارة العسكرية، فإن نتائج سياسة الاحتراف والتحديث والعصرنة، التي انتهجتها القوات المسلحة الإسبانية قد ظهرت بوضوح في الجزر الجعفرية، حيث تم السنوات الأخيرة إعادة تنظيم الموارد المتوفرة وتقليص عدد الجنود. أدى تقليص الجنود المتواجدين بمليلية نتيجة سياسة الاحتراف التي انتهجها الجيش، إلى تقليص عديد حامية الجزر الجعفرية، وخصوصا جنود البحرية، وبالتالي عدد المراكب العاملة بالجزر، ففي أواسط عقد التسعينات أعيد إلى مليلية أخر مركب من مجموعة المراكب المتعددة المهام التي كانت في الجزر الجعفرية.

وفي سنة ٢٠٠٠ تم سحب سفينة الشحن من طراز TRB 399كابيطان مايورال، التي كانت تابعة لوحدة الدعم اللوجيستيكي بمليلية، وكان يسيرها طاقم مدني تابع لوزارة الدفاع، وكانت تخدم الجزر الجعفرية وصخرتي النكور وبادس، وأصبح تغيير الطواقم والتدخل في الحالات الطارئة يتم عبر المروحيات. بعد سحب سفينة القبطان ميورال من الخدمة، أصبحت المواصلات البحرية مع الجزر الجعفرية محصورة في في السفن الصهريجية، التابعة للبحرية التي تنقل المواد والمؤن أثناء الرحلات التي تقوم بها لتزويد جنود الحامية بمياه الشرب.

وخلال هذه السنوات ألغيت النوبات الشهرية للخبازين والميكانيكيين العاملين التابعين لوزارة الدفاع. مع اندلاع أزمة ٢٠٠٢، بسبب التدخل المغربي في جزيرة تاورة، عادت الحكومة للتركيز على الجزر الجعفرية فتم تعزيز حاميتها بفرق من الريغولاريس المتواجدة في مليلية، بعد قيام زوارق تابعة للبحرية الملكية المغربية بمناورات بالقرب من الجزر. كما انتشرت تلك القوات في الجزيرتين غير المأهولتين كونغريسو والملك تحسبا لأية مفاجآت. وتم إرسال وحدات أخرى لمراقبة محيط الأرخبيل.[٧٦]

مع عودة الوضع إلى طبيعته عادت تلك القوات التي أرسلت بصفة استعجالية إلى قواعدها في مليلية، وعادت الجزر الجعفرية إلى سباتها العميق. وفي السنوات الأخيرة بدأت البحرية تخرج من الخدمة السفن الصهريجية التي تمون الجزر الجعفرية وصخرة النكور وصخرة بادس وجزيرة البوران. وهذا ما يفرض إعادة النظر في مستقبل التموين وإمدادات الماء وقد اتجهت الحكومة إلى الاعتماد على التكنولوجيات الحديثة والطاقات المتجددة، وفي نهاية سنة ٢٠٠٩، تمت الموافقة على إقامة مولد للمياه الصالحة للشرب بواسطة التكثيف،[٧٧] ومحطة للطاقة الشمسية لتلبية احتياجات الرجال والنساء المسؤولين على استمرار وجودنا في هذا الجزء العزيز من إسبانيا والمتطلع إلى المستقبل.

ترجمات

مصادر ومراجع المؤلف

1- BARCÍA, María del Carmen (2003). *Desterrados de la Patria. Cuba 1869 – 1898*. La Habana: Universidad, nº 258 (2º) semestre.

2 - BECKER, Jerónimo (1915). *Historia de Marruecos*. Madrid.

3- DEL REY, Miguel (2001). *La Guerra de África*. Medusa Ediciones.

4 - HERRÁN LÓPEZ, Ángel y AVILÉS, Juan (2003). *El nacimiento del terrorismo en occidente*. Ed. Siglo XXI.

5 - LÓPEZ CORDÓN, MaríaVictoria (1982). "La política exterior en la era isabelina y el Sexenio Democrático". Historia de España, tomo XXXIV. Madrid: Espasa Calpe.

6- LÓPEZ TIRADO, Jacinto (2002). *Islas Chafarinas, un paseo por su historia*. Melilla: Ciudad Autónoma.

7 - MOGA ROMERO, Vicente (1988). "Melilla y las Plazas Menor es (Chafarinas, Vélez de la Gomera yAlhucemas) en el Diccionario Geográfico-Estadístico-Histórico de España y sus posesiones de ultramar (Madrid 1845-1850) Pascual Madoz". En: Aldaba nº 9. UNED de Melilla.

8 - MORALESY MENDIGUTÍA, Gabriel de (1909). *Datos para la historia de Melilla*. Melilla: Imp. El Telegrama del Rif.

9 - PASTOR GARRIGUES, Francisco. España y la apertura de la cuestión marroquí (1897 – 1904). Tesis doctoral. http://hdl.handlenet/10803/9958.

VILLAR, María José (2006). "España, Alemania y las islas Chafarinas en vísperas del replanteamiento de la cuestión marroquí". Studia histórica. Historia Contemporánea, nº 24; págs. 207 – 229.

10 - VIRUELA MARTÍNEZ, Rafael (1995). "Expansión y crisis de la actividad pesquera valenciana en el siglo XIX". Investigaciones geográficas nº 13; págs. 117 – 133.

المصدر

CARLOS ESQUEMBRI HINOJO

Spanish title: ISLAS CHAFARINAS DURANTE EL SIGLO XX

English title: CHAFARINAS DURING THE 20TH CENTURY

Aldaba: revista del Centro Asociado a la UNED de Melilla, Nº. 38, 2013 (Ejemplar dedicado a: Chafarinas): El ayer y el presente de unas islas olvidadas II, páginas. 9 - 42.

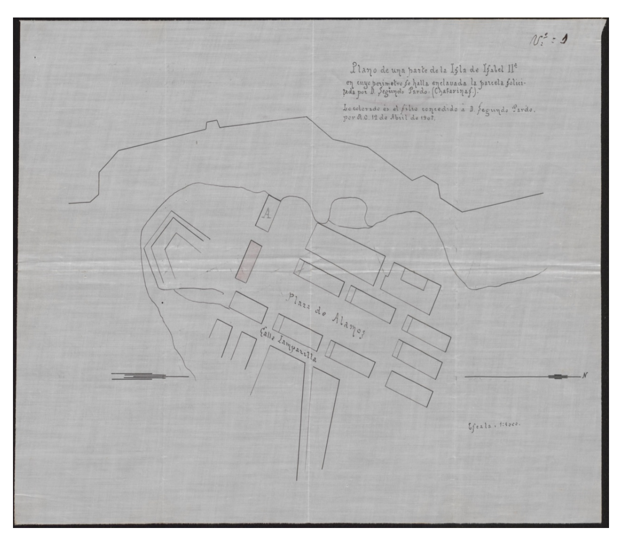
الملاحق



تصميم الميناء ومخازن الفحم
في كل من جزيرة الملك وجزيرة إيزابيلا الثانية

المصدر:

Archivo General Militar de Segovia — Colección: AMD — Ubicación: AGMS — Signatura: Carpeta 2, Plano 37 ID_46. — Código de barras: 9939813



مشروع الوكالة التجارية بجزيرة إيزابيلا الثانية

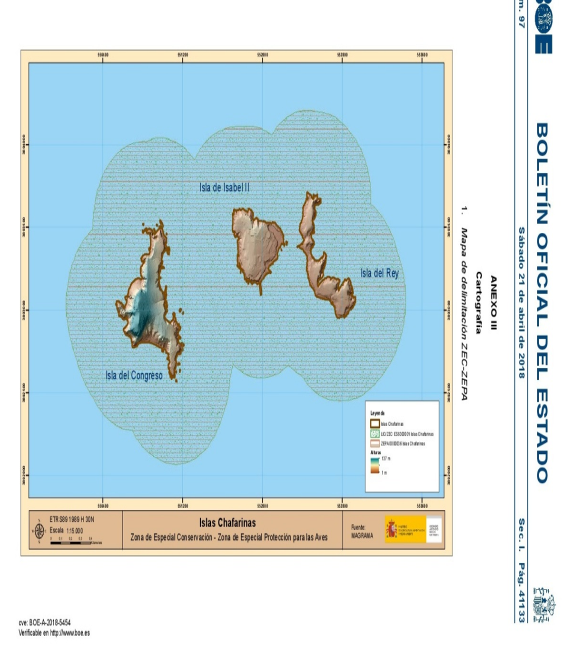
المصدر:

Archivo General Militar de Segovia — Colección: ES-DFAMD — Signatura: Carpeta 2, Plano 33 — Notas: ID_Plan. 44

ترجمات

الهَوامِشُ:

(١) أرخبيل يوجد قبالة السواحل الشرقية للمغرب يتكون من ثلاث جزر هي جزيرة الملك، جزيرة إيزابيلا الثانية، وجزيرة كونغريسو.
(٢) مجموعة من الأرخبيلات والجزر والحلقات المرجانية الموجودة إلى جنوب الفلبين تابعة حاليًا لكيريباتي وبالاو
(3) España y la apertura de la cuestión marroquí págs. 334 y ss.
(٤) مدينة بالشمال الشرقي للمغرب احتلها الإسبان سنة ١٤٩٧ مساحتها ١٢,٣ كيلومترًا مربعًا.
(٥) قاعدة عسكرية أنشأها الروس في منطقة منشوريا، كانت خلال الحرب الروسية اليابانية مسرحًا لمعارك عنيفة.
(6) Telegramas citados en España, Alemania y Chafarinas
(٧) إحدى الجزر الجعفرية الثلاث، مساحتها ١٢ هكتار لا يوجد عليها أي بناء، وتعتبر حاليًا محمية طبيعية.
(8) España, Alemania y Chafarinas.
(9) El Liberal 23/09/1902.
(١٠) مجرى مائي صغير يفصل بين الأراضي المغربية والجزائرية يسمى في المغرب واد أغبال.
(١١) فالريانو وايلر:عسكري إسباني تولي مناصب مهمة منها حاكم العام للفلبين والحاكم العام لجزيرة كوبا.
(١٢) El Día, El País y La Correspondencia de España del 20/09/1902. La Dinastía 23/04/1902.
(١٣) ثائر مغربي سيطر على المغرب الشرقي فيما بين ١٩٠٢ و١٩٠٩ وهدد بشدة حكم مولاي عبد العزيز.
(١٤) La Correspondencia Militar 24/02/1903.
(١٥) إحدى جزر الجعفرية الثلاث مساحتها ٢٥ هكتار، وهي غير مأهولة حاليًا وتعتبر محمية طبيعية.
(١٦) إحدى الجزر الجعفرية الثلاث مساحتها حوالي ١٥ هكتار توجد بها قواعد عسكرية إسبانية.
(17) La Correspondencia Militar 11/02/1903; 12/02/1903; 24/02/1903. El Día 11/02/1903; 13/ 02/1903.
(١٨) عسكري ومؤرخ إسباني شغل منصب قائد الشرطة الأهلية في الريف الشرقي قتل في معركة أنوال سنة ١٩٢١.
(19) La Tierra 09/03/1921.
(٢٠) شبه جزيرة قلعية
(٢١) مجموعة من المواجهات المسلحة التي وقعت سنة ١٩٠٩ وبداية ١٩١٠ بين الجيش الإسباني وقبائل قلعية بقيادة الشريف أمزيان.
(٢٢) حصار ضربه الجيش المغربي على مدينة مليلية على عهد سيدي محمد بن الله وقد استمر أربعة أشهر.
(٢٣) مواجهات مسلحة بين الجيش الإسباني وقبائل الريف الشرقي مدعومة بالجيش المخزني استمرت بين ١٨٩٣ و١٨٩٤.
(24) ABC 23/10/1909.
(٢٥) اتحادية قبلية تتكون من خمس قبائل موطنها الريف الشرقي تحيط أراضيها بمدينة مليلية.



الجزر الجعفرية والمجال البحري التابع لها

المصدر:

الجريدة الرسمية الإسبانية عدد يوم ٢١ أبريل ٢٠١٨

(26) El Telegrama del Rif 18/08/1909.
(٢٧) مدينة جزائرية تابعة لولاية تلمسان وتوجد بالقرب من الحدود المغربية الجزائرية.
(28) Las comunicaciones marítimas de Melilla en 1909
(٢٩) رأس بحري يقع في أقصى شمال شبه جزيرة قلعية.
(٣٠) جزيرة تقع في البحر الأبيض المتوسط بين المغرب وإسبانيا تتبع إقليم ألميريا الإسباني مساحتها سبعة هكتارات.
(31) La Época 28/07/1877.
(٣٢) سمك شائع من ما فصيلة الأسقمري يُعرف محليًا ب بونيطو.
(33) Algunos datos sobre el sector pesquero melillensel.
(٣٤) معركة وقعت يوم ١٩٢١/٧/١٧ بين الجيش الإسباني والمقاومين المغاربة بقيادة المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي.
(٣٥) مدينة حدودية جزائرية تسمى حاليا مرسى بن مهيدي.
(36) La Correspondencia de España 01/08/1921.
(37) El Imparcial 20/09/1921
(38) El Imparcial 13/11/1921.
(٣٩) أحد رجال المخزن عمل في دار النيابة، وتولى مناصب أخرى كما لعب دور الوسيط بين الإسبان والخطابي في قضية الأسرى.
(٤٠) يُقصد المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي.
(٤١) بودراع.
(42) La Voz 24/07/1924.
(٤٣) بيا سان خورخو اسم كان يطلق على مدينة الحسيمة إبان الحماية الإسبانية.
(٤٤) جزيرة صغيرة بالمياه المغربية تحتلها إسبانيا منذ سنة ١٥٥٩.
(٤٥) جزيرة صغيرة متصلة حاليا بالبر المغربي تحتلها إسبانيا منذ سنة ١٥٦٤.
(46) La Voz 16/09/1926.
(٤٧) قرية مغربية توجد على ساحل البحر الأبيض المتوسط وتتبع حاليا إقليم الحسمية.
(48) La Correspondencia Militar 25/10/1928.
(49) Boletín zona española 01/04/1913.
(٥٠) المناطق الخاضعة للسيادة الإسبانية بالساحل المغربي: سبتة، مليلية، صخرة نكور، صخرة بادس، والجزر الجعفرية.
(51) Boletín zona española 25/08/1913.
(52) Islas Chafarinas pág. 80.
(53) La Correspondencia Militar 09/08/1927
(٥٤) عسكري حكم إسبانيا بطريقة ديكتاتورية من سنة ١٩٢٣ إلى وفاته سنة ١٩٣٠.
(٥٥) ملك إسبانيا بين ١٨٨٦ و١٩٣١.
(٥٦) ثكنة خاكا.
(57) El Telegrama del Rif 25/08/1931
(٥٨) تحالف انتخابي بين عدة منظمات يسارية إسبانية ترأسه مانويل أثانيا الذي فاز بمنصب الرئاسة في انتخابات ١٩٣٦.

(59) El Heraldo de Madrid 25/02/1936.
(60) Islas Chafarinas pág. 84
(61) La Voz 01/06/1937.
(62) Islas Chafarinas pág. 84.
(63) ABC 07/01/1948.
(64) LaVanguardia 16/12/1949.
(٦٥) عسكري إسباني لعب أدورًا مهمة خلال الحرب وخلال ديكتاتورية فرانكو كما تولى منصب مندوب إسبانيا السامي في المغرب.
(٦٦) عسكري ومؤرخ إسباني شغل منصب نائب الشؤون الأهلية إبان الحماية الإسبانية على شمال المغرب.
(67) ABC 19/09/1953. Islas Chafarinas págs. 89, 90, 91.
(٦٨) ثائر كوبي معروف ناضل مع شقيقيه أنطونيو ورفاييل من أجل استقلال كوبا قتل في المعركة سنة ١٨٩٦.
(٦٩) سلسلة من الحروب التي وقعت بكوبا خلال القرن التاسع عشر بين الجيش الإسباني والثوار الكوبيين الساعين إلى تحقيق الاستقلال.
(70) ABC 22/01/1955 y 29/01/1955.
(71) BOE del 05/06/1969.
(72) El Telegrama de Melilla y ABC del 28/11/1973. LaVanguardia 01/12/1973.
(٧٣) فرقة عسكرية إسبانية تأسست سنة ١٩١١ تتمركز قطاعاتها حاليًا في سبتة ومليلية وفي الجزر الجعفرية وصخرتي نكور وبادس.
(74) Reportaje de Alberto Miguez en LaVanguardia del 16/07/1977
(75) Islas Chafarinas pág. 108.
(76) ABC del 13/07/2002.
(77) BOE nº 289 del 01/12/2009 y nº 294 del 07/12/2009.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

ترجمات

بُزُوغ الحَسَّانيَّة
وأُفُول لهجة آزناك



د.عبدالله عيلا
أستاذ باحث في التراث وقضايا الترجمة
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الداخلة – المملكة المغربية

مُقدَّمَةُ الْمُتَرَجم

يكتسي البحث في الذاكرة والتراث الكثير من الأهمية، ورغم ما يطبعه من متعة، تكتنفه الكثير من الصعوبات، إلا أن التحلي بالإصرار والمثابرة يُتيح تجاوز كل الصعوبات والعراقيل، وفي هذا السياق نقف عند المُكون اللغوي الذي يُمثل أحد العناصر الرئيسة المكونة للتراث الحساني. في سياق هذه المحاولة المتواضعة لدراسة المُكون اللغوي وإيصاله إلى المُتلقي وكذا إشراكه في التجربة الإنسانية والتراثية للمجتمع الحسَّاني، يستوقفنا سؤال النشأة أو البدايات التي واكبت ظهور الحسَّانية في الفضاء الحسَّاني والمخاض العسير الذي مرَّت به لتغدو لغة هذا لفضاء المترامي الأطراف على اختلاف مكوناته. في ضوء ما سبق، كان من المهم القيام بأبحاث عن هذا الفضاء الذي لا يزال بكرًا ولم يحظى بالبحث الأكاديمي الكافي، إلى الدرجة التي يمكن الجزم فيها بعدم وجود دراسات علمية تخص الفضاء الحساني، مع استثناء بعض الدراسات الوصفية والانطباعية التي تفتقر للدقة والرصانة العلمية، وأمام البحث المُتواصل، وبعد جهد مُضني اهتدينا إلى مقال للمؤرخ البريطاني هاري نوريس H.T. Norris والذي كان بالاشتراك مع العلامة الموريتاني محمد الشنافي. إن المؤرخ هاري نوريس عُرف بمؤرخ منطقة الصحراء والساحل لغزارة كتاباته عن المنطقة، هكذا كانت هذه أولى الترجمات التي تُنجز لأحد أعمال المؤرخ البريطاني هاري نوريس، كيف عالج إذن المؤرخ البريطاني قضية نشأة الحسانية؟ ثم إلى حد شكل المقال إضافية نوعية في قائمة الدراسات التي وضعت الفضاء الحساني تحت المجهر على نُذرتها؟

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٢	يونيو	٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر:	١٨	أكتوبر	٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

اللهجات؛ موريتانيا؛ الشعر الحسَّاني؛ قبائل بني هلال؛ قبائل بني معقل

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055852

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد الشنافي، هاري نوريس، "بُزُوغ الحسَّانيَّة وأفُول لهجة آزناك": تقديم وترجمة: عبد الله عيلا.- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص ١٤٩ – ١٥٣.

بُزُوغ الحَسَّانيَّة وأُفُول لهجة آزناكّ

أصبح في حكم المؤكد أن الصحراء الأطلنتية أحدثت قطيعة مع المكَون الأمازيغي، وذلك عندما أزِيحَت لهجة آزْنَاكّ (Zenaga)[١] جانبًا من طرف الحسانية اللسان السائد لدى مكوناتها الاجتماعية المختلفة. وقد استطاعت – أسماء النباتات، أسماء الأماكن وكذا العديد من المفردات- أن تحافظ على بقائها في أصولها الامازيغية، إلا أنه وبالمقابل وبشكل رئيس أصبحت التعابير العامة المؤشرة للأفكار واللغة المشتركة للتواصل اليومي لهجة عربية مختلفة لديها العديد من الخصائص المشتركة مع اللهجات البدوية الأخرى المتداولة في المغرب العربي بما في ذلك الهلالية[٢](Hilalis).

وكان العلامة الموريتاني محمد الشنافي قد أشار معلقًا في كتاباته[٣] لموت لهجة آزناك واختفاء اللهجات الصنهاجية الأخرى وكذا تطور الشعر الحسَّاني. هكذا، وعلى الرغم من التطور التاريخي الذي جعل اللهجات العربية تفقد بعض قواعدها الكلاسيكية، إلا أنه وفي الوقت نفسه، لم يمنع قدرتها

على أن تكون الأداة الحقيقية المعبِّرة عن غايات التجمعات الناطقة بتلك اللهجات. ودليل ذلك خصوبتها في الشعر والنثر، في الحكايات الشعبية والشعر والأمثال، وقوتها فيما يخص نمط الكلمات المعبرة عن مقاصد غير متوقعة، وقد أبانت عن حيوية ومرونة وكذا قدرة على التكيف مع التحولات.

إن حقيقة أن تكون هذه اللهجات غير مكتوبة (شفوية) لا يُلغي صلاحيتها، مادام أن اللغة الفُصْحَى - اللغة العربية طبعًا- كانت هي الأخرى غير مكتوبة إلى أن مرت قرون على ذلك. وهكذا يُنسب كل ما رُوي إلى الذاكرة الشفوية للرواة.

ونجد قصائد قصيرة في مقدمة ابن خلدون وفي أماكن متفرقة من تاريخه بالعامية، والتي كان يتحدث بها البدو الذين قدموا من الشرق: بنو هلال[٤]، بنو سليم[٥] وبنو معقل[٦]. ومن المؤكد أن هذه هي البوادر الأولى للشعر الحسَّاني، نسبة لبني حسَّان أحد بطون بني معقل.

وخلال القرون التي تلت ذلك، نما الشعر الحسَّاني شيئا فشيئًا بمعزل عن الشكل الهلالي، وهو ما تُظهِرُه بشكل واضح، الأمثلة القليلة التي زودنا بها ابن خلدون ذلك أن قبائل بني هلال لم يلتزموا فقط بموضوعات الشعر العربي القديم من قبيل: الغزل المديح، السخرية، الفخر والهجاء، بل وحافظوا كذلك على الأوزان الشعرية ونظام القافية الموحدة. ومن شأن القارئ أن يلاحظ التحول في هذا الشعر بتخلصه من القوالب القديمة للقوافي وما شابه ذلك. وبدوره لم يكن الشعر الحسَّاني بمنأى عن هذا التحول. بل وأكثر من ذلك، تخلى عن الأوزان الشعرية القديمة والقافية الموحدة ليخلُق أوزان شعرية جديدة خاصة به.

ومرت قرون عديدة، منذ تقدمت قبائل بني معقل منتصف القرن الخامس في الصحراء الأطلنتية. ولم يُعرَف أي شيء عن شعرهم ولا عن تاريخهم. كلما يمكن أن نؤكده هو أن لهجاتهم واصلت التطور إلى أن وصلت شكلها الحالي. قد يبدو هذا التطور معقدًا كما يصعب تحديد أهم العوامل المُسهمة في ذلك. إلا أنه، واستنادًا لمعارفنا في علم اللغة المقارن، من المنطقي الأخذ بعين الاعتبار لهجات الشعوب المجاورة للقبائل الحسَّانية، وكذا تلك التي تواصلت معها خلال تقدمها، وقد تركت لغات هذه الشعوب أثرها على الحسَّانية، وهو ما يمكن ملاحظته في الحسَّانية الحديثة. حيث اشتُقت العديد من الكلمات من اللهجات الصنهاجية: التوارك[٧]وتشلحيت.[٨]

وأشار الرحالة الإسباني مارمول[٩] (Marmol)-الذي زار موريتانيا في بداية القرن السابع عشر-إلى التذوق واسع النطاق للشعر والقدرة على نظمه في أوساط عرب الصحراء (البدو). وبعد القرن السابع عشر، تزايدت معطياتنا التاريخية حول موريتانيا بشكل كبير، حيث تردد التجار الأوروبيون على سواحل موريتانيا، وكانوا قد تركوا لنا بعض القصص عن رحلاتهم تضمنت: توزيعا لقبائل، واستقرارهم الدائم في مناطق ثابتة والذي أنتج نظاما مستقرًا. وقد ساعد ذلك على تشجيع تدوين جزء من التاريخ في سجلات الأحداث السنوية كما هو الحال في بعض النماذج الكبرى مثل ولاته[١٠] (Walata) وتيشيت[١١] (Tishit)، يضاف إلى ذلك نُتَفْ تاريخية من الجنوب الغربي وأدرار.

وشهد القرن السابع عشر سلسلة من الأحداث التي أدت إلى اندماج القبائل الحسانية في المجتمع الصنهاجي الأصلي بُغية إقرار السلام في الصحراء الأطلنتية. وقد جلبت هذه القبائل لغتها العربية والتي كان مُقدَّرا لها، بعد أجيال، أن تصبح لغة هذا القطر ككل، لِتَحُلَ محل اللهجات الصنهاجية، هذه الأخيرة التي فقدت أهميتها، ليُحافظ عليها فقط من قبل عدد قليل من التجمعات في (الكُبلة). إلا أن صنهاجة غيرت حياة المواطنين الحَسَّانيّين الجدد على مستويين غاية في الأهمية، ليصبح الزواج الأحادي القاعدة الزوجية، كما انقسم المجتمع الحساني إلى ثلاث فئات، وهو نظام لا يختلف عن نظام الطوارق، والأخوة من مرابطي[١٢] لمتونة.[١٣]

وقد غيرت وبشكل جذري أحداث هذا القرن، وكذا القرن الذي يليه، الوضع في موريتانيا. وهكذا استقرت السلطة في أيدي القبائل التي انتزعتها من سابقتها. في العام ١٠٤٠/١٦٣٠/١، وضع المغافرة[١٤] حدا لحكم أولاد رزق[١٥] على الجنوب الغربي. بعد ذلك بفترة وجيزة تورط كل من الزوايا والمغافرة في حرب استمرت ثلاثين عامًا. عرفت بحرب "شَرْبَبَّة"[١٦]، وانتهت سنة (١٦٧٤/٥ - ١٠٨٥)، بهزيمة الزوايا وتسليمها بسيادة المغافرة اللذين بسطوا نفوذهم خلال هذه الفترة. فيما استمر حكم أولاد مبارك[١٧] وأقاربهم أولاد الغازي لمنطقة الشرق والجنوب الشرقي، وتكُانت، الركَيبة و الحوض والذي امتد طوال هذا القرن و إلى حدود بعض من القرن الذي يليه. ومن المعروف أن نهاية حكم أولاد مبارك لهذه المناطق كانت نتيجة فشلها في إخضاع (صنهاجة) إيدويعيش[١٨] في حنيكات بغدادة[١٩]. وكان ذلك حوالي (١٧٧٨/٩ - ١١٩٢).

أسهمت هذه الأحداث في إحداث تحولات جذرية في المجتمع الموريتاني، لنشهد بعد ذلك ما يشبه الوضع القَار والذي استمر منذ القرن الثامن عشر. وهكذا احتلت القبائل المراعي الموجودة، وخضعت لشكل السلطة المُمَثَّل في الإمارات والمشايخ التي لاتزال تشكل إرثا لبعض العائلات. أدى هذا العامل إلى توحيد لهجات صنهاجة، وقد ساعد توحيد لغة البلد واستقراره إلى حد ما في انتشار الشعر والقصائد في جميع أنحاء القُطر، إلا أنه ولسوء الحظ تعرض هذا الشعر، واستمر في التعرض، لخطر الضياع منذ ذلك الحين، ولم يحظ بالتدوين، بل تُرك ذلك للذاكرة إما لحفظه أو لنسيانه.

لهذا السبب، نرى الآن أن أقدم الأشعار التي تم حفظها، والمُؤَرَّخ لها بشكل رسمي، لا تتجاوز المائتي سنة في عمرها، ما يجعل من غير الممكن أن نتتبع مراحل تطوره وصولا إلى شكله الحالي، كما يجعل من الصعب تحديد كيفية تطور أوزانه الشعرية. إن ما يمكن أن نفهمه هو أن الشعر الحسّاني، ومنذ أول ظهور له منتصف القرن الثامن عشر، كان يعيش مرحلة نضج متقدمة. ما يَفْتَرَض وجود تاريخ طويل لا نعرف عنه أي شيء تقريبًا. هكذا نرى أن الشعر الحسَّاني، وبعد أن مر بمراحل ملتبسة، بدأ يزدهر ما بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر، ويرجع شرف هذا الإنجاز إلى طينة من الشعراء العباقرة، الذين حملوا المشعل وأناروا الطريق نحو الكمال، إلى أن أصبح شعرهم نموذجًا يحتذيه من خَلَفَهُمْ من الشعراء.

ومما لا شك فيه، أن الفضل في هذا النجاح يعود لهؤلاء الشعراء المُصَنَّفُون ضمن طبقة الرواة الرحل[٢٠] (Griot)، هذه الأخيرة، المعروفة ب: إِگَّاوْنْ (مفرده: إِگِّيوْ) وهو اسم مشتق من إحدى لغات السنغال، إلا أن شكل الكلمات يحمل طابع أمازيغية صنهاجة، ما يجعل من المحتمل أن تكون هذه اللغة مُعْتَمَدَة في هذا القطر قبل انتشار الحسَّانية؛ الأمر الذي يكشف تواجد فئة اجتماعية تعيش وسط الأمراء والشيوخ وتتحكم في العرف الفني للأغنية والشعر. وهو الأمر الذي يطرح فرضية أن تكون هذه الفئة قد استعارت هذه الأعراف الفنية من أنظمة اجتماعية غرب السودان، مادام لا يوجد لها مثيل في التجمعات الصحراوية الأخرى.

ويُشير تواجد هذه الفئة في المجتمع الموريتاني إلى الترابط القوي بين الشعر والغناء. ما تؤكده حقيقة إطلاق نفس التسمية عليهما معا هو نفسه في الحسَّانية. والشاعر ليس فقط ذلك الرفيق المُقَرَّب، الذي يُكيلُ المديح للسَّيد، هو أيضًا المُغني. الذي يُحَافظ على اعتزازه. وتوجد أولى الإشارات لهذه الفئة في كتابات محمد اليدالي الذي توفي في عام ١٧٥٧. من خلال قصيدة، أَلّفَت في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، عارض فيها قصيدة لأحد أسلاف فروع قبيلة المنوفي الذي كان قد مدح فيها أمير البراكنا (Brakna)، أحمد بن هيبة (Ahmad ibn Hayba)، الذي توفي في رجب، ١٧٦٢.

في هذا الوقت أو بعد ذلك بفترة وجيزة، بدأت شهرة سدوم ولد أنجرتو[٢١] تنتشر وسط أيدويعيش وأولاد مبارك. وينقل الرواة أنه لزم أمير أيدويعيش، بكار بن عمر الذي عاش إلى حدود ١٧٥٧، وبعد ذلك مع ابنه محمد شين، الذي توفي في ١٨١٠ ، وقد عاش سدوم إلى ما بعد ١٧٩٧ بقليل. ويظهر أن إحدى قصائده نُظمت في أحداث معركة حنيكات بغداد في ١٧٧٨. بحيث ألمح لهذه الأحداث في القصيدة. وتغنى المغنون بالشعر الذي يعود إلى عصر أمير الترارزة. علي شندورة، الذي توفي سنة ١٧٢٧، وفي الواقع، لا نعلم ما مدى أصالة هذا الشعر.

خلال هذا العصر الذهبي للشعر الحسَّاني، أخذت تتشكل الآراء والأفكار وسط الفئات المثقفة. من بينهم سيدي المختار ولد الكنتي[٢٢] الذي توفي سنة (١٨١١) ومعاصره، المختار ولد بونا الجَّكَاني[٢٣]. هناك أيضًا أسماء رجال صارت أعلامًا في الجنوب والحوض. نذكر هنونة، شيخ أولاد مبارك، الذي توفي في ١٧٤٩، ويتبين بشكل واضح وجلي، تأثير أولاد مبارك والبراكنة في ازدهار هذا النوع من الشعر الحسَّاني وطريقة الدفع به.

استمر الشعر الحسَّاني في النمو والازدهار، إلا أنه ومع نهاية القرن التاسع عشر، بدأت تعتريه بعض مظاهر الضعف والرداءة، كاشفة بذلك عن حالة من الفوضى السياسة أصابت المنطقة بشكل عام، إلا أن هذا الضعف لا ينطبق على كمية الشعر المنظومة، وذلك لوفرة الشعراء وتواجدهم في مختلف الشرائح الاجتماعية، هذا على الرغم من أن بعض الأنواع الشعرية تخص طبقة الرواة الرحل[٢٤] (Griot)، وكمثال على ذلك: التهيدينة[٢٥] (thydina). أما بالنسبة للبقية فليس هناك حدود، ذاك أن أي شخص تتوفر لديه المَلَكَة بإمكانه أن يُشارك في نظم أنواع شعرية أخرى.

ترجمات

محمد الشنافي

هو العلامة محمد ولد مولود ولد داداه (المعروف بالشنافي)، ولد في نواحي بتلميت عام (١٩٢٠) أو (١٩٢٢)، وهو أحد أوائل الموريتانيين الذين التحقوا بالتعليم الرسمي في ظل الاستعمار الفرنسي وهو أحد أبرز اللسانيين في العالم، أول موريتاني يحصل على شهادة الباكالوريا (الثانوية العامة)، درس القانون والعلوم السياسية واللغات في فرنسا، كان صديقًا لعدد من المفكرين المعروفين ومنهم جان بول سارتر(Jean-Paul Sartre)، سيمون دي بوفوار (Simone de Beauvoir)، وكاميس (Camis) وآخرين، يستمد مكانته من معارفه الدينية العميقة، وخبرته في التاريخ ، وسعة باعه في لغات العالم الحية و الميتة، وخبرته الإدارية التي عُرِف بها خلال عمله في الإدارة حين كان واليًا للحوضين بُعيد الاستقلال، إلى جانب ذلك عمل في السلك الدبلوماسي، يقول عنه الدكتور حماه الله ولد السالم أستاذ التاريخ في جامعة نواكشوط: "إن ولد مولود ساعدته ذاكرته الواعية وذكاؤه الوقاد ومطالعاته الواسعة فحصل معارف قل من نازعه فيها لا سيما في التاريخ والحضارة والألسنية والإناسة والتراث العربي الإسلامي". توفي في السادس من أيلول سبتمبر ٢٠١٢.

هاري نُوريس

هاري نوريس (H.T.Norris) مؤرخ بريطاني من مؤسسي الدراسات الأنجلوسكسونية المختلفة عن الدراسات الفرنسية. اهتم بالفضاء الحساني وجغرافيته وبمجتمع الطوارق وكتب عنه منذ سنة ١٩٦٢ أشياء كثيرة، حتى ليمكن تسميته بمؤرخ منطقة الصحراء والساحل لكثرة ما كتبه عنها.

المصدر

Author: Muhammad AL-Chennafi and H.T. Norris
Title: HOW THE HASSANIYYA VERNACULAR OF MAURITANIA SUPPLANTED ZENAGA
Magazine: The Maghreb Review

Muhammad AL-Chennafi and H.T. Norris ,"How The Hassaniyya Vernacular Of Mauritania Supplanted Zenaga" in The Maghreb Review, Vol.6, nos 5 – 6, SEPT-DEC 1981, pp. 77-78.

الهَوامِشُ:

(١) **لهجة آزِنَاكّ**: هيلهجة أمازيغية شبه منقرضة كانت هي اللهجة الرسمية للسكان الأصليين لموريتانيا قبل أن يصلها المد العربي والإسلامي من الشمال ويوجد اليوم بضع مئات من الأشخاص في جنوب موريتانيا وتحديدًا في ولاية الترارزة وشمال السينغال يتكلمونها بصفة تامة وطليقة.

(٢) نسبة إلى قبيلة بني هلال وهي قبيلة عربية هوازنية قيسية مضرية عدنانية، أصلهم يعود إلى وسط نجد حيث كانوا يعيشون في بادئ الأمر، هاجرت القبيلة من الجزيرة العربية إلى الشام ثم صعيد مصر ومنه انتقلت إلى باقي المغرب العربي. وهجرة بني هلال من أشهر الهجرات العربية إلى شمال أفريقيا هي الهجرة الهلالية (بنو هلال)في القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) وتعرف "بالهجرة الهلالية" في التراث الشعبي العربي، فيما يصفها ابن خلدون بانتقال العرب إلى أفريقيا. وتُعرف كذلك "بالهجرة القيسية" نسبة إلى أن أغلب القبائل المهاجرة تندرج تحت الفرع القيسيمن العرب العدنانية.

(٣) خصوصًا في مقال نُشر في صحيفة موريتانيا في العام (١٩٦٠/١٩٦١)، والتي تستند إليها هذه الترجمة، ومذكرات **محمد الشنافي** التي لم تنشر بعد.

(٤) أشرنا لها سلفًا.

(٥) **بنو سليم قبيلة**: عربية عدنانية قيسية، كانوا وما زالوا يقيمون في الحجاز ونجد، وقد هاجرت بطون منهم إلى ليبيا وتونس، وبقيت بطون منهم من فرع بنو الحارث بن بهثة بن سليم في ديارهم الأصلية في الحجاز ما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة خاصة في محافظة الكامل وفي وادي ستارة ووادي ساية ووادي قديدو في حرة بني سليم على طريق الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وهم أخوال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيثُ أنه قال في حديثه الشهير: "أنا ابن العواتك من سليم".

(٦) **بنو معقل** من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى بقبلة تلمسان، وينتهون إلى المحيط الأطلسي من جانب الغرب. كان دخولهم إلى المغرب مع بني هلال، وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه، أن موطنهم الأصلي زمن القرامطة كان البحرين.

(٧) أو **اللغة الطارقية** نسبة للطوارق الذين يستوطنون الصحراء الكبرى، في جنوب الجزائر، وأزواد شمال مالي، وشمال النيجر، وجنوب غرب ليبيا، وشمال بوركينا فاسو. والطوارق مسلمون سنيون مالكيون، ويتحدثون اللغة الطارقية بلهجاتها الثلاث: تماجق وتماشق وتماهق.

(٨) **اللهجة السوسية** أو "تشلحيت" هي إحدى اللغات الأمازيغية الأكثر انتشارًا في المغرب الأقصى. تنتشر هذه اللهجة خصوصا في منطقة سوس. وتعتبر مدن أكادير والصويرة وتزنيت السياحية مهد هذه اللهجة، حيث جل سكان هذه المدن يتكلمون السوسية.

ترجمات

(٩) **مارمول كربخال**: هو رحالة ومؤرخ إسباني (١٥٢٠- ١٦٠٠م) كان أحد جنود الإمبراطور شارل كان (Charles Quint) وجواسيسه، وقد قضى حوالي عشرين سنة بالبلدان المغاربية منها سبع سنوات أسيرًا. في كتابه "أفريقيا" نجد معلومات هامة عن سكان المنطقة.

(١٠) **مدينة ولاتة** (Walata) أو "ولاتن" مدينة تاريخية موريتانية تقع في ولاية الحوض الشرقي يتبعد عن العاصمة انواكْشوط ١٣٥٠ كم على الحدود مع مالي. وقد أعلنتها اليونيسكو موقعًا للتراث العالمي.

(١١) **تيشيت** (Tishit) هي مدينة تاريخية تقع عند طرف هضبة تكْانت على مدخل إقليم آوكار في موريتانيا، اشتهرت تيشيت بدورها العلمي والدعوي والتجاري في إقليم الساحل الإفريقي، وتعد من المدن المصنفة كتراث عالمي لدى اليونيسكو، وقد تأسست على يد الشريف عبد المؤمن سنة ٥٣٦ هجرية.

(١٢) **المرابطون**: حركة دعوية إصلاحية إسلامية، أسست أول دولة بالمفهوم الحديث في منطقة المغرب الإسلامي.

(١٣) **قبيلة "لمتونة"**: هي إحدى بطون قبيلة صنهاجة.

(١٤) تعود أصول قبيلة المغافرة إلى عرب معقل التي كانت تستوطن الواحات الصحراوية، وهم من أقرباء السلطان مولاي إسماعيل، وكانوا أصهارًا له، حيث تزوج بخناثة بنت الشيخ بكار بن عبد الله المغافري، وقد انتقلوا إلى شمال المغرب بعد الحملة التي قام بها في أقصى الجنوب ووصل إلى شنكْيط وتخوم السودان عام ١٦٧٨.

(١٥) أولاد رزق أو أولاد رزْك قبيلة عربية أسست أقوى إمارة حسَّانية في منطقة الكْبلة (الترارزة ولبراكنه حاليًا) من القرن التاسع الهجري إلى الحادي عشر.

(١٦) "شَرْبَبَة": حرب دارت رحاها بين قبائل حسَّان والزوايا، دامت قرابة الثلاثين سنة.

(١٧) أو ما يُعْرَف بـ: "إمارة أَدْرَارْ"، إمارة حسَّانية تأسست في بحر القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي والتي امتدت على الجزء الجنوبي الشرقي من المنتبذ القصي "منطقة الحوضين" إلى شمال مالي، وقد انتهت تحت تأثير الحروب الداخلية والخارجية في أواسط القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي.

(١٨) **إمارة ادوعيش** (تكْانت): إمارة قامت بمنطقة تكْانت بوسط موريتانيا وحدودها الجنوبية هي ضفاف نهر السنغال، وكانت تحدها شمالاً إمارة أولاد مبارك أو ما كان يُطلق عليها إمارة أدرار وهي ولاية موريتانية اليوم وغربًا ولاية البراكنة، وتنتسب تحديدًا إلى لمتونة.

(١٩) لقد اتخذت إمارة ادوعيش من السلوك الحساني المغفري نمطًا لحياتها ويمكن أن نُرجع السبب الحقيقي وراء قيام الإمارة، إلى أن المغافرة كانوا يذلون زعماء لمتونة التقليديين إلى أن وضع محمد بن بنيوك بن أديك لبنة الإمارة والمشهور باسم [محمد خونا]، وقد تميز تاريخ هذه الإمارة الصنهاجية بكثير من الصراعات مع الإمارات الحسانية المغفرية الأخرى، ويُعَدّ الانتصار الذي حققته الإمارة في ما عُرف بحصار **حنيكات بغدادة** سنة ١٧٧٨ م و-هي منطقة بتكانت-، بداية حقيقة لكسر الهيمنة المغفرية على نفوذ إدوعيش، فرغم تناسي المغافرة مشاكلهم البينية، ورغم أنهم ألقوا بكل ثقلهم من أجل كسر شوكة هذه الاتحادية، إلا أن اللمتونيين حسموا الصراع لفائدتهم مستفيدين من زعامة قوية متمثلة في شخص محمد الشين بن بكار اللمتوني.

(20) *A member of a class of traveling poets, musicians, and storytellers who maintain a tradition of oral history in parts of West Africa.*

تُشير إلى طبقة الرواة الرحل أو ما يُعْرَف في المجتمع الحَسَّاني بـ:"لْمْغَنْيِين".

(٢١) سدوم ولد انجرتو رائد الشعر الشعبي في موريتانيا (1710م الحوض الشرقي1812 – م جبل سماس قرب أشرم تكْانت).

(٢٢) هو: الشيخ سيد المختار بن أحمد بن أبي بكر بن سيدى محمد بن سيدى حبيب الله بن الوافى بن سيدى أعمر الشيخ بن الشيخ سيدى أحمد البكاى بن الشيخ سيدى محمد الكنتى، يصل نسبه إلى عقبة ابن نافع الفهري القرشي فاتح أفريقيا وواليها في عهد معاوية بن أبي سفيان وابنه اليزيد.

(٢٣) هو **المختار بن محمد سعيد** (1100هـ - 1220هـ) المعروف بـ "بونا" بن محمد سعيد ابن المستحي من الله بن سيد اعل بن زلماط الجكني. ولد ابن بونا ببلدة: "اكفليت"، وقد توفي في "تباريت". نشأ المختار بن بونا في بيت جذوره ممتدة في العلم والصلاح ظهرت أولى مؤلفات المختار بن بونة سنة ١١٢٣هـ وهو كتاب: "مبلغ المأمول إلى قواعد الأصول"، ثم كتاب: "تحفة المحقق في حل مشكلات المنطق" ١١٥١هـ، قال عنه صاحب الوسيط: "تاج العلماء الذي طوق بحلي علمه كل عاطل ووردْ هيم الرجال زلاله فصدر عنه كلهم وهو ناهل".

(٢٤) سبقت الإشارة للمعنى.

(٢٥) **التهيدينة**: شعر يخُص الشكر (مدح القبائل أو المجموعات أو الأفراد).

دراسات

الشيخ أحمد زروق البرنسي
نموذج تصوُّفٍ ومُتصوِّفٍ مغربي مهاجرٍ زمنَ العصرِ الوسيط



د.عبد السلام انويكَة
أستاذ باحث في التاريخ المعاصر
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
فاس – مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

كانت بلاد المغرب منذ العصر الوسيط بدور هام للعلماء، لما كانوا عليه من تشارك وأسهموا به من تفاعل في توجيه المجتمع سواء بالمدن أو البادية. وقد بدأت مكانة العلماء بالمغرب على تباين اهتماماتهم وفق ما كان عليه جامع القرويين بفاس من تأطير وتكوين، تظهر بشكل معبر منذ العصر الوسيط وكان لهم شأن في أمور الدين والفقه والتصوف فضلا عما هو تشارك في السياسة والمجتمع، ولعل من هؤلاء الشيخ أحمد زروق الشهير بمحتسب العلماء والذي عاش خلال القرن التاسع الهجري. وكان "زروق" هذا بتميز وتفرد صوفي وبتأليف واسع في مجالي الفقه والتصوف، مستفيدًا من تعدد من أخذ عنهم من شيوخ العلم إن بالمغرب أو المشرق خلال هذه الفترة. التي اعتبرت من أشد فترات تاريخ المغرب حرجًا وصعوبة، حيث أواخر دولة بني مرين وما حصل من تدهور وعدم استقرار سياسي، كذا ما تعرضت له البلاد من غزو أجنبي برتغالي وإسباني، ومن تهجير للمسلمين من الأندلس وطردهم من غرناطة إلى المغرب حتى سقوط الخلافة بها ٨٩٧هـ. أما مجتمعيًا واجتماعيًا فقد عاش "زروق" في زمن كثرت فيه الزوايا، كمؤسسات عملت على نشر المعرفة ومحاربة الفواحش والبدع وغيرها. وعليه، ازدهر الفقه والأصول والتصوف، وكانت الزوايا من العناصر الأساسية التي بلورت شخصية "زروق" وغيره من علماء البلاد خلال هذه الفترة. أما علميًا فقد تميزت فترة هذا الصوفي بازدهار الفكر على إثر ما حضي به العلم والعلماء من حفز رسمي، وما أنشأ من دور العلم وخزانات الكتب وما كانت عليه فاس والقرويين من دينامية وتفاعل بالمغرب. كلها شروط ساهمت مجتمعة في توجيه بداية ومسار شيخنا، الذي اختار التلاقح بين أقطار البلاد الإسلامية من مغرب ومشرق، واختار الهجرة لبلورة منهج فكره وطريقته في التصوف، فكان نموذج الصوفي المغربي المهاجر الذي جعل من مصراتة مستقرًا له ولزاويته التي اشتهرت بـ "الزروقية" شرقًا وغربًا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٧	نوفمبر	٢٠١٨
تاريخ قبول النشر:	١٣	مارس	٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الشيخ أحمد زروق، تازة، التصوف المغربي، البرانس، المتصوف المهاجر، جامع القرويين، مصراتة، الزاوية الزروقية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055853

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد السلام انويكَة. **"الشيخ أحمد زروق البرنسي: نموذج تصوُّفٍ ومُتصوِّفٍ مغربي مهاجرٍ زمنَ العصرِ الوسيط"**.- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص١٥٤ – ١٦٢.

مُقَدِّمَةٌ

أحمد "زروق" هذا صوفي مغربي شهير بالمغرب والمشرق عاش خلال القرن التاسع الهجري، فقيه وولي صالح بتأليف واسع جمع بين الفقه والتصوف. ولد بفاس ٨٤٦هـ وفيها أخذ عن شيوخها.(١) عُرِف ولقب بزروق لأن أباه كان أزرق العينين،(٢) يعود أصله لقبيلة البرانس قرب تازة بالمغرب الأقصى تحديدًا، قرية "تلوان" غير بعيد عن وادي لحضر وعليه يقال له الحضاري تارة والبرنسي تارة أخرى.(٣) بقي بعد وفاة والده بين يدي جدته الفقيهة أم البنين، حتى بلغ العشر سنوات فحفظ القرآن وتعلم الخرازة.(٤) وهو ما أورده في كناشته مشيرًا لحدث فقدانه لوالديه في أسبوعه الأول من حياته.(٥) وقد عاش زروق هذا في أواخر دولة بني مرين وكانت فترة تدهور وعدم

استقرار سياسي، بحيث أصيبت البلاد بنكبة احتلال البرتغاليين لسبتة ٨١٨ه ومعها مدن محيطة. بينما قام الإسبان بتهجير أهل الأندلس وطردهم من غرناطة إلى المغرب، هذا إلى أن سقطت الخلافة الإسلامية بالأندلس٨٩٧ه-١٤٩٢م. أما اجتماعيًا فقد كثرت الزوايا خلال هذه الفترة لنشر الفكر والمعرفة ومحاربة الفواحش والإلحاد والزندقة والبدع، وعليه فقد ازدهرت الحياة العلمية خاصة الفقه والأصول والتصوف، ولعل الزوايا هي التي كونت وبلورت شخص أحمد زروق وغيره من علماء هذه الفترة.(٦)

وعلى عكس ما هو سياسي في المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري، كانت الحياة الفكرية والعلمية على درجة من العطاء لِما حضي به العلماء والعلم من تحفيز وتشجيع من قِبل السلاطين. من خلال تشييد الخزانات العلمية وتزويدها بالكتب وتشجيع طلبة العلم. وقد ظهرت فاس كمركز إشعاع علمي وباتت قبلة للطلبة والفقهاء بالغرب الإسلامي، بحيث من المدارس التي اشتهرت بها نجد مدرسة الحلفاويين التي تدعى مدرسة الصافرين كأول مدرسة بناها بنو مرين بفاس، ثم مدرسة الصهريج وتعرف بمدرسة مسجد الأندلس ثم مدرسة العطارين والمدرسة البوعنانية والمصباحية.(٧) ولعله الإطار العام السياسي والثقافي والعلمي الذي طبع بداية ومسار القصب الصوفي الشيخ أحمد زروق، الذي اختار التلاقح بين علماء المغرب والمشرق لهذا العهد واختار الهجرة لبلورة منهجه وطريقه في التصوف، هذا قبل اختياره لمصراتة مستقرًا له خدمة لزاويته التي اشتهرت بـ "الزروقية".

أولاً: الشيخ زروق بين أصول فكره الصوفي وتدافعه العلمي بجامع القرويين وأول سفر له

استمد زروق ثقافته العلمية والصوفية من عمق ما هو فكري وروحي طبع وميز فاس خلال الفترة الأخيرة من زمن دولة بني مرين. وكان الشيخ محمد بن قاسم مفتي فاس حينئذ والذي توفي عام ٨٧٢ه، هو من وجه ثقافة أحمد زروق الصوفية وأبلغه بأحوال الفكر الصوفي في تاريخ التصوف المغربي. فكان مرجعه الأساس الذي تقاسم معه قضايا المجتمع ومشاكله وكثير من أحكام الشرع والفتاوي. وعلاقة زروق بالقوري كانت بعاقبة خطيرة عليه في سيرته ومساره، نظرًا لما كان لهذا الأخير من دور وأثر قوي

في الفتنة التي عصفت بفاس ٨٦٩ه، بعدما أفتى بخلع السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني.(٨) وكان هذا الأخير قد لجأ لسياسة ضريبية مجحفة لتجاوز أزمة البلاد المالية، إلى جانب عدم استثناءه للشرفاء منها عين يهوديين(٩) تجاوزا حدود ما كلفا به في تدبير هم لهذه العملية، فصدر منهما ما أثار غيرة المجتمع وعلماء فاس ومنهم خطيب القرويين عبد العزيز الورياغلي، الذي أغرى الناس بالفتك باليهود وخلع طاعة السلطان عبد الحق المريني. وهو ما انتهى بذبحه بفاس بعد عودته من حملة ببلاد الهبط في رمضان ٨٦٩ه.(١٠)

وقد عاشت البلاد وضعًا سياسيا غير مستقر، لِما تسبب فيه بنو وطاس بعدة جهات من البلاد خلال هذه الفترة. ونظرا لما ترتب من أزمة مالية تم فرض سياسة جباية مجحفة، أغضبت أعيان فاس ومنهم خطيب القرويين الفقيه الورياغلي السابق الذكر كأحد أفراد الزاوية الجزولية. وقد وجدت دعوة هذا الأخير وتحريضه على قتل السلطان، معارضة قوية من الشيخ زروق لدرجة أنه رفض الصلاة خلفه في رمضان ٨٦٩ه.(١١) الأمر الذي يتضح منه ما كان للقرويين من دور هام في حياة مغرب العصر الوسيط السياسية، خاصة ما يتعلق بمسألة البيعة التي كان يقدمها علمائها للسلطان أثناء توليته الحكم. بحيث لما كانت تضطرب أحوال البلاد لسبب من الأسباب، كانت القرويين تتحول إلى وجهة للرأي والمشورة والاستقطاب بناء على ما كان يصدر بها من فتاوي في عدد من القضايا.(١٢)

وكان أول سفر للشيخ زروق خارج البلاد قد ارتبط بوقائع فاس وتطوراتها، ولعله كان فاعلا سياسيا خلال هذه الفترة لشهرته ومكانته في المجتمع الفاسي، وليس من السهل معارضته للفقيه أبي فارس الورياغلي في الرأي ورفض الصلاة خلفه بالقرويين، مع أهمية الإشارة إلى أن موقف زروق هذا لم يكن خدمة للسلطان إنما أساسًا من أجل سلم ومسالمة صوفية لتجنب سفك دماء المسلمين، وكان على الشيخ زروق تحمل نتائج موقفه واتهامه باليهودية. حيث قال:" أول خروجي من البلد(فاس) قال رجل من البلد لآخر هذا من يهود فاس.. فسمعهما طالب يعرفنا فنازعهما، ثم لما كان الليل دخلنا مسجدًا بعد صلاة المغرب لنبيت فيه عاذا بأصحابه يتحدثون بنا معتقدين أني يهودي، فإذا شيخ منهم يعرفنا قال: هذا طالب اعرفه من فاس..فأتينا دار ابن مشعل أنا وصاحبي فتركني في الوادي ومشى وأردت الطلوع إلى الدار فزين لي...

فمشيت عليه وفيه دار اليهود فلما رأوني قالوا: هذا ولد شيخ تازا، وكانوا سمعوا به أنه هرب خوفًا من الأخذ. فبعثوا ولد شيخهم يلقاني فلما رآني قال: كان ما هواش ثم عقبني ومشى إلى ديارهم، فإذا هم على الأبواب ذكورًا واناثًا كبارًا وصغارًا، فما رابهم إلا دخولي للمسجد فقام عندهم ضجة وكلام."[١٣] ولعل هذا يلغي تهمة اليهودية عن شيخنا، وإلا بماذا نفسر استعداد اليهود لاعتباره واحدًا منهم وفق ما جاء في روايته.

ثانيًا: الشيخ زروق وقدر التنقل بين المغرب الأقصى والأوسط والأدنى ثم ليبيا ومصر

عاش "زروق" البرنسي الأصل الفاسي النشأة نهاية دولة بني مرين وبداية دولة بني وطاس، متنقلا بالبلاد الإسلامية بين فاس وتلمسان وتونس وطرابلس.[١٤] أولى رحلاته كانت إلى تلمسان ٨٧٠ه، ولعلها جاءت إثر فتنة فاس ورفضه لما صدر عن أستاذه أبي فارس الورياغلي حول خلع سلطان البلاد. أما الثانية التي قادته إلى بيت الله الحرام ٨٧٣ه فأثناء العودة منها قضى مدة بالقاهرة للأخذ عن شيوخها، أما الثالثة فكانت إلى تونس طلبًا للعلم والأخذ عن كبار علماءها، أما الرابعة فكانت لبجاية بينما الخامسة فكانت للقاهرة ٨٨٤ه، أما السادسة فكانت لمصراتة التي استقر بها، وكانت الأخيرة منها والسابعة للحج ٨٩٤ه.[١٥] وقد توفي بمصراتة بليبيا في ١٨صفر ٨٩٩ه الموافق لـ ٢٨ نونبر ١٤٩٣م.[١٦]

وكان زروق قد غادر المغرب لأول مرة دون أهله تاركًا زوجته فاطمة وابنيه بفاس، وهو ما يعني أن خياره لمغادرته البلاد كان أمرًا مستعجلا، ولم يتمكن من لمِّ شمل أسرته إلا عام ٨٩٢ه مقتصرًا على انتظار زوجته وابنيه في الجزائر دون دخوله للمغرب. وحتى بعد وفاته ومغادرة ابنيه لمصراتة الليبية باتجاه المغرب، فقد توقفا في القسطنينة الجزائرية حيت تم استقرارهما النهائي.[١٧] ولا تزال سلالة الشيخ زروق بقرية سيدي زروق ببلاد القبائل بالجزائر.[١٨] مع أهمية الإشارة إلى أن الشيخ زروق بعد رحلته الأولى للمشرق عاد إلى فاس متمسكًا بآراءه في الإصلاح تجاه الفقهاء والمجتمع، وما لقاء بعض فقهاء مدينته ومجادلته لهم حول اعتمادهم في عيشهم على الوقف المحبس على الموتى، إلا دليلاً على ذلك عندما قال لهم أنهم يعيشون من لحوم الموتى.

وعليه فقد نعت بمحتسب الأولياء والعلماء الصفة التي لم يظفر بها غيره لا من قبله ولا بعده. والمحتسب القائم بالحسبة هو ذلك الوظيف الشرعي الممتاز الذي يشمل كل الوظائف الشرعية بما في ذلك الخلافة والقضاء.[١٩] وورد أن شيخنا توجه للحج عام ٧٧٥ه وأقام بمصر بعض الوقت أثناء عودته منه، وأخذ عن بعض شيوخها ومنهم الحافظ السخاوي وأبو العباس الحضرمي. وفي٨٧٧ه انتقل من مصر إلى بجاية بالجزائر التي التقى فيها بعدد من الشيوخ المشارقة، وفي ٨٨٠ه عاد لفاس لتحدث له فجوة مع عدد من شيوخها، فغادرها بعد أربع سنوات، قاصدًا بجاية ثم مصر قبل استقراره بمصراتة بليبيا عام ٨٨٦ه.[٢٠] وكان الشيخ زروق خلال هذه الفترة قد رسم وأخذ خطه الصوفي الإصلاحي، بحيث عندما وصل إلى بجاية بالجزائر حارب البدع، وألف كتابه الشهير "قواعد التصوف" ثم "أصول الطريقة" لضبط التصوف وتصحيح صورته.[٢١]

والشيخ زروق كأحد مشاهير صوفية زمن بني مرين بالمغرب الوسيط، هو إمام عالم وفقيه محدث صوفي متضلع، وولي صالح بتصانيف ومناقب حميدة وفوائد عتيدة. أخذ عن شيوخ متميزين من أكابر عصره ومنهم إبراهيم التازي، زار مصر وأخذ عنه الكثير وقيل إنه كان يحضر درسه بالأزهر زهاء ستة آلاف فرد، وعندما دخل مصر قادمًا من فاس اتصل بالشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي، الذي بشر أصحابه بقدومه قائلا لهم "قوموا تلتقوا اخاكم". وللشيخ زروق تآليف ورسائل عديدة يميل فيها للاختصار مع التحقيق والإفادة ولا سيما التصوف وطريق السلوك، وشرح على رسالة ابن أبي زيد وشرح إرشاد بن عسكر وشرح مختصر خليل، والنصيحة الكافية والقواعد في التصوف وكتاب عدة المريد وغير ذلك كثير من التأليف.[٢٢] ولعل شيخنا كان عظيما متضلعًا في العلوم عميقًا في استخراج الحقائق والتفوق على غيره، فهو بحق محتسب العلماء كما قيل عنه.[٢٣]

ثالثًا: بعض من شيوخ "أحمد زروق" عن بلاد المغرب والمشرق

ولفهم سبل وكيفية تبلور شخصية الشيخ زروق العلمية، من المفيد ذكر من تتلمذ على يدهم وأخذ منهم وفي مقدمتهم نجد خاله أحمد بن محمد الفشتالي الذي كان عارفًا بالفقه وغيره.[٢٤] ثم عبد الله بن محمد بن قاسم القوري (ت.٨٧٢ه)، وأحمد بن

محمد الفشتالي وأبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى العبدوسي (ت.٨٤٩هـ)، ثم أبو العباس أحمد بن العجل الوزروالي (ت.٨٥٦هـ) وأبو العباس أحمد بن سعيد المكناسي ت٨٧٠هـ وأبو الحسن علي بن احمد بن عبد الرحمن الأنفاسي (ت٨٦٠هـ)، ثم أبو عبد الله محمد الشهير بابن ملال (ت.٨٥٦هـ) وأبو علي الحسن بن منديل المغيلي (ت.٨٦٦هـ)، ثم أبو زكريا يحيى ت٨٧٠هـ وأبو العباس احمد بن صالح الشهير بالفيلالي السجلماسي (ت.٨٦٠هـ).[٢٥] وأبو عبد الله أحمد بن عبد الله الزيتوني (ت.٨٧٠هـ).[٢٦] وعبد الله التجيبي ذ. الصغير (ت.٨٨٧هـ) ثم أبو سالم إبراهيم التازي التسولي (ت.٨٩٦هـ) ومحمد بن الحسن الصغير السراج ت٨٨٧هـ، ومحمد بن قاسم الرصاع (ت.٨٩٠هـ) وأبو عبد الله محمد المشدالي (ت.٨٦٦هـ)، وعبد الرحمن المجدولي وعبد الله الفخار وعبد الله المجاصي وعلي السطي عيسى المواسي وأبو زيد عبد الرحمن الثعالبي (ت.٨٧٥هـ)، وأبو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي (ت.٨٩٩هـ) وأبو عبد الله بن يوسف الحسني السنوسي (ت.٨٩٥هـ)، وهناك السخاوي ونور الدين السهوري وأم هاني العبدوسي (ت.٨٦٠هـ).[٢٧] ثم أحمد الشواطبي وشمس الدين الجوجري (ت.٨٩٦هـ) وعبد الرحمن القباني ومحي الدين الدمشقي، ومد القرشي وأحمد بن حجر ت٨٥٢هـ وعبد الله بن محمد الموقت وأحمد الشاوي وأبو إسحاق التنوخي.[٢٨]

وقد دَرَّسَ شيخنا بزاوية يحيى العيدلي بمنطقة تمقرة ببلاد القبائل، ومن شيوخ الجزائر الذين أخذ نذكر عبد الرحمن الثعالبي وأحمد بن عبد الله الزواوي ثم إبراهيم التازي، وبالمشرق أخذ عن الشيخ النور الشهوري والحافظ الدميري والحافظ السخاوي واحمد الحضرمي وغيرهم كثير. وقد تولى شيخنا التدريس لمدة طويلة بزاوية يحيى العيدلي التي تخرج منها وكون أيضًا مدرسة ببجاية، وكان من أبرز تلامذته بها الشيخ احمد بن يوسف الملياني وأحمد بن محمد الراشدي أحد أجداد الأمير عبد القادر، وغيرهم ممن انتشرت بواسطتهم الطريقة الزروقية الشاذلية.[٢٩] وأما عن تلامذة الشيخ زروق فعددهم كبير كما يتبين من الخطاطة وكانوا بدور كبير في نشر طريقته بالغرب الإسلامي.

والشيخ زروق الصوفي الشاذلي الذي كان متحمسًا لطريقته التي دعا إليها، قام بشرح أحزاب الإمام الشاذلي من أجل بعثها من جديد وتقريبها من عقول وقلوب الناس. وتظهر درجة ومكانة شيخنا العلمية في سلوكه وإقباله الكثير على التأليف، وفي مخاطبته للنخبة ولعامة الناس.[٣٠] فأبا الحسن الشاذلي لم يترك كتابًا يحتوي أصول طريقته ومعالمها، بل فقط أحزابًا اعتنى أتباعه بشرحها وتوضيح معالمها. ولعل الشيخ زروق أول م اعتنى بوضع أصول الطريقة الشاذلية، من خلال كتابه "أصول الطريقة وأسس الحقيقة"،[٣١] وقيل عنه أنه آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلم الحقيقة والشريعة.[٣٢] ويفسر بعض الدارسين قلة أتباع الشيخ زروق، بعدم مبالاته بجمع الناس حوله وابهارهم بكراماته وخوارقه، بل كان ينتقد تصرفاتهم غير اللائقة لأهل التصوف في عصره، فالفكر الزروقي كان في أعلى مستواه علمًا وصفاء دون أن تقترب له الشوائب، ولهذا فقد كان يقتصر على الخاصة.[٣٣]

رابعًا: الشيخ زروق بين التأليف والإصلاح والتصوف

والحديث عن شيخنا ضمن حركة إصلاح ديني خلال مغرب النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، يقتضي الالتفات لما خلفه من مادة فكرية صوفية غزيرة في هذا المجال بحوالي المائة تصنيف معظمها لايزال مخطوطًا، جمعت بين التفسير والحديث والفقه والتصوف وعلم الكلام والحروف[٣٤] والرحلات والرسائل ووصايا وذكر وشعر.[٣٥] ومعظم ذخيرة شيخنا المخطوطة هذه تتوزع بين مكتبة الاسكوريال باسبانيا ودار الكتب الوطنية بمدريد والمتحف البريطاني وجامعة برنستون الأمريكية. كذا بين خزانة كتب السليمانية باستنبول بتركيا وجاكرتا باندونيسيا والهند ببومباي، ومنها ما يوجد بألمانيا وبالمكتبة الوطنية الفرنسية بباريس وبالفاتيكان وابريطانيا وايرلاندا وبولندا ثم بالرباط والجزائر وتونس والقاهرة وطرابلس بليبيا.[٣٦]

ولشيخنا تآليف عدة نذكر منها "شرحي الرسالة" و"شرح الإرشاد" و"شرح مواضع من "مختصر خليل" و"شرح القطبية" و"الوغليسية" و"العقيدة القدسية" للغزالي. وهناك أيضًا حوالي عشرين شرحًا على "حكم ابن عطاء الله" و"حزب البحر" و"مشكلات الحزب الكبير" و"حقائق المقري" و"الاسماء الحسنى"، وله شرح "المرصاد" لشيخه ابن عقبة و"النصيحة الكافية" و"اعانة المتوجه المسكين عن طريق الفتح والتمكين"، وغيرها من رسائل كثيرة لأصحابه في الآداب والمواعظ والحكم والطائف. وقد أخذ عن الشيخ زروق الكثير

ومنهم "الشهاب القسطلاني" و"الشمس اللقاني" و"الحطاب الكبير"... وقيل عنه أنه من العشرة الأوائل من القرن العاشر.[٣٧] وتجربة زروق في الإصلاح التي تمت خارج نطاق الدولة خلال مغرب العصر الوسيط، عبرت عن هويتها بأساليب متباينة وفق طبيعة ظروف البلاد والعباد. وكانت قد اتخذت طابعاً صوفياً خلال فترة المرينيين واحتلت مكان صدارة مع بداية الثامن الهجري، على يد الشيخ زروق وأبي الحسن الصغير وعبد الواحد بن عاشر وابن عباد والجزولي.[٣٨] ولعل الزروقية كطريقة شاذلية إلى جانب الجزولية بالمغرب هي حركة إصلاحية دينية، وزروق الذي نُعت ب"محتسب العلماء والأولياء" كان ناقدًا صوفيًا متميزًا في عصره عن غيره. بتجربة مثيرة للجدل في تاريخ التصوف الإسلامي، لدرجة أنه يمكن مقارنته بحجة الإسلام حامد الغزالي (١٠٥٨-١١١١م).[٣٩]

وجدير بالإشارة إلى أن الطريقة الشاذلية نسخت فكرًا وسلوكًا ما سبقها من الطرق، فكانت بسيادة مطلقة في عالم التصوف بالمغرب منذ القرن السابع الهجري والى غاية القرن التاسع الهجري، تاريخ ظهور ما يعرف بالتجديد الجزولي والزروقي. ومعلوم أن الجزولية والزروقية المتفرعتين عن الشاذلية اقتسمتا السيادة بالمغرب في مجال التصوف آنذاك، ومعروف أن القرن العاشر الهجري هو الفترة التي تقوى فيها نشاط الجزوليين والزروقيين.[٤٠] وبقدر ما كانت الزاوية الزروقية بإشعاع روحي كبير بليبيا بقدر ما كانت قبلة لمتصوفة وعلماء وافدين عليها من الغرب الإسلامي، فضلاً عما كان عليه الحجاج المغاربة منذ القرن العاشر الهجري من إقبال على زيارتها والإقامة بها للتبرك بالشيخ زروق والاستغاثة به.[٤١]

خامسًا: مكانة ضريح الشيخ زروق الروحية والرمزية في علاقته بالرحلات المغربية الحجازية

وفي علاقة بما كان عليه ضريح الشيخ زروق بمصراتة من موقع رمزي روحي في ركب الحجاج المغاربة، من المهم الإشارة إلى أن القطر الليبي شكل معبرًا أساسيًا لكل متجه من المغرب إلى المشرق قاصدًا بيت الله الحرام، ورغم تعدد نقاط انطلاق ركب الحاج المغربي إن من فاس أو مراكش أو سجلماسة، فكل الجمع كان يلتقي في منطقة الزوارات بليبيا. وفضلا عن شوق وعزم أداء الفريضة والأخذ عن شيوخ العلم وحضور المجالس العلمية، باتت زيارة ضريح الشيخ زروق بمصراتة منذ بداية القرن العاشر الهجري وملازمته عاملاً إضافيًا محفزًا على الرحلة.[٤٢] فقد ذكر "ابن الطيب الشرقي" في رحلته الحجازية الشهيرة ١١٣٩هـ، حول تمثلات القطب زروق في طريق المغاربة إلى الحج واصفًا رفيع مكانته في قلوبهم قائلا:" وصلنا ضحى لضريح الإمام الشهير مولانا أحمد زروق أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته، وتفرق الناس في أفنيته ومسجده وأمامه وخلفه يبتهلون إلى الله تعالى ويسألونه بجاهه ويطلب كل واحد ما شاء قرب تجاهه، وبقينا ريثما فزنا بالزيارة في تلك المزارة."[٤٣] ومما أورده أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن الناصر الدرعي التمكروتي في رحلة ثانية له للحج- من فقهاء القرن الثاني عشر الهجري وكبار شيوخ الزاوية الناصرية خلال هذه الفترة-، أنه أصيب بمرض في بلاد مصر ولم يجد سوى التجاءه واستغاثته بالشيخ زروق دفين مصراتة، وقال أنه لم يشعر براحته وشفاءه إلا عند زيارته لضريحه وإنزال رحاله بجواره.[٤٤]

وحول رمزية ضريح الشيخ زروق الروحية ومقامه وموقعه في علاقته بالرحلات المغربية الحجية، ورد أن ركب الأميرة خناثة بنت بكار زوج مولاي إسماعيل وكان برفقتها حفيدها سيدي محمد بن عبد الله، حط رحاله أيضًا بهذا المكان ١١٤٣هـ وهو في طريقه إلى بيت الله الحرام. ليأخذ الركب نصيب راحته قبل متابعة سيره وللتفرغ من أجل زيارة وتوسل ودعاء. وقد أفرغت خلوة قبر هذا القطب الصوفي المغربي البرنسي، فزارتها وأغدقت على أهل زاويته بما يتقبله الله منها بعدما استمعت لدروس أثناء مقامها، ووعيًا بقيمة وصيت هذه المعلمة الصوفية المغربية بهذه الديار وببلاد المغرب والمشرق، ذكر العلامة عبد الهادي التازي أن من العقوق للتاريخ أن يصل المرء إلى ليبيا ولا يؤثر هذا الرجل بالزيارة والتذكر والترحم.[٤٥]

سادسًا: الشيخ زروق بين مستقر وضريح في مصراتة بليبيا وخلوة عبور في تازة بالمغرب الأقصى

ومما ورد من إشارات حول تنشئة الشيخ زروق، كونه أقبل على تعلم الخرازة وهو لايزال طفلا بفاس بسبب الفقر وقلة العون. وأن والده الذي توفي وهو في أسبوعه الأول قد يكون ليس من أهل علم، وأن قبره يوجد بقرية تلوان بقبيلة البرانس شمال تازة. وأن على هذا القبر بناية أنيقة ملحقة بمسجد وإقامة للإمام وللزائرين، وهو ما يُعرف بالزاوية الزروقية

بحسب الرواية لا غير. والتي انتهت إلى أن البناية ربما أنشأت بعد وفاة الشيخ أحمد زروق واشتهاره.[٤٦] ولعل عبد الله كَنون الوحيد التي جاء بهذه القراءة معتمدًا على ما أخبره به صديقه أحمد السمار أحد علماء شفشاون، وكان الشيخ زروق قد تحدث عن والده الذي توفي في أسبوعه الأول، ولم يذكر شيئًا عن سبب وفاته ولا مكان دفنه، ويبدو أنه من غير الدقيق أن تكون جدته من الفقيهات الفاضلات وأن يكون والده غير ذلك. وعليه، فليس بالبعيد أن يكون من أهل علم وبشهرة بين أهله وأن وفاته المبكرة جعلته بدون أثر فكري يدل عليه، وما بناء قبره ومسجدًا باسمه بقبيلة البرانس إلا دليل وتأكيد على ما تميز به وأثبته ابنه بعده.[٤٧] وكانت فاس خلال سنة ميلاد الشيخ زروق ٨٤٦هـ قد تعرضت لوباء رهيب عرف بوباء "عزونة"، ما قد يكون سبب وفاة كل من والده ووالدته وجده في وقت لم يتجاوز الأسبوعين، علما أن الوباء نفسه أتى أيضًا على عدد من علماء وأعيان فاس خلال هذه الفترة.[٤٨]

وحول ما قيل عن زاوية "تلوان" غير بعيد عن تازة شمالا، وفي اطار تقارير وضعها رجال سياسة فرنسيين على عهد الحماية الفرنسية وخاصة منه عقوده الأولى، أشار ج. كولان إلى أن قبيلة البرانس تعتقد بشكل راسخ في أن هذه الزاوية شُيدت على قبر الشيخ أحمد زروق، وأنه ليس لأهلها أية فكرة ولا معلومة حول زاويته بمصراتة الليبية. ليبقى السؤال معلقًا حول هذه الزاوية المفترضة وتاريخها، وحول من بنى هذه المنشأة هل الشيخ زروق نفسه أم أحد أتباعه من قبيلته، وهل سبق له أن قضى وقتًا بين أهله بقبيلته الأصل ومتى حصل ذلك. مع أهمية الإشارة إلى أن ما ورد في تقارير أجنبية كما بالنسبة لمقال جورج كولان ١٩٢٥ لا يقوم على سند قوي ولا مادة علمية دقيقة شافية، ليبقى المكان رغم كل هذا وذاك بقدسية روحية وبزوار ووقف من أراضي وأشجار وغيرها وبذاكرة شعبية جماعية لازالت قائمة.[٤٩]

خَاتِمَةٌ

ارتبط الشيخ "زروق" بزمن المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، وتميز وتفرد بتأليف واسع في مجالي الفقه والتصوف مستفيدًا من تعدد مصادر أخذه وتباين شيوخه سواء بالمغرب أو المشرق خلال هذه الفترة. وبقدر نشأته بفاس التي كانت بأثر كبير في بلورة شخصه الذاتي والموضوعي الفكري والاجتماعي، بقدر ما كان بأصول اجتماعية ارتبطت بقبيلة البرانس التي لا تزال تستوطن مقدمة جبال الريف على مقربة من مدينة تازة المغربية، وهي قبيلة اشتهرت بارتباط علمائها بفاس بحكم مكانة ورمزية جامع القرويين الشهير. ولعل نشأة ومسار وسيرة هذا العلامة الصوفي المغربي، هي بإشارات هامة وردت في بعض مؤلفاته كـ "الكناش"، وقد عاش "زروق" خلال فترة حرجة من زمن مغرب العصر الوسيط، حيث أواخر دولة بني مرين وما حصل من تدهور وعدم استقرار سياسي، كذا ما تعرضت له البلاد من غزو ايبيري برتغالي وإسباني لعدد من المدن، ومن تهجير للمسلمين من الأندلس وطردهم من غرناطة إلى المغرب إلى أن سقطت الخلافة بها عام ٨٩٧هـ- ١٤٩٢م. أما اجتماعيًا فقد عاش في زمن كثرت فيه الزوايا التي توجهت لنشر الفكر والمعرفة ومحاربة الفواحش والزندقة والبدع. وعليه، ازدهرت الحياة العلمية من فقه وأصول وتصوف.. ولعل الزوايا هذه هي التي بلورت شخص "زروق" وغيره من علماء هذه الفترة. أما علميًا فقد طبع هذه الفترة ازدهار فكري كبير لعوامل عدة ومتداخلة، جمعت بين ما حضي به العلم والعلماء من تشجيع سلطاني، وما أنشأ من مدارس وخزانات وما كانت عليه فاس والقرويين من إشعاع. كل هذا وذاك شكل إطارًا سياسيًا وثقافيًا وعلميًا طبع بداية ومسار الشيخ زروق القطب الصوفي، الذي اختار التلاقح بين المغرب والمشرق والهجرة لبلورة منهجه وطريقته، فكان نموذج الصوفي المغربي المهاجر الذي اختار مصراتة مستقرًا لهجرته ولزاويته التي كانت بصيت واسع اشتهرت في قاموس التصوف الإسلامي بـ "الزروقية".

دراسات

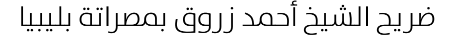
الملاحق

بعض من شعر الشيخ أحمد زروق حول هجرته وأثرها عليه

قد هجرت الخلق طرا بأسرهم … لعلي أرى محبوب قلبي بمقلتي
وخلفت أصحابي وأهلي وجيرتي … ويتمت نجلي واعتزلت عشيرتي
ووجهت وجهي للذي فطر السماء … وأعرضت عن أفلاكها المستنيرة
وعلقت قلبي بالمعالي تهمما … وكوشفت بالتحقيق عن غير مرية
وقلدت سيف العز في مجمع الوغا … وصرت إمام الوقت صاحب رفعة
وملكت أرض الغرب طرا بأسرها … وكل بلاد الشرق في طي قبضتي
فملكنيها بعض من كان عارفًا … وخلفني فيها بأحسن سيرتي
فأرفع قدرًا ثم أخفض رتبة … لأرفع مقدارًا بأرفع حكمتي
وأعزل قومًا ثم أولى سواهم … وأعلى منار البعض فوق المنصة
وأجبر مكسورًا وأشهر خاملاً … وأرفع مقدارًا بأرفع همتي
وأقهر جبارًا وأدحض ظالمًا … وأنصر مظلومًا بسلطان سطوتي
وألهمت أسرارًا وأعطيت حكمة … وحزت مقامات العلا المستنيرة
أنا لمريدي جامع لشتاته … إذا ما سطا جور الزمان بنكسة
وإن كنت في كرب وضيق ووحشة … فنادي أيا زروق آت بسرعة
فكم كربة تجلى بمكنون عزنا … وكم طرفة تجني بأفراد صحبتي

التليدي عبد الله بن عبد القادر، المطرب بمشاهير أولياء المغرب، ص

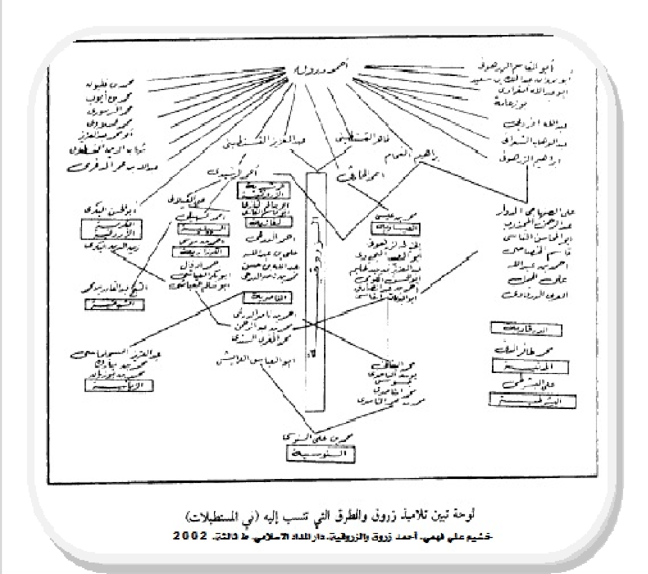
بعض من شعر الشيخ أحمد زروق حول الهجرة



قبر زروق بمصراتة وبجانبه قبر منصور الجبالي

خشيم علي فهمي، أحمد زروق والزروقية، دار المدار الإسلامي، ط ثالثة، 2002

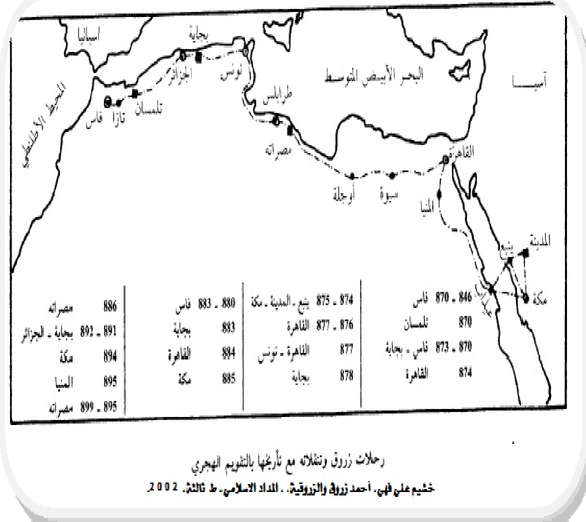
ضريح الشيخ أحمد زروق بمصراتة بليبيا



لوحة تبين تلاميذ زروق والطرق التي تنسب إليه (في المستطيلات)

خشيم علي فهمي، أحمد زروق والزروقية، دار المدار الإسلامي، ط ثالثة، 2002

خطاطة لتلامذة الشيخ أحمد زروق



رحلات زروق وتنقلاته مع تأريخها بالتقويم الهجري

خشيم علي فهمي، أحمد زروق والزروقية، الدار الاسلامي، ط ثالثة، 2002

مسار رحلة الشيخ أحمد زروق
من المغرب الى المشرق



ضريح يعتقد أنه لأب الشيخ أحمد زروق
بقبيلة البرانس بتازة المغرب

دراسات

الهَوامِشُ:

(١) المكناسي أحمد بن القاضي، **جدوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص ١٢٩- ١٣٠.

(٢) بن منصور عبد الوهاب، **أعلام المغرب العربي**، جزء خامس، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٠، ص ٣٤.

(٣) بن منصور عبد الوهاب، **أعلام المغرب العربي**، جزء خامس، م س، ص ٨٥- ٨٦.

(٤) خشيم على فهمي، **أحمد زروق والزروقية**، المنار الإسلامي، مكتبة الفقه المالكي، دار المداد الإسلامي، طبعة ثالثة، ٢٠٠٢. ص ٣١.

(٥) التمبكتي أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، نشر كلية الدعوة الإسلامية، جزء أول، طبعة أولى، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩، ص ١٣٠- ١٣١.

(٦) أحمد زروق، **قواعد التصوف**، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، طبعة ثانية، ٢٠٠٥، ص ٦.

(٧) القرطبي يحيى، **المقدمة القرطبية**، تحقيق أحمد زقور، دار التراث ناشرون، الجزائر، ط. أولى، ٢٠٠٥، ص٣١- ٣٢.

(٨) نجمي عبد الله، **بين زروق ولوثر في الاصلاح الديني والعصور الحديثة**، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة أولى، ١٩٩٧، ص ٨٩- ٩٠.

(٩) بعد طرد المسلمين واليهود من الأندلس توجهوا للمغرب، وع مرور الزمن تمكن اليهود من التغلغل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بل والسياسية أيضًا، وكان تسامح المسلمين عاملا كبيرًا في نفوذ اليهود الواضح انذاك، وكان لهم لدى سلاطين بني مرين حظوة كبيرة. ونظرًا لأطماع بني وطاس من الوزراء والحجاب في السيطرة على الحكم والإطاحة بالسلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني، أقسم هذا الأخير على ألا يعين أحدًا من المسلمين وزيرًا له. فعمد لتعيين يهوديين هما "هارون" و"شاول" مساعدين له، وأطلق يديهما في الحكم وتدبير أمور الدولة وخاصة ما يتعلق بجمع المال والضرائب وهو ما تسبب في غضب المجتمع. كتاب "الكناش"، لأحمد زروق، تحقيق علي فهمي خشيم، المكتبة الزروقية، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والاعلان، ١٩٨٠.

(١٠) الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الدار البيضاء، جزء رابع، ١٩٩٧، ص ٩٩- ١٠٠.

(١١) كور أغست، **دولة بني وطاس**، م س، ص ٤٤- ٤٥.

(١٢) الشفشاوني محمد بن عسكر الحسني، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، أوفسيط دار المغرب، الرباط، طبعة ثانية، ١٩٧٧، ص٥٣.

(١٣) خشيم علي فهي، **أحمد زروق والزروقية**، م س، ص ٤٠- ٤١

(١٤) بن شقرون محمد، **مظاهر الثقافة المغربية**، دار الثقافة، المغرب، طبعة أولى، ١٩٧٠، ص ١٣١.

(١٥) خشيم علي فهمي، **أحمد زروق والزروقية**، م س، ص ٦٠- ٦١.

(١٦) نجمي عبد الله، **بين زروق ولوثر...**، م س، ص ٧٧.

(١٧) نجمى عبد الله، **بين زروق ولوثر...**، م س، ص ٩٥.

(١٨) القاسمي الحسني عبد المنعم، **أعلام التصوف في الجزائر**، م س، ص ٦٥.

(١٩) كَنُون عبد الله، **مشاهير رجال المغرب**، جزء أول، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، طبعة أولى، ٢٠١٠، ص٥٤٨- ٥٤٩.

(٢٠) أحمد زروق أبو العباس، **عدة المريد**، تحقيق الصادق عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، طبعة أولى، ٢٠٠٦، ص ٩- ١٠.

(٢١) عبد المنعم القاسمي الحسني، **أعلام التصوف في الجزائر**، م س، ص ٦٤.

(٢٢) التليدي عبد الله بن عبد القادر، **المطرب بمشاهير أولياء المغرب**، دار الآمان للنشر والتوزيع، طبعة رابعة، ٢٠٠٣، ص١٤٧- ١٤٨.

(٢٣) التليدي عبد الله بن عبد القادر، **المطرب بمشاهير...**، م س، ص ١٥١.

(٢٤) المكناسي أحمد ابن القاضي، **جدوة الاقتباس...**، م س، ص١٢٩.

(٢٥) خشيم علي فهمي **أحمد زروق والزروقية**، م س، ص ٣٤

(٢٦) ابن عسكر محمد، **دوحة الناشر....**، م س، ص ٤٨.

(٢٧) التمبكتي أحمد بابا، **نيل الابتهاج...**، م س، ص ١٣٠.

(٢٨) خشيم علي فهمي، **احمد زروق والزروقية**، م س، ص ٣٣- ٣٤.

(٢٩) عبد المنعم القاسمي الحسني، **أعلام التصوف في الجزائر**، م س، ص ٦٣.

(٣٠) الذهبي نفيسة، تحقيق ودراسة، **فهرس أبي سالم العياشي، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر**، منشورات كلية الآداب، الرباط، أطروحات ورسائل ٣٣، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة أولى، ١٩٩٦، ص ١٤٣.

(٣١) أحمدون عبد الخالق، أصول الطريقة الزروقية الشاذلية من خلال كتاب "الدرة الثمينة"، مجلة الإحياء، عدد ١٧، رابطة علماء المغرب، ٢٠٠١، ص ٢٣٤.

(٣٢) التمبكتي أحمد بابا، **نيل الابتهاج...**، م س، ص ١٣٢.

(٣٣) بوطربوش محمد، **من أعلام التصوف المغربي**، أبو عبد الله الشطيبي، مجلة الإحياء، عدد ١٥، رابطة علماء المغرب، ٢٠٠٦، ص ١٥٠- ١٥١.

(٣٤) اهتم المتصوفة برموز الحروف لدرجة نشأة علم سمي بعلم الحروف المقرون بالأولياء (علم الأولياء)، وقد برر الصوفية اهتمامهم بكون علم الحروف هو الذي تظهر به الأعيان استنادًا لنص قرآني صريح متعلق بالكلمة الإلهية (كن)، والتي لا تعدو أن تكون رمزًا على الإرادة الالهية التي تخصص القدرة. وقد ذهب المتصوفة بعيدًا في تأويل معاني الحروف، فوجدوا توازنًا بينها وبين الطبائع الأربع

والأفلاك السبعة والرسل وتصورها على شاكلة علم الباطن. يمكن في هذا الإطار مراجعة كتاب حسن جلاب" الآثار الأدبية لصوفية مراكش"،١٩٩٤.

(٣٥) نجمي عبد الله، **بين زروق ولوثر**....، م س، ص ٨٧.

(٣٦) خشيم علي فهمي، **كتاب الاعانة لأحمد زروق**، تحقيق، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٧٩، ص ٣.

(٣٧) الحضنيكي محمد بن أحمد، **طبقات الحضنيكي**، جزء أول، تقديم وتحقيق أحمد بومزكّو، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، طبعة أولى، ٢٠٠٦، ص ٢١.

(٣٨) القبلي محمد، **حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط**، منشورات الفنك، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص ٣٣.

(٣٩) نجمي عبد الله، **بين زروق ولوثر**...، م س، ص ٧٩- ٨٠.

(٤٠) الوارث احمد، **قراءة في كتاب التصوف والبدعة بالمغرب**، طائفة العكاكزة لعبد الله نجمي، مجلة المناهل، نشر وزارة الثقافة، الرباط، عدد ٦٤- ٦٥، السنة ٢٠١١، ص ٥٨٢- ٥٨٣.

(٤١) شاهدي الحسن، **مشاهدات ابن عبد السلام الناصري في ليبيا من خلال رحلته الصغرى**، مجلة المناهل، عدد ٨٨، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة المناهل، الرباط، ٢٠١١، ص١٤٨.

(٤٢) شاهدي الحسن، **مشاهدات ابن عبد السلام الناصري** ....، م س، ص ١٣٤.

(٤٣) الفاسي الشرقي أبو عبد الله بن الطيب، **الرحلة الحجازية**، م س، ص ٥٥٧.

(٤٤) شاهدي الحسن، **مشاهدات ابن عبد السلام الناصري** .....، م س، ص ١٣٧.

(٤٥) التازي عبد الهادي، **أمير مغربي في طرابلس ١١٤٣هـ-١٧٣١م، أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاقي**، بدون طبعة، بدون سنة، ص ٥٨.

(٤٦) كَنون عبد الله، **مشاهير رجال المغرب**، جزء أول، م س، ص٥٤٢.

(٤٧) خشيم علي فهمي، **الكناش**، المكتبة الزروقية، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، ليبيا، ١٩٨٠، ص٤٢- ٤٣.

(٤٨) الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، جزء رابع، م س، ص ١٠١.

(٤٩) خشيم علي فهمي، **أحمد زروق والزروقية**، م س، ص ١٨٥- ١٨٦.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

دور انهيار القيمة الشرائية للعملة في ظهور الحركات الاجتماعية المناهضة لنظام الحكم الموحدي
٦٠٩هـ ـ ٦٤٦هـ / ١٢١٢ ـ ١٢٤٨م



د. عبد المجيد النوري
باحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي
دكتوراه الآداب – جامعة مولاي إسماعيل
تطوان – المملكة المغربية

مُلَخّص

تروم هذه الدراسة إبراز دور انهيار القيمة الشرائية للنقود، وما نجم عن ذلك من غلاء للأسعار في ظهور قوى المعارضة والحركات الاجتماعية المناهضة لنظام الحكم الموحدي، بين سنة (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)، لما بدأ ينهار هذا النظام، وبين سنة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، إذ نعتبرها سنة انتهاء مشروعيته. فلا جرم أن الجدل حاصل، والترابطات قائمة وقوية على مر التاريخ البشري، بين فساد أمر النقود وانهيار قيمتها الشرائية، وبين ما يحصل في المجتمعات والدول من أزمات اقتصادية، واضطرابات اجتماعية وسياسية، بفعل فساد المعاش والمعاملات والبلوى ـ التضخم ـ التي تعم الناس. لذلك تندلع الهيعات والحركات الاجتماعية المعارضة، سواء المطالبة بالإصلاح، أم الاستقلال، أم الراغبة في الوصول إلى كرسي الملك. واعتبر ذلك بما حدث للموحدين قبيل هزيمة العقاب، لما انهارت قيمة عملتهم الشرائية، بسبب تزوير النقود وتدليسها، وسك زعماء الثوار، والولايات المستقلة عن الدولة، لعملات خاصة بهم. وبديهي أن يؤدي هذا الغش والتعدد والاختلاف في النقود إلى كثرتها كثرة بالغة، أي ارتفاع حجم الكتلة النقدية المتداولة منها. لذلك، حصل كما هو معروف في دائرة الفكر الاقتصادي، بسبب سوء التدبير السياسي، غلاء فاحش في الأسعار، امتد حقيقة على مدى زمني طويل. وساهمت فيه عوامل متعددة، من كوارث، حروب، ضرائب، مجاعات، أوبئة وغيرها. وطبيعي أن ينهار جراء ذلك الاقتصاد، فخلا المغرب بالفعل، وعدمت الأقوات، وتوالت الفتن، ثم اضطربت الأحوال، وآل أمر الموحدين إلى الانهيار وبداية الزوال، خصوصا لما غاب العدل، واستفحل الجور، وشاع الفساد والاستبداد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٦	مارس	٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر:	٠٣	يوليو	٢٠١٨

كلمات مفتاحية:
العملة؛ الأسعار؛ كمية المبادلات؛ الحركات الاجتماعية؛ نظام الحكم الموحدي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055854

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عبد المجيد نوري. "دور انهيار القيمة الشرائية للعملة في ظهور الحركات الاجتماعية المناهضة لنظام الحكم الموحدي (٦٠٩هـ ـ ٦٤٦هـ / ١٢١٢ ـ ١٢٤٨م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص١٦٣ – ١٧٤.

مُقدِّمَة

يشكل موضوع انهيار القيمة الشرائية للعملة في علاقته بالبنية الاقتصادية الاجتماعية عمومًا، والحركات الاجتماعية المناهضة لنظام الحكم الموحدي على وجه الخصوص، فيما بين سنة (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)، وسنة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، أحد المواضيع التاريخية ذات البعد الاقتصادي لاجتماعي، التي يبدو أنها ما زالت في حاجة إلى مزيد من العناية والاهتمام من لدن المهتمين بالتاريخ الاقتصادي الاجتماعي للغرب الإسلامي، رغم الصعوبة التي يطرحها الموضوع. فمعلوم أن المصادر تعاني من نقص كبير في المعطيات الرقمية الخاصة بتغيرات القيمة الشرائية

للعملة، ومستويات الأسعار. كما أن الموضوع يطرح صعوبات معرفية ومنهجية؛ كونه على صلة كبرى بالفكر الاقتصادي عمومًا، وبأحكام الشريعة واجتهادات الفقهاء وآراء أهل الاقتصاد في العالم الإسلامي على وجه الخصوص.

وفي ضوء هذه الحقول المعرفية، تتجلى للباحث بوضوح الروابط القوية بين انهيار القيمة الشرائية للعملة وغلاء الأسعار، وبين ما يمكن أن يحدث في المجتمع من أزمات اقتصادية، واضطرابات اجتماعية وسياسية، نتيجة فساد السياسة والنقود. واعتبر ذلك بما حدث للموحدين منذ هزيمة العقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)، إلى حين فشل دولتهم، وانتهاء مشروعيتهم. ففسدت أمورهم، بفساد نقودهم وسياستهم. ما أهمية العملة في الفكر الاقتصادي عموما، والفكر الإسلامي على وجه الخصوص؟ ما علاقة انهيار قيمتها الشرائية بالبنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في ضوء ذلك؟ كيف ساهم انهيار القيمة الشرائية للعملة في ظهور الحركات الاجتماعية المناهضة لنظام الحكم الموحدي، وما مظاهرها الكبرى؟

أولاً: أهمية العملة في الفكر الاقتصادي عمومًا، والفكر الإسلامي على وجه الخصوص

يحتل موضوع العملة أهمية كبرى في الشرع الإسلامي، والفكر الاقتصادي العربي والغربي على السواء. لذلك، حظي بعناية كبرى من لدن المهتمين بالموضوع في بقاع العالم على امتداد التاريخ البشري. ذلك أن النقد أساس تنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، ولكونه "شبيه بالملوك، يصلح الملك بصلاحه واستجادته، ويفسد بفساده والتجوز فيه"[١]. وبقدر ما يعتبر النقد وسيلة موحدة لتبادل القيمة وقياسها، بقدر ما ترتبط نظريته أيضًا بمفهوم القيمة[٢]، من حيث هو المشكلة الأساس في الاقتصاد[٣]. فبحكم أن "الإنسان مدني بالطبع"[٤]، وأن الناس لا يمكنهم التعايش ما لم يتظاهروا، ويتولى كل واحد منهم عملاً، يصير به معينًا للآخر، مواسيًا له، كان من حق كل من واسى غيره، أن يقابل بقدر مواساته. لذلك قيض الله تعالى لهم الناض النقد ـ علامة منه، ليدفعه الإنسان إلى من يوليه نفعا، فيحمله إلى من عنده مبتغاه، فيأخذ منه قدر عمله[٥]. هكذا صرح الأصفهاني (ت.٥٠٦هـ)، وكذلك الحال ابن رشد وابن خلدون والمقريزي وغيرهم، كما سيتبين لاحقا، بأن النقود هي العلامة التي تعبر عن قيمة العمل، وتدفع عوضًا عنها، فـ"ما ردت إليه القيمة في البيوع حقيق أن يكون على أفضل منازله"[٦]. لذلك سينصب اهتمامنا في هذا المبحث على بيان كون مسألة القيمة، هي قطب الرحى في هذه العلامة التي ينتظم بها أمر المعاش، والمعاملات، وغيرها من شؤون الحياة الدنيوية.

عمليًا، أطلقت العرب النقود عمومًا، على الدراهم والدنانير[٧]، بوصفهما قيم المتلفات[٨]، والأعمال، وأثمان المبيعات[٩]، والأشياء وقيمتها. تتقوم بذاتها ويقوم غيرها بها[١٠]. لينتظم أمر الناس بهما، وتتمشى أمور معاشهم[١١]، ويتحقق العدل بينهم في معاملاتهم، وتبادل قيم أعمالهم أو دفع أعواضها. ومن ثم تتجلى أهمية، بل وخطورة النقود، باعتبارها أحد أسباب قوام الحياة الدنيوية. ويُعَدّ انهيار القيمة الشرائية للعملة؛ أي غلاء الأسعار، من أخطر العوامل التي تهدد استقرار الاقتصاد والمجتمعات والدول. لذلك كانت الدولة تتولى، خصوصًا في العالم الإسلامي، مهمة ضبط توازناتها، والحفاظ على استقرار قيمتها، بآليات وأجهزة متعددة؛ مثل خطة الحسبة وغيرها. ولم تتوان عن توظيف إمكاناتها السياسية والأمنية، "لزجر ومحاسبة المخربين والعابثين بالنقود"[١٢]، حفاظا على قيمتها الشرائية من الانهيار. وهذا شيء لا تتساهل الدولة فيه، وإلا قضت على نفسـها بالانحلال والزوال[١٣]. لما فيه من إفساد للسكة، التي تعم بها البلوى ـ التضخم ـ، وهي متمول الناس كافة[١٤]. ولأجل ذلك كره الفقهاء ضرب النقود المغشوشة من طرف الإمام. تمامًا مثلما كرهوا ذلك لغير الإمام، وإن كانت خالصة، لأنه لا يؤمن فيه الغش والإفساد[١٥]. فعادة ما ينتج عن ذلك، ارتفاع مباشر في حجم الكتلة النقدية المتداولة، بمعزل عن الرقابة الرسمية للسلطة الحاكمة، فتنهار قيمة العملة.

ومعلوم أن علماء الاقتصاد ركزوا على أهمية ثبات قيمة العملة، تماما مثلما تعرضوا إلى مضار انهيارها وتقلبها[١٦]. فلست تجد فسادها في العرف إلا مقترنا بفساد الملك، ولذلك صارت من دعائمه[١٧]. وفي ضوء ذلك نساير الأسدي الرأي، إذ اعتبر الإهمال والتفريط في إصلاح المكاييل والموازين والنقود[١٨]، من أعظم أسباب المحن والأزمات والبلاء الذي يعم الناس والحوادث. ولما كانت العملة بهذه الأهمية والخطورة في الآن نفسه، "بات واجبا على ولي الأمر، الأمر بحسن

إقامتها وتعديلها وتناسبها في أعدادها وتشكيلها... وتقرير قيمتها وأوزانها"[١٩]. فلا جرم أن تجويد النقود وتخليصها من الغش، قوة للنقد، وعظمة للسلطان والدولة[٢٠]، خصوصًا إذ استثمرت في وظيفتها الفضلى، وهي الوساطة في المبادلة وقياس القيم. فالأموال إذا اكتنزت وادخرت في الخزائن لا تنمو، وإذا كانت في صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم، نمت وزكت، وصلحت بها العامة، وترتب بها الولاية، وطاب بها الزمن، واعتقد فيها العز.[٢١]

هكذا يتضح أن موضوع العملة، خصوصًا قيمتها الشرائية، حظي بأهمية كبرى في الشرع والفكر الاقتصادي الإسلامي والغربي على السواء، إذ في صلاحها وحسن استثمارها، صلاح أحوال الناس ومعاشهم ومعاملاتهم.. والعكس بالعكس، كما سنبين في المبحث الموالي. لذلك نهي عن اكتنازها، أو كسرها أو تدليسها، لما في ذلك من عموم البلوى والفساد، بإفساد أمرها وانهيار قيمتها، مثلما وقع للفرس والعرب في الماضي[٢٢]، وربما للغرب الرأسمالي في المستقبل.

ثانيًا: علاقة انهيار القيمة الشرائية للعملة، بالبنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الفكر الاقتصادي

شغلت العملة في القديم والمعاصر بال أهل الاقتصاد والسياسة والفكر وغيرهم، لكونها تشكل اللبنة الأساس في البنية الاقتصادية الاجتماعية، بل وأساس استقرارها، واستقرار الأوضاع السياسية معها. فمعاش الناس ومعاملاتهم، وكذلك الحال، تعاقداتهم، وعلاقاتهم الاجتماعية والسياسية، مرتبط بهذه الوسيلة التي "يحصل بها التمدن والاجتماع"[٢٣]. وعليه، بدهي أن تتأثر عناصر هذه البنية سلبًا أو إيجابًا كلما تغير عنصر النقد في هذا الاتجاه أو ذاك. والحال أن صلاح الملك من صلاحه واستجادته، وفساده من فساده والتجوز فيه؛ أي بكثرة ضربه، وإهمال إصلاحه، وسكه على مقادير مختلفة في الأشكال والأوزان والمقادير، وغشه...، والمغشوش فاسد التركيب... ناقص القيمة[٢٤]. ولابد أن يترتب عن هذا الغش والنقص في القيمة، غلاء في الأسعار، وربما اضطراب في الأحوال، بل وفقدان الثقة في العملة ذاتها.

وبقدر ما تتأثر النقود بما هو نفسي وسياسي[٢٥]، حتى قيل إن من تقصير السياسة فساد النقود، وإن الوضع الاقتصادي دالة في نوعية الأداء السياسي والاجتماعي[٢٦]، فإنها تؤثر أيضًا في الاقتصاد والمجتمع والدولة، إذ في فساد النقود دخول الخلل في المعايش والنقصان في الأموال والمعاملات[٢٧]. وبهذا الخلل الاقتصادي، تختل الأحوال الاجتماعية والسياسية، إذ تكثر العالة من الخلق في العمران، وتهدد الدول بالانهيار والزوال. فإذا أكره الناس على التعامل بالنقود الفاسدة، توقفت الأحوال، وضاعت الأموال، وكثرت الأقوال، وتغيرت الأسعار، وحصل التنازع لوقوع الاضطرار[٢٨]. تأسيسًا على ذلك، نزعم أنه ما من خطر أشد وطئا على أمة من الأمم، من فساد أمر النقود، وكثرة ضربها من دون حسيب ولا رقيب، تغلو به الأسعار، وتندلع الفتن.

حقيقة ذلك، يمكن الوقوف عليها على سبيل المثال، من خلال الرجوع إلى كتابي "إغاثة الأمة" للمقريزي، وكذلك الحال، كتاب "التيسير والاعتبار" للأسدي، بخصوص ما حدث بمصر خلال القرن التاسع الهجري. هذا العصر الذي تميز بتراجع الإنتاج، وارتفاع الأسعار وحدة التفاوت في الدخول، وكثرة المجاعات.. والوفيات[٢٩]، بسبب ضرب الفلوس، وفساد النقود. وهو أهم خرق وقع في ثوب النظام المصري، وأخطر عامل ساهم في استفحال مشكلة اقتصاده آنذاك[٣٠]. ونحسبه كذلك في زمننا هذا، وفي غيره من الأزمنة. هكذا، يمكن فهم مقاصد تحذير علماء الإسلام من ضرب النقود المغشوشة، كونه من جملة الفساد في الأرض، لما فيه من غلاء الأسعار وانقطاع الأجلاب وغير ذلك من المفاسد، أي الأزمات الاقتصادية والمالية والنقدية، التي تهدد المجتمعات بالانفجار، والنظم الحاكمة بالزوال.

فمعلوم بين أهل الاقتصاد أن كل انهيار في القيمة الشرائية للنقود، أو زيادة في حجم الكتلة النقدية المتداولة منها، من دون أن يواكب ذلك زيادة حقيقية، في حجم السلع والخدمات، ينتج عنه ارتفاع مباشر في الأسعار[٣١]، يحتمل أن تطول آثاره، بشكل سلبي، مختلف مكونات البنية الاقتصادية والاجتماعية، من مستوى المعيشة، وحجم الاستهلاك، والإنتاج، والتشغيل، ومعلوم الدخل، وحركة أسواق المبادلات، وسرعة رواج العملة. وربما تنشأ عنه حالة من حالات التضخم. الأمر الذي يهدد المجتمع بالانفجار، ونظام الحكم بعدم الاستقرار، وربما الدمار والاضمحلال. عمليًا، اعتبر المقريزي الجهل بأمور النقود، وكثرة ضرب الفلوس، إلى جانب الإجراءات المتخذة على مستوى نظام الصرف، من أسباب ذهاب بهجة الدنيا

وزوال زينتها، وإتلاف الأموال وفساد زخرفها[٣٢]. وفي ذلك دلالة كبرى على انهيار الاقتصاد والمعاملات، وضياع رؤوس الأموال، وتراجع الإنتاج، وربما كساد الأسواق، وارتفاع نسبة العالة من الخلق، تبعا لهذه الأزمة الاقتصادية الخانقة. وبدهي أن ينجم عن هذا الوضع تراجع في حجم الاستهلاك، وتدن مستويات المعيشة وغلائها، بتدني القدرة الشرائية، ومعلوم الدخل. وبذلك تتراجع حركة الأسواق والمبادلات، وسرعة تداول النقود. ويبدو أن هذا أكبر دليل على تزايد الكتلة النقدية نسبيا، أكثر من تزايد الدخل القومي.

وهكذا يمكن القول، إن المقريزي كان له سبق قبل علماء الغرب[٣٣]، في فهم هذه العلاقة التي تجمع بين تراجع سرعة رواج النقود، وبين تزايد الكتلة النقدية. فقد أشار في مواطن مختلفة إلى كثرة ضرب الفلوس[٣٤]، وفسادها[٣٥]، مع اختلاف النقود[٣٦] [= انهيار القيمة الشرائية للنقود]، فارتفعت أسعار جميع المبيعات[٣٧] [= غلاء المعيشة + انهيار القدرة الشرائية + تراجع حجم الاستهلاك..]، وتوقفت الأحوال[٣٨]، وأتلفت رؤوس الأموال، وكسدت الأسواق، [= أزمة اقتصادية + تراجع سرعة تداول النقود]. وصارت الكافة إلى القلة، وشملت الفاقة والذلة الجمهور[٣٩]، ولحقتهم الخصاصة، وسوء الأحوال [أزمة اجتماعية]، وفني معظم أهل الخصاصة والمسكنة جوعا[٤٠] [أزمة ديموغرافية]، فعمت البلوى والفساد[٤١]، أي التضخم، وآل أمر الناس إلى الزوال، وأشرف الإقليم على الدمار والاضمحلال[٤٢] أزمة سياسية [= احتمال الإطاحة بالنظام الحاكم + الحضارة].

ويمكن تلخيص ما تقدم بواسطة المعادلة التالية:

ارتفاع حجم الكتلة النقدية، بفعل كثرة ضرب الفلوس، وفسادها، مع اختلاف النقود	=غلاء أسعار	= انهيار قيمة النقود	= انهيار الأوضاع الاقتصادية + اختلال الأحوال الاجتماعية = احتمال دمار الدولة واضمحلالها.

يتضح من خلال ما تقدم، أن المقريزي والأسدي كان لهما سبق تاريخي في معالجة قضايا النقود، في علاقتهما بمستوى الأسعار، وبكافة البنيات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وأنهما كانا، حقا، صاحبي نظرية نقدية دقيقة، واضحة الرؤية، ومتينة الأسس والمرتكزات. وبحكم الروابط التي تجمع بين الأزمات النقدية، وتضخم الاقتصاد، وبين اندلاع الفتن والثورات، وفرض ضرائب جديدة، وغيرها من الأحداث، والإجراءات السهلة المتخذة، ولو كان ذلك على حساب مصالح الشعوب، وحقوقها، وأرزاقها، للتحكم في العجز والأزمة، خصوصا في فترات الحروب والكوارث والمجاعات، التي تساهم بدورها في غلاء الأسعار واستفحال البلوى والأزمات، يمكن إعادة تركيب المعادلة على النحو الآتي:

انهيار عملة + مجاعة + حرب.... = غلاء الأسعار = انهيار قطاعات اقتصادية + إمكان الزيادة في الضرائب، أو فرض جديدة، وربما غير الشرعية منها = فتن + ثورات اجتماعية = احتمال الإطاحة بالنظام الحاكم.

وإذ تساهم عوامل الغلاء المذكورة، في انهيار قيمة العملة، فإنه يمكن اختزال المعادلة وفق الصيغة الآتية:

انهيار عملة = غلاء الأسعار = انهيار قطاعات اقتصادية + إمكان الزيادة في الضرائب، أو فرض جديدة، وربما غير الشرعية منها = فتن + ثورات اجتماعية = احتمال الإطاحة بالنظام الحاكم.

وفي ضوء ذلك، يمكن استخلاص مجموعة من القواعد والعلاقات التي تجمع بين مكونات المعادلة، وإذ لا يسمح المقام بحصرها كلها، نذكر منها على سبيل المثال ما يأتي:

غلاء الأسعار = فتن + ثورات اجتماعية = احتمال الإطاحة بالنظام الحاكم. والعكس بالعكس.

ونعتقد، أنه بقدر ما تضفي هذه المعادلة، والقواعد المشتقة منها، الشرعية والمصداقية على سلامة مقترحنا النظري السابق، حول أهم الروابط التي تجمع بين عناصر البنية الاقتصادية الاجتماعية، وكذا تأثيراتها المتبادلة، في علاقتها بالنقود، وحجم الكتلة المتداولة منها- والحال أن المقام لا يتسع لإثباته هنا[٤٣]، بقدر ما نعتقد أنه يمكن اتخاذها قاعدة ومنهجا، يمكن أن يهتدي به كل باحث في التاريخ الإسلامي الوسيط، لتحليل الأحداث، وتناول الوقائع التاريخية ومعالجتها بطريقة علمية، قائمة على مراعاة مختلف التداخلات والتأثيرات القائمة والمتبادلة، بين قطاع النقود والأسعار، وبين باقي مكونات المنظومة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، على أساس "أن دقة نتائج البحوث وقيمتها تتوقف على مناهج البحث المستخدمة من جهة"[٤٤]. كما يمكن أن

تساعد أهل السياسة والحكم في معرفة أحوال بلدانهم وتوقع أزماتها الاقتصادية والاجتماعية، قصد تفاديها أو السيطرة عليها، وإيجاد حلول لها في حال وقوعها من جهة أخرى. فإلى أي حد يثبت الواقع العملي للتجربة السياسية الموحدية صدق هذه المعادلة النظرية، ويضفي الشرعية عليها؟

ثالثًا: مساهمة انهيار القيمة الشرائية للعملة في ظهور الحركات الاجتماعية المناهضة لنظام الحكم الموحدي، ومظاهرها الكبرى

الجواب عن السؤال المذكور أعلاه، مثل غيره من الأسئلة التاريخية، بالإيجاب أو النفي، وباعتباره فرضية أيضا، يرتبط بالنصوص الواقعة تحت الفحص[٤٥]. وإذا كان تقدم المعرفة التاريخية، حسب مارك بلوك[٤٦]، رهين بقدرة الباحث على طرح الفرضيات والمقارنة بين المجتمعات والجرأة على التعميم. وبذلك تكون الأعمال التركيبية، على نقائصها، أكثر فائدة من الأعمال التحليلية، في مسار تطور أي قطاع معرفي. فإن الغاية من وراء البحث في العلم كله، هي المعرفة أو فهم العلائق. ومثل هذا الفهم يقتضي في البحث التاريخي شيئا أكثر بكثير من مجرد ترتيب الحوادث على النحو الذي وقعت فيه زمنيا. وعليه، سنحاول أن نركب ما توفر لدينا من أحداث ومعطيات، حول المجتمع المغربي، وأن نراعي علاقة بعضها ببعض، خصوصًا علاقة النقود والأسعار بمكونات المنظومة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ومقارنتها بغيرها من الأحداث، في ضوء حصيلتنا المعرفية، بغية الوقوف على العلاقات والترابطات القائمة بينها، ومن ثم إثبات صحة المقترح النظري، والسؤال الافتراضي، السالفين الذكر.

صحيح أن تدوين الحوادث على النحو الذي وقعت فيه زمنيًا، يمدنا بالأخبار، لكنه لا يحمل معه فهما لعلاقاتها. ولتحقيق ذلك، ينبغي علينا أن نكتشف وجوه ارتباطها بعضها ببعض... كما ينبغي علينا، بصورة خاصة، أن نكشف عن الصلة بين الأحداث، من حيث إن بعضها علل، وبعضها معلولات. ويتطلب هذا منا اختيار الأحداث وترتيبها على صورة أنماط زمنية ومنطقية على السواء[٤٧]. فالمسألة الأساسية في الدراسة التاريخية، هي تحليل التغير عبر الزمن... وعلى هذا يجب على المؤرخ ألا يتردد في إدخال عنصر الزمن في حسابه، وأن يدخله في التحليل منذ البداية.[٤٨] تأسيسًا على ذلك، سنحاول أن نعالج هذا المبحث الأخير، وفق التسلسل الزمني للأحداث، ثم نختبر السؤال المطروح، باعتباره فرضية في ضوء الشواهد المتوفرة لدينا. "فإذا نجح الاختبار كان لدينا أكثر من فرضية؛ أي توفر لدينا تعميم صحته محتملة إلى درجة كبيرة، ويمكن أن يتخذ تفسيرًا مؤقتًا"[٤٩]. والمعلوم أنه لا يمكن فصل ما هو اقتصادي عما هو اجتماعي أو سياسي أو ثقافي في تناول الأحداث والوقائع وتركيبها. ذلك أن تطور المجتمعات والحضارات يمر عبر حركة شاملة ومتداخلة لمجمل هذه العوامل، التي تتضافر جميعها لرسم دينامية المجتمع، وسماته الخاصة والعامة.

والحال أن الطبقة السياسية في جميع البلدان، تتحمل القسط الأوفر فيما تؤول إليه أحوال الناس، ومستوياتهم المعيشية والحضارية. فالواقع أن التقصير السياسي، وما حل ببلاد الموحدين، منذ عهد الناصر [٥٩٥هـ - ٦١٠هـ/ ١١٩٩ - ١٢١٣م]"من استبداد"[٥٠]، هو الذي أدخل البلاد في مرحلة اضطراب اجتماعي سياسي، باضطراب أمر السياسة والنقود والمعاش والمعاملات. وبالرجوع إلى بعض المصنفات التاريخية، يدرك الباحث أن هزيمة العقاب العسكرية سنة (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)، جاءت في سياق أزمة اقتصادية ومالية. تجلت مظاهرها الكبرى في انهيار قيمة العملة على المستوى الداخلي[٥١]، ثم بداية تراجع مكانتها على الصعيد الدولي[٥٢]، وفي عجز الميزانية، وهو حالة من حالات التضخم الاقتصادي. ففي سنة (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) كانت مخازن الدولة فارغة في المنطقة الغربية التابعة لوالي فاس وسبتة وعمال جهتيهما[٥٣].

وساهم الوباء العظيم الذي تحيف الناس بالمغرب والأندلس سنة (٦١٠هـ/ ١٢١٣م)[٥٤] في استفحال الغلاء، والتضخم الذي بدأ يمس الدولة، وكانت له مضاعفات اقتصادية[٥٥]، أدت إلى اضطراب الأحوال الاجتماعية والسياسية، وظهور الحركات الاجتماعية المناهضة للموحدين. ففي السنة المذكورة، ظهرت حركة بنيمرين على الساحة[٥٦]. ولم يكونوا يؤدون درهما ولا دينارًا، ولا يدخلون تحت حاكم ولا سلطان[٥٧]. وكان يقوم بأمر الموحدين آنذاك أبو يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله [٦١٠هـ - ٦٢٠هـ/ ١٢١٣ - ١٢٢٣م]. وفي دولته فشل أمر الموحدين وذهبت ريحهم[٥٨]. فالواقع أنه ولي الأمور وهو صبي صغير[٥٩]، إذ لم يكن سنه يتجاوز ست عشرة سنة[٦٠]، وكان ضعيفا لم يستطع مواجهة الأعباء[٦١]. فضاعت مصالح الناس[٦٢]، وفسد المعاش والمعاملات بفساد العملة[٦٣]، وسوء التدبير.

وإذ لا أستبعد جهل المستنصر بشؤون الاقتصاد والعملة، وبأسباب الخلل والغلاء الذي بدأ يمس الدولة، فالمعلوم أنه لم يكن صاحب تجربة، بل وشغلته مع ذلك أحوال الصبا، وجنونه عن القيام بالسياسة وتدبير الملك[٦٤]. وفوض النظر في الأمور كلها إلى وزرائه وحاشيته التي استشرى فيها الفساد[٦٥]. فكان ذلك من أسباب استفحال فساد النقود، وغلاء الأسعار، باعتباره المظهر الرئيس للبلوى والمرض[٦٦]، أي التضخم[٦٧] الذي ألم بالمجتمع الموحدي، والذي كان ليس سببًا في انهيار نظام حكمه، بل وزواله. فقد ساعد ضعف قوة الموحدين على صنع النقود الفاسدة[٦٨]. والجدير بالذكر أن الثائرين والمستقلين عن الدولة الموحدية لم يحاولوا باستثناء حالات نادرة، سك دراهم بأسمائهم، وإنما فضلوا سك دراهم موحدية، لكنها مجهولة الاسم[٦٩]. وطبيعي أن يؤدي تعدد العملات واختلافها، وكثرة ضربها، بفعل الفساد والتزوير، في ظل نقص الإنتاج[٧٠] وغياب الرقابة الرسمية للدولة، إلى "كثرة النقود المضروبة، كثرة بالغة"[٧١]، وغلاء الأسعار، وانهيار قيمة العملة. الأمر الذي ينجم عنه انهيار في معلوم الدخل والقدرة على النفقة. ولذلك قيل "أصل الكساد الفساد"[٧٢]، إذ يواكب هذا الانهيار، تراجع في حجم الاستهلاك، والإنتاج، مما يساهم في ارتفاع نسبة البطالة، وبالتالي اضطراب الوضع الاجتماعي، وغياب الاستقرار السياسي.

فبتوالي السنين تبلورت الحركة الاجتماعية المرينية، التي أصبحت أطماعها واضحة في قلب نظام الحكم الموحدي والوصول إلى السلطة[٧٣]، في ظل الأزمة الاقتصادية، والعجز عن التحكم فيها. وغني عن البيان، أن الإشارات التي جاءت عرضا في بعض المصادر التاريخية حول غلاء الأسعار، إنما تعبر بالملموس عن التضخم التدريجي[٧٤] الذي أطاح بعد مدة بنظام الحكم الموحدي. يثبت حقيقة ذلك، الارتفاع المستمر والمتصاعد للأسعار على مدى زمني طويل، امتد من سنة (٦١٤هـ / ١٢١٧م)[٧٥]، إلى سنة (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)[٧٦]. وهكذا ارتفعت نسبة التضخم، حسب ما يبدو، إلى مستوى يمكن وصفه بالمفرط، بحكم التزايد السريع والمسترسل للأسعار، خصوصا خلال ثلاثينيات القرن ٧هـ/١٣م. ويمكن تحديد الخطورة السياسية لهذا الغلاء [= انهيار قيمة العملة]، الذي أصبح يهدد النظام الموحدي في مشروعيته ووجوده، في انقسام الدولة إلى دولتين[٧٧] أو أكثر[٧٨] من جهة، وفي تحديد أحد الدارسين القيام الفعلي لنظام الحكم المريني سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩ ممن جهة أخرى. وخلالها تناهى الحال في مزيد السعر إلى ما لا نهاية، حسب ابن عذاري [عاش في القرن ٧ هـ/ ١٣م][٧٩].

وقد جاء هذا التطور التاريخي للحركة الاجتماعية المرينية، في ظل واقع اتسم بتزوير العملة[٨٠]، وتدليسها، مما تسبب في ارتفاع كمية النقود المضروبة منها. كما اتسم بامتناع الناس عن أداء الضرائب[٨١]، وباستحداث غير الشرعية منها[٨٢]، إضافة إلى انتشار بعض المجاعات[٨٣] والكوارث وكثرة الحروب، وارتفاع تكاليفها، وبتعثر التجارة، وتراجع كمية المبادلات، بتراجع مجال الدولة، وانعدام الأمن في الطرقات[٨٤].

وغير ذي شك، أن الأسباب المذكورة أعلاه، ساهمت بدورها في تعميق أزمة الغلاء، والتضخم، والعجز في ميزانية الدولة، وأدخلت النظام الحاكم في دائرة الحرج، وبداية الزوال. لذلك يمكن الاطمئنان حقيقة إلى الوصف الذي قدمه ابن عذاري لغلاء الأسعار، رغم غياب الأرقام. تماما مثلما يمكن تلمس خطورة هذا الغلاء على الوضع الاجتماعي والسياسي، في محاولة المستنصر الذي "اعتكف على اللعب واللهو والخمور، وسلم الملك إلى أعمامه وقرابته، وفوض أموره إلى وزرائه وأشياخ دولته، فتحاسدوا فيما بينهم على الرياسة... وجاروا في الأحكام"[٨٥]، احتواء الأزمة، وشراء السلم الاجتماعي، "بفتح المخازن المعدة لاختزان الطعام، ففتحت للعامة وفرقت عليهم، وذكر أنها كانت بثمن للأقوياء وبغير ثمن للضعفاء"[٨٦].

غاية ذلك، حسب ما يبدو، ضمان استمرار نظام الحكم، وحماية مصالح المستفيدين من وجوده من الوزراء وغيرهم، وعلى رأسهم الوزير ابن جامع الذي كان يقاسم اللصوص وقطاع الطرق ما ينتهبونه من التجار والمسافرين[٨٧]. وعليه، يبدو ألا مبالغة في القول، إن النخبة السياسية الحاكمة، والتي يمكن وصفها بحكومة الفساد والنهب المنظم للمال الخاص والعام، تتحمل مسؤولية كبرى فيما حل بالناس من الغلاء والمحن، بسبب الفساد، وسوء التدبير، إذ في فساد أهل الدولة، فساد المعاش[٨٨]. وفساد المعاش، من فساد النقود، تعم به البلوى[٨٩]، ويدخل الخلل في المعايش والنقص في الأموال والمعاملات، وترتفع الأسعار.

وهكذا استمر ضعف الموحدين، وانضمام المتمردين عليهم إلى حركة بني مرين، باستمرار

الغلاء، "والمجاعة العظمى التي خلا فيها المغرب [أزمة اقتصادية]، وتوالت عليه الفتن وعدمت الأقوات... من سنة تسع عشرة إلى سنة سبع وثلاثين وستمائة، لما أراد الله انقراض الدولة الموحدية، وظهور الدولة المرينية"[٩٠]. ويمكن اختزال هذا النص ذي الأهمية التاريخية، في المعادلة التالية:

مجاعة = انهيار الاقتصاد + انعدام الأقوات = غلاء أسعار = فتن + ثورات اجتماعية = احتمال الإطاحة بالنظام الحاكم.

وبحكم الانهيار الذي عرفته قيمة العملة الموحدية من جهة، وباستحضار عوامل الغلاء السالفة الذكر من تزوير وحروب وضرائب وكوارث... من جهة أخرى، أمكن إدخال تعديلات على المعادلة أعلاه، وفق الصيغة التالية:

انهيار قيمة العملة + مجاعة + حروب + كوارث = غلاء أسعار= تراجع اقتصاد + احتمال ارتفاع الضرائب = اندلاع الفتن + والثورات الاجتماعية = احتمال الإطاحة بنظام الحكم

وما دامت كل عوامل الغلاء تؤدي إلى نتيجة واحدة، ألا وهي انهيار القيمة الشرائية للعملة، وأن الحديث عن العملة، هو الحديث نفسه عن الأسعار، فإنه يمكن اختزال المعادلة أعلاه في الصورة التالية:

انهيار قيمة عملة= تراجع اقتصاد + احتمال ارتفاع الضرائب = اندلاع الفتن + الثورات الاجتماعية = احتمال الإطاحة بنظام الحكم.

ويثبت التاريخ المغربي الوسيط عموماً، والتاريخ الموحدي على وجه الخصوص، في ضوء ما تقدم، صحة هذه المعادلة. تماما مثلما يثبت بالملموس، سلامة ودقة المقترح، والمعادلة... التي توصلنا إليها، في ضوء بعض أفكار المقريزي والأسدي وغيرهما في المبحث السابق. فقد بات واضحًا أن انهيار نظام الحكم الموحدي، جاء نتيجة مباشرة لفساد السياسة، والنقود، واختلافها[٩١]، وكثرة ضربها، مما أدى إلى غلاء الأسعار وتدهور الاقتصاد[٩٢] واستحداث الضرائب[٩٣]، الأمر الذي أدى إلى اضطراب الأوضاع، وتبلور الحركات الاجتماعية المطالبة بالاستقلال أو الانفصال أو الراغبة في الوصول إلى كرسي الملك والوثوب عليه، سبيل ما قام به بنو مرين بالمغرب، وابن هود بالأندلس، وبنو حفص بإفريقية. أما فساد النقود، فمن مظاهره أيضا، لجوء الناس إلى "شراء الأملاك الأصول"[٩٤]. فعادة ما يتم تفضيل الأصول الحقيقية على الأصول النقدية، عندما تنهار قيمة العملة[٩٥]، لما في ذلك من خطورة على الثروة المختزنة نقديًا"[٩٦]. أما الغلاء فجلي أمره، وقد اشتد حاله بالمغرب والأندلس سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م)، فبيع قفيز القمح بخمسة عشر دينارا[٩٧]. وخلالها اضطربت البلاد على يحيى بن الناصر [٦٢٤هـ-٦٢٦هـ/ ١٢٢٧ ـ ١٢٢٩م]، [أزمة سياسية]، وغلت الأسعار، وخيفت الطرق، وفشا الفساد والخراب في المغرب [أزمة اقتصادية]، لكثرة الفتن[٩٨] [أزمة اجتماعية].

وفي الأندلس ظهرت حركة اجتماعية معارضة للحكم الموحدي بزعامة ابن هود، فثار بها، وملك مرسية سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م)، واستولى على الكثير من شرق الأندلس[٩٩]، ومن جملتها شاطبة ودانية وجيان وبايعه أهل قرطبة سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)[١٠٠]. وهكذا استمر نطاق الدولة في التراجع، وتقلص ظلها، وذاك من عوارض الهرم الذي يصيب الدولة عند ابن خلدون[١٠١]، وهو عندنا أيضًا من أسباب عموم البلوى والفساد، أي التضخم وغلاء الأسعار، الذي هدد النظام الحاكم بالزوال، خصوصًا مع كثرة الفتن[١٠٢]، وخروج الثوار[١٠٣]. والحال أن ابن هود تسمى بأمير المؤمنين[١٠٤]، وخطب للخليفة المستنصر صاحب بغداد[١٠٥].

وقد تأتى له في ظرف سنوات قليلة أن يضع يده على أكثر قواعد الأندلس، مستفيدًا من ولائه للخلافة العباسية. بيد أنه كان مزاحمًا في شرق الأندلس، بزيان بن مردنيش، الثائر ببلنسية منذ (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م). وكان على غرار سابقه متقلدًا بيعة الخليفة العباسي، ولكن حركة ابن مردنيش لم تبلغ في منافستها لابن هود ما بلغته حركة اجتماعية أخرى تزعمها ثائر ثالث هو محمد بن نصر المعروف بابن الأحمر[١٠٦]. هكذا دخلت الأندلس، في ظل هذه الحركات الاجتماعية المعارضة لنظام الحكم الموحدي، في "عهدها الطائفي الثالث"[١٠٧]، بفعل انهيار قيمة العملة وغلاء الأسعار الذي انعكس بالأساس في ثلاثينيات القرن السابع الهجري، على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية[١٠٨]، خاصة لدى أهل الضعف والخصاصة والمسكنة والبطالة، الثائرين ضد الغلاء، وضد الجور الضريبي والسياسي، للطبقة السياسية الحاكمة التي لم تعدّ قادرة على حماية البلاد والعباد[١٠٩] فحسب، بل وأصبح حكمها عرضة للانقسام، وهو أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة[١١٠].

واعتبر ذلك في دولة الموحدين، لما تقلص ظلها، وظهرت حركة بنو حفص بإفريقية، فثاروا، واستقلوا

بها، واستحدثوا ملكا لأعقابهم بنواحيها ثم استفحل أمرهم واستولى على الغاية...فقسموا به الدولة قسمين[١١١]. ويثبت هذا الترابط الوثيق في النص، بين تقلص ظل الدولة، وبين ثورة بني حفص، واستقلالهم عنها، العلاقة القائمة، بين تراجع مجال الدولة، وبين غلاء الأسعار، وما يواكبهما من ثورات وفتن. ففي سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) استولى أبو زكرياء الحفصي على إفريقية واستقل بها[١١٢]. فقام بسك العملة[١١٣]، وبذلك عادت البلاد إلى تعدد العملات واختلافها[١١٤] والحال أنه كان طموحا إلى ملك مراكش مقر الدعوة ومنبعث الدولة وأصل الخلافة[١١٥]. ولم تزد الإجراءات التي أقدم عليها المأمون، دولة الموحدين إلا انقساما، بل وتفاقما للمشاكل[١١٦]. فتكالب العدو على أكثر بلاد المسلمين، واستفحل أمر المعارضين، إذ استولى أبو زكرياء الحفصي على الجزائر وتلمسان وغيرهما، وخلع دولة بني عبد المؤمن.... وأطاعته سجلماسة وطنجة ومكناسة وخطب له بنو مرين[١١٧].وفي ضوء هذه التراجعات الكبرى في مجال حكم المأمون، يمكن فهم حقيقة وأسباب الغلاء الشديد[١١٨]، وكثرة الفتن، وحركات المعارضة، التي خيمت على البلاد خلال هذه المرحلة، التي تميزت بانعدام الأمن، وتقلص مجال الدولة. ويمكن تبسيط معالم هذا الواقع المر والمضطرب من خلال المعادلة التالية:

انعدام الأمن + تقلص مجال الدولة = تراجع الإنتاج + تراجع حركة الاقتصاد = ارتفاع نسبة العالة من الخلق + تراجع حجم السلع والخدمات = غلاء الأسعار.

وقد اتضح في معادلة سابقة، علاقة هذا الغلاء، بما هو اقتصادي واجتماعي وسياسي. وعليه، فالمأمون يتحمل مسؤولية كبرى فيما حل بالبلاد والعباد من بلوى وفساد، على اعتبار أن التضخم المالي في جميع أشكاله، يعني أن السلطات العامة فقدت الرقابة على التطور الاقتصادي، وأنها لا تعلم ما تصنع[١١٩]. تماما مثلما هو حال المأمون الذي لم يدر ماذا يصنع في أمره[١٢٠]. هكذا اتجهت البلاد بسرعة بعد نهاية حكمه، نحو الهاوية والقهقري وبداية الزوال. فتولى الحكم الرشيد [٦٣٠هـ-٦٤٠هـ/ ١٢٣٣ ـ ١٢٤٢م]، وكان سنه يوم بويع سنة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، أربع عشرة سنة، وهي سنة غلاء ومجاعة، بلغت خلالها نسبة الزيادة في مادة القمح على سبيل المثال، مقارنة بثمنها سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) ما يفوق ٤٠٠%، في ضوء الأسعار التي ذكرها الناصري[١٢١]. ووصلت هذه الزيادة خلال سنة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) نفسها، أكثر من ١٦٠%، إذ انتقل ثمن القمح من ٣٠ دينار[١٢٢]، إلى ٨٠ دينار للقفيز[١٢٣].

وقد كانت ثلاثينيات القرن السابع، فترة ثورات وفتن. ففي السنة المذكورة خلت بلاد المغرب [أزمة اقتصادية = تراجع الإنتاج + كساد الأسواق..]، وكثر فيها الجوع [أزمة اجتماعية = تراجع الاستهلاك والقدرة الشرائية + غلاء المعيشة]، والوباء[١٢٤] [أزمة ديموغرافية]، وبلغ ثمن الشعير، وهو من مواد القوت اليومي، سبعة دراهم للمد[١٢٥]. ولم تصل سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) حتى اشتدت الفتنة بالمغرب[١٢٦]. واستمر الغلاء والوباء المفرط إلى غاية (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م). وفيها هرب أكثر أهل البلاد[١٢٧]، كما حصل بمصر خلال القرن التاسع الهجري. هكذا مرت معظم أيام الرشيد الموحدي، في هرج وغلاء مفرط وفتن مظلمة وأهوال لا قبل لأحد بها[١٢٨]، مما عجل بانهيار الإمبراطورية الموحدية[١٢٩]. والحال أن الدرهم الفضة كان يصرف بنصف درهم سنة (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م)[١٣٠]. ومن الطبيعي أن يواكب هذا الانهيار في قيمة العملة، وسعر الصرف، ارتفاع أسعار جميع المبيعات وليس بعضها، رغم صمت المصادر للأسف عن ذلك. لذلك اشتدت الفتن وخرج الثوار في كل مكان.

فغير ذي شك، أن ينعكس هذا الغلاء متعدد الأسباب، على معلوم الدخل والأجور والقدرة على النفقة ومستوى المعيشة، في ظل انعدام الأمن وأزمة الإنتاج. "فترمق الناس من فيتور الزيتون والنارنج، وما يدرون حامضا هو أم حلوا، من سوء ما حل بهم"[١٣١]، بسبب الكساد وانعدام الأقوات والغلاء الذي كان يعصف بالبلاد"، إذ لم يبق بأسواق أحد المدن خلال السنة المذكورة ما ينطلق عليه اسم شيء بوجه من الوجوه، وأغلقت الحوانيت"[١٣٢][أزمة اقتصادية = تراجع الإنتاج + كساد الأسواق..]. وانعكس هذا الواقع الاقتصادي المزري، على الأحوال الاجتماعية "فلم يبق مَنْ يلبس ثوبًا يساوي عشرة دراهم... وإذا ظهر في السوق بعد أيام كثيرة شيء من خبز الشعير يحشر الناس عليه... وما يصل إليه إلا الكفاة الذين لهم تجلد على الاقتحام وصبره"[١٣٣]. وهكذا أصبحت القوة عاملاً حاسمًا في الحصول على القوت اليومي، وهو الواقع الذي يمكن وصفه بالصراع الاجتماعي حول خبز الشعير، أو بحرب الشعير. ولا يعدم الذي يتوصل إليه أن يجتمع عليه العشرون وأكثر من الضعفاء والمساكين حتى ينتزعوه منه قهرًا، حسب صاحب البيان.

بإمعان النظر في هذا الواقع المغربي، يتبين أنه يكاد يطابق ما قاله ورصده المقريزي والأسدي، بخصوص المجتمع المصري، مطابقة تامة، سواء على المستوى النظري أم العملي. بيد أن الإيمان بالخصوصية، وفردية الأحداث التاريخية[١٣٤]، في ظل تشابه الظواهر الاجتماعية، وسيرورة التواريخ العالمية، لسنن وضوابط خفية، يمنعنا من الجزم بذلك. عمليًا، إذا "شملت الفاقة والذلة الجمهور المصري"[١٣٥] خلال القرن التاسع الهجري، مع سوء الأحوال، حتى في معظم أهل الخصاصة والمسكنة جوعًا، بسبب كثرة ضرب الفلوس، وفسادها، واختلاف النقود، وارتفاع أسعار جميع المبيعات. فكذلك وقع بالمغرب، زمن الرشيد، للأسباب عينها. وحسبك أن الناس كانوا يقتاتون "من خبز كان يعمل من تابودا التي تنبت في الصهاريج وفي الأنهار والسواقي، إضافة إلى عصائد تصنع من نوار الخروب"[١٣٦]. وإذا في معظم أهل الخصاصة والمسكنة بمصر جوعًا للأسباب المذكورة، فقد هلكت بالمغرب زمن الرشيد أمم لا تحصى للأسباب ذاتها. وكان يدفن في الحفرة الواحدة، المائة من الناس[١٣٧]، [أزمة ديموغرافية = ارتفاع نسبة الوفيات + تراجع الإنتاج، وتدمير قوى الإنتاج]، فآل أمر الناس على غرار ما حدث بمصر، إلى الزوال، وأشرف المجتمع المغربي على الدمار، والنظام الموحدي الحاكم على الاضمحلال. "فتغيرت الصورة الجميلة وتنكرت الدنيا باستيلاء المجاعة بالمغرب "[١٣٨]. كما ذهبت بهجة الدنيا وزالت زينتها بمصر.

ومع نهاية حكم الرشيد سنة (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م)، تغلب بنو مرين على بسائط المغرب وأمصاره[١٣٩]. وفيها بويع الخليفة الجديد السعيد، وفي عهده استمر الغلاء، فكثر الهرج، واستفحل أمر الثوار، وملك بنو مرين جميع بوادي المغرب. وفي نهاية حكمه سنة (٦٤١هـ/ ١٢٤٨م)، استولى أبو يحيى بن عبد الحق المريني [٦٤٢هـ-٦٥١هـ/ ١٢٤٤/ ١٢٥٨م] على مدينة فاس[١٤٠]. ونعتقد أنه منذ ذلك الحين انتهت مشروعية الموحدين. تمامًا مثلما نشاطر روجي لي تورنو الرأي في انتهاء إمبراطوريتهم[١٤١].

خَاتِمَةٌ

خلاصة القول، يقدم الواقع العملي، لانهيار نظام الحكم الموحدي، الجواب الشافي، عن سؤالنا الافتراضي. تمامًا مثلما يثبت دقة مقترحنا، بخصوص أهم العلاقات والروابط التي تجمع بين بعض مكونات البنية الاقتصادية الاجتماعية، في علاقتها بالنقود، وحجم الكتلة المتداولة منها، وكذا صحة المعادلات التي توصلنا إليها. وعليه، يبدو أن لا مشاحة في القول، إننا أصبحنا أمام أكثر من فرضية، بل أمام تعميم، صحته محتملة إلى درجة كبيرة، ويمكن أن يتخذ تفسيرًا مؤقتًا. ذلك أن انهيار الاقتصاد، ودمار ما في المجتمع الموحدي من ثروة ورشاد، واضطراب الأحوال، وزوال النظام، جاء نتيجة عموم البلوى والفساد، بفساد أهل الدولة، والسياسة والنقود. وهو ما يستوجب في زعمنا، رجوع كل مهتم بالتاريخ الإسلامي الوسيط عمومًا، والمغربي منه على وجه الخصوص، سيما ما يتعلق منه بالعملة والأسعار، في علاقتهما بتحولاته الاقتصادية والاجتماعية... والسياسية، إلى الفكر الاقتصادي، وطروحاته الكبرى، سواء في الشرع والفكر الإسلاميين، أم في الإنتاج الفكري الإنساني عمومًا. قصد تطوير البحث التاريخي الإسلامي، والارتقاء به من مستوى السرد والتحليل، إلى مستوى التركيب والتعميم، بطرح الأسئلة والفرضيات، وإثبات صحتها بالأدلة والشواهد، إلى أن نصبح أمام قواعد ونظريات علمية سليمة، ومساعدة على قراءة الماضي، قراءة دقيقة، تمكن من فهم جيد للحاضر، وتخول وضع توقعات سليمة للمستقبل، خصوصًا ما يتعلق بأزماته المالية والنقدية. قصد السيطرة عليها، وتجاوز مشاكلها، وبالتالي إرساء عوامل الازدهار الاقتصادي، والرخاء الاجتماعي، والعدل السياسي... كل هذا مدخل للرقي الحضاري، مهما تعددت إكراهاته الداخلية والخارجية.

الهَوامِشُ:

(١) ابن الأزرق، **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق وتعليق الدكتور علي سامي النشار، سلسلة كتب التراث، ٤٥، بغداد منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية،١٩٧٧، الجزء الأول، ص. ٢٦٧.

(٢) هيوج اتكن، **دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية**، ترجمة، الدكتور محمود زايد، تقديم، قسطنطين زريق، ط. ٢، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٢، ص.٨٤

(٣) نفسه، ص.٧٤

(٤) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق، درويش الجويدي، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص. ٤٦

(٥) الراغب الأصفهاني، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق ودراسة، أبو اليزيد أبو زيد العجمي، ط. ١، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ١٤٢٨هـ /. ٢٠٠٧، ص. ٢٧٣

(٦) ابن الأزرق، مصدر سابق، ص. ٢٦٧

(٧) محمود الجليلي، **المكاييل والأوزان والنقود العربية**، ط. ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٥، ص. ١٢.

(٨) ابن رشد، **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة**، تحقيق، أحمد الحبابي، ط. ٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨ م، ج. ٦، ص. ٤٤٠.

(٩) المقريزي، **إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر**، قدم له وشرحه، صلاح الدين الهواري، ط. ١، شركة أبناء الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨، ص. ٤٩.

(١٠) الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، أخرجه جماعة من المؤلفين، إشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، ١٩٨١، ج. ٦، ص. ٣٣٧.

(١١) الراغب الأصفهاني، م س، ص. ٢٧٣

(١٢) محمد جلوب الفرحان، "**الفكر الاقتصادي في كتابات الماوردي**"، **مجلة الاجتهاد**، ع، ٣٤-٣٥، دار الاجتهاد، بيروت، السنة التاسعة، شتاء وربيع العام ١٤١٧هـ / ١٩٩٧، ص. ١٧٧.

(١٣) محمد عابد الجابري، **نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي**، ط. ٥، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٦م، ص. ٢٩٥.

(١٤) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ص. ٥٢٣.

(١٥) السيوطي، **الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو وسائر الفنون**، ط. ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥، ج. ١، ص. ١٠١.

(١٦) رفيق يونس، **الإسلام والنقود**، ط. ٣، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠، ص.٣٩.

(١٧) محمد جلوب الفرحان، مرجع سابق، ص. ١٨٦.

(١٨) رفيق يونس، م س، ص.١٣٩ ـ ١٤٠

(١٩) نفسه، ص. ١٤١.

(٢٠) رفيق يونس، م س، ص. ٣٤

(٢١) ابن خلدون، **المقدمة**، ص. ٢٨١.

(٢٢) ذكر الماوردي أن فساد أمور الفرس، كان عند فساد نقودهم. [**الأحكام السلطانية**، تحقيق رضوان السيد، ط. ٢، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ص.١٥٤]. أما حقيقة ما وقع للعرب، فيمكن استخلاصه من بعض المصادر التاريخية، مثل كتاب المقدمة لابن خلدون، إغاثة الأمة للمقريزي، وكتاب التيسير والاعتبار للأسدي...

(٢٣) الأسدي، **التيسير والاعتبار**، نقلاً عن، رفيق يونس، م س، ص.١٣٩

(٢٤) نفسه، ص. ١٤٠

(٢٥) رفيق يونس، م س، ص. ٣٣

(٢٦) شوقي أحمد دنيا، "قراءة اقتصادية في كتاب التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبر والتصرف والاختيار لمحمد بن محمد بن خليل الأسدي"، **مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**، العدد الخامس، المحرم ١٤١٢هـ / يوليو ١٩٩١م، ص.٢٠٢.

(٢٧) رفيق يونس، م س، ص. ١٣٩

(٢٨) رفيق يونس، م س، ص. ١٤١

(٢٩) شوقي أحمد دنيا، مرجع سابق، ص.٢٠٣.

(٣٠) نفسه، ص. ٢١٢.

(٣١) زينب عوض الله، وأسامة محمد الفولي، **أساسيات الاقتصاد النقدي والمصرفي**، منشورات الجلبي الحقوقية، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص. ٣٠.

(٣٢) المقريزي، **إغاثة الأمة**، ص. ٧٢.

(٣٣) بيار برجيه، **العملة ودورها في الاقتصاد العالمي**، ترجمة، علي مقلد، ط. ١، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ١٩٧٠، ص. ٢٣٤

(٣٤) المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، ط. ١، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧، ج، ٢، ص. ٣٩١.

(٣٥) المقريزي، **السلوك**، ج. ٦، م، س، ص. ١١١.

(٣٦) المقريزي، **إغاثة الأمة**، المقريزي، ص. ٧٠.

(٣٧) المقريزي، **السلوك**، ج. ٦، م. س، ص. ١٧٢.

(٣٨) المقريزي، **السلوك**، ج. ٢، .. م. س، ص. ٣٩١.

(٣٩) **إغاثة الأمة**، ص. ٧٢.

(٤٠) نفسه، ص. ٧١

(٤١) المقريزي، **السلوك**، ج. ٦، ص. ١٧٢.

(٤٢) المقريزي، **إغاثة الأمة**، ص. ٧٤.

(٤٣) حول هذا المقترح انظر، عبد المجيد النوري، **العملة وتأثيراتها السياسية في تاريخ الغرب الإسلامي من مطلع القرن الخامس إلى أواخر القرن السابع الهجريين ٤٠٧هـ ـ ٦٧٤هـ/ ١٠١٧م ـ ١٢٧٥م**، بحث لنيل دكتوراه وطنية، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ٢٠١٣ ـ ٢٠١٤م، ص ٢٧

(٤٤) لخضر محمد بولطيف، **فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي**، ٥١٠هـ-٦٦٨ هـ/١١١٦-١٢٦٩ م، ط.١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فرجينيا،

الولايات المتحدة الأمريكية، مكتب التوزيع في العالم العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٩م، ص. ٢٣.
(٤٥) هيوج اتكن، م س، ص. ١٤
(٤٦) انظر، محمد حبيدة، **تاريخ أوربا من الفيودالية إلى الأنوار**، ط. ١، جامعة محمد الخامس أكدال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٤٢، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠، ص.١٩ ـ ٢٠
(٤٧) هيوج اتكن، م س، ص. ١١
(٤٨) نفسه، ص. ١٠ ـ ١١
(٤٩) نفسه، ص. ١٣
(٥٠) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدولتان المرابطية والموحدية، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج. ٢، ص. ١٩١.
(٥١) عباس الجراري، **الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي**، عصره، حياته، وشعره، ط. ١، منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، ص. ٢٤.
(٥٢) انظر، صالح بن قربة، "انتشار المسكوكات المغربية وأثرها على تجارة الغرب المسيحي في القرون الوسطى"، **ضمن ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى**، ط. ١، منشورات كلية الآداب العلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، ٤٨، ١٩٩٥م، ص. ١٨٩.
(٥٣) أحمد عزاوي، **مختصر تاريخ الغرب الإسلامي عصر الدول الكبرى المرابطية، الموحدية، المرينية**، مطبعة، ربا نيت، ديور الجامع، الرباط، ٢٠٠٨م، ج. ٢، ص. ٦٣.
(٥٤) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٧٢ ص. ٤٩.
(٥٥) أحمد عزاوي، مختصر... م.س، ص. ٦٢.
(٥٦) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس**، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، ط. ٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٩ ص. ٣٦٨.
(٥٧) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. ٢٩.
(٥٨) ابن خلدون، **العبر**، تحقيق، خليل شحاذة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، ٢٠٠٠، ج. ٦، ص.٢٩٧
(٥٩) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. ٣٦٨.
(٦٠) الناصري، **الاستقصا**، ج٣... م.س، ص. ٢١٨.
(٦١) عباس الجراري، الأمير الشاعر... م.س، ص. ١٨.
(٦٢) ابن القطان، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمن**، تحقيق محمود علي مكي، ط. ٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م، ص. ١٨.
(٦٣) أصبحت العملة الموحدية عرضة للتزوير والتدليس منذ بداية ضعف النظام الموحدي الحاكم، وحول ذلك انظر أطروحتنا السالفة الذكر، ص. ٧٢-٧٣.
(٦٤) ابن خلدون، العبر، ج. ٧، ص. ٢٢٤
(٦٥) ابن القطان، مصدر سابق، ص. ١٨.
(٦٦) الناصري، الاستقصا، ج٣... م.س، ص. ٤.
(٦٧) عبد الرحمن يسرأحمد، اقتصاديات النقود، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٥، ص. ٢٤١.
(٦٨) Ahmed Khanbaubi, les premiers sultans, mérinides, histoire politique et sociale, Edition, L'harmattan, paris, 1987, p. 126.
(٦٩) محمد الشريف، **الغرب الإسلامي، نصوص دفينة ودراسات**، ط. ٢، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ١٩٩٩، ص. ٩٩.
(٧٠) أحمد عزاوي، م س، ص. ٦٦.
(٧١) تم اقتباس هذا التعبير من كتاب إغاثة الأمة ـ ص.٦٨، وهو مرادف لمصطلح "ارتفاع حجم الكتلة النقدية" . ذلك أن المقريزي عالج قبل قبلإرفين فيشر العلاقة بين ارتفاع الأسعار، وبين ارتفاع كمية النقود، وأفاد أن هذا الارتفاع ناتج عن زيادة في الكمية النقدية المتداولة. [محمد حركات، الاقتصاد السياسي لتدبير الشأن العام، ط. ٢، ٢٠٠٠، ص. ٣٣].
(٧٢) رفيق يونس، م س، ص. ١٥٤
(٧٣) انظر: ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص. ٣٦.
(٧٤) يوصف التضخم بأنه مفرط أو جامح، إذا تزايدت الأسعار بمعدلات مرتفعة خلال الفترة القصيرة من الزمن، أما إذا تزايدت الأسعار على مدى فترة زمنية طويلة نسبيا فإن التضخم يوصف **بأنه تدريجي أو زاحف**. [عبد الرحمن يسرى أحمد، م س، ص. ٢٤١].
(٧٥) ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمامة، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٥، ج٤، ص. ٢٦٦.
(٧٦) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص. ٤٩
(٧٧) نفسه، ص. ٣٣٣
(٧٨) ابن خلدون، **مقدمة**، ص. ٢٦٨.
(٧٩) ابن عذاري، م.س، ص. ٢٦٦-٢٦٧.
(٨٠) انظر، عبد المجيد النوري، م س، ص. ٧٢-٧٣.
(٨١) محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، ط. ٣، منشورات كلية الآداب الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٤٢٠/ ٢٠٠٠، ص. ١١.
(٨٢) ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س، ص. ١٨.
(٨٣) ابن عذاري، م س ص. ٢٦٦.
(٨٤) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص. ٣٦.
(٨٥) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. ٣٦٨.
(٨٦) ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س، ص. ٢٦٧.
(٨٧) ابن القطان، مصدر سابق، ص. ١٨.
(٨٨) الشعراني، **الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار**، دار الفكر، دون تاريخ، ج. ١، ص. ٩١.
(٨٩) ابن خلدون، **مقدمة**، ص. ٢١٦.
(٩٠) ابن أبي زرع، الأنيس **المطرب**، ص. ٤٩.

(٩١) شعبان عبد الرحيم، المسكوكات المرينية من خلال المجموعة النقدية لبنك المغرب والمتحف الأثري في الرباط، ومجموعات أخرى عمومية وشخصية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص. ١٧.

(٩٢) حول الخراب الذي أصاب مدينة فاس على سبيل المثال، بين ٦١٨هـ وبين ٧٣٧هـ انظر: **الأنيس المطرب**، ص. ٦٧.

(٩٣) داود عمر سلامة عبيدات، **الموحدون في الأندلس والمغرب** (٥٤١هـ- ٦٦٧هـ/ ١١٤١ - ١٣١٨م)، دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٦ ص. ١٦٠.

(٩٤) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية. ٥١.

(٩٥) عباس الجراري، م.س، ص. ٢٤.

(٩٦) فؤاد شريف، **المشكلة النقدية**، ط. ١، دار الثقافة، الإسكندرية، دون تاريخ، ص. ٢١.

(٩٧) انظر ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. ٣٥٩

(٩٨) نفسه، ص. ٣٢٦.

(٩٩) ابن خلدون، **العبر**، ج، ٦، ص. ٣٤٠.

(١٠٠) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. ٣٦٠.

(١٠١) ابن خلدون، **مقدمة**، ص. ٢٦٧-٢٦٨.

(١٠٢) الناصري، **الاستقصا**، ج، ٢، ص.٢١٠.

(١٠٣) ابن خلدون، **العبر**، ج٦... م.س، ص. ٢٩٧.

(١٠٤) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. ٣٦٠.

(١٠٥) الناصري، **الاستقصا**، ج٢... م.س، ص. ٢٢٧.

(١٠٦) لخضر محمد بولطيف، **فقهاء المالكية**...م س، ص. ٣٨٣.

(١٠٧) نفسه، ص. ٣٨٤.

(١٠٨) انظر ابن عذاري، م س، ص. ٣٢٥.

(١٠٩) محمد بن محمد مخلوف، **تتمة شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، ط. ١، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ١٣٤٩هـ ص. ١٣٩

(١١٠) ابن خلدون، مقدمة، ص. ٢٦٧.

(١١١) يؤكد هذا الانقسام ابن أبي زرع بقوله: "كانت أيامه ـ المأمون ـ كلها شقية في منازعة يحيى، افترق الموحدون فيها فرقتين فصارت الدولة دولتين" (**الأنيس المطرب**، ص. ٣٣٣).

(١١٢) محمد بن محمد مخلوف، م.س، ص. ١٣٨.

(١١٣) محمد رأفت النبراوي، **النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري**، ١، مكتبة زهرا الشرق،٢٠٠٠، ص. ٣٠٤.

(١١٤) شعبان عبد الرحيم، **المسكوكات المرينية**... م.س، ص. ١٧.

(١١٥) ابن خلدون، العبر، ج... م.س ٧، ص. ٢٣٩.

(١١٦) روجي لي تورنو، **حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر**، ترجمة أمين الطيبي، ط. ٢، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء،١٤١٩/ ١٩٩٨ ص. ١٠٩-١١٠.

(١١٧) محمد بن محمد مخلوف، م.س، ص. ١٣٨.

(١١٨) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. ٣٢٨.

(١١٩) جاك روندو‌يروفابر، **الدولة**، ترجمة سموحي فوق العادة، ط. ١، منشورات عويدات، بيروت لبنان، ١٩٧٠، ص. ٤٣.

(١٢٠) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. ٣٢٨.

(١٢١) الناصري، **الاستقصا**، ج٢... م.س، ص. ٢٣٧.

(١٢٢) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. ٣٦١.

(١٢٣) الناصري، **الاستقصا**، ج٢ ... م.س، ص. ٢٣٧.

(١٢٤) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. ٣٦١.

(١٢٥) الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق، إحسان عباس، ط. ٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤، ص. ٦٠٥

(١٢٦) ابن خلدون، **العبر**، ج... م.س ٦، ص. ٣٤٥

(١٢٧) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص. ٣٣٦.

(١٢٨) ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق، محمد بنشريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط،١٩٨٤، سفر٨، ص. ٢٤٢.

(١٢٩) أمبروسيوهويثي ميراندا، **التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية**، تعريب، عبد الواحد أكمير، ط. ١، منشورات الزمن النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. ٥٠٥.

(١٣٠) ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م.س، ص. ٣٢٥.

(١٣١) ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م.س، ص. ٣٢٥.

(١٣٢) نفسه، ص. ٣٢٥

(١٣٣) نفسه، ص. ٣٢٥

(١٣٤) هيوج اتكن، م س، ص. ١٠ ـ ١١

(١٣٥) المقريزي، **إغاثة الأمة**، ص. ٧٢

(١٣٦) ابن عذاري، م س، ص. ٣٢٥

(١٣٧) نفسه، ص. ٣٢٥.

(١٣٨) نفسه، ص. ٣٢٥.

(١٣٩) ابن خلدون، **العبر**، ج٦ ... م.س، ص. ٢٩٧.

(١٤٠) **الأنيس المطرب**، ص. ٣٦٢

(١٤١) روجي لي تورنو، م.س، ص. ٩٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

دراسات

الاحتفالات الدينية في عهد السلطان أبي الحسن المريني من خلال كتاب "المسند الصحيح الحسن..." لمحمد بن مرزوق التلمساني

أ.د. عبد القادر فكاير
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة
الجمهورية الجزائرية



مُلَخّص

شهدت الاحتفالات الدينية في عهد الدولة المرينية تطورًا ملحوظًا، ومنها على الخصوص الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فأول مَنْ احتفل به السلطان يعقوب بن عبد الحق (١٢٨٦–١٣٠٨م). وقد أعطى السلطان أبو الحسن المريني (١٣٣١–١٣٥١م) عناية خاصة لهذه المناسبة، حيث جعل الدولة تتحمل نفقات الاحتفال بليلة المولد. ارتبط اسم ابن مرزوق بأبي الحسن حين استولى على تلمسان في سنة ١٣٣٧م، حيث كان عم ابن مرزوق (محمد الثالث) مقربًا من السلطان، فأدخل ابن مرزوق في حاشيته، ثم عينه خطيبًا بمسجد أبي مدين بالعباد بعد وفاة عمه. وقد لازم ابن مرزوق السلطان إلى غاية سنة ١٣٤٨م، حين استعاد الزيانيون ملكهم في تلمسان، وحظي عنده بمكانة خاصة ورافقه في بعض رحلاته ومعاركه. كتب ابن مرزوق كتاب "المسند الصحيح الحسن..." وانتهى من تأليفه سنة ١٣٧١م. سنعرض في هذا المقال مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي في عهد السلطان أبي الحسن المريني، فقد أفرد ابن مرزوق بابًا كاملاً في كتابه، يحتوي على عناية السلطان ورعايته لآل بيت رسول الله (ﷺ) والاحتفال بليلة مولده عليه السلام. فكان يقيم الاحتفال في حالة السفر أو في الإقامة. وبتحضير أنواع مختلفة من الطعام والحلويات والبخور ومظاهر الزينة. وكانت هذه المناسبة تلازمه حتى في حالة النفير للحرب مع النصارى. وإقامة المجلس يتم بعد صلاة المغرب، يستدعى إليه الناس حسب طبقاتهم ويتم إطعامهم. ثم يشرع في إقامة حفل ديني يبدأ بقراءة شيء من القرآن الكريم، ثم تُلقى القصائد الشعرية، والإكثار من ترديد الصلوات على النبي محمد (ﷺ). يستمر الاحتفال لوقت طويل من الليل، وعند طلوع الفجر يصل الناس صلاة الصبح، ثم يتناولون الطعام.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٣٠	نوفمبر	٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر:	٠٦	مارس	٢٠١٩

كلمات مفتاحية:
المولد النبوي؛ ابن مرزوق التلمساني؛ الدولة المرينية؛ الاحتفالات الدينية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055855

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عبد القادر فكاير. "الاحتفالات الدينية في عهد السلطان أبي الحسن المريني من خلال كتاب "المسند الصحيح الحسن..." لمحمد بن مرزوق التلمساني".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة -العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص١٧٥ – ١٨٤.

مُقدِّمَة

تتناول هذه الدراسة ظاهرة الاحتفالات الدينية في عهد السلطان أبي الحسن المريني وذلك من خلال كتاب ألفه محمد بن مرزوق التلمساني، الذي كان أحد الرجال المقربين لدى السلطان، وعنوانه "المسند الصحيح الحسن". فقد شهدت الاحتفالات الدينية في عهد الدولة المرينية تطوراً ملحوظاً، ومنها على الخصوص الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فأول مَنْ احتفل به السلطان يعقوب بن عبد الحق (١٢٨٦-١٣٠٨م)، الذي أصدر مرسوماً جعل فيه المولد النبوي من الأعياد الرسمية. ومن السلاطين المرينيين الذين أعطوا عناية خاصة بهذه المناسبة، وغيرها من الاحتفالات

الدينية السلطان أبو الحسن المريني (١٣٣١-١٣٥١م)، الذي جعل الدولة تتحمل نفقات الاحتفال بليلة المولد في إطار المراسيم التي تنظمها الدولة. وقد اشتهر هذا السلطان بتوسعاته، فاستولى على تلمسان في سنة ١٣٣٧ بعد حصار دام سنتين، وقتل أبا تاشفين وعدداً من أفراد أسرته. وذكر أن تلمسان في عهده عرفت توسعًا في الاحتفال بمناسبة المولد النبوي الشريف.

ارتبط اسم ابن مرزوق بأبي الحسن منذ هذه الحادثة، حيث كان عم ابن مرزوق (محمد الثالث) مقربا من السلطان، فأدخل ابن مرزوق في حاشيته، ثم عينه خطيبًا في مسجد أبي مدين بالعباد بعد وفاة عمه. وقد لازم ابن مرزوق السلطان إلى غاية سنة ١٣٤٨، حين استعاد الزيانيون ملكهم في تلمسان، وحظي عنده بمكانة خاصة ورافقه في بعض رحلاته ومعاركه. كتب ابن مرزوق كتاب "المسند الصحيح الحسن..." بعد عشرين عامًا من وفاة السلطان المريني، وانتهى من تأليفه سنة ١٣٧١. لقد أورد الكاتب في مؤلفه مختلف مظاهر الحكم في عهد السلطان أبي الحسن، حيث تحدث عن السلطان وبلاطه ووزرائه وكتابه والأنظمة الإدارية التي سار عليها السلطان في دولته، كما تحدث فيه عن سلوك الناس بمختلف طبقاتهم. لقد أفرد ابن مرزوق بابًا كاملاً في كتابه، يحتوي على عناية السلطان ورعايته لآل بيت رسول الله (ﷺ) والقيام بحقه في ليلة مولده عليه السلام. فقد كان يقيم الاحتفال في حالة السفر، أو في الإقامة، ولا يشغله عن إقامته شاغل، لدرجة أنه كان يعاقب كل مَنْ يتخلف عن الاحتفال، في أي مكان كان به. والاستعداد لهذه المناسبة يكون بتحضير أنواع مختلفة من الطعام والحلويات والبخور ومظاهر الزينة. وكانت هذه المناسبة تلازمه حتى في حالة النفير للحرب مع النصارى، وفي حالة التعب. ومن مظاهر الاحتفال بهذه المناسبة الدينية، إقامة المجلس بعد صلاة المغرب، حيث يستدعى الناس حسب طبقاتهم ويتم إطعامهم، بعدها توزع عليهم الفواكه المتوفرة في الموسم، ثم يؤتى بالحلويات التي تكون خاتمة المأدبة، وفي بعض الأحيان كان يتم الإطعام بعد صلاة العشاء. وبعد الانتهاء من الإطعام يسود السكون والهدوء التام في المجلس، ثم يشرع في إقامة حفل ديني يبدأ بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم، ثم تلقى على الحاضرين في المجلس القصائد الشعرية من المدائح التي تدخل السرور في نفوس الأفراد، كما كان يتم الإكثار من ترديد الصلوات على النبي محمد(ﷺ).

وقد وصف ابن مرزوق هذه الحالة بأنها "من أعاجيب ما يرى في بلاد المغرب". ومن مظاهر هذا الاحتفال استعمال البخور وإشعال الشموع بكثرة. يستمر الاحتفال لوقت طويل من الليل، وعند طلوع الفجر يصل الناس صلاة الصبح، ثم يتناولون الطعام الخاص بهذه الفترة. تتكرر مظاهر هذه الاحتفالات في اليوم السابع، أي يوم ١٩ من شهر ربيع الأول، وفي صبيحة هذا اليوم يعقد مجلس يحضره الفقهاء، والأئمة، والخطباء، والقضاة وتسلم لكل واحد منهم كسوة تخصه. وذكر ابن مرزوق أن هذه العادة ظلت مستمرة في عهد السلطان أبي عنان المريني. وضعت في هذا البحث ملخصًا عن حياة المؤلف، ثم عرفت بشكل مختصر بمحتوى الكتاب، الذي يعرض فيه صاحبه لمختلف مظاهر حياة وسيرة السلطان أبي الحسن المريني. ثم تطرقت إلى مختصر لحياة السلطان المذكور، الذي عاش في القرن (الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي). من أهم الاحتفالات الدينية التي وردت في كتاب " المسند" هي الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وكذلك في الليلة السابعة. وقد أشار المؤلف إلى خلفية هذا الاحتفال. ولهذا فإني تعرضت إلى الاحتفالات الدينية في عهد الدولة المرينية قبل السلطان المذكور، ثم تعرضت إلى مختلف مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في عهد السلطان أبي الحسن، الذي أضاف إلى من سبقوه بعض المظاهر تعظيما لهذه المناسبة التي كانت تقام في بلاد المغرب.

أولاً: ابن مرزوق كاتب سيرة أبي الحسن المريني

١/١-نبذة عن حياة ابن مرزوق التلمساني

ينتمي ابن مرزوق إلى عائلة كبيرة أصلها من القيروان، انتقلت إلى تلمسان في أواخر القرن (الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي).[١] هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني، يعرف بالخطيب[٢]. ولد في تلمسان سنة ١٣١١م، وتوفي في القاهرة ١٣٧٩م. رافق والده (أحمد بن مرزوق) في رحلته إلى الحج، وقد زار كبرى مدن المشرق، منها المدينة المنورة ومكة المكرمة، القدس، الإسكندرية والقاهرة. استفاد من رحلته بلقاء العلماء، وفي مصر برزت صفة ابن مرزوق في الخطابة، ونال إعجاب الشيخ المرشدي، فخطب الجمعة بجامع الإسكندرية وهو صبي، وذلك

في سنة ١٣٣٠م. وقد عرف بلقب الخطيب، وتميز بالفصاحة، فقد ذكر أنه خطب على «ثمانية وأربعين منبرًا في الإسلام شرقًا وغربًا وأندلسًا»[٣]، عاد إلى تلمسان في أفريل من سنة ١٣٣٧، وبعدما استولى أبو الحسن المريني على تلمسان، كان عمه محمد بن مرزوق مقربًا من السلطان المريني، فأدخله هذا الأخير في حاشيته وعينه خطيبًا لجامع العباد.

شارك مع السلطان أبي الحسن في معركة طريف التي يطلق عليها الإسبان اسم (Batalla del Salado)، وقد انهزم الجيش الإسلامي أمام الجيش المسيحي في ٦ أكتوبر ١٣٤٠[٤]، وقد أسر فيها أحد أبناء أبا الحسن. ومن أجل افتداء عمر تاشفين بعث السلطان ابن مرزوق إلى قشتالة لإبرام معاهدة صلح. ورافق ابن مرزوق الحملة المرينية على تونس في عام ١٣٤٧م، وفي السنة الموالية (١٣٤٨م) هزم جيش أبي الحسن في القيروان، وكان لهذه الهزيمة عدة تغيرات وقعت للسلطان وابن مرزوق تمثلت فيما يلي:

- حدوث فوضى في فاس على شكل ثورة سمحت لأبي عنان تولي الملك في جويلية ١٣٤٨.
- عودة أسرة بني زيان إلى الحكم في تلمسان في سبتمبر ١٣٤٨م، بتولي أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن.
- تعرض منزل ابن مرزوق في تلمسان إلى الاقتحام من قبل خصومه.

عاد ابن مرزوق إلى فاس ثم إلى تلمسان واجتمع بالملك الزياني سعيد عثمان بن عبد الرحمن، ثم سجن ونفي إلى الأندلس سنة ١٣٥١.

وفي الأندلس وطد علاقاته مع بعض العلماء ورجال السياسة، مثل ابن الخطيب صاحب كتاب "الإحاطة". وعينه السلطان النصري خطيبًا للحضرة ومدرسًا في المدرسة البلاطي في مارس ١٣٥٣. وفي نفس السنة التحق بالسلطان أبو عنان بفاس، وفي سنة ١٣٥٧ أرسله سفيرًا إلى تونس ليخطب إحدى بنات السلطان أبي يحيى الحفصي، لكنه فشل في مهمته، فأدخل السجن. وقبيل مقتل أبي عنان أطلق سراحه في ديسمبر ١٣٣٨. ولما تولى سالم بن أبي الحسن العرش في جويلية ١٣٥٩م التحق به كأحد المقربين منه. ولما اغتيل هذا السلطان في ٢٣ سبتمبر ١٣٦١م دخل السجن لمدة سنتين. ورحل إلى تونس، وهناك عينه السلطان أبو إسحاق إبراهيم خطيبًا لمسجد الموحدين ومدرسًا في مدرسة الشماعين. يقول ابن مرزوق: «إني وقد وصلت إلى تونس المحروسة في شهر رمضان من سنة خمس وستين، فلقيت بها من المبرة والكرامة والوجاهة فوق ما يعهده أمثالي، ووليت خطابة جامع ملكها، وتدريس أم المدارس فيها، وهي المعروفة بمدرسة الشماعين»[٥]. وإثر موت السلطان الحفصي سنة ١٣٦٦، واغتصاب الملك من ابنه الصغير أبي البقاء من طرف ابن عمه أبو العباس سنة ١٣٧٠م، قرر ابن مرزوق الرحيل عن تونس، وتوجه إلى الإسكندرية سنة ١٣٧٢م ثم إلى القاهرة، وهناك عينه الملك الأشرف ناصر الدين شعبان بن حسين قاضيًا وخطيبًا ومدرسًا في مساجد صلاح الدين الثلاثة: الشخنية والصرغتمشية والقمحية. وفي جويلية من سنة ١٣٧٩ توفي ابن مرزوق في القاهرة ودفن بها[٦].

لابن مرزوق مؤلفات عديدة، نذكر منها كتاب "جنى الجنتين في فضل الليلتين" وهو كتاب يتعلق بليلتي المولد وليلة القدر. وله أيضا قصيدة تتألف من ١١٧ بيتًا نظمها بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي في البلاط الغرناطي في سنة ١٣٦١م، نذكر منها البيتين التاليين:

أيـا نـسـيـم السحـر   بالله بـلغ خـبـري
إن أنت يوما بالحمى   جررت فضل المئزر

٢/١-التعريف بكتاب "المسند الصحيح الحسن"

العنوان الكامل للكتاب هو: "المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن"، يؤرخ لمختلف مظاهر الحكم والحياة في داخل بلاط السلطان أبي الحسن المريني، فكان شاهد عيان للسلطان ومعايشًا له. وهذا جاء نتيجة لمرافقة ابن مرزوق لأبي الحسن في حله وترحاله، حيث كان «مفضي سره، وإمام جمعته، وخطيب منبره، وأمين رسالته»[٧]. فكان على علم بكل أمور القصر، وعلى اطلاع على مراسلات البلاط، وما كان يخطه بيده في مسودته. وبعد وفاة السلطان أبي الحسن المريني بعشرين سنة ألف هذا الكتاب وفاء لصحبته ومعاشرته له، وهو مقيم عند ملوك بني حفص، التي كانت طيبة. فقد أورد ذلك في قوله: «وخبرت في سيره الجميلة، وخصاله الكريمة، وشاهدت من شيمه العظيمة ما أعتقد أني اختصصت في عصره بمعرفته، وتميزت بتحصيل طرقه ومحجته»[٨]. وكان الغرض من هذا التصنيف التقرب من السلطة المرينية في فاس، أملا في أن يسترجع مكانته في البلاط، وكذلك ممتلكاته. إن المتأمل في سطور هذا الكتاب، يلاحظ أنه صنف في مدح السلطان، حيث ركز فيه على مختلف نواحي شخصيته، ابتداءً من

نسبه وبعض خصاله المحمودة مثل كرمه وحلمه وصبره وعفوه، وانتهاء ببعض إنجازاته العمرانية مثل بنائه للجوامع والمساجد والصوامع والزاوايا والمدارس، وإنشائه للجسور والقناطر والطرقات. كما اهتم المؤلف بكل ما يتعلق بالسلطان في حله وترحاله. وتعرض كذلك إلى مختلف ظروف الحياة للناس وسلوكهم بمختلف درجاتهم الاجتماعية. انتهى ابن مرزوق من تأليف كتابه في شهر رمضان ٧٧٢هـ/ مارس ١٣٧١. يحتوي "المسند الصحيح" على خمسة وخمسون بابًا في أكثر من ٥٠٠ صفحة. قامت بتحقيقه الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا من جامعة سرقسطة بإسبانيا، وقدم له محمود بوعياد.

٣/١-التعريف بالسلطان أبي الحسن المريني

هو علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق يكنى أبا الحسن، كان يلقب بالمنصور بالله، كما كان يعرف بالأكحل، لأن أمه كانت حبشية[٩]، فكان لونه أسمرًا. ولد في صفر (٦٩٧هـ/١٢٩٧)، تولى الحكم بعد أبيه في ٢٥ ذي القعدة سنة (٧٣١هـ/١٣٣١م). تميز عهده بأحداث سياسية وعسكرية متميزة. فقد سعى إلى دولة توحيد بلاد المغرب في دولة تحت سلطته، فدخلت جيوشه في حروب مع الدولة الزيانية والدولة الحفصية، كما خاض حروبًا ضد النصارى في الأندلس.

لم تمض على بداية حكمه غير عامين حتى خاض غمار الحرب في الأندلس منجدًا صرخات ملك بني الأحمر ضد تهديدات الممالك المسيحية في الأندلس. فقد أمد سلطان بني الأحمر محمد بن إسماعيل بن الأحمر بخمسين ألف جندي، كانوا تحت قيادة ابنه أبي مالك، فحاصر جبل طارق - الذي سبق وأن احتله القشتاليون سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م)- مع جيش بني الأحمر وتمكن من افتكاكه من أيدي النصارى في سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٣)[١٠]، وبعد بضعة سنوات تحرك السلطان أبو الحسن إلى تلمسان وحاصرها، وإلى الغرب منها وبنا مدينة المنصورة، وقد أبدى السلطان الزياني أبو تاشفين ومن معه مقاومة شديدة بباب القصر حتى استشهدوا، وتمكن أبو الحسن من دخول تلمسان في أواخر شهر رمضان ٧٣٧هـ/٢ مايو ١٣٣٧م. وقد وصف التنسي هذه الحادثة بقوله: «فما أفظعه من حادث، وما أشنعه من خطب كارث جر على الدولة الزيانية ذيل العفا، وكدر على بيتها الحسنى ما كان صفا»[١١]. ولكي يستقر حكمه في تلمسان، أحسن إلى بني عبد الواد على مراتبهم، فقد «استخدم قبيل عبد الواد، فلم يشعثهم، وحفظ عليهم رتبهم، وأبقى لشعوبهم وقبائلهم المراسيم التي ألفوها»[١٢].

وجه نشاطه الجهادي إلى الأندلس من جديد، بعد أن قتل ابنه أبا مالك بالأندلس من طرف القشتاليين. فقد ورد عن أحد الكتابات الإسبانية الحديثة أن قواته كانت موزعة بين مدينتي الجزيرة الخضراء ورندة، ودعى نفسه ملكًا، ثم راح يتدخل في أراضي المسيحيين. ورغم تعداد قواته، تمكنت القوات المسيحية من الانتصار عليه وقتله قرب قلعة لوس غازولس (Alcala de los Gazules)، وذلك في أكتوبر ١٣٣٩[١٣]. واصل أبو الحسن عمل ابنه، فأعد أسطولاً شاركت فيه قطع من البحرية الحفصية، وتجمعت في سبتة نحو مائة قطعة تحت قيادة محمد بن علي العزفي، صاحب سبتة[١٤]. ولما وصلت أخباره إلى النصارى، استعدوا للدفاع وأخرج ألفونسو الحادي عشر أسطوله إلى مياه جبل طارق ليمنع السفن المغربية من العبور[١٥]. وفي مضيق جبل طارق وقعت المعركة، انتهت بانهزام الأسطول المسيحي، قتل فيها قائده، كان ذلك في ٦ شوال ٧٤٠هـ/ ٥ مايو ١٣٤٠م. وتمكن السلطان من العبور إلى طريف على رأس جيش قوامه ٦٠ ألف جندي وعسكر مع جنوده إلى جانب السلطان الأندلسي أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل بن الأحمر[١٦]. وتقدمت جيوش النصارى المتكونة من القشتاليين والأراغونيين والبرتغاليين، وحاصرت المسلمين، وتسربت فرقة عسكرية إلى داخل مدينة طريف ليلاً، وأثخنوا في جنود المسلمين قتلا، كما قتلوا النساء والصبيان، واعتقل تاشفين ابن السلطان المريني. كان ذلك في ٧جمادي الآخرة ٧٤١هـ/٢٨ نوفمبر ١٣٤٠م، واضطر السلطان إلى الخروج إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى جبل طارق، ومنها أبحر إلى المغرب. ويطلق الإسبان على هذه المعركة اسم (Batalla del Salado). انتهت هذه المعركة باحتلال طريف والجزيرة الخضراء، وحاول النصارى الاستيلاء على جبل طارق، لكن مقاومة المسلمين حالت دون ذلك[١٧].

عاد أبو الحسن المريني إلى حركة التوسع في الشمال الإفريقي بعد هزيمته أمام النصارى في الأندلس، فتمكن من بسط سلطته على تونس في عام (٧٤٨هـ/١٣٤٧م). غير أن بني سليم وحلفائهم من القبائل في الجنوب التونسي ثاروا عليه، واستطاعوا أن يهزموه على مقربة من القيروان وذلك في ٢ محرم ٧٤٩هـ/٧ أفريل ١٣٤٨م[١٨]. وفي هذه الفترة بويع لابنه أبي عنان، بعد انتشار خبر موت والده. فخرج من

المنصورة إلى فاس، غير أن مؤيديه خسروا المعركة أمام جيش أبي عنان. وإثر هذه الهزيمة استرجع بنو عبد الواد الحكم في تلمسان، وبويع الأمير أبا سعيد في ذات السنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م). توجه أبو الحسن إلى جبل هنتاتة فأقام هناك بين قبائل المنطقة زمنا قليلا. وتوفي بجبل هنتاتة في ٢٧ ربيع الأول سنة ٧٥٢هـ وعمره ٦٠ سنة، ودفن بشالة[١٩]. دامت فترة حكمه ٢٠ سنة وشهرين[٢٠].

ثانيًا: الاحتفالات الدينية ومكانة المولد النبوي الشريف في عهد الدولة المرينية

١/٢-الاحتفالات الدينية في عهد الدولة المرينية

من المعروف تاريخيًا أن الفاطميين في مصر كانوا يحتفلون بالمولد النبوي الشريف. أما في مكة المكرمة فكانت لهذه المناسبة مكانة خاصة، فقد أورد ابن جبير في رحلته إلى مكة المكرمة في سنة (٥٧٩هـ/١١٨٢م)، أن المكان الذي ولد فيه النبي عليه السلام بمكة المكرمة، والذي كان قد بني عليه مسجدًا، كان يفتح «هذا الموضع المبارك فيدخله الناس كافة متبركين به في شهر ربيع الأول، ويوم الإثنين منه، لأنه كان شهر مولد النبي صلى الله عليه وسلم. وفي اليوم المذكور... تفتح المواضع المقدسة.... وهو يوم مشهود بمكة دائمًا»[٢١]. وكان حاكم مدينة أربل (أو أربيل)[٢٢] مظفر الدين كوكبري[٢٣] مولعًا بالاحتفال بالمولد النبوي، حتى أن هناك مَنْ يعتبره أول من احتفل بهذه المناسبة. أما عن تأثير انتقال هذا الاحتفال من المشرق إلى المغرب، فقد ورد أن العالم الأندلسي أبا الخطاب عمر بن حسن الكلبي ابن دحية، الذي يُعَدّ أول مَنْ صنف كتابًا عن المولد النبوي الشريف عنوانه "التنوير في مولد السراج المنير"، خلال رحلته إلى المشرق، وزيارته لأربل في عام (٦٠٤هـ/١٢٠٧م)، ومشاهدة حاكمها الأمير مصطفى الدين بن زين الدين يحتفل بالمولد[٢٤]. وقرأه عليه هو بنفسه. وكان الحافظ أبو الخطاب قد ختم هذا الكتاب بقصيدة طويلة مطلعها:

لولا الوشاة وهم   أعداؤنا ما وهموا[٢٥]

أما في بلاد المغرب، والأندلس فكان أول من تنبه إلى الاحتفال به، بنو العزفي أصحاب مدينة سبتة. في أواخر القرن (السادس هجري/ الثاني عشر ميلادي)، على نحو ما ظهر تقريبا في نفس الفترة، بمدينة "أربل". وكان أبو العباس أحمد بن القاضي، محمد بن أحمد اللخمي العزفي السبتي (ت٦٣٣هـ/١٢٣٥م) هو الذي دعا إلى الاحتفال بالمولد النبوي في مدينة سبتة بالمغرب الأقصى، وألف كتابًا في الغرض، عنوانه "الدر المنظم في مولد النبي المعظم". فذكر فيه الحافز على الاحتفال بالمولد، ويتمثل في إشغال المسلمين في الأندلس وسبتة عن متابعة المسيحيين في أعيادهم مثل (عيد ميلاد المسيح عيسى) عليه السلام[٢٦]. أما في عهد الدولة المرينية فإن الاحتفال بالمولد النبوي قد اتخذ طابعًا رسميًا، منذ عهد السلطان يعقوب عبد الحق المريني (١٢٥٩- ١٢٨٦م)، الذي أصدر مرسومًا نص على جعل ذكرى المولد النبوي عيدا رسميا في جميع أنحاء البلاد، وذلك في سنة (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، فأصبح هذا اليوم، يوم عطلة يتوقف فيه العمل، حتى يسمح لكل الناس المشاركة في هذه التظاهرة الدينية. وهكذا صار يوم ١٢ ربيع الأول عيدًا رسميًا. وفيما بعد أصبحت هذه المناسبة موسمًا أدبيًا، حيث كانت تظهر مواهب الشعراء لبعض المشاعر الدينية، وإظهار المدائح الدينية، والتي تعرف بالمولدات.

٢/٢-عناية السلطان أبي الحسن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

إن المطالع لكتاب "المسند" لابن مرزق الخطيب سيقف على مظاهر للعادة المتبعة في المغرب بمناسبة الاحتفال بليلة المولد النبوي والليلة السابعة من مولده كذلك. فقد خصص لهذه المناسبة فصلاً كاملاً. وهو الفصل السادس وعنوانه: "في عادته الجارية ليلة مولده عليه السلام وسابعه" (صص.١٥٢-١٥٤)، الذي يقع ضمن الباب السادس وعنوانه: "في رعايته آل البيت رسول الله(ﷺ) وحفظ هذا المنصب الشريف والقيام بحقه في ليلة مولده عليه السلام". كما ألف ابن مرزوق كتابًا خاصًا لهاتين الليلتين عنوانه: "جنى الجنتين في فضل الليلتين". وكان شاعر هذه الاحتفالات عام (٧٦٣هـ/١٣٦١م)، وهو في غرناطة. «هذه مكرمة خص الله بها هذه المملكة الشامخة والسلطة المرينية. وان حكاها غيرهم، فما أشبه ولا قرب، أثار الفقيه العزفي رحمه الله ... ونبه على الخير فمضوا عليه واعتادوه. وزاد فيها المولى رضي الله عنه من المحاسن ما صيرها مثلاً وألبسها من سيره حللا»[٢٧]. بهذه العبارات والمعاني المتعلقة بليلة المولد النبوي الشريف افتتح ابن مرزوق حديثة عن ممارسة أبي الحسن لهذه المناسبة بالإشارة إلى من سبقوه من الحكام دون ذكر أسمائهم، في الاحتفال

بالمولد النبوي الشريف، وذلك بالرجوع إلى العصر الموحدي بذكر أحد فقهاء هذا العصر وهو "الفقيه العزفي"[٢٨]، الذي ندب الاحتفال بهذه المناسبة فقال: «هذه مكرمة خص الله بها هذه المملكة الشامخة والسلطة المرينية وإن حكاها غيرهم، فما أشبه ولا أقرب. أثار الفقيه العزفي رحمه الله صيدها فصادوه، ونبه على الخير فمضوا عليه واعتادوه»[٢٩]. إن هذا التذكير بماضي الاحتفال بالمولد النبوي في المنطقة يبين مدى اطلاع الكاتب على خلفيات الاحتفال بهذه المناسبة في المغرب. ثم ذكر أن السلطان أبا الحسن قد أضاف إليها من مظاهر الاحتفال حتى «صيرها مثلاً، وألبسها من سيره الجميلة حللا»[٣٠]. ثم ذكر أنه لازم حضور وملازمة السلطان أبي الحسن المريني ابتداء من سنة (٧٣٨هـ/١٣٣٨م) إلى غاية رحيله إلى تونس في سنة ١٣٦١م.

وذكر ابن مرزوق أن السلطان أبا الحسن المريني كان ينظم ويشرف على الاحتفال بالمولد النبوي في كل ظروف الحياة التي يعيشها سواء في حالة الإقامة أو في حالة السفر، ولا يمنعه مانع في ممارستها، أو أي انشغال آخر. حتى في حالة المرابطة والتأهب للحرب مع الأعداء، وما يصاحب ذلك الموقف من حالة التعب والقلق. يوحي ذلك من دون شك مدى قناعة السلطان بمكانة هذه المناسبة في نفسيته، والعمل على ازدياد ترسيخها في ذهنية المجتمع، حتى تزيد في تماسكه، وهذا له دلالة في استمرار الدولة وبقائها قوية. ولهذا فإنه حافظ على الاحتفال بهذه المناسبة في كل الظروف. فقد أورد ابن مرزوق وهو يتحدث عن حلول ليلة المولد النبوي، وأبو الحسن المريني في سبتة على نية العبور إلى الأندلس من أجل الجهاد، فقال في هذا المقام: «كنا بسبتة مقيمين مقابلين لنزول النصارى على الخضراء، وكان رضي الله عنه في تعب وملازمة مقاومة لجيوش المسلمين من أهل العدوتين ...فحضرت ليلة المولد، فلم يصل أهل البلاد قاطبة على جري العادة، فإنه حيث كان، يصل الشرفاء والقضاة والفقهاء والخطباء من أهل البلاد لشهودها»[٣١]. فقد أشرنا سابقا عندما تعرضنا إلى التعريف بحياة السلطان أبي الحسن، فذكرنا أنه أعد جيشا في سبتة، ورغم محاولة ألفوسو الحادي عشر(Alfonso XI) (١٣١٢- ١٣٥٠م) ملك قشتالة وليون الوقوف في وجه الجيش الإسلامي، إلا أن المعركة وقعت بين الطرفين في مضيق جبل طارق وانتهت بانهزام البحرية المسيحية، وعبور المسلمين إلى طريف.

يواصل الكاتب ذكر موقف السلطان من الذين تخلفوا عن الحضور إلى سبتة للاشتراك في الاحتفال بهذه المناسبة. فقد غاب عنها شرائح متنوعة من المجتمع، وخاصة الفئة المتنورة من الشرفاء والعلماء. فذكر ابن مرزوق أن السلطان سأل خطيب فاس الشيخ أبو الفضل المزدعي الذي التحق به ليلة المولد، عن عدم حضور الشرفاء والقضاة والفقهاء والخطباء من أهل البلاد. وقد أصابه تغير في مزاجه عند سماعه بتخلفهم، ظنا منهم على ما يبدو أن السلطان لا يقوم بإحياء هذه المناسبة، وهو في حالة الانشغال بمهمة الجهاد. كما سأل السلطان قائد (المزمزمين)[٣٢] المدعو "ابن طراحة"، فأجبه بنفس الرد. يبدو أن هذا الغياب الجماعي للشرفاء والقضاة والفقهاء والخطباء والمزمزمين، راجع لعدم تعودهم على إحياء السلطان لهذه المناسبة في حالة النفير للحرب.

كان موقف السلطان أن أصدر قراره بمنع تقديم المكافآت المالية لكل من تأخر. وبين أبو الحسن أن الهدف من صدور هذا الموقف السلطاني هو تذكير الذين غابوا عن الحضور أنهم أخطأوا عندما ظنوا أن السلطان يتخلى عن الاحتفال بليلة المولد وهو في حالة الجهاد. كما أمر بمعاقبة الذين لم يحضروا من المزمزمين، لكنه لم يذكر طبيعة العقاب الذي سلطه عليهم. ويتضح ذلك في قول الكاتب: «ووصل من أهل فاس خطيبها كان أبو الفضل المزدغي خاصة، فلما حضر، وكان وصوله ليلة المولد، سأله أبو الحسن، فاعتل لما سمعوا اشتغال السلطان بمهم الجهاد، فتخلفوا، فتغير لذلك رضي الله عنه، وسأل زعيم المزمزمين، وهو ابن الطراحة، فأخبره بمثل ذلك عن بقية أهل صنفه، فصدر أمره بإيقاف جرايات من لم يصل، تنبيها لهم على أنهم أخطأوا، إذ ظنوا به الاشتغال عن هذا المهم. وأمر بعقوبة المتخلفين المزمزمين»[٣٣].

من الشخصيات التي مسها عقاب السلطان الشيخ أبي عبد الله بن عبد الرزاق[٣٤]، فقد ذكر ابن مرزوق أنه لقيه خارج مدينة فاس عقب الحادثة المذكورة، وسأله عن أحواله، فرد عليه الشيخ أنه ومن معه عوقبوا بالضرب بالسياط، وذلك مؤكد في قوله: «فرحم الله شيخنا أبا عبد الله بن عبد الرزاق قاضي الجماعة، وخطيب الحضرة قبلي، فكان نادرة وقته. لقيته بخارج فاس، وقد خرج رضي الله عنه للقائي، فقلت له: " كيف حالك؟". فقال: "بخير أكلنا سياطًا في ظهور

المسمعين، والحمد لله رب العالمين»[٣٥]. وختم الكاتب تعليقه على هذه الحادثة بقوله: «وكانوا قد أدبوا، فكتبت بها لمولانا المرحوم، فاستضحك منها زمانا، وارتفع العتب (أو العجب) بسبب ذلك عن الجميع».[٣٦]

٢/٣-مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

يتطرق الكاتب إثر ذلك إلى مختلف مظاهر الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف، فبدأ بذكر الاستعدادات لهذه الليلة، وأهم ما كان يستعد به، تحضير مختلف أنواع الأطعمة والحلويات، وأنواع الطيب والبخور. كما كانت العناية كبيرة بمظاهر الزينة في المجالس. وكان الاحتفال بليلة المولد تبدأ بعد صلاة المغرب، التي تتبع بركعات من صلاة النافلة.

بعد ذكره لمظاهر الاستعدادات للحفل، تطرق الكاتب إلى كيفية إشراف السلطان حسن المريني على الحفل فذكر أنه بعد صلاة المغرب صلى السلطان ركعات السنة، ثم التحق بالمجلس الخاص به، ويدعو الناس «فإذا صلينا المغرب، ركع ركعات، ثم قصد مجلسه الحافل، فيستدعي الناس على ترتيبهم، ويأمر بأخذ المجالس على طبقاتهم على أحسن وأجمل شارة»[٣٧]. وعندما يتم الانتهاء من تشكيل هذه المجالس «دعي بالطعام، فاشتغل به على ترتيب ونظام، وهو مباشر للأقربين منه، وربما يجلس الجالس بين يديه على أطراف ثيابه، والمطرح الذي بين يديه»[٣٨]. وبعد الانتهاء من تناول الطعام تقدم للحاضرين الفواكه الموجودة حسب الموسم الذي تنضج فيه، ثم تقدم لهم الفواكه الجافة، وبعد ذلك يقدم الكعك والحلويات، ثم يؤتى لهم «بملاح السكر»[٣٩]. وأوضح ابن مرزوق أن هذا الترتيب المذكور في تقديم الأطعمة قد يختلف من فترة إلى أخرى، ثم قال: «وتارة يقع الإطعام بعد العشاء الآخرة»[٤٠].

يواصل ابن مرزوق وصفه الاحتفال بليلة المولد النبوي، فيذكر أنه بعد الانتهاء من تناول الطعام تنتهي الحركة، ويسود الهدوء والسكون، «فلا تكاد تسمع صوتاً إلا همسًا»[٤١]، بعدها يقوم قارئ للقرآن ماهر سماه «قارئ العشر»[٤٢]، وهو المتمكن من قراءة القرآن على قراءاته العشرة. فيقرأ شيئًا من القرآن الكريم، ويأتي بعده زعيم المسمعين، الذي يتولى إلقاء قصائد المدائح «والتهاني فتقرأ على نظام محفوظ وترتيب محوط على قدر المنازل والرتب والمناصب، فتطير القلوب فرحًا، وتشرد المعجزات والصلوات على سيدنا محمد(ﷺ)»[٤٣]. وأضاف الكاتب معلقًا على هذه الاحتفالات بأنها مظاهر متميزة تدخل العجب في نفوس الناس، وهي لا زالت مستمرة، ويتضح ذلك في قوله: «وهي من أعاجيب ما يرى في بلاد المغرب وبركاتها على هذا القبيل ظاهرة، والخيرات، لا تزال تسبب الاعتناء بها عليهم متظافرة متكاثرة»[٤٤]. وتتميز هذه الاحتفالات بجمع كميات معتبرة من البخور والشموع التي يتم توزيعها على الفقراء والمسافرين كل حسب ما يستحق «ويجمع لهم من ذلك العدد الكثير»[٤٥]. وحسب الكاتب فإن الاحتفالات تستمر إلى غاية صلاة الصبح، وبعد أداء صلاة الصبح، يتناول الناس الطعام الخاص بهذه الفترة من اليوم. حيث ذكر أنه: «إذا قضيت صلاة الصبح جلس الناس للطعام، فيؤتى بأنواع الطعام المختص بذلك»[٤٦].

وتحدث الكاتب بعد ذلك عن احتفالات الليلة السابعة بعد ليلة المولد، فذكر أنه تجري فيها نفس المراسيم التي تمت في الليلة الأولى، وفي صبيحة اليوم السابع يجتمع الشرفاء والكبار من الفقهاء والأئمة والخطباء والقضاة، ويعطى كل واحد منهم كسوة تخصه، وإحسانا لبعضهم. وفي الأخير ذكر الكاتب أن هذه الاحتفالات ظلت مستمرة بعد السلطان أبا الحسن، فقد أجراها السلطان أبو عنان المريني، وذكر عنه أنه زاد في محاسنها. كما أحياها أبو سالم وهو أخ أبو عنان، الذي حكم ما بين (١٣٥٨-١٣٦١م)، وقد «كساها جمالاً» حسب تعبير ابن مرزوق. وختم الكاتب حديثه عن الاحتفال بليلة المولد النبوي بالعبارات التالية: «وزادها أبهة وجلالاً مولانا أبو فارس رضي الله عنه على ما أخبرني به من شهدها، وهذه النبذة في هذا الفصل كافية»[٤٧].

إلى جانب ما ذكرناه، وصف لنا ابن مرزوق اهتمام أبي الحسن بدراسة الحديث وكتب السيرة وتقريبه للعلماء ومحاورتهم ومشاركتهم في المجالس العلمية بقوله: «وكان أبر الناس بأهل العلم وأعرفهم بقدرهم استخلصهم لنفسه، وجمع من سائر بلاده في حضرته إذا سمع بمَنْ له رسوخ قدم في العلم أقدمه على حضرته، وجعله من خواص أهل مجلسه وأجرى عليهم الجرايات التي تكفيهم حضرا وسفرا، فاجتمع بحضرته أعلام، ثم ضم لهم من كان بتلمسان وأحوازها حين استيلائه عليها ثم استمر هذا العمل في دخوله بلاد إفريقية»[٤٨]. هذه الصفة قد التزم بها سلاطين الممالك المغربية الأخرى، فقد صور لنا الرحالة ابن بطوطة هذه المعاملة خلال رحلته إلى تونس وهو في طريق عودته إلى المغرب، فذكر أنه

زار السلطان في المشور وسأله عن أخبار الحجاز ومصر[٤٩]. ثم أكد أنه كان في مجلسه عدد من الفقهاء والقضاة الإمام أبو عبد الله السطي، والإمام أبو عبد الله محمد بن الصباغ، وأبو علي بن عبد الرفيع، وأبو عبد الله بن هارون. ثم ذكر أن السلطان استدعاه، ومعه جملة من الشيوخ[٥٠].

٢/٤-أبعاد الاحتفالات وسياقها السياسي والثقافي والاجتماعي

إن احتفالات الدولة المرينية والسلطان أبا الحسن المريني بالمولد النبوي الشريف حسب ما ذكره ابن مرزوق، نابع من اعتبار هذه المناسبة فرصة لتذكير الناس بشخصية الرسول (ﷺ) وسيرته وأخلاقه وسننه، لها أبعاد متنوعة نذكرها فيما يلي:

- انتقال الاحتفال بالمولد النبوي من المشرق إلى البلاد المغرب يبين مدى تأثر بلاد المغرب بالشرق، خاصة فيما هو ديني، وأن المغرب الأقصى أول مَنْ انتقل إليها الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، ومنه انتشرت في ممالك بلاد المغرب الأخرى الأوسط والأدنى.
- عدم الاكتفاء بمظاهر الاحتفال التي كان يمارسها الحكام السابقون، بل كان الحكام يجتهدون في تعزيزها بمظاهر جديدة. وهذا يتجلى فيما قام به السلطان أبو الحسن المريني، الذي جعل الدولة تتحمل تكاليف الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وإحيائها في كل الظروف، في الحل والترحال، وفي حالة السلم والحرب.
- إشراف السلطان حسن المريني بنفسه على الاحتفال بالمولد النبوي الشريف بحضور مختلف الطبقات الاجتماعية في مجالس تتسم بمظاهر الزينة، يوحى بمدى قرب السلطة الحاكمة من مختلف فئات الرعية، ويبين كذلك مكانة هذه المناسبة في نفوس الحكام ودفع السكان على التمسك بها.
- الصرامة في إشراك رجال الدول والعامة في الاحتفال، ومعاقبة السلطان للمتخلفين عن الاحتفال. وهذا يتجلى في انزعاجه حين سماعه بتخلف الشرفاء والقضاة والفقهاء والخطباء، وكذلك فرقة المنشدين (المزمزمين) عن حضور الاحتفال. وكان جزاء تخلفهم منع السلطان تقديم المكافآت المالية لهم، وقد مس العقاب حتى قاضي فاس الشيخ أبي عبد الله بن عبد الرزاق، حيث قال: «بخير أكلنا سياطًا في ظهور المسمعين، والحمد لله رب العالمين»[٥١].
- البعد التضامني والاجتماعي وإدخال السرور في نفوس الناس، من خلال تقديم أنواع الطعام للحاضرين. في إطار الاستعداد للاحتفال بتحضير أنواع الأطعمة والحلويات، وتقديمها ليلة الاحتفال بعد صلاة المغرب للناس في مجالسهم حسب طبقاتهم، ثم تقدم لهم الفواكه الموسمية والفواكه الجافة والحلويات، وتوزع البخور والشموع على الفقراء والمسافرين، التي تعد كذكرى عن هذه المناسبة.
- البعد الديني من خلال إقامة الصلوات، وقراءة القرآن الكريم، وإلقاء قصائد الشعر والمدائح. حيث أصبحت هذه المناسبة موسمًا أدبيًا، يلقي فيها الشعراء قصائدهم في مدح الرسول (ﷺ)، وأداء المدائح الدينية، والتي تعرف بالمولدات. ومن أعظم المقاصد من إحياء هذه الذكرى هو تذكير الناس بخصوصيات النبي محمد (ﷺ) الذي أخرج قومه الظلمات إلى النور.
- الاهتمام بالاحتفال باليوم السابع للمولد بنفس الطريقة التي يجري بها في اليوم الأول يوحي بمكانة هذه المناسبة لدى المسلمين.

خَاتِمَةٌ

يمكن الآن استنتاج ما يلي:

- إن ظهور الاحتفال بالمولد النبوي في سبتة بالمغرب جاء نتيجة للاحتكاك مع النصارى في هذه المدينة، وخشية على المسلمين أن يشاركوا النصارى بمولد المسيح، ويقعوا في أمر قد يزعج عقيدتهم.
- وأن ظاهرة الاحتفالات الدينية في الدولة المرينية، وفي عهد السلطان أبي الحسن المريني على الخصوص، كانت من المظاهر الرئيسية التي كانت مارسها السلطة الحاكمة. وتبرز مناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف على رأس هذه الاحتفالات. حيث كانت تترسخ وتتجذر مع كل سلطان جديد يتولى الحكم، وذلك من خلال زيادة الاعتناء بالاحتفال بها بإصدار المراسيم المتعلقة بطبيعة ممارستها.
- إن أهم ما أضاف السلطان أبو الحسن المريني لهذه الاحتفالية هو إحياؤها في كل الظروف سواء في حالة السلم أو الحرب. وإلزام كل طبقات المجتمع وخاصة منهم الشرفاء والقضاة والفقهاء والخطباء، ومعاقبة المتخلفين عن حضورها.
- استمرار الاعتناء بالاحتفال بالمولد النبوي الشريف بعد السلطان أبي الحسن المريني، فقد زادها في محاسنها أو عنان المريني، وكساها جمالاً أبو سالم، وزادها أبهة وجلالاً أبو فارس.
- كانت مظاهر هذا الاحتفال الذي يستمر حتى صلاة الصبح، من إعداد الأطعمة والحلويات والعطور والبخور، والعناية بمظاهر الزينة في المجالس، وإقامة صلوات الفرض والسنة، وقراءة القرآن الكريم وإلقاء قصائد المدح، وتوزع الشموع والبخور على الفقراء والمساكين، تدخل السرور في نفوس الناس.

الهَوامِشُ:

(١) محمد بن مرزوق التلمساني، ١٩٨١، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق: الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص.١٥.

(٢) نفس المصدر، ص.١٩.

(٣) محمد بن مريم التلمساني، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، ١٩٠٨، الجزائر، المطبعة الثعالبية، ص.١٨٧.

(٤) محمد بن مرزوق التلمساني، ١٩٨١، ص.٢٤.

(٥) أحمد بن محمد المقري التلمساني، ١٩٦٨، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق، إحسان عباس، المجلد الخامس، بيروت، دار صادر، ص.٤٠٨.

(٦) محمد بن مرزوق التلمساني، ١٩٨١، صص.٢٣-٣٠.

(٧) نفس المصدر، ص. ٣٢.

(٨) نفس المصدر، ص. ٩٢.

(٩) أحمد بن خالد الناصري، ١٩٩٧، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج.٣، الدار البيضاء، دار الكتاب، ص.١١٨.

(١٠) أحمد بن خالد الناصري، ١٩٩٧، ج.٣، ص.١٢٢.

(١١) محمد بن عبد الله التنسي،٢٠١١، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**، تحقيق محمود بوعياد، الجزائر، موفم للنشر، ص.١٤٦.

(١٢) يحيى بن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، المجلد الأول، الجزائر، مطبعة بيير فونتانة، ص.١٤٣.

(13) Wenceslao Sagura Gonzalez, «La batalla del Salado(ano 1340)», 2005, Al Qantir, Monografias y documentos sobre la historia de Tarifa, No 3, p.4.

(١٤) عبد الرحمن بن خلدون، ٢٠٠٠، **تاريخ ابن خلدون**، ج.٧، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ص.٣٤٦.

(١٥) أحمد بن خالد الناصري، ١٩٩٧، ج.٣، ص.١٣٥.

(١٦) نفس المصدر، ج.٣، ص.١٣٦.

(١٧) نفس المصدر، ج.٣، صص.١٣٦-١٣٧.

(١٨) وصف الناصري، هذه الواقعة بقوله: «وكان عسكر السلطان أبي الحسن يومئذ مشحونًا بأعدائه من بني عبد الواد المغلوبين على ملكهم، ومغراوة، وبني توجين، وغيرهم. فسدوا إلى العرب هذه المناوشة، بأن يناجزوا السلطان غدا حتى يتحيزوا إليهم ويجروا عليه الهزيمة، فأجابوهم إلى ذلك، وصبحوا معسكر السلطان من الغد، فركب الهم في التبعية. ولما تقابلوا تحيز إليهم الكثير من كان معه، وانهزم هزيمة شنعاء» نفس المصدر، ج.٣، ص.١٦٠.

(١٩) تقع أسوار شالة على الضفة اليسرى لوادي أبي الرقراق إلى الجنوب من أسوار مدينة الرباط، اختارها السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق لتكون مقبرة لهم.

(٢٠) أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، ١٩٦٢، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، الرباط، المطبعة الملكية، ص.٢٣.

(٢١) محمد بن أحمد بن جبير، **رحلة بن جبير**، دار صادر بيرت، دون تاريخ، ص.٩٢.

(٢٢) مدينة في العراق تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة الموصل.

(٢٣) هو مظفر الدين أبو سعيد بن زين الدين علي بن بكتكين بن محمد، المشهور بلقب كوكبري، وهي كلمة تركية معناها الذئب الأزرق، اشتهر بهذا اللقب لشجاعته وإقدامه. حكم أربل في عهد صلاح الدين، وكان صهره، دخل في طاعته دون حرب. لقد حكم ولاية أربل في سنة (٥٨٦هـ/١١٩٠م)، استمر حكمه لها لمدة نصف قرن، حتى وفاته في سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

(٢٤) هو أبو الخطَّاب عُمر بن حَسن بن علي بن محمد ابن دِحية بن خليفة الكَلْبيُّ الدَّانيُّ السَّبْتيُّ، ويُلقَّب بـ "ذي النَّسَبَيْنِ" أي من جهة الأب والأم، بين دحية. كان من أعيان العلماء، متقنا للحديث النبوي، عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها، رحل لطلب العلم فزار مختلف بلدان العالم الإسلامي. ولد في سنة ٥٤٤هـ. نشأ في دانية بالأندلس ثم انتقل مع أبيه إلى سبتة، ثم باشر في رحلات لطلب العلم، شملت مدن عديدة في العالم الإسلامي، فزار الأندلس، ومراكش، تلمسان، إفريقية، مصر، الشام، العراق، خراسان، شيراز، جرجان، ثم عاد إلى مصر حيث قضى بها بقية حياته حتى وفاته سنة ٦٣٣هـ. للتوسع في سيرته انظر: ابن خلكان، ١٩٧٢، **وفيات الأعيان**، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، المجلد الثالث، بيروت، دار صادر، ص. ٤٤٨- ٤٥٠.

(٢٥) نفس المصدر، مجلد ٣، ص.٤٥٠.

(٢٦) محمد المنوني، ٢٠٠٠، **ورقات عن حضارة المرينيين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، طبعة: ٣، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ص.٥١٨.

(٢٧) محمد بن مرزوق التلمساني، ١٩٨١، ص.١٥٢.

(٢٨) هو أبو العباس أحمد بن القاضي محمد اللخمي العزفي السبتي كان يعرف بابن أبي عزفة، ولد بسبتة سنة ٥٥٧هـ، هو أول مَنْ ندب إلى الاحتفال بالمولد النبوي، تولى التدريس بجامع سبتة، وكذلك القضاء في عهد الدولة الموحدية، ألف سنة (٦٣٣هـ/ ١٢٥١م) "كتاب الدار المنظم في مولد النبي المعظم"، وضعه لما رأى المسلمين يعظمون أعياد النصارى وعوائدهم، وأكمله بعده ابنه أبو القاسم. ومنها كتاب "دعامة اليقين في زعامة المتقين" وهو مطبوع، و"منهاج الرسوخ على علم الناسخ والمنسوخ"، وغيرها من المؤلفات، وبقي على هذه الحال بين التدريس والتأليف إلى أن توفي في ١٧ من شهر رمضان عام (٦٣٣هـ)، وخلفه من بعده ابنه أبو القاسم.

(٢٩) محمد بن مرزوق التلمساني، ١٩٨١، ص.١٥٢.

(٣٠) نفس المصدر، ص.١٥٢.

(٣١) محمد بن مرزوق التلمساني، ١٩٨١، ص.١٥٣.

(٣٢) وهي فرقة المداحين أو المنشدين الذين يتولون بترديد قصائد المدح النبوي ليلة المولد النبوي.

(٣٣) محمد بن مرزوق التلمساني، ١٩٨١، ص.١٥٣.

(٣٤) كان قاضي الجماعة في فاس في عهد السلطان أبي حسن المريني، كان يتولى التدريس، ومن أشهر تلامذته أبو عبد الله الفاسي الفشتالي، الذي علمه "جامع الترمذي" أصبح قاضيًا للجماعة في عهد السلطان أبو عنان المريني، الذي عينه في هذا المنصب في سنة ٧٥٢هـ الموافق لسنة ١٣٥١م، خلفًا لشيخه ابن عبد الرزاق، توفي الفقيه القاضي سنة ٧٥٨هـ الموافق لسنة ١٣٥٨م. كان أحد شيوخ عبد الرحمن بن خلدون، الذي يذكر عنه: «ومنهم شيخنا المعمّر الرحالة أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق شيخ وقته جلالة وتربية وعلما وخبرة بأهل بلده، وعظمة فيهم. نشأ بفاس وأخذ عن مشيختها، وارتحل إلى تونس فلقي القاضي أبا إسحاق بن عبد الرفيع، والقاضي أبا عبد الله النفزاويّ. وأهل طبقتهما، وأخذ عنهم وتفقّه عليهم، ورجع إلى المغرب ولازم سنن الأكابر والمشايخ إلى أن ولّاه السلطان أبو الحسن القضاء بمدينة فاس، فأقام على ذلك إلى أن جاء السلطان أبو عنان من تلمسان بعد واقعة القيروان، وخلعه أباه فعزله بالفقيه أبي عبد الله المغربي، وأقام عطلا في بيته». عبد الرحمن بن خلدون، ٢٠٠٠، ج.٧، ص.٥٣٨.

(٣٥) محمد بن مرزوق التلمساني، ١٩٨١، ص.١٥٣.

(٣٦) نفس المصدر، ص.١٥٣.

(٣٧) نفس المصدر، ص.١٥٣.

(٣٨) نفس المصدر، ص.١٥٣.

(٣٩) نفس المصد، ص.١٥٣.

(٤٠) نفس المصدر، ص.١٥٣.

(٤١) نفس المصدر، ص.١٥٣.

(٤٢) نفس المصدر، ص.١٥٣.

(٤٣) نفس المصدر، ص.١٥٤.

(٤٤) نفس المصدر، ص.١٥٤.

(٤٥) نفس المصدر، ص.١٥٤.

(٤٦) نفس المصدر، ص.١٥٤.

(٤٧) محمد بن مرزوق التلمساني، ١٩٨١، ص.١٥٤.

(٤٨) نفس المصدر، ص.٢٦٠.

(٤٩) **ابن بطوطة** (**محمد** بن عبد الله)، ١٩٨٧، رحلة ابن بطوطة: **تحفة النظار في غرائب الأمصار عجائب الأسفار**، قدم له وحققه: الشيخ محمد عبد المنعم العريان، راجعه وأعد فهارسه: الأستاذ مصطفى القصاص، بيروت، دار صادر، ج. ٢، ص.٦٦٧.

(٥٠) هم: أبو عمر عثمان، عبد الواحد التنالفتي، أبو حسون زيان بن أمريون العلوي، أبو زكرياء يحيى بن سليمان العسكري، والحاج أبو الحسن الناميسي. **ابن بطوطة** (محمد بن عبد الله)، ١٩٨٧، ج.٢، ص.٦٦٧.

(٥١) محمد بن مرزوق التلمساني، ١٩٨١، ص.١٥٣.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

ملف العدد

الفاطميون ومشروع غزو الأندلس
صراع خلافتين إسلاميتين في غرب البحر المتوسط خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي



أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش
أستاذ التاريخ الوسيط الإسلامي
Moulay Ismail University of Meknes
جامعة مولاي إسماعيل - مكناس - المغرب

مُلَخّص
يتابع هذا البحث قضية مفصلية في تاريخ الغرب الإسلامي خلال القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، وهي تصادم خلافتين إسلاميتين في البحر المتوسط الغربي، وهما الخلافة الفاطمية الشيعية، والخلافة السنية الأموية في الأندلس. ويُعَدّ هذا الحدث أول نزاع مسلّح مباشر في التاريخ الإسلامي بين خلافتين إسلاميتين متزامنتين، وأول محاولة شيعية لغزو الأندلس، حاولنا قراءتها بمنهج تحليلي يعتمد على عرض مختلف الرؤى والمقاربات، وترجيح ما نراه المقاربة الأكثر قدرة على التفسير. وقد تمّ تقسيم البحث إلى محورين أساسيين: ركّز الأول على فحص أبعاد الصراع الفاطمي – الأموي حول منطقة غرب البحر المتوسط، وتفسيره من خلال ثلاث مقاربات: التفسير العرقي، التفسير المذهبي ثم التفسير الاقتصادي، ورجحنا التفسير الاقتصادي، نظرًا للبعد الذي أخذه حجم الصراع بين الخلافتين من أجل السيطرة على الموانئ المتوسطية، والهيمنة على شرايين الملاحة المتوسطية. وفي المحور الثاني، جرى تحليل محاولة الفاطميين غزو الأندلس وتصدي الأمويين لهم من خلال إبراز الأساليب التي استعملتها القوتان المتنافستان لكسب المواقع الحساسة في البحر المتوسط من قبيل عمليات التجسس المتبادل، وتأييد الحركات المعارضة في الداخل لإضعاف الخصم، واستمالة شيوخ القبائل وإثارة البلبلة، والحرب بالوكالة، وتشكيل جبهات للتحالف مع ملوك الدول المسيحية والإسلامية المعادية للنظامين، فضلاً عن رفع وتيرة السباق للتسلح بتقوية الأساطيل واحتلال الموانئ المتقدمة. وقد تبين أن التصادم المسلح بين القوتين الإسلاميتين كان أمرًا حتميًا بسبب تلك المعطيات، وانتهى بفشل المشروع الفاطمي في غزو الأندلس بفضل التفوق العسكري الأندلسي الأموي، وإحباطه جل محاولات الفاطميين كسب تأييد الزعامات المحلية، ليبقى المجال المتوسطي الغربي مجالاً سنيًا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ مايو ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ يوليو ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:
الحرب الروحية؛ القوة البحرية؛ الموانئ المغربية؛ الحكومة الفاطمية؛ شيوخ القبائل

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055856

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
إبراهيم القادري بوتشيش ."الفاطميون ومشروع غزو الأندلس: صراع خلافتين إسلاميتين في غرب البحر المتوسط خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الخامس والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٩. ص١٨٥ – ١٩٤.

مُقدِّمَة
منذ ظهور الفاطميين في الغرب الإسلامي في أواخر القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، عرف غرب البحر المتوسط تحولاً عميقًا. فبعد أن كان مجالا جغرافيا تابعا للخلافة الإسلامية بالمشرق، شهد مع حلول الفاطميين بالمغرب ميلاد خلافتين إسلاميتين متنافستين: أولاهما شيعية إسماعيلية وهي الخلافة الفاطمية، وثانيهما خلافة سنية مالكية وهي الخلافة الأموية بالأندلس، مما جعل منطقة غرب البحر المتوسط تتحول مع ميلاد هاتين الخلافتين إلى مركز لصراع النفوذ بين قوتين بحريتين إسلاميتين طيلة القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي). وقد جاء هذا الصراع بين الفاطميين وأمويي الأندلس كحدث متميز،

لأنه يشكل أول نزاع مسلح في التاريخ الإسلامي بين خلافتين إسلاميتين متزامنتين، وهو صراع تجسد إما في شكل حرب مباشرة، أو في شكل تجسس ودعاية وتحريض ضد الخصم، أو جاء في صيغة حرب بالوكالة عن طريق استعمال قوى محلية من القبائل المغربية لحسم الحرب لأحد الطرفين. لذلك ستركز هذه الدراسة على تحليل أبعاد الصراع الفاطمي – الأموي حول غرب البحر المتوسط، وأشكاله التي تراوحت بين التجسس والدعاية، والحرب بالوكالة، وسباق التسلح في كافة الموانئ المتوسطية، قبل الدخول في حرب مباشرة، مع ذكر نتائج هذا الصراع.

أولاً: أبعاد الصراع الفاطمي – الأموي حول منطقة غرب البحر المتوسط

لتفسير أبعاد الصراع الفاطمي – الأموي حول الأندلس، يجد الباحث نفسه أمام ثلاث أطروحات:

أطروحة التفسير العرقي، وهي التي يتبنى أصحابها[1] مقولة العرق أو الانتساب القبلي لتحليل الصراع الفاطمي-الأموي؛ فقد سعى أصحاب هذه المقولة إلى تبرير ذلك الصراع بالعداء القديم الذي كان متجذرا في العصر الجاهلي وبعده، بين بني هاشم وبني أمية، باعتبار أن الفاطميين كانوا من أشد الدعاة لحصر الخلافة في آل البيت المنتمين للعترة الهاشمية، لذلك لم يتوانوا عن إعلان معارضتهم للحكم الأموي الذي اعتبروه متجنيًا ومغتصبًا للخلافة. بينما كان أمويو الأندلس ينتمون للشجرة الأموية، ويمثلون حلقة إضافية في سلسلة الحكم الأموي الذي ساد في العالم الإسلامي ردحًا من الزمن. فالخلافة الفاطمية من وجهة نظر أصحاب هذه الأطروحة هي تجديد لأحقية بني هاشم في الخلافة، ضدًا على بني أمية الذين استولوا على الخلافة في الأندلس بعد إقصائهم من المشرق الإسلامي.

أطروحة التفسير المذهبي التي يذهب أصحابها[2] إلى القول إن قيام خلافتين على أسس مذهبية مختلفة ومتصارعة إحداهما شيعية والأخرى سنية، كان لا بد أن يسفر عن صدام مسلح بينهما، خاصة أن المذاهب الدينية في ذلك الوقت كانت تقوم مقام التيارات السياسية اليوم.

ومع ما للأطروحتين السابقتين من وجاهة في مقاربة الصراع الفاطمي -الأموي، خاصة البعد المذهبي المتمثل في النزاع التقليدي بين السنة والشيعة، فإنهما تقفان عند قشور أسباب الصراع دون النفاذ إلى لبابه. كما أنهما تعزلان أبعاد الصراع عن مجاله المتوسطي، إذ من الصعب إغفال دور البحر المتوسط الغربي في إذكاء فتيل هذا الصراع، خاصة إذا علمنا أن هذا المجال البحري كان يلعب دور الوساطة في نقل السلع الصحراوية الواردة من الجنوب، وتأمين وصولها إلى الأندلس، ومن ثم تظهر أهمية التفسير الاقتصادي كعامل جوهري في هذا الصراع.

أطروحة التفسير الاقتصادي: وهي التي يرى أصحابها[3] أن عمق الخلاف بين الفاطميين والأمويين بالأندلس كان يتجسد في سعي كل طرف لفرض سيطرته على شرايين التجارة المتوسطية. فالأندلس كانت – حسب أوصاف الجغرافيين – في حاجة ماسة إلى معادن المغرب الإسلامي مثل الحديد والنحاس، فضلاً عن الذهب المجلوب من غانة، والذي كان يسك في سجلماسة وأغمات وفاس ليسوّق بعد ذلك إلى الأندلس عبر موانئ البحر المتوسط.

وبعد الزحف الفاطمي الذي انتهى بالقضاء على الإمارات الخارجية بالمغرب الإسلامي، وهي الإمارات التي كانت تحكم سيطرتها على المدن الغنية بالمعادن، توحدت مصالح الدولة الأموية بالأندلس مع بقايا القوى المحلية المغربية التي تضررت من الهجمة الفاطمية، خاصة قبائل زناتة وأدارسة فاس. ولما كان الجيش الفاطمي يعتمد أساسًا على قبائل كتامة وهي قبائل صنهاجية، فمن البديهي أن يتحول التناقض في المصالح الاقتصادية إلى نزاع قبلي بين صنهاجة وزناتة، وهو نزاع قبلي في الظاهر، ولكنه اقتصادي في العمق. ينهض حجة على ذلك أن معظم الصراع الفاطمي – الأموي دار إما حول الموانئ المتوسطية مثل نكور وطنجة ومليلية وسبتة وبعض الجزر المتوسطية، وإما كان حربا بالوكالة في مدن داخلية عرفت بوفرة معادنها ودورها كوسيط وناقل للبضائع الصحراوية نحو البحر المتوسط كتاهرت وسجلماسة وتلمسان وفاس.

ومهما كان الأمر، فلا يمكن إغفال ما كان للتجارة البعيدة والقريبة من دور في تخطيط سياسة الفاطميين، علما أن عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية كان حتى قبل مجيئه للمغرب على اتصال مع جماعات التجار المستقرين في المدن السالفة الذكر. لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن يحل بسجلماسة في زي تاجر لأنه كان قد فطن إلى أهمية التجارة الصحراوية في تزويد الدعوة الفاطمية بالأموال اللازمة لتحقيق أهدافها البعيدة[4]. ونعتقد أن أحد هذه الأهداف كانت تتمثل في القضاء على الدولة الأموية بالأندلس عن طريق استيلائهم على الموانئ المتوسطية، وإيقاف إمدادها بالمعادن المغربية

والسلع الواردة من غرب إفريقيا. ومما زاد من احتمال حتمية الصراع بين الفاطميين وأمويي الأندلس حول الحوض الغربي للبحر المتوسط امتلاك الخلافتين المتنافستين لقوة بحرية كبيرة. فبناء مدينة المهدية من قبل عبيد الله المهدي، يكشف بوضوح عن الاتجاه المتوسطي للفاطميين، ذلك أن هذه المدينة تقع على ساحل البحر المتوسط، وقد خصص الجزء الذي يفصل سورها عن البحر لإنشاء قاعدة لبناء السفن[٥]، وكان ذلك بدافع حربي لمواجهة الأخطار المهددة للفاطميين، والتحضير لحرب محتملة ضد أمويي الأندلس، كما تم ذلك بدافع اقتصادي في نفس الوقت لتكون المدينة ميناء يربط الساحل المتوسطي بمسالك التجارة الصحراوية.

فضلاً عن ذلك، ورثت الدولة الفاطمية قوة بحرية ترجع إلى عصر الأغالبة، خاصة في إفريقية وصقلية، مما جعلها قوة مهابة الجانب. ولعل القصيدة التي نظمها أحد الشعراء في وصف الأسطول الفاطمي على عهد الخليفة الفاطمي محمد القائم تعكس قوة ذلك الأسطول، ومما قاله فيه:

أعجب بأسطول الإمام محمد
وبحسنه وزمانه المسـتغرب
والبحر يجمع بينها فكأنه
ليل بقرب عقرب من عـقرب
وعلى جوانبها أسود خلاقـة
تحتال في عداد السلاح المذهب

وعلى غرار الفاطميين، لم تدخر الخلافة الأموية في الأندلس وسعًا في تقوية أسطولها البحري أيضا تحسبًا لأي مواجهة عسكرية مع الفاطميين، لذلك نشطت حركة صناعة السفن في عهد عبد الرحمن الناصر الذي أنشأ لهذا الغرض عددًا كبيرًا من دور الصناعة في مدن الأندلس مثل طرطوشة وألمرية والجزيرة الخضراء ومالقة ولقنت ودانية وغيرها من المدن الأندلسية الواقعة على الساحل المتوسطي[٦]. والملاحظ أن الخلافة الأندلسية أعدت أسطولها البحري إعدادًا كاملاً، حيث تم شحن الموانئ بالسفن والعتاد الحربي والجنود، وأصدرت الأوامر بفرض رقابة شديدة على مضيق جبل طارق تحسبًا لأي مساعدات عسكرية يرسلها الفاطميون لمعارضي الخلافة الأموية بالأندلس[٧].

انطلاقًا من المعطيات السالفة الذكر، بات واضحًا أن اصطدام الخلافتين الإسلاميتين في الحوض الغربي للبجر المتوسط أمر لا مفر منه، وأنه مسألة وقت لا أكثر، خاصةً أن الفاطميين لم يخفوا منذ بداية تكوين دولتهم بالمغرب نواياهم في تكوين إمبراطورية كبرى تشمل الغرب والمشرق الإسلاميين، لذلك قامت استراتيجيتهم العسكرية على غزو الأندلس غربًا كمرحلة أولى قبل الانتقال لغزو مصر لإحكام السيطرة على البحر المتوسط، قبل الانتقال إلى باقي مناطق المشرق الإسلامي في مرحلة لاحقة[٨]. ومن حصيلة ما تقدم، يتضح أن الصراع الفاطمي – الأموي الأندلسي على الحوض الغربي للبحر المتوسط كان صراعًا حتميًا لا بسبب وجود خلافتين إسلاميتين متجاورتين أحدهما شيعية والأخرى سنية فحسب، بل أيضًا بسبب التنافس للسيطرة ناصية التجارة المتوسطية، سعيًا لضمان قاعدة اقتصادية يمكن من خلالها تضييق الخناق على الخصم وإضعافه اقتصاديًا تمهيدًا للقضاء عليه.

ثانيًا: أشكال الصراع الفاطمي الأموي للهيمنة على الحوض الغربي للبحر المتوسط

اتخذ الصراع الفاطمي – الأموي الأندلسي حول غرب البحر المتوسط صيغا متعددة نذكر منها:

٢/١-التجسس المتبادل بين الفاطميين وأمويي الأندلس:

لتطبيق فكرة غزو الأندلس، بدأ الفاطميون منذ قيام دولتهم في المغرب بالتمهيد لذلك عن طريق الدعاية الشيعية بهدف الترويج لأفكارهم تحضيرا لقيام دولتهم بالأندلس. كما لجأوا إلى نظام التجسس لمعرفة أحوال تلك البلاد ومواطن الضعف والقوة فيها. وكان يقوم بتلك المهمة دعاتهم وجواسيسهم الذين كانوا لا يفصحون عن أهدافهم الحقيقية، ويتسترون وراء الأعمال التجارية أو طلب العلم أو السياحة الصوفية. في هذا السياق تكشف المصادر على الأقل عن ثلاثة جواسيس أرسلهم الفاطميون إلى الأندلس أولهم وأقدمهم زمنيا هو أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني المعروف بالرياضي (ت. ٢٩٨هـ/ ٩١٠م) الذي يعد أول جاسوس مشرقي يفد على الأندلس[٩]. وكان قد اشتغل كاتبا لعبيد الله الفاطمي (٢٩٧- ٣٣٢هـ/ ٩٠٩ – ٩٣٣م). وعرف بإخلاصه الشديد للشيعة الفاطميين حتى أن أبا عبد الله الشيعي داعية الفاطميين اصطحبه معه عندما توجه نحو سجلماسة لتحرير إمامه المهدي من سجنه في دولة بني مدرار. وإذا لم يكتب لأبي اليسر الرياضي أن ينجح في مهمته التجسسية، فإنه استطاع

على الأقل أن يترك بصماته في ثقافة التشيع بالأندلس بفضل مؤلفاته التي عمت بلاد الأندلس[١٠].

أما ثاني هؤلاء الجواسيس الفاطميين فهو أبو جعفر بن هارون البغدادي الذي عاصر الخليفتين الفاطميين المهدي والقائم، وتولى الكتابة لعبيد الله المهدي بعد وفاة أبي اليسر الرياضي سنة (٢٩٨هـ/ ٩١٠م). وكان هذا الجاسوس قد تردد على الأندلس عدة مرات مختفيا وراء عباءة العلم، فيما كان يسعى إلى خدمة الحكومة الفاطمية[١١]. ويبدو أنه أفلح في مهمته، إذ تمكن من تزويدها بمعلومات على جانب من الأهمية تتعلق برسم المشهد العام لظروف الأندلس وأوضاعها السياسية والدينية والاجتماعية[١٢]. ويكفي دليلاً على تمرسه بالعمالة لصالح الفاطميين أن عبيد الله المهدي أسند إليه منصب خطة البريد التي ظل قائما عليها مع احتفاظه بمنصب الكتابة إلى أن اخترمته المنية.

على أن الرحالة الشيعي ابن حوقل النصيبي (ت. ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) يعد أبرز هؤلاء الجواسيس الفاطميين، خاصة أنه ترك لنا في كتابه "صورة الأرض" أهم وثيقة في مجال التجسس على أمويي الأندلس. والراجح أنه أخفى أهدافه عن طريق التستر وراء التجارة، حتى أن أحد الجغرافيين التبس عليه أمره فلقبه بالتاجر الموصلي[١٣]، كناية على اشتغاله بالتجارة بهدف التمويه على الخصوم الأمويين. وبهذه الصفة الزائفة تمكن من دخول الأندلس. وقد افترض المستشرق دوزي[١٤] أن يكون هذا الرحالة جاسوسا متمرسا، بدليل معرفته الدقيقة لمسالك الأندلس وطرقها.

ومن حسن الحظ أن ابن حوقل أورد ضمن نصوصه الجغرافية نص التقرير الذي كتبه حول الأندلس ورفعه إلى الفاطميين. ويلاحظ أنه اهتم في هذا التقرير بإظهار خيرات الأندلس الزراعية والمعدنية، مع الإشارة إلى ضعف أهلها وعجزهم عن الدفاع عنها ليسيل لعاب الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ويشجعه على غزوها، ومما قاله في هذا الصدد: (وليس لجيوشهم حلاوة في العين، لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها وإن شجعت أنفسهم، ومرنوا بالقتال، فإن أكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة. وما رأيت ولا رأي غيري بها إنسانا قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابين، ولا يستطيعون ذلك، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم من السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم… ومن أعجب هذه الجزيرة عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأنجاد والأبطال، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذتها)[١٥]. ويستشف من هذه الفقرة أن ابن حوقل قدم صورة مائعة عن الأندلسيين، إذ كان مبالغا في اتهامه لهم بالضعف والجبن، مما جعل أحكامه تشكل نشازا عما أجمع عليه الجغرافيون والرحالة عن صفات أهل الأندلس، ولهذا لم يلتفت الفاطميون إلى مشروعه الذي ظل مجرد كلام عائم يبتعد بمسافة كبيرة عن جادة الصواب.

ورغم استخدام أسلوب التجسس من قبل الفاطميين والدعاية لهم، فإن نتائجه ظلت محتشمة بفضل تجذر المذهب السني في ثقافة المجتمع الأندلسي، وإن كان ذلك لا يمنع من القول إن الفاطميين أفلحوا في ضم بعض الشخصيات الأندلسية إلى صفهم، ومن أمثلة ذلك الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي ثار بجنوب الأندلس ضد الحكم الأموي في أواخر القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) وبداية القرن (الرابع الهجري/ العاشر الميلادي).

وأفلح الفاطميون أيضًا في كسب بعض شعراء الأندلس إلى جانبهم كالشاعر ابن هانئ الأندلسي (٣٦٢-٩٧٢م) الذي يعتبر أيضا من الشخصيات الأندلسية الهامة التي فرت من الأندلس إلى المغرب حيث التحق ببلاط الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١-٣٦٥هـ). وأصبح لسان الدولة الفاطمية بالمغرب وشاعرها المفوه[١٦]، بل داعيتها القوي، حيث أن مدحه لهذا الخليفة لا يندرج في خانة المديح المحض بقدر ما هو نص يفوح بالمذهبية السياسية، وظفه لتدعيم المذهب الشيعي والدعوة للفاطميين. لذلك لا غرابة أن نجد شعره يزخر بالمصطلحات ذات المرجعية الشيعية. فكان يمرر عبره خطابهم المذهبي والسياسي، ويستعمل الحجاج والجدل والتعليل والتدليل والسعي للإقناع المنطقي لا التأثير الوجداني[١٧]. وهذا ما يفسر الترحاب الواسع والحظوة الكبيرة التي لقيها لدى الخليفة الفاطمي.

وفي الاتجاه المقابل، لم تقف الحكومة الأموية في الأندلس مكتوفة الأيدي أمام أطماع الفاطميين في المغرب والأندلس، بل استخدمت هي الأخرى عيونا وصنائع انبثوا في طول بلاد المغرب وعرضها، خاصة القيروان عاصمة العاصمة الفاطميين. وكان هؤلاء الجواسيس الأمويون يوافون حكومتهم بما يهمها من أخبار الفواطم. ومما ساعدهم في مهمتهم وجود جاليات أندلسية في كل مدينة من مدن إفريقية والمغرب تقريبًا، علمًا بأن هذه الجاليات

كانت تعطي المثال في التمسك بالعقيدة السنية، ومحاربة التيار الشيعي. وكان فقهاء السنة الأندلسيين الذين استوطنوا القيروان ناقمين على الفاطميين، كارهين لبدعهم، لذلك تعاونوا مع الحكومة السنية في الأندلس عن طريق مدهم بأخبار النظام الفاطمي، ولو أن ذلك كلفهم ضريبة التعرض للقمع الذي وصل إلى حد البطش والقتل، وهو ما حدا بهم إلى حمل لواء المعارضة والدعاية ضد الوجود الفاطمي، فأخذوا يحرضون العامة على تأييد ثورة يزيد بن مخلد بن كيداد عدو الفاطميين. وتحتفظ المصادر بأسماء بعض الفقهاء الذين قاوموا الوجود الفاطمي من قبيل الفقيه أبو الحسن الخلاف الذي كان يرى أن قتال الفاطميين أفضل من قتال المشركين، بل أفتى بأن جهادهم يعتبر واجبا دينيا، وهو نفس ما ذهب إليه الفقيه ربيع ابن القطان الذي كفرهم أيضا[١٨]. وثمة نص أكثر مغزى أورده صاحب كتاب "رياض النفوس"، يصور فيه مدى تصدي الفقهاء المالكيين للتيار الشيعي، من خلال تعقيب الفقيه المذكور على دخول الإمام عبيد الله المهدي إفريقية، والذي ذكر فيه أن فقيها مالكيا يدعى أبو يوسف جبلة بن حمود ترك حراسة الرباط بقصر الطوب، وانتقل إلى مدينة القيروان، (فقيل له: أصلحك الله، كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط فتركت الرباط والحرس ورجعت إلى ها هنا !. فقال: كنا نحرس عدوًا بيننا وبينه البحر، فتركناه وأقبلنا على حراسة هذا الذي قد حل بساحتنا لأنه أشد علينا من الروم !!)[١٩]. فهذا النص الذي يجعل ميزان التيار الشيعي في مرتبة أدنى من ميزان "دار الحرب"، يعكس مدى المعارضة الدينية والمذهبية التي أحدثها ظهور الفاطميين بالمغرب الإسلامي[٢٠]، ويؤكد حدة المقاومة الداخلية للاكتساح الفاطمي.

٢/٢-الحرب الروحية: تأسيس خلافة مضادة

إذا كان الفقه السني لا يبيح قيام خلافتين إسلاميتين متزامنتين، فإن الصراع السياسي الفاطمي – الأموي الأندلسي، وسعي كل طرف تأكيد تفوقه الروحي والمعنوي على الطرف الآخر، فضلاً عن استشراء الضعف والوهن في كيان الخلافة الإسلامية في المشرق الإسلامي آنذاك، كلها معطيات شجعت الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر على الخروج على الأصل النظري السني للخلافة الإسلامية القائل بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ، معتمدًا في ذلك على اجتهاده وعلى اجتهاد فقهاء السنة الذين أجازوا مبدأ التعدد إذا كانت مصلحة المسلمين تقتضي ذلك، فأقروا بشرعية وجود إمامين يتوليان حكم المسلمين في وقت واحد، شريطة أن يكون بينهما مسافة كبيرة حتى لا يحدث التصادم بينهما[٢١]. ويبدو أن هذا التخريج وجد قبولاً لدى أمويي الأندلس، خاصة أنهم اعتبروا إعلان الخلافة من جانب الفاطميين سابقة خطيرة، تستدعي ردًا مناسبًا لا يمكن أن يوازيه سوى تأسيس خلافة مضادة.

ولا شك أن التنافس على لقب الخلافة احتل مكانًا هامًا في الصراع الفاطمي – الأموي الأندلسي، فعبد الرحمن الناصر الذي كان يرى أنه لا يقل شأنًا عن الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي أو خليفة بغداد الغارق في أوحال الضعف، أعلن نفسه خليفة بعد أن كان أميرًا، وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين سنة (٣١٦هـ/ ٩٢٩م)، وأمر أن يلعن الفواطم جهرا على المنابر. وقد اعتبر الفاطميون هذا العمل تعديا على حق من حقوق أئمتهم، فذهبوا إلى إعلان الحرب المفتوحة عليه، واستحلوا دمه، وهو ما يظهر من خلال الكلمات التي تضمنتها رسالة المعز الفاطمي الموجهة لأهل الأندلس والتي قال فيها: (وهو يزعم أنه أمير المؤمنين، كما تسمى دون من سلف من آبائه، وغمام الأمة بدعواه وانتحاله. ونحن نقول: أننا أهل ذلك دونه ودون من سواه، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه، مع ما بين أسلافنا وأسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآبائه من العداوة القديمة الأصلية والبغضة في الإسلام والجاهلية...).

ويستشف من فحوى هذه الرسالة وغيرها من المراسلات التي تبودلت بين الخلافتين أنه الصراع كان على أشده بينهما، وأن التوفيق بين الجانبين كان يحتاج إلى معجزة من الصعب حدوثها في تلك الفترة.

٣/٢-العناية بمسألة التسلح وإبراز القوة البحرية لإرهاب الخصم:

يُلاحظ أن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر قد فطن منذ توليه الحكم إلى الحاجة إلى إظهار القوة ليرهب بها العدو، لذلك سعى بكل الوسائل إلى تنمية أسطوله البحري وتنسيق عدته وشحنه بالجند والرجال، لأن السياسة العسكرية المتوسطية كانت تفرض عليه هذا التوجه. لذلك بادر إلى شحن الموانئ الأندلسية بالسفن والعتاد الحربي، وأصدر أوامره إلى الأسطول بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق، ومنع وصول إمدادات الفاطميين إلى الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي كان قد اعترف بخلافة الفاطميين، وفي ذلك يقول ابن عذاري[٢٢]: (وفي سنة ٣٠١هـ)، ألفيت للمشرك عمر بن حفصون مراكب في البحر كانت تميره

من العدوة المغربية، فأحرق جميعها)، وهو نص يعكس مدى تحالف الحكم الفاطمي مع أعداء الدولة الأموية بالأندلس. وفي نفس المنحى، سعى الخليفة الأندلسي الناصر إلى تحصين سواحله وثغوره، خاصة في المنطقة الجنوبية التي كانت عرضة لأي هجوم مفاجئ يقوم به الفاطميون من المغرب على بلاده.

وتذكر المصادر أنه انتقل إلى الضفة الجنوبية من البحر المتوسط الواقعة في الساحل المغربي سنة (٣٠٢هـ/ ٩١٤م)، وهناك أشرف بنفسه على الأعمال الدفاعية في جزيرة طريف Tarifa، والجزيرة الخضراء Algeciras، حيث تقوم الشواهد الأثرية إلى اليوم دليلاً على التحصينات الأمامية التي شيدها، ومنها القصر الذي بناه للإشراف على الدفاع عن الجزيرة. أما الجزيرة الخضراء، فقد بنى فيها دارًا لصناعة الأساطيل، وأعلى أسوارها، وهو عمل دفاعي لا يخامرنا الشك في أنه قصد به صدّ الفاطميين عن أي هجوم محتمل من المغرب، خاصةً إذا علمنا أن ميناء الجزيرة الخضراء يعد أسهل المراسي وأقربها من بر العدوة المغربية، ويحاذيه مرسى مدينة سبته. ونظرًا لأهمية موقع هذا الثغر وخطورته من الناحية العسكرية، فقد حرص الأمويون على جعله هو وما حوله من ثغور في يد أمير من الأسرة الأموية، إمعانًا في الحفاظ على أسرار الدولة الأندلسية العسكرية، وتجنبًا لأي خيانة محتملة[٢٣].

٤/٢-السيطرة على الموانئ المغربية الأمامية:

لم يكتف عبد الرحمن الناصر بسياسة التسابق نحو التسلح، بل ذهب بعيدا في استراتيجيته المتوسطية، حيث استولى على بعض ثغور الساحل المغربي المواجهة لسواحل بلاده مثل مدينة مليلية سنة (٣١٤هـ/ ٩٢٧م) ومدينتي سبته وطنجة سنة (٣١٩هـ/ ٩٣١م). ويمكن اعتبار استيلائه على مدينة سبته خطوة هامة في استراتيجية سياسته المتوسطية، إذ بعد أن احتلها، صارت هذه الأخيرة (مفتاحًا للغرب والعدوة من الأندلس وبابا إليها كما هي الجزيرة وطريف مفتاح الأندلس من العدوة)[٢٤]، وهو نص يحمل مغزى عميقا في الدلالة على أهمية امتلاك سبته من الناحية الاستراتيجية. أما مدينة طنجة فقد سارعت إلى بيعة الخليفة الأموي بمجرد استيلائه على سبته، لذلك لم يذهب إلى حد احتلالها عسكريا، لكن بعد أن وصلته أخبار نقض أهلها لطاعته، سير حملة عسكرية بقيادة عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة نحوها سنة (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)، فاحتل القائد الأندلسي ميناء واسط الواقع بين طنجة وسبته، وأقام مترددا بين الثغور الساحلية إلى أن تمكن من إخضاع طنجة مجددًا سنة (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م)[٢٥].

وفي نفس المنحى العسكري المتوسطي، سعى عبد الرحمن الناصر إلى احتلال موقع هام بالقرب من سواحل تلمسان في المغرب الأوسط، وهو جزيرة أرشقول التي تسمى اليوم رشجون Rachgoun، وتقع أمام مصب نهر تافنا بالجزائر، وهي جزيرة عالية منيعة تحصن بها أحد أمراء الأدارسة واسمه الحسن بن عيسى بن أبي العيش. فحاصرها الأسطول الأندلسي سنة (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) حصارًا طويلاً بمائة وعشرين قطعة بحرية وسبعة آلاف جندي. وكان هذا التحرك قد تم بطلب من حاكم فاس موسى بن أبي العافية لمناهضة أبي العيش أحد أنصار الفاطميين الذي تحصن بالجزيرة المذكورة. وكان من البديهي أن يستجيب له عبد الرحمن الناصر الذي كان يطمح إلى استئصال شوكة كل الموالين للحكم الفاطمي، فأمر أهل بجاية بتحضير ١٥ سفينة بحرية مجهزة بالرجال والسلاح، أضافها إلى القوة التي أبحرت من الأندلس. وكاد الحصار أن يعطي ثماره حيث صار أهلها على شفا حرف من الهلاك بسبب انقطاع موارد مياه الشرب، لولا أن سقطت أمطار غزيرة ملأت آبارهم الجافة، فاستعادوا حيويتهم واستماتوا في الدفاع عن الجزيرة، مما أجبر الأسطول الأندلسي على الانصراف نحو ميناء ألمرية[٢٦].

وعلى الرغم من فشل عبد الرحمن الناصر في احتلال هذه القاعدة البحرية بالجزائر، إلا أنه استطاع عن طريق القواعد الأخرى في المغرب الأقصى مثل سبته وطنجة ومليلية أن يسيطر على الملاحة في مضيق جبل طارق، وأن يفرض هيمنته على شرايين البحر المتوسط الغربي، وهو ما عبّر عنه المقري بقوله (فاشتد سلطانه وصار المجاز في يده)[٢٧].

٥/٢-استمالة شيوخ القبائل المغربية وتحريضهم على الفاطميين:

في إطار خطته لمحاربة الفاطميين، عول الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر على استمالة رؤساء الدويلات التي كانت قائمة وقتذاك في شمال المغرب الأقصى، مثل دولة الأدارسة التي كان نفوذها قد انحصر بعد الغزو الفاطمي في المناطق الجبلية الشمالية بنواحي البصرة وأصيلا وقلعة حجر النسر بين قبائل غمارة. ونفس القول ينسحب على إمارة نكور التي كانت إمارة عربية سنية مالكية ترعرعت بمنطقة الريف، وكان يحكمها في ذلك الوقت الأمير صالح بن سعيد. وقد لعبت هذه الإمارة دورًا كبيرًا في نشر الإسلام واللغة العربية بين أهل الريف من بربر غمارة

وصنهاجة، كما قاومت في الوقت نفسه تيار الخوارج والشيعة، ولقيت من وراء ذلك عناءً كبيرًا جعلها تبادر إلى التحالف مع أمويي الأندلس.

ولم يقتصر عبد الرحمن الناصر على التحالف مع هذه الدويلات المغربية الشمالية، بل تخطاها إلى ما وراءها من قبائل البربر، خاصة قبيلة زناتة التي عمل على إمدادها بالمال والسلاح وتحريضها على قتال صنهاجة حليفة الفاطميين. وكان يستعمل في سبيل اكتساب القبائل المغربية إلى جانبه كل الوسائل الدبلوماسية حيث كان يبعث إليهم بسفرائه محملين بالهدايا والألطاف والأموال[٢٨]، من بينهم محمد بن عبد الله بن أبي عيسى الذي بعثه إلى زعماء القبائل البربرية سنة (٣١٦هـ/ ٩٢٩م)[٢٩]. وكان الناصر يملك من البراعة الدبلوماسية ما جعله يكسب ودّ القبائل المغربية التي شكلت سدًا منيعًا ضد التوغل الفاطمي في المغرب كمعبر نحو الأندلس. ولم يأل جهدًا في إقناع زعماء القبائل البربرية بالخطر الذي يشكله الفاطميون عليهم وعلى المذهب السني بالمغرب، لذلك لم تنقطع مكاتباته ومراسلاته إلى مؤيدي الفاطميين أنفسهم في محاولة لاستمالتهم. وتنبث في كتاب "المقتبس" لابن حيان[٣٠] العديد من الرسائل التي تصب في هذا الاتجاه. ونسوق في هذا الصدد نموذج موسى بن أبي العافية الذي أفلح الخليفة الأموي في استمالته بعد أن كان مواليًا للحكومة الفاطمية[٣١]. كما كان يقدم المساعدات العسكرية لكل الموالين له، حتى أن حربه ضد الفاطميين أصبحت حربًا بالوكالة بما في الكلمة من معنى.

٢/٦-تأييد الحركات المعادية للطرفين المتصارعين:

عولت استراتيجية الخلافة الأندلسية في صراعها مع الخلافة الفاطمية على تشجيع وتأييد جميع الثورات والحركات المعادية لها، نذكر منها ثورة الخوارج الخطيرة التي قامت في تونس والجزائر بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي "صاحب الحمار" ضد الدولة الفاطمية. وقد استمرت هذه الثورة طيلة فترة حكم الخليفة محمد القائم، وجزءًا من عهد ولده إسماعيل المنصور[٣٢]. ولم تتردد حكومة قرطبة في تأييدها وإمدادها بالمساعدات المالية والعسكرية. وفي مقابل ذلك اعترف أبو يزيد الخارجي بالسيادة الأموية، ودعا للخليفة عبد الرحمن الناصر في كل المجال الجغرافي الذي اقتطعه من الفاطميين وخضع لسيادته، وفي هذا الصدد يروي ابن عذاري[٣٣] أنه في سنة (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) أرسل أبو يزيد مخلد بن كيداد إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر وفدا يخبره باستيلائه على القيروان ورقادة والمناطق القريبة منها، وانتصاره على جيوش محمد القائم، مظهرا لحاكم قرطبة طاعته واعترافه بولايته. وفي السنة التالية (٣٣٤هـ/ ٩٤٥)، أرسل له أبو يزيد سفارة ثانية مكونة من علماء القيروان برئاسة تميم بن المحدث المشهور أبي العرب التميمي. وفي السنة التي تلتها (٣٣٥هـ/ ٩٤٦) أرسل سفارة ثالثة برئاسة ولده أيوب، فأكرمه الناصر وأنزله في قصر الرصافة بقرطبة، وأمده بمبلغ مالي كبير لتعزيز مركز والده.

ويتضح من خلال تتبع تفاصيل ثورة أبي يزيد المذكور أن الخليفة عبد الرحمن الناصر تدخل إلى جانبه في الحرب تدخلا مباشرا بسبب وجود عدو مشترك بينهما وهو العدو الفاطمي. ولم يقف عند حد التأييد المعنوي فحسب، بل قدم له كل ما تتطلبه الحرب من عتاد ومال[٣٤]. ولا يستبعد أن يكون قد زوده بخبراء عسكريين وبعض القادة المتمرسين بالحرب لكسر شوكة الفاطميين.

وعلى الرغم من أن هذه الثورة قد شكلت خطرًا كبيرًا على الدولة الفاطمية، إلا أنها انتهت أخيرًا بالفشل، وبقتل صاحبها سنة (٣٣٦هـ/ ٩٤٧م). ويعزى الفضل في ذلك إلى انضمام قبيلة صنهاجة إلى جانب الدولة الفاطمية لأن أبا يزيد الخارجي كان زناتيا وتؤيده قبيلة زناتة المنافسة لها. ومع ذلك فقد كانت ورقة وظفها النظام الأموي في الأندلس ضد خصومه الفاطميين، واستطاع من خلالها أن يركز نفوذه في إفريقية حيث تقلصت سلطة الفاطميين وانحصرت في المهدية، بل كاد أن يعصف بالوجود الفاطمي نهائيا لولا الفشل الذي منيت به هذه الثورة[٣٥].

مقابل ذلك قام الفاطميون بتشجيع الخارجين عن الدولة الأموية بالأندلس وفي مقدمتهم الثائر عمر بن حفصون الذي أمده الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي بالذخيرة والأسلحة، كما أرسل له داعيتين أقاما عنده، وأخذا يحرضانه على التمسك بطاعة الفاطميين وإقامة دعوتهم. غير أن الفحص الدقيق لهذا التحالف يبرز أن ابن حفصون لم يكن مخلصا للدعوة الفاطمية، وإنما اتخذها ورقة يستعملها ضد حكومة قرطبة، بدليل أنه في أواخر أيامه استغنى عن الداعيتين، وأعادهما بهدية إلى الخليفة الفاطمي[٣٦].

ومن الثوار الذين كسبتهم الحكومة الفاطمية إلى جانبها أيضا القائد الأندلسي علي بن حمدون الجذامي المعروف بابن الأندلسي الذي فرّ من الأندلس نحو المغرب، واتصل بعبيد الله المهدي ثم بابنه القائم. وقد عهد إليه هذا الأخير بناء مدينة المسيلة وهي

التي سميت بعد ذلك بالمحمدية، ثم عقد له على ولاية الزاب في جنوب المغرب الأوسط[٣٧]. والراجح أن بناء مدينة المسيلة جاء استجابة لرغبة الخليفة الفاطمي المذكور في مراقبة تحركات القبائل البربرية الخارجة على السلطة الفاطمية وموالاتها لأمويي الأندلس. فعندما اندلعت ثورة أبي يزيد الخارجي في جبال الأوراس، كتب الخليفة القائم إلى علي بن حمدون يطلب منه المدد بقبائل البربر في الزاب، وقد استطاع هذا القائد الأندلسي أن يتصدى لجيوش يزيد بن مخلد بن كيداد – العدو اللدود للفاطميين – إلى انتهى الأمر بمصرعه سنة (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) على يد ابن هذا الثائر أيوب بن يزيد بن مخلد.[٣٨]

٧/٢-تشكيل النظام الأموي-الأندلسي جبهة تحالف مع ملوك الدول الأوروبية والإسلامية المعادين للفاطميين:

في سبيل القضاء على الخلافة الفاطمية، لم يتردد الخليفة عبد الرحمن الناصر في تشكيل جبهة تحالف مع ملوك الدول المعادية للفاطميين ولو نظريا، ولا غرو فقد عقد حلفا مع ملك إيطاليا هوج دي بروفانس Hugue de Provence الذي كان يريد الانتقام من الفاطميين بسبب تخريبهم ميناء جنوه الايطالي. كما تحالف مع قسطنطين السابع إمبراطور الدولة البيزنطية الذي كان يرغب في استعادة جزيرة صقلية من حوزة الفاطميين. وفي هذا الصدد تشيد المصادر الأندلسية بالاحتفالات الفخمة والحفاوة البالغة التي استقبل بها الخليفة عبد الرحمن الناصر سفراء الروم في سنتي (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، و(٣٣٨هـ/ ٩٥٠م) الذين تقاطروا على بلاط قرطبة خاطبين ودها. وقد استغلت المصادر الإسماعيلية هذا الحدث فأولته تأويلاً مبيتًا حين صورته على أنه اتفاق حربي مشترك بين الأمويين والبيزنطيين على حصار الفاطميين من المغرب والمشرق، وفي ذلك يقول القاضي النعمان: وكتب (يقصد الخليفة الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصرة، وأهدى إليه هدايا وأرسل إليه رسلا من قبله، فأجابه إلى ذلك، وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية، ومراكب بني أمية من الأندلس).

والواقع أنه من الصعب تأكيد مثل هذا التواطؤ الحربي المشترك، خاصة أن المصادر الأندلسية لم تشرح لنا تفاصيل تلك المعاهدات التي أبرمت بين الخليفة الناصر والبيزنطيين. وقد أثبتنا في دراسة سابقة أن مثل هذه السفارات والاتصالات بين أقطاب الأمم الإفرنجية وبلاط قرطبة كان يحدوها أمل إقامة معاهدات سلمية تشكل جذور حوار حضاري كما تكشف ذلك الهدايا المتبادلة بين قسطنطين السابع إمبراطور بزنطة وعبد الرحمن الناصر، والتي كانت عبارة عن كتب علمية متبادلة وإرسال مترجمين لترجمتها[٣٩]. وحتى إذا افترضنا وجود تحالفات سياسية، فأغلب الظن أنها كانت على غرار التحالفات السابقة التي أبرمت بين الأمير عبد الرحمن الثاني والإمبراطور "تيوفيل" سنة (٢٢٥هـ/ ٨٤٠هـ)، وهي تقوم على ترك الحرية للبيزنطيين في قتال أعداء الدولة الأموية، لكن دون الارتباط معهم بعمل حربي مشترك يصل إلى حد التنسيق العسكري[٤٠].

وفي نفس الاتجاه، حرص الخليفة عبد الرحمن الناصر على توطيد علاقاته مع الدولة الإخشيدية بمصر، فأرسل إلى أميرها مبلغًا ماليًا يقدر بعشرة آلاف دينار لتوزيعه على علماء المذهب المالكي لمحاربة الدعاية الشيعية هناك[٤١]. وجدير بالذكر أن زعيم المدرسة المالكية في مصر آنذاك كان عالماً أندلسيًا اسمه إسحاق محمد بن القاسم ويعرف بابن القرطبي، وكان هذا الفقيه يذم الفاطميين ويسبهم، ويدعو على نفسه بالموت قبل وصولهم لبلاد الكنانة وكأنه تنبأ بذلك. وقد استجاب الله لدعائه، حيث توفي سنة (٣٥٥هـ/٩٥١م)، أي قبل الغزو الفاطمي لمصر بنحو ثلاث سنوات.[٤٢]

٨/٢-النهاية المحتومة: الاصطدام المسلح بين الفاطميين وأمويي الأندلس في الحوض الغربي للبحر المتوسط

لم تقف حدود النزاع بين الفاطميين والأمويين على التسابق في التسلح، واحتلال المواقع المتقدمة في السواحل المتوسطية، والحرب بالوكالة عن طريق إثارة الفتن بين قبائل البربر، وتدبير المؤامرات من وراء الستار، بل تطور الأمر إلى اشتباك مسلح بينهما. وقد زودنا ابن الأثير[٤٣] بوصف لبداية هذا الاشتباك بقوله: (وفي سنة ٣٤٤هـ (٩٥٥م) أنشأ عبد الرحمن الناصر الأموي، صاحب الأندلس، مركبا كبيرا لم يعمل مثله، وسير فيه أمتعة إلى بلاد المشرق، فلقي في البحر مركبا فيه رسول من صقلية إلى المعز لين الله الفاطمي، فقطع عليه أهل المركب الأندلسي، وأخذوا ما فيه، وأخذوا الكتب إلى المعز، وبلغ ذلك المعز، فعمّر أسطولا واستعمل عليه الحسن بن علي صاحب صقلية، وسيره إلى الأندلس، فوصلوا إلى ألمرية، فدخلوا المرسى وأحرقوا جميع ما فيه من المراكب، وأخذوا ذلك المركب، وكان قد عاد من الإسكندرية، وفيه أمتعة لعبد الرحمن وجوار ومغنيات، وصعد من

في الأسطول إلى البر فقتلوا ونهبوا، ورجعوا سالمين إلى المهدية).

يشي هذا النص أن السبب المباشر الذي أدى إلى وقوع اشتباكات مسلحة بين الأسطولين الفاطمي والأموي هو تلك الرسائل التي كان قد بعث بها والي الفاطميين بصقلية إلى الخليفة الفاطمي المعز بالمهدية. وللأسف فإننا لا نعرف شيئًا عن فحوى هذه الرسائل، مما سمح للدارسين بتقديم فرضيات مختلفة، لعل أهمها فرضية المستشرق الهولندي "دوزي" القائلة بأن مضمون هذه الرسائل قد يكون متعلقا بمشروع هجوم فاطمي على الأندلس، وأن قائد السفينة الأندلسية كان على علم بخطورتها، ولهذا لم يتردد في الاستيلاء عليها.

وأيًا ما كان الأمر، فقد تميز رد الفعل الأندلسي بالسرعة، حيث وجه عبد الرحمن الناصر أسطوله البحري لشن سلسلة من الغارات على بعض المدن الساحلية الفاطمية مثل سوسة وطبرقة ومرسي الخرز، وكان هذا الميناء الأخير قاعدة بحرية لتشييد المراكب الحربية الفاطمية، فأضرم النار في بعض نواحيها. ويبدو أن هذه الحملة البحرية لم توفق في هجومها على سواحل افريقية فعادت من حيث أتت[٤٤]، وهو ما يفسر توجيه الخليفة الأندلسي أوامره إلى مملوكه غالب بن عبد الرحمن الناصر للإبحار في أسطول كبير في السنة الموالية (٣٤٥ هـ/ ٩٥٦م) نحو شواطئ إفريقية. وكان هذا الأسطول مكونا من سبعين سفينة أغارت على مدينة الخرز وأضرمت النار فيها، ثم اتجهت نحو مدينة طبرقة غرب مدينة بنزرت التونسية، ثم جازت على سوسة وخربت المدينتين الفاطميتين[٤٥]. وقد تواصلت هذه الغارات والاشتباكات البحرية في سواحل المغربين الأوسط والأدنى، كما استمر الأمويون في إثارة البربر ضد الفاطميين عن طريق قواعدهم العسكرية، وجالياتهم الأندلسية الممتدة على الساحل المغربي.

وعلى الرغم من رد الفعل العنيف الذي قام به الفاطميون ضد الغارات البحرية الأندلسية والتي تمخض عنها إرسال حملة عسكرية بقيادة جوهر الصقلي سنة (٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) لإعادة إخضاع المغرب للخلافة الفاطمية وتأديب أنصار الخلافة الأموية ، فإن هذا الأخير لم ينجح في احتلال القواعد والجزر البحرية المتوسطية التي ظلت في قبضة الخلافة الأموية بالأندلس[٤٦]، خاصة بعد أن فشل جوهر الصقلي في اقتحام مدينة سبته، إذ تصدى له الأندلسيون بزعامة بدر مولى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وذلك سنة (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م)، وأجبروه على العودة دون نصر يذكر[٤٧].

ويبدو أن الفاطميين أيقنوا بفشل مشروعهم في غزو الأندلس بفضل مناعة الدولة الأموية، وقوة أسطولها البحري، وتقدم مراكزها الساحلية الهجومية، بل تأكدوا أن بقاءهم بالمغرب في حد ذاته أمر محفوف بالمخاطر أمام انحياز معظم الإمارات البربرية إلى حكومة قرطبة، لذلك بدأوا يفكرون في التخلي عن مشروع الإمبراطورية الفاطمية في الحوض الغربي المتوسطي، والاتجاه نحو الحوض الشرقي انطلاقًا من مصر، حيث سيفتحون صفحة جديدة وإيجابية في سياستهم المتوسطية، وسيحققون نجاحًا ملموسًا في مشروع الإمبراطورية الفاطمية في المشرق الإسلامي.

خَاتِمَةٌ

والحاصل من هذه الدراسة، أن المجال المتوسطي الغربي سجل لأول مرة تصادم خلافتين إسلاميتين متزامنتين وهما في عزّ قوتهما العسكرية والمذهبية. وبعد أن بيّنا مختلف التفسيرات التي تبنتها بعض الدراسات، ومنها التفسير الاثني والتفسير المذهبي والتفسير الاقتصادي، رجحنا التفسير الاقتصادي نظرًا للبعد الذي أخذه حجم الصراع بين الخلافتين من أجل السيطرة على الموانئ المتوسطية، وبالتالي الهيمنة على شرايين الملاحة المتوسطية. كما أبرزت الدراسة الأساليب التي استعملتها القوتان المتنافستان لكسب المواقع الحساسة في البحر المتوسط من قبيل عمليات التجسس، وتأييد الحركات المعارضة في الداخل لإضعاف النظام الخصم وإثارة البلبلة، والحرب بالوكالة، وتجييش الأساطيل والقوة البحرية لكسب المعركة. وقد تبين أن المشروع الفاطمي لغزو الأندلس قد باء بالفشل بفضل التفوق العسكري الأندلسي الأموي، وإحباطه محاولة الفاطميين كسب تأييد الزعامات البربرية.

ملف العدد

الهَوامِشُ:

(١) حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الدولة الفاطمية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨، ص ٨٦.

(٢) أحمد مختار العبادي، **في التاريخ العباسي والفاطمي**، دار النهضة العربية، بيروت، (دون تاريخ)، ص ٢٣٩.

(٣) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٩٤ (ط١)، ج٢، ص ٧٢.

(٤) نفسه، ص٧٣، محمد بن عميرة، **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، طبعة الجزائر ١٩٨٤، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص١٨٥.

-Brignon et autres, Histoire du Maroc, Hatier 1967 Paris 6, Librairie nationale, Casablanca p 75.

(٥) المقريزي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٧، ص ٩٣.

(٦) عبد العزيز سالم وأحمد العبادي، **تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٩، ص ١٧٥.

(٧)أحمد مختار العبادي، **في التاريخ العباسي والفاطمي**...م.س، ص٢٣٩.

(٨) أحمد مختار العبادي، **سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس**، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٧٥، ص٢٠٥.

(٩) انظر عنه: المقري، **نفح الطيب**، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩، ج٢، ص١٣١.

(١٠) عبد العزيز فيلالي، **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٣ (ط٢)، ص ١٢٩.

(١١) محمود علي مكي، **التشيع في الأندلس: منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية**، صحيفة المعد المصري للدراسات الإسلامية، فصلة من المجلد ٢، عدد ١-٢، مدريد ١٩٥٤، ص ٢١.

(١٢) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٢٩.

(١٣) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت – دون تاريخ -، ج١، ص ٢٦٢.

(14) Dozy, Histoire des musulmans d'Espagne, Leiden 1932, T2 , P 125

(١٥) **صورة الأرض**، بيروت ١٩٦٢، ص ١٠٤ – ١٠٥.

(١٦) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٣٣.

(١٧) أحمد هيكل، **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة**، دار المعارف ١٩٧٩، - ط ٧ – ص ٢٤٢.

(١٨) **معالم الإيمان**، تونس ١٩٠٢، ج٣، ص ٣٤-٣٥.

(١٩) **رياض النفوس**، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت،١٩٨١، ج٢، ص ٣٧.

(٢٠) احمد مختار العبادي م.س ص ٢٣٨ -عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٣٥.

(٢١) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٣٨.

(٢٢) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ليفي بروفنسال و س. كولان، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٠، ج٢، ص ١٥٦.

(٢٣) أحمد مختار العبادي، م.س، ص ٢٤٠.

(٢٤) ابن عذاري، م.س، ج٢، ص ٢٠٤.

(٢٥) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٥٤ – ١٥٥.

(٢٦) البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، تحقيق دي سيلان، الجزائر ١٩١١، ص ٧٨ - عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، م.س، ص ١٧٦، ١٨٨ – عبد العزيز فيلالي، م.س، ١٥٤-١٥٥.

(٢٧) **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، تحقيق مصطفى السقى وآخرون، القاهرة ١٩٣٩، ج٢، ص٢٥٧.

(٢٨) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٤٠.

(29) Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, Paris 1950, T1;P 96.

(٣٠) المقصود هو القطعة الخاصة بعهد الخليفة عبد الرحمن الناصر التي نشرها بيدرو شالميطا وآخرون، طبعة مدريد ١٩٨٠.

(٣١) ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، الرباط ١٩٧٣، ص ٨٤-٨٥.

(٣٢) انظر تفاصيل هذه الثورة عند: محمد بن عميرة، **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٤، ص ١٩٧- ٢١٤. وعن تأييد عبد الرحمن الناصر لها، راجع: عبد العزيز فيلالي، م.س، ص١٧٠-١٧١ وأحمد مختار العبادي، م.س، ص٢٤١-٢٤٢.

(٣٣) البيان المغرب، ج٢، ص ٢١٢ – ٢١٣.

(٣٤) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٧١.

(٣٥) نفسه، ص ١٧٢، ١٣٦.

(٣٦) أحمد مختار العبادي، **في التاريخ العباسي والفاطمي**...م.س، ص ٢٣٦.

(٣٧) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٣٢ – ١٣٣.

(٣٨) نفسه، ص ١٣٢.

(٣٩) عالجنا هذه الإشكالية بتفصيل في بحث شاركنا به في مؤتمر نظمته جامعة قرطبة في موضوع "قرطبة عاصمة الفكر في الأندلس: مدينة الحوار الثقافي" ٢٧-٢٩ أكتوبر ٢٠٠٨ تحت عنوان "**قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر: مدينة التعايش وبناء العلاقات الودية بين العالمين الإسلامي والمسيحي**. (لم ينشر بعد).

(٤٠) أحمد مختار العبادي، م.س، ص ٢٤٣ – عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٨٠.

(٤١) نفسه، ص ١٨٠.

(٤٢) ابن فرحون، **الديباج المذهب**، ص ٢٤٨ -أحمد مختار العبادي، م.س، ص 242-243.

(٤٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨، مجلد ٦، ص ٣٤٩.

(٤٤) نفس المصدر والصفحة.

(٤٥) ابن عذاري، م.س، ج٢، ص ٢٢١.

(٤٦) عبد العزيز فيلالي، م.س، ص ١٧٧.

(٤٧) ابن عذاري، م.س، ج٢، ص ٢٢٢- ٢٢٣.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

The most important geometric motifs in mosques of the city of Sana'a during centuries (11-12 A.H /17-18 A.D)



Dr. Hassan Amili
Professor of higher education
Faculty of Arts and Humanities
Hassan II University, Morocco



Dr. Salem Hashem
Lecturer at the Faculty of
Education and Arts and Sciences
University of Sana'a
Republic of Yemen

ABSTRACT

Yemen, like other countries of the Islamic world, has seen a big boom for the Arts architectural and decoration evidenced by the remainings that spread in most Yemeni cities dating back to different periods of time, It was assisted by its heritage of civilization, as the old Yemeni artist has own creations in architecture and related Fine Arts as Sculpture, Painting and engraving. All architectural installations, especially the mosques, in Yemen replete with crowd of stucco, wood and stone decoration, Which is clear evidence of the high skill in the art of decoration, Where these materials were used on a large scale in construction and carpentry works during the Islamic era, on which all sorts of Islamic decoration has been carried out, and geometric decoration comes in the forefront.We will try in this research to review some of the most important geometric decorations carried out on the mosques of centuries (11-12 A.H / 17-18 A.D) in Sana'a, and to know the basic units of its, the kind of materials on which it implemented , the methods of implementation and the first beginnings of its appearance. Eleven Mosques are the number of targeted mosques, four of which (Bakeereya, Talha, Al- Galaa and Al-Elmi Mosque)were built in the century (11 A.H / 17 A.D), and another seven (Al-Haimi, Noseer, the Dome of the Mehdi Abbas, Taqwaa, Muammar, AL-Radwan Mosque and Faye Mosques) were built in the century (12 A.H / 18 A.D).

Keywords:

Decorations; architecture; Mosques; Sana'a; Geometric motifs

Research info:

Received: 30 April 2019
Accepted: 05 July 2019
DOI: 10.12816/0055857

Citation:

Hassan Amili, Salem Hashem, "The most important geometric motifs in mosques of the city of Sana'a during centuries (11-12 A.H / 17-18 A.D)".- Historical kan Periodical. - Vol. (12) Issue (45); September 2019. Pp. 195– 201.

Introduction

Islamic art is distinguished from other arts with its decorative character which can be viewed in all its products, this character was due to the hatred of empty space, where the Muslim artist tends to cover those spaces with decorative units and colors, he always flee of the empty space and considered it as the biggest problems to be faced.

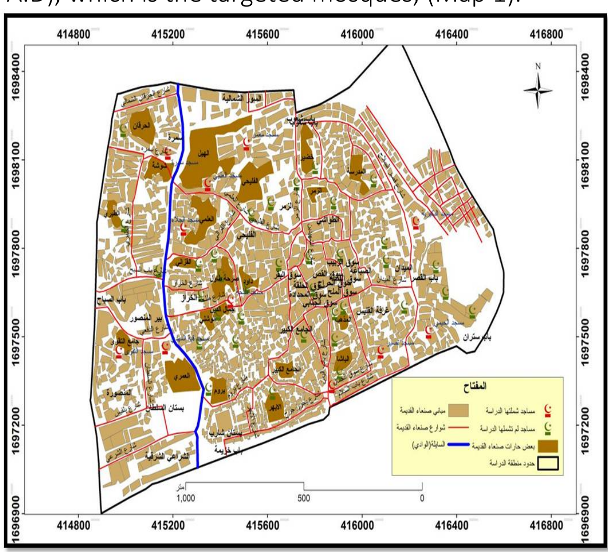
A large share of this decorative art was for decoration Geometric as a result of the development of mathematics in the Islamic civilization and spreading of its knowledge as for its forms and structures of cosmic and symbolic and philosophical overlaps, in addition to the hard-line attitude of the jurists toward prohibition and hate imaging living things. Several types of geometric shapes have been used in Yemen which do not go out of the framework of those existing in the rest of the world as Asterisks, Octoploid or Hexagon shapes which is one of the most important features of Islamic art that the Muslim artist excelled in innovation many forms of them. Double Braid Twist, Pluteaceae forms, Shields, Boukarriet and variety of geometric forms as diamonds, circles and triangles were used.

Commonly, the straight lines used as narrow frameworks and bands surround the plant

decorative elements and the inscriptions, and it acted a key role in designing of the decorations because its movement in any direction was working on demonstrating the geometric models properties which consists of its intersections, and what is the more showing using of such straight lines and sharp broken angles up and down in the niches of mosques and integrated pillars.

Mosques

The mosques of Sana'a is considered to be the most of its important monuments, which spread out in the streets and lanes of the city to confirm possession of the city for all Islamic city properties[1]. Al-San'aani in his manuscript "history of Sana'a " Stated that there were about 106 mosques until Century (4 A.H / 10 A.D) [2].while AL-hajry in his book " Sana'a Mosques" counted of approximately 138 Mosque until the second half of the fourteenth century AH, including (12) mosque outside the city of Sana'a[3],and (7) unknown Mosques[4],and (30) forgotten Mosques[5], (24) Extinguished Mosques.[6], the styles and methods of architectural and artistic for the mosques differ from time to time. However, this difference does not miss the Yemeni General character in terms of building materials and style of decoration.[7]Only forty six of the ancient mosques of Sana'a still opened for worship except a mosque and twenty-one of them with minarets and five with domes [8],eleven of them were built during the period of study in the centuries (11-12 A. H / 17-18 A.D), which is the targeted mosques, (Map 1).



Map (1) the distribution of mosques in Sana'a

Geometric Decorations

Those decorations was known in all previous arts of the of Islam, However, it did not have a big regard only by the Muslims, where the Muslim artist worked on to develop it significantly [9].He innovated many different decorative units and what helped him hatred of imaging the living things in Islam.[10] Geometric decorations have become as one of the main basic Islamic decorative elements were used clearly since the Umayyad period, and was with high degree of accuracy and creativity, although the basic forms stem from simple shapes such as Straights, squares, circles, triangles and, intersecting tangentially circles and other shapes.[11].

Here are some of Geometric units carried out in mosques of the search :

Astrocytes plate[12]

It was one Of the most important geometric decorations, which excelled by Islamic art and adorned with monuments and artifacts surfaces of different materials, and began appearing since the Umayyad period, and spread widely in late Fatimid era and during the Ayyubid, also commonly used in the Mamluk era[13], and we find strongly in the artistic style in Morocco and Al-Andalus.[14]
While In Yemen, like the rest of the countries of the Islamic world, this type of decoration was found, the oldest work arrived to us back to the Abbasid which was in the diverse decorations in wooden ceilings in the Mosque of Sana'a and Kawkaban Shibam Mosque at the time of al-yafar (265 AH / 878 AD).As well as in the decorations of mosque AL-saidah Bint Ahmed in the city of Jableh (480 AH / 1087 AD)[15] also it was continued to be used in the buildings of Apostolic Age in Taiz such as Al-Ashrafieh school and Muzaffar mosque[16], the most beautiful examples of the era of Al-Taheri were found in Radaa School [17].

some examples of astral plate in the mosques of the research, are found on the upper square filling of the door of the pulpit inside the house of prayer in the mosque of Demo Al-Mahdi-Ledin Allah Abbas, and on the wooden coffin in a mausoleum next to the mosque from the west, and it was carried out specifically on the central filling of the second-level in North and south facades of the tomb of Demo Al-Mahdi-LedinAbbas, (Figure 1).

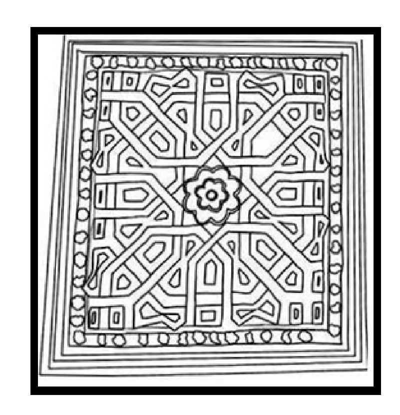


Fig (1) Astral plate

Double Braid Twist Decorations:

It is a decorative unit formed from the twist two lines around each other to constitute oval forms [18],the forms and models of them were found in the ancient civilization of Yemen, specifically on Othtr temple pillars in Al-Sawdaa city which dates back to the fifth century BC[19], and in the Islamic era Yemeni architecture used these decorative unit heavily on the facades of houses and minarets of mosques, it can be seen in the Minarets' bases of the Mosques of AL-madrasah, Al-Zomar, Salahuddin and Moses[20], minarets of research mosques in which this decoration was found are the Minarets' bases of Bakeereya Dome and Dome of the Mehdi Abbas Mosque, and on the upper hull of the minaret of AL-Alami Mosque, the plaster material and prominent drill style used in the implementation .(Figure 2).

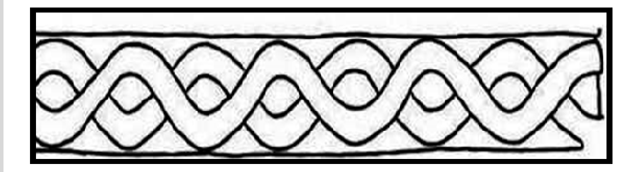


Fig (2) Double Braid Twist Decorations

Zigzagging Decoration

A unit geometric motifs consists of contiguous zigzagging geometric lines surrounded by a row of triangles on both sides. It was found in ancient Yemeni architecture in the form of decorative frames to frame other decorative modules as it was in Athtr Temple[21],this type of decoration reached a high degree of perfection where the length of descending and ascending lines to be equal which indicates the skill of the Yemeni artist and his knowledge of the science of geometry, It spread on buildings, both civil and religious, where we find it to decorate the facades of houses of Sana'a and other cities as belts Separating each floor and next [22],it can be seen adorning some parts of the minarets of mosques in Sana'a such as Salahuddin and Al-madrasah Mosques, also decorating the top of the minaret of AL-ALMI mosque, one of the research mosques, and the plaster and prominent drill style was used in implementation (Figure 3).

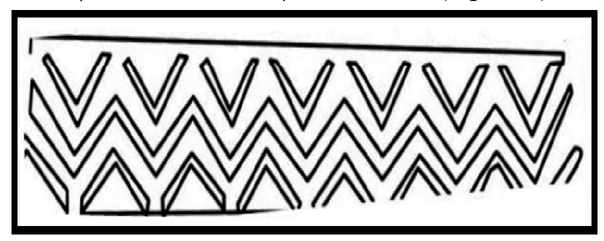


Fig (3) Zigzagging Decoration

Lozenges Decoration

Like its predecessors of finishes its origins back to a period of pre-Islam where we find it on the Othtr temple pillars [23],and it continued to be used in various Islamic eras to become the most prevalent types of geometric motifs on the facades of religious and civic buildings in Sana'a , Zabid, Taiz and other cities [24],It was implemented on the plaster with the ways of interna and prominent drilling and in other various forms either solid or hollow, upright or upside down or to be implemented by brick substance, it can be seen in the hull bottom motifs of the minaret of AL-almi Mosque, and In the decorative ribbon which culminates the interfaces of the structure in both Takwa , Radwan, AL-noor and Naseer Mosques, In decorative ribbons that surround of Solid Hanaya in the bottom recess of niche in AL-haimi Mosque. we find it in the dome of Bakeereya mosque in the decorative ribbon around the windows, Eastern hallway, and in the motifs of the lower body of the minaret, and in the bottom of the minaret of the Dome of the Mehdi Abbas Mosque, As well as in the sides of minaret Josag, (Figure. 4).

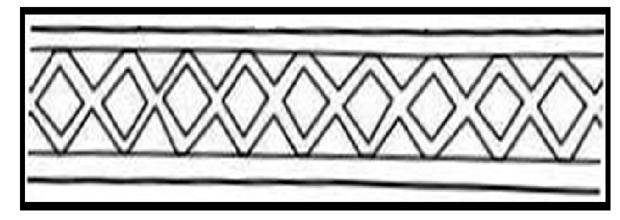


Fig (4) Lozenges Decoration

Alboukarriet Decoration

It is a decorative unit with an oval or round shape often associated from the top and bottom of decorative botanical identical trinket composed of triple leaf or five-lobed, usually the inside is decorated with motifs of a written, geometric or plant content[25]·It spread out in the most mosques and schools in Apostolic and Tahiri eras [26], as we find many models of them in religious facilities in Dhamar city ،[27], for the study mosques, its presence confined in mosque of Bakeereya Dome where we find it to adorn the three domes of South a penthouse and it carried out of the plaster in a way of prominent drilling, there are two different models of it, the first with Oval from inside and decorated by Floral and geometric motifs and its ends come with five-lobed leaf. and the second with Square shape its inward decorated with motifs of Arabic securitization and its ends come with Trilobites leaf (Figure. 5 a - b).



Fig (5 – a) Boukarrieh



Fig (5 – b) Boukarrieh

Fig (6) triangular decoration – plume tribune of Bakeereya

Decoration of Triangles:

The triangles element is one of the oldest decorative elements where it has been found on the antique pottery dating back to the seventh century BC in both ancient Samarra site, Mesopotamia and Stahl Hyuk in Anatolia [(28)].It appeared in several ways and on different products such as wall paintings and frescoes, rock paintings, and the inner decoration of homes, as well as wooden doors, ornaments and others of decorative objects. in the sense that it is common use element In terms of the spatial spreading and temporal continuity [(29)].

The triangular decoration is a result of the intersect of geometric lines in three angles, the number of triangles depends on the amount permitted by the movement of those lines, for example, the meandering line with sharp angles can produce a range of triangles in the form of a horizontal or vertical bar after drawing a straight line touching the ends of the wall strip[(30)], the oldest date of the emergence of triangular decoration in Yemen back to the eighth century BC, where it was found on a fragment of pottery vase at Hajar bin Humaid site Showing triangles-tipped decoration flying up and regular horizontally[(31)]of its examples in the mosques of the study, what was found in the marble plume tribune of Bakeereya mosque, and it was carried out in a manner relief drilling, as it can be found in the inner of the solid arch , which is above the eastern window, In the transition areas in the corners of South Penthouse domes and Al-mtahir domes, And we can find it in the decorative ribbon which crowned the interface AL-mtahir in AL-Alami Mosque, and it appears in AL-Haimi Mosque in the soles flat niches where each of them mediates of plaster shelf, its base Shaped in the form of an inverted triangle and the previous examples were carried out of the way of prominent drilling (figure 6).

Circle Decoration:

One of decorative elements that the human inspired of his surroundings like other elements, many of cosmic phenomena such as sunrise, sunset, waves, sea, meteorites and what found in nature are considered one of the sources from which some decorative elements were taken [(32)].we find that the Circle is representative of rotate the sun or the moon or the tree fruits of Circle shaped. It also represents morally a lot of things as permanency, continuity, lack of interruptions and a symbol for productive and renewable energy .[(33)].it is considered to be The more kinds of geometric motifs prevalent where there are in all mosques or in different places, and it is often come in the Shape of frame surrounds the floral or written decorative geometric and permeate the decorative Stripes carried out on the inner walls of Mosques or to frame decorations in insider of domes and niches within hollow and flat Niches.

there are many examples of it, among them what found in the mosque of Bakeereya Dome, In the soles of sunken Solid Hanaya down the Tribune, it carried out on the material marble, we can find it also in the decorative ribbon surrounding written strip on the top of southern entrances to the structure in the inner of tapered arc on the top of Northern window in the west wall, and in Al-Haimi mosque permeate the written frescoes Stripes in the western and eastern walls, and mediates the second level of the stucco mass located on the top of the southern entrance of Takwa mosque, its inner has been decorated with What looks like eight Star (Figure 7 a - b).

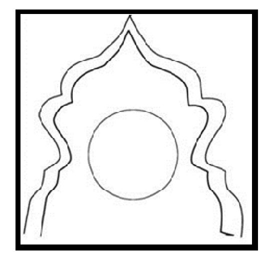


Fig (7 – a) Circle Decoration plume tribune of Bakeereya Down

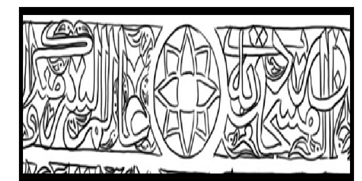


Fig (7 – b) Takwa mosque – the circle in the middle of the stucco mass

Six-pointed star decoration (34)

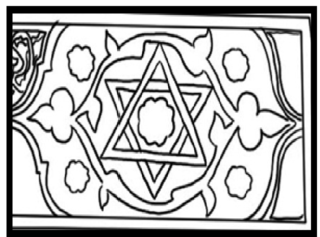
Six-pointed star did not exceed in the Arab Islamic art as a symbol expressive decorative free of any meaning or significance[35], Muslim artist used to implement geometric decoration with its diverse forms of squares, rectangles, lozenges and multiple warheads stars up to twelve head just to have only one meaning that fill blanks by the Islamic manner،[36] to realize the known Islamic artistic principle (Unity and Diversity).[37]

And we found it in Hisham's Palace in Jericho, Palestine It represents one of the windows of the second floor of the palace, as well as in Mushatta Palace in Jordan, and it's found in the palace and Mustansiriya school and the Mosque of Ahmad Ibn Toulon in the Abbasid era , In the Fatimid era found in the Al-Azhar mosque in Cairo , As we find in the ancient wall of the city of Jerusalem, which dates back to the Ottoman era[38].

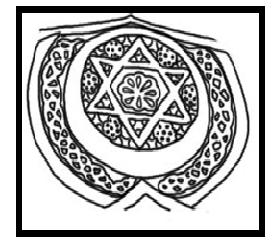
In Yemen, The oldest appearance for it back to the Islamic Umayyad period and the time of al-yafar (262 AH / 875 AD).Where we find in three and five Al-oscob of the roof of the al-kaber Mosque two big boxes their decoration consist of Star hexagonal on the shape of rose [39]and then continued to use in subsequent periods at various architectural installations, especially religious ones.

According to the mosques of study there are only three of them found the Six-pointed star decoration the first Bakeereya Dome Mosque,Where we find it adorn the inner side of the arc of Western window , it decorates the soles of cartridges also adorn the top of the rectangular region of north window in the western wall, and those that mediate the circle in the middle of decorative ribbon South arc for the Central Dome, was implemented on the plaster in a drilling prominent manner, while in The dome of the Mehdi Abbas Mosque it is found in the windows of the structure where soles of the Upper Stuffing of the windows shutters with Geometric motifs consist of starlets hexagonal contiguous composed through them Hexagonal sides,

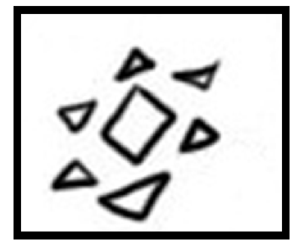
At the interface of the lower Stuffing of the eastern entrance to the main structure where was decorated with a connection of hexagons small and large sides through which stars generate heads hexagonal painted in gold, And mediates a series of boxes that adorn Jawasaq sides in the minaret of the mosque,also it's found in the tomb of al-alami mosque where the center of the top Stuffing of the southern entrance shutters of the shrine door decorated with hexagonal star carried out by a narrow strip of metal, (Figure. 8 a - b - c).



Fig(8-a) Six-pointed star Bakeereya



Fig(8-b) Six-pointed star Bakeereya



Fig(8-c) Six-pointed star The dome of the Mehdi Mosque

Conclusion

- Develop a map identified the target mosques sites.
- All kinds of geometric decorations in all the mosques of the search were found.
- Most of these decorations found in the arts of ancient civilizations.
- Using relief & prominent drilling methods in the implementation of those decorations.
- These decorations were carried out on four types of materials (marble - Plaster – Wood- metal).

Most of these decorations have not had in the Islamic art of any substance or significance other than being decorative abstract form.

Notes:

(١) البناء: محمد محمود، **دراسة ترميم وصيانة مدينة صنعاء القديمة**، رسالة دكتوراه، قسم ترميم الآثار، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٩٩.

(٢) الصنعاني: إسحاق بن يحيى بن جرير، **تاريخ صنعاء**، مخطوط في مكتبة القاضي علي بن محمد الأكوع الحوالي، ورقة ٦٧ – ٦٨؛ بيضاني: إيمان محمد عوض، **صنعاء في كتابات المؤرخين والجغرافيين المسلمين في القرن الرابع الهجري (٣٠٠ – ٤٠٠ ه)**، دار الثقافة العربية للنشر، الشارقة – الإمارات، جامعة عدن، خور مكسر، ط١، ٢٠٠٢، ص ٨٧.

(3) Abu Shamlah mosque، a mosque Albulala، a mosque Rahbi, Saadi Mosque, Ahariqh mosque, and Elk Mosque, the original offer Mosque, the new offer Mosque, scalp mosque, let's mosque, Masjid donation, the cemetery chapel.

الحجري: محمد بن أحمد (ت. ١٣٧٩ه/ ١٩٦٠م) **مساجد صنعاء عامرها وموفيها**، وزارة الثقافة والسياحة، ٢٠٠٤، ص ١١ – ٢٤ – ٥٧ – ٥٩ – ٦٤ – ٧٣ – ٩٠ – ٩١ – ٩٨ – ١٣٣ – ١٣٨.

(4) Najjar Mosque, mosque hind bintqatran , yaeesh Mosque , Zurayk Mosque, Mosque of Ibnzead, al-Baghdadi, mosque, mosque Mohammed bin Khalid Barmaki, al-amir mosque, mosque Ali bin AbiBakr, Maan Bin zaedah Mosque,

الحجري، المصدر نفسه، ص ١٤٨ – ١٤٩.

(5) Forgotten Mosques are small mosques lacked special Mtahir" bathrooms" and for the rest of the secondary and supplementary services, that was due to it has been established without endowments devoted to its service serve, they are very small in terms of size and area, including Bqlan Mosque, Al-rgima mosque, women Mosque, AL-Taqwa Mosque, Hemiar Mosque, Al-chabah mosque, AL-rasas mosque and others,

الحجري، المصدر نفسه، ص ١٤٦ – ١٥٢؛ مركز الطاهر، **صنعاء أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة، دراسة تحليلية على العاصمة صنعاء**، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، ٢٠٠٥، ص ٢٩٨.

(6)Extinguished Mosques are; Noah's mosque, Al-Mokadam mosque, Al-Montakem Mosque, Muawiya Mosque, Moaidh mosque, al-Kaabi mosque, Kuteib Mosque, Al-kalab Mosque, Ayadh Mosque, okasha mosque, Al-taq mosque, Al-sofah mosque, AL-shahed mosque, Zubair Mosque, AL-romanah Mosque, Aldhanh mosque, AL-khawi mosque , AL-jareah mosque, al-Badawi mosque, Abe Sahl mosque , Abe Alrajaa mosque, AL-abyadh mosque, AL-wadhi mosque, AL-kab mosque, الحجري، مصدر سابق، ص ١٠ – ١٩-٢٧-٥٥-٥٧-٥٨-٦٤-٦٦-٧٤-٩٢-٩٤-٩٦-١٠٣-١٠٤-١٢٣-١٢٤-١٣٥-١٣٩-١٤٩..

(7) Lewcock, Ronald, The old walled city of Sana'a, Unesco, united nations educational, 1986, p 85.

(٨) الأكوع: إسماعيل بن علي، **لمحات تاريخية عن صنعاء، الآثار الإسلامية في الوطن العربي**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المؤتمر التاسع للآثار في البلاد العربية، تونس، ١٩٨٥، ص ١١

(٩) الجمعة: أحمد قاسم، **الزخرفة الرخامية، موسوعة الموصل الحضارية**، م٣، جامعة الموصل، ط١، ١٩٩٢، ص ٣٥٠؛ غيلان: حمود غيلان، **الأخشاب المزخرفة في اليمن (٢٦٥ – ٥٣٢ه / ٨٧٨ – ١١٣٧م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٩٦م، ص٦٩. .

(10) Received an honorable sayings of the Prophet in the books of the main talking accredited described hatred of photography، see Sahih Muslim، Book dress and decorations, parts, 98.99, and SahihBukhari

(١١) الكوماني: صلاح، **مساجد مدينة ذمار حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري**، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة صنعاء، ٢٠١٠، ص٢٣٧.

(12) Are polygonal decorations mounted to each other so that make up the semi-dish strikethrough form of astral from which other parts of the dish,

الشرقاوي داليا، **الزخارف الإسلامية والاستفادة منها في تطبيقات زخرفيه معاصرة**، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الزخرفة، كلية الفنون التطبيقية، جامعة حلوان، ٢٠٠٠، ص ١٣.

(١٣) الحداد: عبد الله عبد السلام، **مقدمة في الآثار الإسلامية**، دار الشوكاني للطباعة والنشر، صنعاء، ط١، ٢٠٠٣، ص ١٧٢؛ الشرقاوي، مرجع سابق، ص ١٣-١٤؛ رزق: عاصم، **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠، ص ١٨٠.

(١٤) العمر: هدى، **روائع الفن الإسلامي** ١-٤، جريدة الرياض، ع ١٦٨١١، يوليو، ٢٠١٤

(١٥) سيف: علي سعيد، **مآذن صنعاء مدينة صنعاء حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، دراسة أثرية معمارية**، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء،٢٠٠٤، ص ١٦٨؛ غيلان، مرجع سابق، ص١١- ١٨.

(١٦) الراشد: عبد الله إبراهيم، **المنشآت المعمارية الرسولية في اليمن: دراسة تاريخية حضارية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، ١٩٩٢، ص ٢٦٨.

(١٧) المطاع: إبراهيم أحمد، **المدرسة المنصورية بمدينة جبن باليمن، دراسة أثرية حضارية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآثار، ١٩٩٤، ص ٢٧٧؛ الحداد: عبد الله عبد السلام، **مدينة حيس اليمنية تاريخها وأثارها الدينية**، دار الأفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٩، ص ٣١٢.

(١٨) سيف، مرجع سابق، ص ١٦٩.

(19) Grohmen,A. Kulturgeschichte Des Alten Orients Germany, 1963,p 160-163.

(٢٠) سيف، مرجع سابق، ص ١٦٩

(٢١) سيف، مآذن صنعاء، مرجع سابق، ص ١٦٩.

ملخص الدراسة:

اليمن كغيرها من بلدان العالم الإسلامي شهدت ازدهاراً كبيراً للفنون المعمارية والزخرفية بدليل الآثار الباقية التي تنتشر في أغلب المدن اليمنية التي يعود تأريخها إلى فترات زمنية مختلفة، وقد ساعدها على ذلك ميراثها الحضاري، إذ كان للفنان اليمني القديم إبداعاته في فن العمارة وما يتصل بها من فنون تشكيلية كالنحت والرسم والنقش. وتزخر جميع المنشآت المعمارية في اليمن، وخاصةً المساجد بحشد من الزخارف الجصية والخشبية والحجرية التي تُعَدّ دليل واضح على المهارة الفائقة في فن الزخرفة، حيث جرى استخدام تلك المواد على نطاق واسع في أعمال البناء والنجارة خلال العصر الإسلامي، ونفذت عليها كل أنواع الزخارف الإسلامية وتأتي في مقدمتها الزخرفة الهندسية. وسنحاول في هذا البحث استعراض بعض أهم الزخارف الهندسية التي نفذت على مساجد القرنين (١١ – ١٢هـ/ ١٧ – ١٨م) بمدينة صنعاء، ومعرفة الوحدات الأساسية لها ونوع المواد المنفذة عليها وطرق تنفيذها والبدايات الأولى لظهورها. ويبلغ عدد المساجد المستهدفة أحد عشر مسجداً أربعةً منها (مسجد قبة البكيرية، مسجد قبة طلحة، مسجد الجلاء، مسجد العلمي) شيدت في القرن (١١هـ/ ١٧م)، وسبعةً أخرى (مسجد الحيمي، مسجد نصير، مسجد قبة المهدي عباس، مسجد التقوى، مسجد النور، مسجد معمر، مسجد الرضوان، مسجد فايع) شيدت في القرن (١٢ هـ /١٨ م).

(٢٢) سيف، المرجع نفسه، ص ١٧٠.

(23) Geohman, opcit, p 160.

(٢٤) الكوماني، مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٢٥) رزق، مرجع سابق، ص ٣٣.

(26) Where we find in both domes Ashrafieh school and a mosque in Taiz apostolic Muzaffar, the school Mansuriyah in cheese, a school Radaa Tahirid and implemented a color, الكوماني، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

(27) We find in both Imad al-Din mosque and ama Shams al-Din, a mosque, a prince, and the shrine of Imam Yahya bin Hamza, and Zain soles those Alboukarriet floral motifs and geometric and written, الكوماني، المرجع نفسه، ص ٢٣٩.

(٢٨) الغزي: عبد العزيز بن سعود، **زخرفة المثلثات المتقابلة الملونة على الأواني الفخارية في عصور ما قبل الإسلام ودلالتها الرمزية**، قسم الآثار، كلية السياحة والآثار، جامعة الملك سعود، الرياض،١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص ٦٧

(29).الغزي، المرجع نفسه، ص ٢٤

(30).الغزي، مرجع سابق، ص ٦٣

(31) Beek. Gus van. Hajar Bin Humeid: Investigations at a pre – Islamic Site in South Arabia. Baltimore: the johns Hopkins press, 1969.

(٣٢) الغزي، مرجع سابق، ص ١٧

(٣٣) الغزي، المرجع نفسه، ص ١٨.

(34) Found in ancient Egyptian inscriptions and Hinduism, and Chinese, as in the inscriptions of South America, also found on the seal of the Hebraic dates back to the seventh century BC, and was used in the previous examples as a form decorative and have no substance or significance,

أبو دية: عدنان أحمد، "**القيم الرمزية للنجمة السداسية**"، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الحادي والثلاثون، تشرين الأول، ٢٠١٣، ص ٣٤١.

(٣٥) أبو دية، مرجع سابق، ص ٣٤٩.

(٣٦) طالو: محيي الدين، **الفنون الزخرفية (زخارف عبر التاريخ)**، ج٥، دمشق، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥، ص ٢٧.

(٣٧) أيفا ويلسون، **الزخارف والرسوم الإسلامية**، ترجمة أمال مريود، دار قابس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ن، دون رقم الصفحات.

(٣٨) أبودية، مرجع سابق، ص ٣٥٠-٣٥١.

(٣٩) غيلان، مرجع سابق، ص ٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

Articles

Examples of Crusader violations of human rights in the Levant through the book of ALkamil by Ibn al-Atheer (491- 587 AH /1097- 1192 AD)



Dr. Gassan Mahmud Weshah
Head Of History And Archeology Department
Islamic University Of Gaza
Gaza – Palestine

ABSTRACT

European Christian sent a number of military campaigns to the Levant since (491 AH / 1097 AD); its goal is to occupy Palestine and the Levant, In order to achieve this goal, the Crusaders used excessive force, violating human rights in all its forms and at all levels. They committed massacres against thousands of Palestinian civilians, destroyed farms and markets, killed innocent civilians, attacked scientific and religious institutions, by targeting the roads and their siege of cities, They violated the rights of merchants, passers-by and pilgrims and their siege of cities. The Islamic historian Ibn al-Atir has chronicled these events in time and place and wrote them down in his full book in history; his story is the truth as an eyewitness.

Keywords:

Human rights; Crusaders; Holy places; Tripoli; Genocide

Article info:

Received: 16 Augusts 2018
Accepted: 06 October 2018
DOI: 10.12816/0055858

Citation:

Gassan Mahmud Weshah, "Examples of Crusader violations of human rights in the Levant through the book of ALkamil by Ibn al-Atheer (491- 587 AH / 1097- 1192 AD)".- Historical kan Periodical.- Vol. (12) Issue (45); September 2019. Pp. 202 – 206.

Introduction

Ibn al-Ather in the book "Alkamil" on the violations of the crusaders of human rights in the Levant of the year (491- 584 AH / 1097 - 1192), is the most accurate novel, especially Ibn al-Atheer time and place of events, In all its forms and at all levels, The Crusaders violated the political, civil, economic, religious and cultural rights of the original inhabitants of the land. The Crusaders besieged the cities. They were then overrun by the destroyers of farms, fields, markets, institutions and massacres. They also violated economic rights by threatening the roads of commerce, closing markets, destroying agricultural lands and controlling a large part of them. The destruction of institutions, the killing of scholars, the prohibition of adhaan and rituals, and the destruction of mosques.

The importance of studying:

1. Defining human rights in terms of origin and development.
2. Highlighting violations by the Crusaders of human rights in the political, security, civil, social, economic, religious, and cultural spheres; through Ibn al-Atheer's accounts in Al-Kamil.
3. Acquaintance with the approach of the historian Ibn al-Atheer in presenting his book.

1-The meaning of human rights

The right to language means certainty[1] in Arabic some times, and the linguistic material of the word "right" is based on several meanings, such as "confirmation", "necessity" [2] The use of the word "right" in the Qur'an is expressed in several meanings , And the word "Haq" in the Holy Quran is one hundred and forty-nine times.[3]

In the Prophetic Sunnah it was used in several places,

The Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) said: "Allaah has given everyone who has his right"[4], It seems that scholars of Islamic jurisprudence did not care about the definition of "The linguistic meaning especially that it is clear and unambiguous, but the son of Najim knew: "the right is what the man deserves, and also is the thing in every face and no doubt in it.[5]

-As for the term human rights, it is a composite address of two additional synthetic words, "rights" and "human beings", although the term is well known; this does not absolve its definition; , And that is supposed to be a human being, and needs in his life, to preserve his life and dignity, security and privacy, so as not to conflict with the public good, and the decisions of Islamic law[6], This is not contrary to the Universal Declaration of Human Rights adopted by the General Assembly of the United Nations in Paris in 1948[7]

2-The siege

The Crusaders adopted the siege as an essential means of overthrowing the cities, forts and Islamic castles for their occupation; examples are numerous.

2/1-The siege of Tripoli (503 AH / 1110 AD)

Ibn al-Atheer narrated that: "And Faraj extended the fighting against them from the towers and the creeping, and attacked the country and they monopolized it and forced it on Monday for eleven nights of Dhu al-Hijjah, They looted what they had. They captured the men. They robbed the women and the children, looted the money and plundered their people. Of money, luggage, wrote the role of science suspended, what is not limitless, , And its people were among the most people of the country funds and trade, and the governor who was in it, and a group of its soldiers were seeking safety before opening, and arrived in Damascus, and punished the people of the people of the types of sanctions, and took their ammunition in their vaults[8].

2/2-The siege of the stronghold of the Aatharab and the fortress of Zardana

The Crusaders besieged these fortresses in the year (504 AH / 1111 AD). Ibn al-Atheer described the situation of distress that passed on from inside to Salmoh where he said: "The collection of the Antioch Asakrah of the Franks, and the crowd of the knight and the leg, and marched towards the fortress of the Ethiopians, So it became difficult for Muslims, and they came out of the castle and stood up, and they came out of it to the tent of Antioch and killed him, and when they did so and approached his tent, And the families of the rest, and then marched to the fortress of Zerdna, examined it, and opened it, and did with his family like the relatives, when the people heard Mnbj so Faroukha fear of the Franks, as well as the people of some countries, and the intention of the two countries[9].

2/3-The siege of the Eilon fortress

It was in the year 578 AH (1183 AD) where "the prince of Karak worked a fleet and emptied it with rubbish. All that was left was to gather his pieces together, and to carry them to the sea of his father, and to collect them as soon as possible. Two groups: a band established on the fortress of Ayla, which is for Muslims to harvest it, and prevents his family from receiving water, so his family received great intensity and great distress.[10]

3-Expulsion of the population from their homes

Many of the inhabitants of the Levant during the period of Crusader control were abandoned from their cities, fortifications and towns. In the year 494 AH (1101 AD), when they "ruled Arsuf safely, they took their people out of it" (499 AH / 1106 CE) "When the fall of the city of Tire 518 AH, when the governor of Tgtkit decided to" deliver the city to them and enable them from the army and the parish to get out of them by what they can of their money and their travel and others , And settled the base on it, and opened the doors of the country, and the king of the Franks, and his family, and dispersed in the country, and carried m And they left what they were unable to do, and did not offer the Franks to any one of them, and left only the weak inability to move.[11]

4-Genocide

This was manifested in the worst forms when the Al-Aqsa Mosque fell into the hands of the Crusaders in the year (492 AH / 1099 AD) expressed by Ibn al-Atheer when the sword resembled the animal that forced the people to ride to die, he said: "People took the sword, A group of Muslims took refuge in the sanctuary of David, so they held on to him and fought for him for three days, and the Franks gave them safety, and he gave them to them, and the Franks answered them, and went out at night to Ashkelon, where they dwelt, and killed the Franks at the Al-Aqsa Mosque. The imams of the Muslims, their scholars, their worshipers, and their scholars, who differ from the otaites And surrounded the place of the Sharif, and they took from the rock forty-four silver cane, the weight of each Kandil

three thousand and six hundred dirhams, and took a silver lantern weighing forty pounds in Shami, and took from the small jellyfish one hundred and fifty-foot-click, and the gold and twenty-twenty monkeys, a lot.[12]

And when they came to the castle called Ankhuriyya, they took it and killed it from the Muslims " when he arrived in the city of Antrussus , Which is of Tripoli, Vskrha, and opened, and the killing of the Muslims, "was in the year (495 AH / 1102 AD)[13]

As the army of the Crusaders did when it defeated one of the Muslim armies led by the son of Persia, "followed by the Franks slightly, and then returned and completed the booty and murder, and burned a lot of people" in the year (509 AH / 1119 AD), and in the year (511 AH / 1118) Hama from the Levant, and killed more than a hundred men and returned [14]

In the year (532 AH / 1138 AD), when the fortress fell Bza'a[15] after the Romans lived ten days require to disappear, it was said to them: that many of the people of this area have gone down to the caves, Vknoa them, and perished in the caves[16]

5-looting and theft

This is the main characteristic that accompanied the Crusaders in all their wars in the Levant, because the basis of their arrival was ostensibly religious, but the facts on the ground proved that they came to steal the land and all its capabilities. When the Crusaders entered Antioch in 491 AH (1098 CE), they looted and killed From which the Muslims, and that the first Jumada"[17]

In the year (494 AH / 1101 AD) the Crusaders marched to Suruj, Vskroha and handed over, and killed many of its people and take their women, and looted their money, and did not deliver only those who went defeated and Rajab, and ruled the city of Caesarea sword, and killed the people, and looted what is in it[18]

And when the looting of Tripoli in the year (503 AH / 1110 AD), where the crusaders increased fighting from the towers and crawling, attacked the country and stole it on Monday, the 11th of the month of Dhu al-Hijjah of the year, and looted what, and arrested men, and took women and children, and looted money and purposes and books, Countless, its people were among the most people of the country funds and trade.[19]

In the year 502 AH (1109 AD), when "Jocelyn arrived at Manbaj, he attacked and looted it." In 513 AH (1120 AD), Josselin, the owner of Tel Başer, gathered in a group of the Franks about 200 Persians from Tiberias, "In the year 573 AH / 1178 AD, a group of Franks gathered and planned the works of Homs, and they plundered and plundered. They were captured and swamped. This year, on the same day, the Franks gathered and marched to the land of Damascus with their king. And in the year 578 AH (1183 AD), a group of the Prince of Karak teams headed towards Ayyab. "They were spoiled on the coasts, looted, and took what they found from the boat. Mieh and the traders, and Bngoa people in their own country by surprise them, they did not entrust this sea Franjia never not a merchant nor a warrior "[20](494 AH / 1101 AD), and the captivity of all women and children in Tripoli in the year (503 AH / 1110 AD) when they attacked the country And his kingship was a disgrace in Dhu al-Hijjah of the same year, and looted what was in it, and captured the men, and robbed women and children, looted the money, and plundered their families with money, luggage, and science, which does not limit the number of people. (573 AH / 1178 AD) when "a group of Franks gathered and intended the works of Homs, and they plundered and plundered it. Rua Spoa "(), and in the year (574 AH / 1179 AD) met the Crusaders and marched to Damascus with their own country, Vogarwa on its Venhboha and captured and killed, and they enslave.[21]

6-Sabotage of Agriculture

The commander of the Frang Beymont - the owner of Antioch - in Rajab in the year (493 AH / 1100 AD) marched to the fortress of Afamiyya[22] , surrounded it, and fought its people for days, and spoiled its crops and then departed from them ", and zero year (517 AH / 1123) , Of the work of Aleppo, and the reason for that: that they had increased the intent of Aleppo and its actions by raiding, vandalism, and burning ".

7-Cutting the Road

The events of this crime were as follows:

In the year (502 AH / 1109 AD) a great lock went from Damascus to Egypt, and the news came to the king of the Franks, and went to him and opposed him in the land, and took all of them, and did not deliver them only a little, and the ladder taken by the Arabs " in the year (504 e) (1111), and a year (507 AH / 1114 AD) a great lock went from Damascus to Egypt, and the news came to Baghdoyn king of the Franks (Peace and blessings of Allaah be upon him)

And in the year zero (527 AH / 1133 AD), the king of Shams the kings, the owner of Damascus, the fortress of Banias of the Franks, and the reason: that the Franks weakened him and greed him, and resolved to break the truce between them, and exposed to the funds of a group of Damascus merchants in Beirut to Shams Almuluk Vrsal in the return of what they took, and repeated in it, they did not want anything, and carried by the nose of these

The situation, and anger, that the collection of his army and preparedness, and no one knows where he wants "[23]

In the year 567 AH / 1172 AD, two vessels were brought out of Egypt to the Syrian city of Farsia in the city of Lattakia. They took them to the Frenj and they were filled with luggage and merchants, and between them and Nur al-Din Hidna, they retreated and betrayed. He sent Nur al-Din to them in the sense and returned what they took from the merchants' money. , And protested, inter alia, that the two boats had been broken and the water entered"[24]

8-treason and breach of covenants

When the siege of the city of Jubail (497 AH / 1104 AD), and saw the inability of their people to repel the Frenj took safety, and handed the country to them, did not meet Fronj them safe, and took their money, and exhausted by sanctions and types of torture[25]

At the time of the fall of the city of Sidon, where the Franks (504 AH / 1111 AD) built a tower of wood, and made it hard to keep fire and stones, and when they saw the people of Saida, they weakened their souls. The judge and a group of elders to the Franks, and asked their owner safety and security of themselves, and their money, and the army that they have, and those who wanted to where they have secured him, and those who wanted to walk them did not prevent him, and swore to them, and the governor went out, and many of the people of the people of the country , On the twentieth of Jumada I to Damascus, and established the country created a lot under the security, and the duration of the siege insulted And then returned to Sidon, after a short time, and decided on the Muslims who set up twenty thousand dinars, the poorest, and took their money.[26]

And in Safar (527 AH), the king of Shams the kings, the owner of Damascus, the fortress of Banias of the Franks, and the reason: that the Franks weakened him and greed him, and resolved to break the truce between them, and exposed to the funds of a group of Damascus merchants in Beirut, , Vrsl in the return of what they took, and repeated the saying, they did not want anything, Alnafh Alnafh of this situation, and anger, to collect his army and readiness, and no one knows where he wants[27]

In the year (532 AH / 1138 AD), the king of the Romans assassinated Baaza, and set up a catapult, and narrow on the one who took her safe on the twenty-fifth of Rajab, then betrayed her family and killed them and captured and captivated "(), and in the year (567 AH / 1172 m) Then he sent Nur al-Din to them in the sense and returned what they had taken from the merchants' money, and they accused him, among other things, that the two had been broken and they the water entered.[28]

And when the fall of Acre (587 AH / 1191 AD) and the governor decided to hand over due to the severe siege; he went to the Franks, and decided with them to hand over the country and went out of it with their money and themselves, and so for them two hundred thousand dinars and five hundred prisoners of the known, and the mony for the owner of the city, and answered him, and swore to him, and that the length of the collection of money and prisoners to two months, when they swore to him handed the country to them, and entered the ladder, when they owned the Muslims betrayed their money and imprisoned people there.[29]

9-Violation of the sanctity of holy places

When the Farkhshah - deputy Salah al-Din Damascus - to the work of Karak year (577 AH / 1182 AD) and stole, and the reason that the owner of the Karak, the most hostile to the Muslims, and prepared, and collected his army and possible combination, and determination on the path to righteousness to Taima, The city of the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him), to take over those honorable areas. So Izz al-Din Farkhshah heard that. He gathered the Damascene armies and went to his country and stole it and destroyed it, and returned to their country Where he lived to prevent the prince from the Islamic countries.[30]

When Salah al-Din al-Karak was besieged in 583 AH (1188 AD), when the news came that Prince Arnat, the owner of Karak, wanted to go to the pilgrims to take them from their way. He showed that if he finished taking the pilgrims back to the Egyptian military road, He was one of his relatives, including Muhammad ibn Lajin, the nephew of Saladin, and others. When Arnat heard that Saladin was close to his country, he did not leave him, and he left what he greed, and brought pilgrims safely.[31]

Conclusion

The study reached a number of results, the most important of them, which are:

- Crusader occupation followed the siege method adopted in the control and occupation of cities and castles and forts.
- The Crusaders violated the economic rights of the Cham people; when they besieged cities, cut off trade routes, destroyed agricultural land, attacked the markets, and killed the merchants.
- Crusaders violated the religious rights of the people of the Levant; when they destroyed mosques and religious institutions, banned religious rites, and cut off pilgrims' roads.
- Ibn al-Atheer presented his book in history; a clear picture of the violations of human rights crusaders in the Levant, especially that he derived the article of his book from the watch sometimes, and others quoted witnesses.
- The Crusaders committed a number of massacres against the indigenous population.
- Crusaders adopted the method of destroying scientific and religious institutions and attacking clerics and scientists.

Notes:

1 Al-Razi, Zinedine Abu Abdullah Muhammad ibn Abi Bakr bin Abdul Qader Hanafi. (666 e). Mukhtar al-Sahah. (1c). (I). (Investigation of Yusuf Sheikh Mohammed). Beirut: Modern Library, Sidon: Model House, 1420 AH / 1999. (1_62). Ibn Manzoor, Abu al-Fadl Jamal al-Din Muhammad ibn Makram bin Ali al-Ansari al-Ruwaifi. (711 e). Arabes Tong. (15c). (I). (A group of linguists). Beirut: Dar Sader, 1414 AH.(10_49)

2 Turquoise Abadi, Abu Eltaher Majd El Din Mohamed Ben Yaqoub. (817 e). Ocean Dictionary. (1c). (I.8). (Investigation of Mohammed Naeem al-Arqasusi). Beirut, Lebanon: Al-Resala Foundation for Printing, Publishing and Distribution, 2005.(874).

3 Al-Badrain, Falih mohemed A reading of humen rights in Islam, Ali'beekan library, 1423AH, 1423AD, V1, p15.

4 Abu Dawood: (3/3455); Tirmidhi: Sunan (3/621).

5 (Ibn Abih: Abdollah ibn asheekh Almahfooz, remout dialog about humen rights in Islam, Ali'beekan, 1427AH , 2006AD, V1 Alribat, p19.

6 Weshah, ghassan Mahmud, BHD, Aljinan university, Human Rights in Islamic Countrieslebanon 2012AD, (p. 6).

7 Universal Declaration of Human Rights, United Nations ،http://www.un.org/ar/universal-declaration-human-rights/index.htm.

8 Ibn al-Atheer, Abu al-Hasan Ali ibn Abi al-Karam Muhammad ibn Muhammad ibn 'Abd al-Karim ibn' Abd al-Wahid al-Shaybani al-Jazari, Izz al-Din Ibn al-Atheer (6306 AH). Alkamil, 10 Parts, Inquiry: Omar Abdulsalam Tadmari, Dar Al Kitab Al Arabi, Beirut - Lebanon, I. First, 1417H (1997). (8_578).

9 Ibn al-Atheer, Alkamil (8/584).

10 Ibn al-Atheer, Alkamil (9/468).

11 Ibn al-Atheer, Alkamil (694).

12 Ibn al-Atheer, Alkamil (8/425).

13 Ibn al-Atheer, Alkamil (474).

14 Ibn al-Atheer, Alkamil (624).

15 Ba'za: A town of Aleppo in the Wadi Batnan between Manbaj and Aleppo; look: Hamawi: Dictionary of countries (1/409).

16 Ibn al-Atheer, Alkamil (9/90).

17 Ibn al-Atheer, Alkamil (8/417).

18 Ibn al-Atheer, Alkamil (458).

19 Ibn al-Atheer, Alkamil (578).

20 Ibn al-Atheer, Alkamil (468).

21 Ibn al-Atheer, Alkamil (9/434).

22 Aphamian: Castle on the coast of the Levant, from the core of Homs; look: Hamawi: Dictionary of countries (1/227).

23 Ibn al-Atheer, Alkamil (9/42).

24 Ibn al-Atheer, Alkamil (369).

25 Ibn al-Atheer, Alkamil (8/495).

26 Ibn al-Atheer, Alkamil (582).

27 Ibn al-Atheer, Alkamil (9/42).

28 Ibn al-Atheer, Alkamil (369).

29 Ibn al-Atheer, Alkamil (10/96).

30 Ibn al-Atheer, Alkamil (9/452).

31 Ibn al-Atheer, Alkamil (10/20).

ملخص المقال:

وجهت أوروبا النصرانية عدداً من الحملات العسكرية إلى بلاد الشام منذ عام (٤٩١هـ/ ١٠٩٧م)؛ بهدف احتلال فلسطين وبلاد الشام، ومن أجل تحقيق هذا الهدف استخدم الصليبيون القوة المفرطة، فانتهكوا حقوق الإنسان بجميع أشكالها وعلى كل مستوياتها، فقد ارتكبوا المذابح بحق آلاف المدنيين من أصحاب البلاد، ودمروا المزارع والأسواق، وقتلوا المدنيين الآمنين، واعتدوا على المؤسسات العلمية والدينية، كما انتهكوا الحق في التنقل الآمن، باستهدافهم للطرق وحصارهم للمدن، كما انتهكوا حقوق التجار والمارة والحجاج باعتدائهم على الطرق وحصارهم للمدن، ولقد عاصر المؤرخ الإسلامي ابن الأثير هذه الأحداث زماناً ومكاناً ودونها في كتابه الكامل في التاريخ؛ فروايته هي الأصدق باعتباره شاهد عيان.



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

info@kanhistorique.org